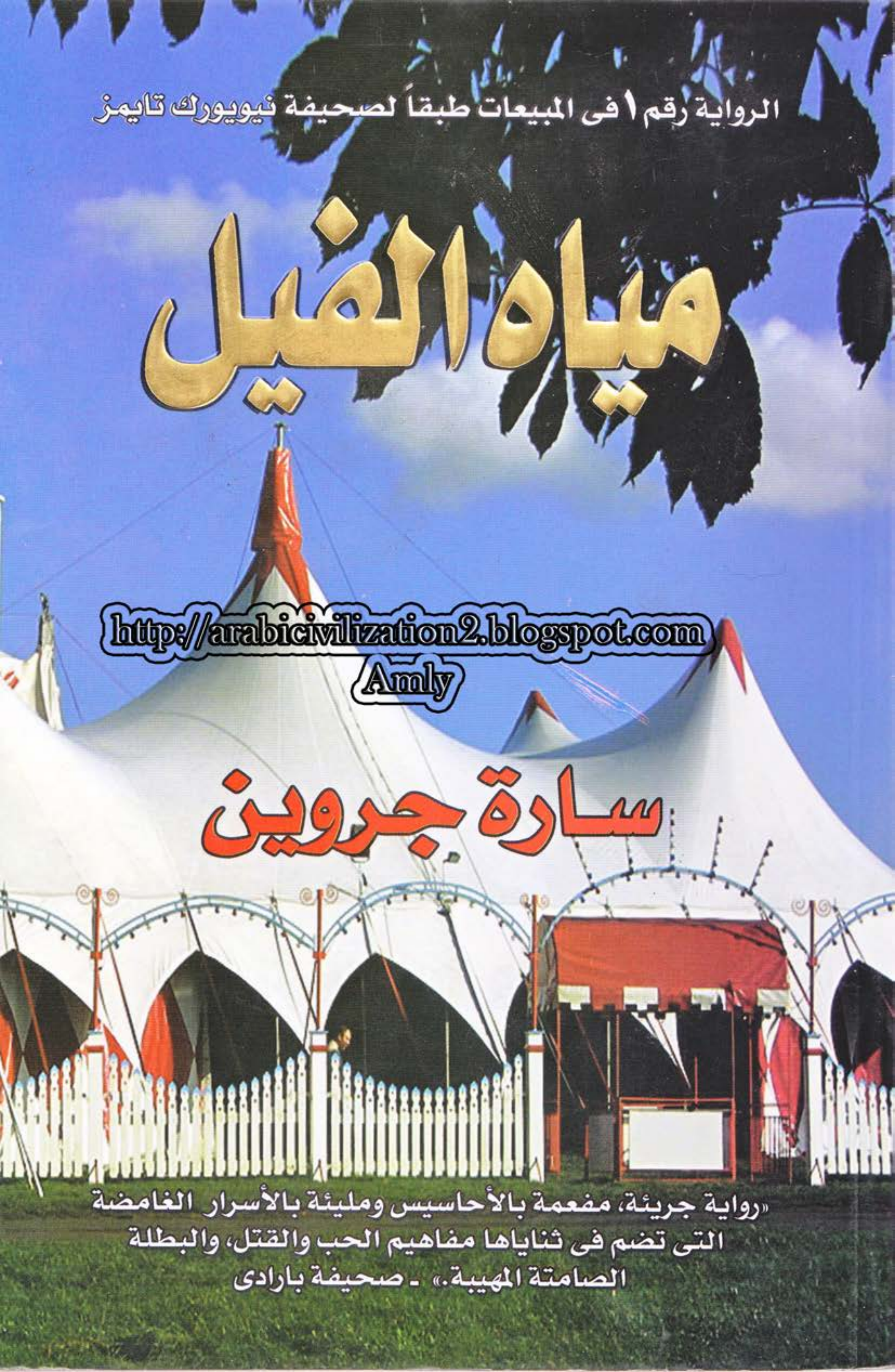

الرواية رقم ١ فى المبيعات طبقاً لصحيفة نيويورك تايمز

مياه الفيل

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

سارة جروين

«رواية جريئة، مفعمة بالأحاسيس ومليئة بالأسرار الغامضة التى تضم فى ثناياها مفاهيم الحب والقتل، والبطلة الصامتة المهيبة.» - صحيفة بارادى

http://arabicivilization2.blogspot.com
Amly

عبارات مديح لهذه الرواية

"مفعمة بالحياة لما فيها من تفاصيل تاريخية ومنعطفات غير متوقعة... *إن هذه الرواية* عبارة عن مفاجأة ثرية، ودرة مبهجة تنبثق من هوامش مبهرة لتاريخ ينبغى أن تُستخرج كنوزه". *ـ صحيفة ذا دينفر بوست*

"إنها رواية أخاذة لأبعد حد، مفصلة ومفعمة بالحيوية بشكل كبير، حتى إن المرء لا يقدر على الالتفات بعيداً عنها لحظة واحدة".

ـ صحيفة شيكاغو تريبيون

"لقد اكتشفت جروين عالماً مفقوداً بعرضها الثرى والمدهش للحياة فى سيرك رحال فى ثلاثينيات القرن الماضى. إن الرواية قصة عاطفية سوف تبهج تاريخ أصحاب هذه المهنة والمهتمين بها ـ بل وستبهج الآخرين أيضاً".

ـ مجلة بيبول

"إنها رواية جديدة أخاذة... رسمت بيد مدير عرض خبير بالتوقيت، [جروين]، التى احتفظت بالكشف المذهل للغز حتى الصفحات الأخيرة من الرواية، محولة لمحة صغيرة من التاريخ الأمريكى إلى قصة رائعة تقوم على الهروب من واقع البطل... إن تلك الرواية تشبه بعض الروايات الشهيرة مثل *The Giant's House* لإليزابيث ماكراكن، أو *The Lovely Bones* لـ أليس سيبولد، فهى روايات استطاعت المزج بين النزعات الشهوانية المتقلبة والكثير من الرومانسية المبهجة".

ـ ذا نيويورك بوك تايمز ريفيو

"لقد كتبت سارة جروين رواية نادرة تحوى قصة عظيمة، محبوكة البنية وتحمل أحد أكثر نهايات الروايات سعادة فى تاريخ الأدب".

ـ رونا برينلى، *إن بى آر مورنينج اديشن*

Amly نهضة العرب

"هذه الرواية المفعمة بالحيوية تحكى قصة قائد حلبة محبوب من جمهوره".

- صحيفة إنترتينمنت ويكلى

"رواية جريئة، مفعمة بالأحاسيس ومليئة بالأسرار الغامضة التى تضم فى ثناياها مفاهيم الحب والقتل والبطلة الصامتة المهيبة (الفيلة روزى).

- صحيفة بارايد

"سوف تضل الطريق وسط هذه المفاتن القديمة لعالم "جروين" الذى بحثت كل تفاصيله الدقيقة، بداية من عروض الفروسية المزركشة وخيام العروض الجانبية الرخيصة وحتى ليلة مشئومة بإحدى حانات شيكاغو".

- صحيفة واشنطن بوست

"إنها رواية جيدة الحبكة... فجروين راوية من الطراز القديم، فهى وفق رؤية "جون أوباديك"، تستطيع الحفاظ على ترتيب كومة من الصور والشخصيات". *- ذا تورونتو جلوب أند ميل*

"لقد عرضت سارة جروين الحب والدراما والإثارة داخل الحلبة الكبرى. ولن يستطيع مقاومة عرضها سوى أكثر الجماهير غلظة".

- ذا تامبا تريبيون

"بالرواية كم مذهل وكبير من الأحداث والنوادر الثرية ومتعة مستمرة حتى النهاية بالإضافة إلى الخاتمة القدرية الحتمية". *- ذا أونيون*

"لقد بنت جروين قصتها بين غرائب الآدميين المهرجين والحيوانات الحبيسة داخل سيرك متنقل خلال فترة الكساد الكبير. إنها نقلة جيدة... فقد رفعت الإثارة فى الرواية بشكل تدريجي وخطوة خطوة. وقد أغرتنا بالولوج إلى عالم عمال السيرك المضطرب وبائع الحلوى، والفتاة مفرطة السمنة، وخيمة المتعة".

- *فيرونيك دى تيرين*، برنامج إيرلى شو بقناة سى.بى.إس

Amly نهضة العرب

"**لقد** أدت جروين بروايتها غرضين فى وقت واحد: فقد عرضت صورة أخاذة لعالم السيرك ـ وفى الوقت ذاته، أعطت لمسة لمذاق الشعور بالهرم".

ـ مينيابوليس ستار تريبيون

"رواية رائعة". *ـ جون سيرلس،* برنامج إيرلى شو بقناة سى.بى.إس

"نظرة لاذعة لحياة السيرك إبان فترة الكساد الكبير، حيث تمكن العنف والضحك من التعايش سوياً... إن رواية سارا جروين قد جسدت لنا أصوات وروائح ومناظر الحياة فى السيرك... إن هذا لشهى بحق".

ـ صحيفة تشارلوت أوبزرفر

"إن الروائية سارا جروين قد تمكنت من أسر القراء إليها منذ الصفحات الأولى ولم تحررهم إلا فى نهاية قصتها الرائعة عن العاطفة والجنون والخيال... وملاحظات الرواية المتأخرة تظل عالقة لأمد بعيد بعد انتهائها فعلاً. إن المبادلة بين الإبهار والقذارة فى عالم السيرك قد عُرضت على نحو قدير قد يجعلها بحق أحد أعظم العروض".

ـ ذا جراند رابيدس برس

"كنت فى حاجة إلى هذا الفيل فى حياتك... فإن هذه الرواية ستلبى رغبتك". *ـ باتون روج جورنال*

"إن بحث جاكوب عن زمنه المفقود كان مفعماً بالحيوية وممتلئاً بالعاطفة، لقد قصت حكايته بحب وعبر عين مسلطة على التفاصيل المثيرة والممتعة."

ـ مجلة بوك ماركس

"إنها رسالة حب إلى ماضى زاه لكنه مرعب إنها قصة مثيرة من المبدأ إلى المنتهى... تلك هى المتعة المطلقة". *ـ ريتشموند تايمز ـ ديسباتش*

Amly نهضة العرب

"مباغتة إلى أقصى درجة ورائعة فى اهتمامها بالتفاصيل، إن الرواية ملحمة بطولية مجهولة لا يمكننا أبداً الجزم بأننا لم نسمعها قط من قبل".

ـ كنساس سيتى ستار

"متقدة بالحيوية، محكمة البناء، ومؤثرة على نحو مذهل". *ـ باجز*

"قصة ملحمة ثرية متدفقة. إنها مثل تلك الملصقات الإعلانية لسيرك هذا الزمان التى تقول: سوف تضحك، سوفى تبكى، ولن تصدق ما تراه عيناك. تقدموا إلينا أيتها السيدات والسادة؛ وبالفعل عليك بالإقبال إليها".

ـ إندبندت ويكلى

"إن هذه الرواية تستحضر، فى إيجاز وتدفق، ذلك الزمان الغابر".

ـ كولومبس دسباتش

"إنها قصة عتيقة وتميل لها النفس. إنها رواية ممتعة وسريعة التأثير".

ـ ليبرارى جورنال

"مبهجة وأخاذة." *ـ كيركس ريفيوز*

"إنها رواية مثيرة... لقد رسمت جروين بمهارة صورة الأقزام والمدمنين، والقرويين والفلتات البشرية؛ تلك الشخوص التى أذاعت صيت كتابها".

ـ بابلشرز ويكلى

"قصة رائعة، بارعة، كتبت بحرفة وإتقان. إن الرواية استطاعت أسرى فى السيرك إبان فترة الكساد الكبير، ولم تدعنى حتى وصلت إلى النهاية. ولا أظنها تركتنى حتى الساعة. إن لدى سارا جروين قدرة على منافسة جون إيرفنج، وإننى من غير خجل أعلن أننى قد أحببت هذه الراواية، فاقرأها". *ـ جوشيلين جاكسون، صاحب Gods in Alabama*

Amly نهضة العرب

"إنها أكبر بكثير من حكاية عن السيرك. إن هذه الرواية رحلة أسرة ليس فقط تحت الحلبة الكبرى، لكن الرحلة أيضاً ممتدة إلى داخل قلب بطل الرواية. وقد استخدمت سارا جروين موهبتها، ككاتبة، في إعادة إحياء ذلك الزمان أمام قارئها. إن بإمكاني اشتمام رائحته، تذوقه، إنني أشعر بكل كلمة فيه إنها رواية تحقق ما يحلم به القارئ".

ـ جين راى، مؤلفة رواية *Julie and Romeo Get Lucky*

"السيرك، الكساد الكبير، شخصية مركبة لفيل، قصة حب مماثلة التعقيد والتركيب، التواءات ذكريات يحكيها صوت واهن لرجل بالغ الهرم يراها أمامه كلها: تلك هي عناصر الرواية التي لا تقاوم. إن سارا جروين قد ألفت رواية مفعمة بالمتناقضات والحب ومليئة بتفاصيل الحياة الثرية".

ـ روبرت أولين بتلر مؤلف رواية *From Where You Dream*

"قصة رائعة وفاتنة لأقصى مدى، بحثت عن الحب في زحام سيرك سيار في فترة الكساد الكبير. لقد كتبت سارا جروين روايتها في شغف عظيم وتلاحق أحداث يحبس الأنفاس، وهذا ما جعل من المستحيل انتقادها".

ـ ستيفاني كويل مؤلفة رواية مارينج موزارت *Marrying Mozart*

"في مسرح أحداث مشوق وورومانسي كان مكانه سيركاً سياراً وزمانه ثلاثينات القرن الماضي، استطاعت سارا جروين أن تجعل من حلبة سيرك مكاناً حقيقياً بشخصيات متقدة وسرد روائي متلاحق جعلني يقظاً طوال الليل. فمن دأب كويني الكلبة الصغيرة وسحر الفيلة روزى، أصبحت هذه الرواية الفريدة كتاباً يعرض ما يمكن للناس تعلمه عن الحب من الحيوانات". ـ سوزان تشيفر مؤلفة رواية *My Name is Bill*

Amly نهضة العرب

مياه الفيل

سارة جروين

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة ... not just a Bookstore

Amly نهضة العرب

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... ليست مجرد مكتبة — not just a bookstore

للتعرّف على فروعنا فى
المملكة العربية السعودية ، قطر ، الكويت والإمارات العربية المتحدة
نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت
www.jarirbookstore.com
للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على :
jbpublications@jarirbookstore.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

حقوق الترجمة العربية والنشر والتوزيع محفوظة لمكتبة جرير

First published in the United States under the title:
WATER FOR ELEPHANTS by Sara Gruen.
Copyright © 2006 by Sara Gruen.
For permission to reprint photographs, grateful acknowledgment is made to the following: Pages 19, 78, 132, 160, 196, 218, 294, 340, 374 and 400 courtesy of the Collection of the Ringling Circus Museum, Sarasota, Florida;
Pages 58, 242 and 266 courtesy of the Pfening Archives, Columbus, Ohio;
Page 106 courtesy of Ken Harck Archives;
Pages 180 and 314 courtesy of Timothy Tegge, Tegge Circus Archives, Baraboo, Wisconsin;
Page 38 courtesy of Barbara Fox Mckellar.
Published by arrangement with Algonquin Books of Chapel Hill, a division of Workman Publishing Company, New York.

ARABIC language edition published by JARIR BOOKSTORE. Copyright © 2009.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronical or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system without permission from JARIR BOOKSTORE.

المملكة العربية السعودية ص. ب: ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١ – تليفون: ٤٦٢٦٠٠٠ ١ ٩٦٦+ – فاكس: ٤٦٥٦٣٦٣ ١ ٩٦٦+

Amly نهضة العرب

WATER FOR ELEPHANTS

A NOVEL

SARA GRUEN

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE

Amly
نهضة العرب

إلى بوب،

الذى لا يزال يمثل سلاحى السرى

Amly نهضة العرب

أقدم جزيل شكرى وامتنانى لمن صرح لى بإعادة نشر الصور، وهى كالتالى: صفحات ٢٠، ٧٨، ١٣٢، ١٦٠، ٢١٨، ٢٩٤، ٣٧٤، ٤٠٠، بتصريح من مجموعة صور متحف سيرك رينجلنج بساراسوتا، بولاية فلوريدا؛ والصور بصفحات ٥٨، ٢٤٢، ٢٦٦ بتصريح من بيفنينج أرشيف، كولومبس، بولاية أوهايو. والصورة بصفحة ١٠٦ بتصريح من كين هارك أرشيف؛ والصور بصفحات ١٨٠، ٣١٤ بتصريح من تيموثى تيجى، وأرشيف سيرك تيموثى تيجى، فى بارابو بولاية ويسكونسين؛ والصورة بصفحة ٣٨ بتصريح من باربرا فوكس ماكيلر.

هذا العمل من وحى الخيال. لكن كما هو الحال فى كل الأعمال الأدبية، تكون الأحداث والرؤى الأدبية معتمدة على التجربة، وكل الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث إما أنها من وحى خيال الكاتبة أو أنها استخدمت على نحو خيالى. وما من إشارة فى هذه الرواية تشير بشكل متعمد إلى شخص بعينه فى الحياة الواقعية، ولا ينبغى استنتاج ذلك.

Amly نهضة العرب

شكر وتقدير

إننى أدين فى إنجاز هذه الرواية لإسهامات هؤلاء الأشخاص التالية أسماؤهم:

إلى الفريق الرائع بدار نشر ألجونكوين، بمن فيهم تشاك آدمز، مايكل تاكينز، إيمى رودريجز، كاترين وورد، إليزابيث شارلت، وإينا ستيرن. وأقدم إشادة خاصة جداً لـ سانيت كاريج فى مؤسسة بوبيلارز، والذى رأى فى الرواية شيئاً، وأقنع بها باعة الكتب، ولكم جميعاً؛ أقدم لكم الشكر من أعماق قلبى.

إلى قرائى الأوائل، كارين أبوت، ماجى دانا، كريستى كيرنان، مورين أوجلى، كاترين بافيت (وهى أمى) وتيرينس بايلى (وهو أبى)، أقدم الشكر لهم لحبهم ودعمهم لى ولنصحهم لى طوال رحلتى فى تأليف الرواية.

إلى جراى سى. باين، لإجابته على أسئلتى عن كل ما يخص السيرك، ولتزويده لى بالحكايات والنوادر، ولتحقيقه النص بغرض اعتماد صحة ما جاء فيه.

إلى فريد دى. بيفنينج الثالث، وكين هارك وتيموثى تيجى لسماحهم لى باستخدام صور من ألبوماتهم. وأقدم شكراً خاصاً لفريد لقراءته للنص ومساعدته لى على إدخال بعض التعديلات للوصول لأفضل صورة.

إلى هيدى تايلور، أمينة السجل المساعدة فى متحف فنون رينجلنج، لمساعدتها لى فى العثور على الصور المختلفة وتأمين حقوق أصحابها، والشكر أيضاً لباربرا فوكس ماكيلر لسماحها باستخدام صورة والدها.

Amly نهضة العرب

إلى مارك وكارى كاباك، وذلك لكرم ضيافتهما وتعريفهما لى بمسئوليات مارك السابقة فى حديقة حيوان كانساس سيتى.

إلى أندرو والاسزك، لإمداده ومراجعته لترجمة المقاطع باللغة البولندية.

إلى كيث كرونين، لتقديمه الانتقادات القيمة، واقتراح العنوان.

إلى إيما سوينى، لمتابعتها القيام بكل مهام وكيل أعمالى.

وأخيراً أقدم الشكر إلى زوجى بوب ـ حبى وبطلى الأعظم.

Amly نهضة العرب

"لقد كنت أعنى ما قلته، وقلت ما كنت أعنيه...
فيل "وفى" ـ بنسبة مائة بالمائة!".

ـــ "تيودور سويس جيزيل"، رواية: *Horton Hatches the Egg,* ١٩٤٠

Amly نهضة العرب

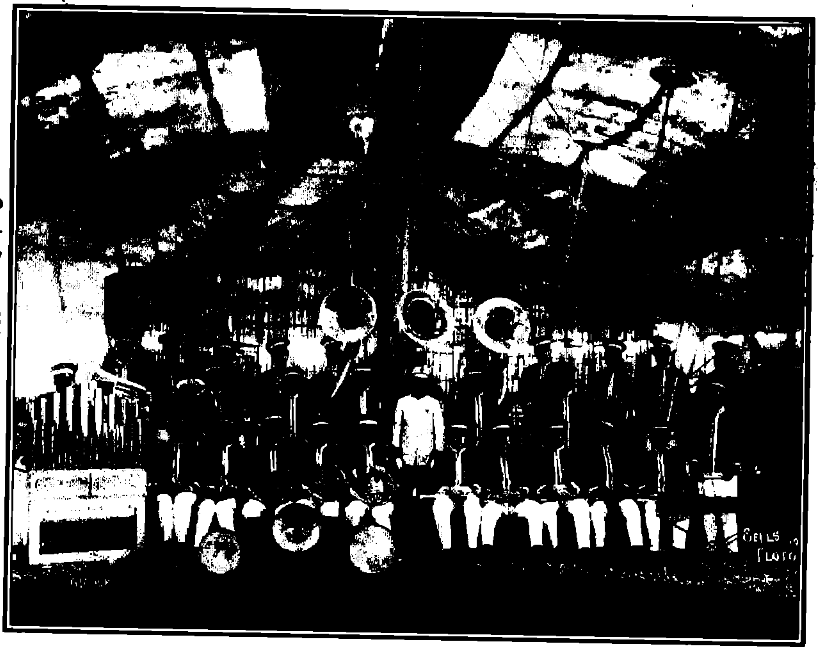

من مجموعة الصور بمتحف سيرك رينجلنج بساراسوتا، فلوريدا

Amly نهضة العرب

مقدمة

بقى ثلاثة أشخاص فقط تحت مظلة الشواء الملونة باللونين الأحمر والأبيض: أنا وجريدى والطاهى. جلست أنا وجريدى على مائدة خشبية مهشمة، وأمام كل منا مباشرة قطعة لحم من البرجر وضعت فى صحن مغضن من الصفيح. وكان الطاهى يقف خلف الطاولة الطويلة يكشط بقايا القلى فى الصينية الخاصة به بحرف سكين معه. كان قد أطفأ النار منذ وقت قصير، إلا أن رائحة الدهن كانت لا تزال تعبق المكان.

أما بقية الملهى ــ الذى كان يعج بالناس منذ قليل ــ فكان خالياً تماماً إلا من حفنة موظفيه القلائل ومجموعة رجال كانوا فى انتظار من يقودهم نحو خيمة الرقص. كانوا يحدقون بعصبية من جانب لآخر وقد دكوا قبعاتهم فى رؤوسهم ودسوا أيديهم فى جيوبهم. ولم يكن ليصيبهم شعور بخيبة الأمل، ففى مكان ما من مؤخرة هذا المكان توجد باربرا وسحرها الطاغى.

أما أهل البلدة الآخرون ــ أو الريفيون الحمقى، كما يسميهم العم آل ــ كانوا قد أخذوا طريقهم فعلياً نحو خيمة عروض الوحوش فى حلبة السيرك الكبرى، والتى كانت تهدر بالموسيقى الصاخبة. فقد كانت الفرقة الموسيقية تعيد ما لديها من ألحان بمستوى صوت حاد يصم الآذان اعتادت العزف به. وقد حفظت الفقرات عن ظهر قلب ــ ففى هذه اللحظة تحديداً وهى

Amly نهضة العرب

نهاية العرض بـ"جراند سبيكتاكل"، كانت لوتى البهلوانة الجوية تقوم بصعود الحبال نحو الحلبة الرئيسية.

حدقت فى جريدى، محاولة معرفة ما كان يقوله، لكنه نظر حوله بسرعة ومال للأمام نحوى.

قال وعيناه تلتقيان بعينى: "إلى جانب ذلك، يبدو لى أن لديك الكثير ستخسره على الفور"، ثم رفع حاجبيه مؤكداً حديثه. وكاد قلبى أن ينخلع.

انطلق التصفيق الحار منبعثاً من القاعة الرئيسية للعرض، وانتقلت الفرقة على نحو متناسق تلقائى لعزف موسيقى الجونود. استدرت بشكل غريزى باتجاه عرض الوحوش لأن دور العرض التالى به هو عرض الأفيال، ومارلينا الآن إما أنها تستعد للدخول أو أنها تجلس بالفعل على رأس روزى.

فقلت: "علىّ أن أذهب".

قال جريدى: "اجلس، تناول طعامك. إذا كنت تفكر حقاً فى الذهاب، فربما تمر فترة من الوقت حتى ترى الطعام مرة أخرى".

وفى تلك اللحظة، تسارعت وتيرة الفرقة الموسيقية قبل توقفها. انطلق وابل من الآلات النحاسية وآلات النفخ والطبول وتحولت آلات المترددة والفلوت إلى إطلاق نغمات متنافرة. وانطلق صوت البوق فى أثناء ذلك وكان دوى هذا الرنين الأجوف يأتى متردداً من داخل الحلبة الرئيسية على رؤوسنا ومنها إلى طى النسيان.

تجمد جريدى، وهو منحن على قطعة اللحم المشوى التى أمامه وأحاطها بأصابعه وقد فغر فاه.

نظرت فى أرجاء المكان، فلم أجد أحداً يحرك ساكناً ــ فكل الأنظار كانت موجهة نحو الحلبة الكبرى ثم تناثرت ببطء بعض الحزم من القش على الأرض.

فقلت: "ما هذا؟ ما الذى يحدث؟".

Amly نهضة العرب

فهمس لى جريدى قائلاً: *"صه"*.

بدأت الفرقة مرة أخرى تعزف لحن "ستارز آند سترايبس فور إيفر".

قال جريدى وهو يقذف بطعامه على المائدة ويقفز وهو يطرق على المائدة بقدمه: "أوه. يا إلهى. أوه، اللعنة".

فصرخت فيه لأنه كان قد بدأ بالجرى مبتعداً عنى فعلاً: "ماذا؟ ما هذا؟".

فصرخ وهو يدير وجهه نحوى: "كارثة مارس".

فاتجهت محدثاً الطاهى الذى كان يخلع مريلة الطهى: "ما هذا الذى يتحدث عنه؟".

قال وهو يعصب المريلة حول رأسه: "كارثة مارس تعنى أن شيئاً ما قد حل بنا ـ شيئاً سيئاً بحق".

"مثل ماذا؟".

فقال وهو ينحنى للخروج من الباب المعلق: "قد يكون ذلك أى شىء ـ فقد يكون حريقاً فى الحلبة الرئيسية أو فراراً جماعياً لحيوانات السيرك. أوه يا إلهى الكريم. إن أهالى البلدة المساكين قد لا يكونون قد علموا بما حدث فعلاً".

كان الوضع فوضوياً ـ فبائعات الحلوى كن يثبن على الطاولات والعمال يترنحون خارجين من بين فتحات الخيام، وعمال السيرك يتسارعون بشكل طائش عبر الساحة. إن أى شخص وكل شخص له علاقة بسيرك "بنزينى براذرز موست سبكتاكيولار شو أون إيرث" كان ينطلق مسرعاً نحو الحلبة الرئيسية.

وخلال هذا التسارع البشرى الكبير، مر بى دياموند جو.

فصرخ فى قائلاً: "جاكوب ـ إنه عرض الوحوش وقد فرت الحيوانات. فاهرب، اهرب، *اهرب*"!

ولم يكن مضطراً لأن يخبرنى مرة ثانية. وكانت مارلينا فى تلك الخيمة.

Amly نهضة العرب

ومع اقترابى من الخيمة سمعت صوت دمدمة. وقد زاد ذلك من رعبى فقد كان صوتاً منتظماً أقل وقعاً من صوت الضجيج الجارى. لقد كانت الأرض تهتز.

دلفت داخل الخيمة فقابلنى أحد ثيران التبت الضخمة ــ فكان ذا حجم هائل من الشعر المجعد الذى يملأ صدره والحوافر المضطربة وفتحات الأنف الحمراء الواسعة والعين المحدقة فيما حولها. وقد عدا نحوى بسرعة فقفزت متراجعاً على أطراف أصابعى محتمياً بقماش الخيمة خشية أن أعلق على أحد قرنيه الخطافيين. وقد تعلق بكتفيه أحد الضباع المذعورة.

كان حامل الخيمة الموجود فى مركزها قد سوى بالأرض وحل مكانه جموع غاضبة من الحيوانات المنقطة والمخططة ــ بين مؤخرات وأعقاب، وذيول، ومخالب، كانت كلها تزأر أو تصرخ أو تخور أو تصهل. وقد علا كل هذا دب قطبى يضرب بجنون بكفيه التى فى حجم المقلاة. وقد قابل أحد حيوانات اللاما فطرحه أرضاً ــ بوووم. ارتطم حيوان اللاما بالأرض فانبسطت أقدامه ورقبته على الأرض كأطراف النجمة الخمسة. وكانت حيوانات الشمبانزى تصرخ وتهر وتتأرجح على الحبال لتكون بمنأى عن القطيطات. وعرجت إحدى الحمر المخططة ذات العيون البرية نحو أسد رابض فمال عليها، فانطلق مطارداً إياها، وبطنه تكاد تقترب من الأرض.

مسحت عيناى الخيمة، فى محاولة يائسة للعثور على مارلينا. وبدلاً من ذلك وجدت قطة تهدف إلى الانضمام للجمع قاصدة الحلبة الرئيسية ــ لقد كانت القطة نمراً أسود، وكان جسده الرشيق مختبئاً خلف النفق القماش الذى أوارى به نفسى. ولو أن أهل البلدة لم يدركوا الأمر بعد، فإنهم كانوا على وشك أن يطئوه بأقدامهم. وسيستغرق الأمر بضع ثوان حتى يأتوا إلى هنا، لكن الثوانى مرت وانطلقت صرخة تبعتها أخرى ثم أخرى، ثم امتلأ المكان بعد ذلك بأجساد تريد المرور على أجساد أخرى إلى خارج القاعة. توقفت الفرقة عن العزف ثانية. وفى هذه المرة ظلت صامتة

Amly نهضة العرب

فأغلقت عينى ودعوت الله قائلاً: *"ارجوك يا إلهى أن تجعلهم يغادروا من الناحية الخلفية وألا يأتوا من هذه الناحية"*.

ثم فتحت عينى ثانية وتنقلت بها بين الحيوانات، وقد أصابنى الهياج الشديد لرؤيتى لها. كم هو صعب أن تجد فتاة وفيلاً فى هذه الأثناء، ما ظنك بالله عليك؟

حين لمحت رداءها القرمزى المطرز، كدت أصرخ من شعورى بالارتياح - وربما فعلت ذلك. لكنى لا أتذكر.

كانت على الجانب المقابل تقف هادئة بجوار الحائط الجانبى، هادئة كأحد أيام الصيف. وقد لمعت مطرزات ردائها وكأنها ياقوت مذاب، أو كشعلة مضاءة وسط تلك الجلود المتعددة الألوان. وقد رأتنى هى أيضاً ولمحت نظرتى لها وكأنها النظرة الأخيرة. كانت هادئة، واهنة، لكنها كانت تبتسم فى هذا الوضع. بدأت فى قطع طريقى نحوها لكن شيئاً ما فى نظرتها أوقفنى متجمدا فى مكانى.

كان ذلك اللعين يقف وظهره ناحيتها، محمر الوجه، مزمجراً، ملوحاً بذراعيه ومؤرجحاً عصاه الفضية فى طرفها. وقد ارتمت قبعته الحريرية المرتفعة القمة بجواره على الأرض.

وصلت إلى شيء ما والتقطته. فى لحظة مرت بيننا زرافة ـــ كانت رقبتها الطويلة تختال فى زهو حتى فى هذه اللحظة المرعبة ـــ وحين مرت، رأيتها وهى تلتقط وتداً حديدياً. أمسكت بالوتد باسترخاء، وأمالت طرفه إلى الأرض الصلبة، ثم نظرت لى ثانية، وهى فى حالة من الذهول. ثم تحولت بنظرتها نحو مؤخرة رأسه العارية.

فقلت: "أوه، يا إلهى"؛ فقد أدركت فجأة ما تنتويه. خطوت متعثراً للأمام، وأنا أصرخ مع علمى أن صوتى لن يصلها وقلت: "لا تفعلى ذلك. *لا تفعلى*".

Amly نهضة العرب

رفعت الوتد عالياً فى الهواء وهوت به، فانكسرت رأسه مثل البطيخة. انفتحت قمة رأسه، واتسعت عيناه، وتجمد فمه على حرف O، ثم سقط على ركبتيه، ثم سقط على القش.

تثاقلت خطواتي بشدة وكأن قرداً صغيراً يلف ذراعيه المرنتين حول قدمي.

كان ذلك منذ أمد بعيد جداً جداً. لكنه لا يزال يطاردنى.

إننى لا أتحدث كثيراً عن تلك الأيام. لم أفعل ذلك مطلقاً. ولا أدرى لماذا - لقد عملت فى عروض السيرك لمدة تقترب من سبع سنوات، وإذا لم يكن ذلك مادة خصبة للحديث، فإننى لا أعرف ما الذى يجذب المرء للتحدث.

والحقيقة أننى أعلم السبب: فأنا لا أثق بنفسى أبداً. لقد كنت خائفاً من أن يزل لسانى بما حدث، وكنت أعلم مدى أهمية أن أحفظ عليها سرها. وقد حفظته - بقية حياتها، وما بعد ذلك.

وخلال سبعين سنة لم أخبر أى إنسان بذلك.

Amly نهضة العرب

الفصل الأول

إننى فى التسعين، أو الثالثة والتسعين من العمر؛ أحد العمرين هو الصحيح.

حين تكون فى الخامسة من العمر، فإنك تعرف عمرك بالسنة والشهر. وحتى فى العشرينات من عمرك، تعرف كم يكون عمرك؛ فتقول أنا فى الثالثة والعشرين أو فى السابعة والعشرين من عمرى. لكن فى الثلاثينات من عمرك، يبدأ شيء غريب فى الحدوث. فتصاب بالفواق فى بادئ الأمر، ثم تصاب بحالة دائمة من التردد. فحين تُسأل: كم عمرك؟ فإنك تبدأ إجابتك قائلاً بكل ثقة: "أوه، إننى ـ"، لكنك تتوقف بعد ذلك. إنك كنت ستقول ثلاثاً وثلاثين لكن الوضع غير ذلك، فأنت فى واقع الأمر قد بلغت الخامسة والثلاثين. وتبدأ بعد ذلك فى المعاناة، لأنك تتساءل فى هذه السن إن كانت تلك هى بداية النهاية، وهى كذلك بالفعل، لكنك لا تعترف بذلك إلا بعد مرور عقود.

تبدأ فى هذه السن بنسيان الكلمات: لقد كانت الكلمات على طرف لسانك، لكنها سريعاً ما تغير مكانها وتظل بعيداً داخل عقلك. وقد تصعد السلم لتحضر شيئاً ما، وحين تصل ترى أنك عاجز عن أن تتذكر ما جئت لأجله. وقد تجد نفسك تنادى عليٍ طفلك بأسماء كل الأطفال، وحتى باسم كلبك، حتى تتذكر اسمه. وأحياناً تنسى اليوم الذى أنت فيه، وفى النهاية تنسى السنة أيضاً.

Amly نهضة العرب

والحقيقة أن الأمر لا يبدو أننى نسيت ما فات. لكنه أقرب إلى كونى قد توقفت عن المتابعة. لقد مضت بنا الألفية، وهذا أكثر ما يمكننى متابعته ــ فكل هذه الجلبة والمعاناة لا طائل من ورائها، وكل هؤلاء الشباب الذين يسعون بحماقة فى الأرض قلقين، ويشترون الطعام المعلب هم مجموعة من الكسالى ــ ربما كان هذا قد حدث فى الشهر الماضى أو منذ ثلاث سنوات. إضافة لذلك، ما الذى يهم فى هذا الأمر؟ ما الفارق بين ثلاثة أسابيع أو ثلاث سنوات أو حتى ثلاثة عقود من أكل البازلاء الخضراء، والتبيوكة، وارتداء ملابس داخلية من نوع "ديبندس"؟

إننى فى التسعين أو فى الثالثة والتسعين. أحد العمرين هو الصحيح.

وقد كان هناك إما حادث على الطريق أو كانت هناك أعمال أخرى، لأننى لاحظت مجموعة من النسوة العجائز وقد التصقن بالنافذة وهن ينظرن منها فى آخر الردهة كالأطفال أو الطيور السجينة. كن واهنات وأقرب إلى العناكب فى مظهرهن، وكانت شعورهن تشبه الضباب فى بياض لونه. وكان معظمهن يصغرنى بعقد من الزمان على الأقل، وقد أدهشنى ذلك. فحتى لو خدعك جسدك فالعقل ينكر هذا الفارق.

توقفت عند مدخل الردهة ومعى عصاى التى أتوكأ عليها. لقد سلكت إلى هنا طريقاً طويلاً، حتى كاد فخذى يتهشم. وقد حمدت الله على ذلك؛ فقد ظننت للحظات أننى لن أستطيع السير مرة أخرى ـ كان إحساسى هذا هو ما دفعنى للقدوم إلى هنا فى المقام الأول ـ لكننى فى كل ساعتين أتمكن فيهما من النهوض والسير بضع خطوات، ومع كل يوم أتقدم فيه خطوات أبعد من ذى قبل ــ قبل الشعور بالحاجة إلى العودة. يبدو أن حياة القلب العجوز لا تزال فيها بقية.

أصبحن الآن خمسة من النسوة، بيض الرؤوس، وقد احتشدن معاً وهن يشرن عبر زجاج النافذة بأصابعهن المقوسة. وانتظرت لحظات لأرى إن كن يهذين، لكنهن لم يكنّ كذلك.

Amly نهضة العرب

نظرت لأسفل، فلاحظت أن فرامل مقعدى المتحرك مفتوحة، فنهضت بحذر، مستنداً بجسدى على ذراع المقعد وفى نفس الوقت أنقل ثقل جسدى إلى العصا، وبمجرد أن اتزنت عليها تشبثت بالبطانة المطاطية الرمادية على أذرع الجهاز ودفعتها للأمام بامتداد ذراعى؛ وهى مسافة تساوى طول بلاطة من بلاط الأرضية. سحبت قدمى اليسرى للأمام، وتأكدت من ثباتها، ثم سحبت الأخرى بجوارها. وهكذا: دفع ثم سحب، وانتظار. ثم سحب، ودفع، ثم سحب، وانتظار ثم سحب.

الردهة طويلة، وقدماى لا تستجيبان بالشكل المعتاد. إن وضعى لا يشبه نوع الكساح الذى أصبح عليه كامل، ولله الحمد، لكنه مع ذلك يقيد حركتى كثيراً. مسكين هو العجوز كامل ـ فقد مرت سنوات قبل أن أفكر فيه. إن قدميه تتحركان بلا اتزان أو تحكم عند نهاية الساق، وعليه دائماً أن يرفع ركبته عالياً ثم يدفع بها للأمام. إن سحب قدمى ـ رغم صعوبته علىّ ـ وانحناء ظهرى قد انتهيا بى للنظر دائماً لأسفل نحو خُفى الذى أحاطه جهاز المشى.

استغرقت بعض الوقت حتى وصلت لنهاية الردهة، لكننى وصلت ـ وعلى قدمى. وقد ابتهجت بهجة شديدة، رغم أننى أدرك أن علىّ تدبر أمر العودة.

وقد أفسحت السيدات العجائز الطريق لى. كانت من بينهن من لا تزال تقدر على المشى، أو من لها أصدقاء يدفعن بها الكرسى المتحرك فى أنحاء المكان. إن هؤلاء السيدات المسنات مازلن يحتفظن ببريقهن ، وهذا أمر جيد بالنسبة لى. فأنا شىء نادر فى هذا المكان ـ رجل وسط بحر من الأرامل اللاتى لا تزال قلوبهن تبكى رجالهن الراحلين.

قالت هازل: "أوه، أنت هنا، هيا نلق نظرة على جاكوب".

ثم دفعت كرسى دوللى عدة أقدام للخلف حتى وقفت بمحاذاتى، وهى عاقدة ساعديها وقد لمعت عيناها اللتان فى صفاء الحليب وقالت: "أوه، إنه لشىء مثير للغاية! إنهم هنا منذ الصباح".

Amly نهضة العرب

فارتفعت إلى حافة زجاج النافذة ورفعت رأسى، ونظرت بعينى وهما نصف مغلقين تجنباً لضوء الشمس الساطع. لقد كان الضوء مبهراً فعلاً، واستغرق ذلك منى دقيقة حتى استطعت أن أتبين ما كان يجرى بالخارج. ثم بدأت الأشياء تأخذ شكلاً محدداً.

فى ساحة انتظار السيارات عند نهاية المبنى ارتفعت خيمة قماشية ضخمة، ذات خطوط سميكة باللونين الأبيض والأحمر الأرجوانى، ولها قمة لا يمكن أن أخطئها.

دق قلبى حينها بشدة فوضعت راحة يدى على صدرى.

صرخت هازل: "جاكوب! أوه، جاكوب! أوه عزيزى، عزيزى"، ثم لوحت بذراعيها فى ارتباك، واستدارت نحو الردهة وقالت: "أيتها المرضة! أيتها المرضة! أسرعى إنه السيد جانكوسكى!".

فقلت وأنا أسعل وأضرب على صدرى: "إننى بخير". تلك هى مشكلة هؤلاء النسوة العجائز، فهن فى خوف دائم من أن تقع مغشيًا عليك. كررت قولى: "هازل، إننى بخير".

ولكن كان الوقت قد تأخر على هذا التنبيه؛ فقد سمعت الصرير المتعجل للنعال المطاطية، وفى لحظات كنت محاصراً بالمرضات، لكننى وجدت أننى لم أكن بحاجة للقلق بشأن العودة لمقعدى المتحرك.

تمتمت وأنا متوجه ناحية غرفة الطعام: "إذن ماذا لدينا الليلة على العشاء؟ لدينا عصيدة ؟ أم بازلاء خضراء؟ أم طعام من الحبوب؟ فلأخمن، إن ما لدينا الليلة هو التبيوكة؟ أليس كذلك؟ أم هل نطلق عليها الليلة حلوى الأرز؟".

فقالت المرضة ببرود: "أوه، سيد جانكوسكى، إنك قائمة طعام"؛ فلم تكن تريد الإجابة، وقد كانت على علم بها. إنه يوم الجمعة وسنتناول ذلك المزيج المغذى وغير الجذاب من رغيف اللحم وزبد الذرة، والبطاطس المهروسة أعيد تجهيزها، وبعض المرق الذى ربما مر فى حياته على قطعة لحم؛ ومع هذا يتساءلون عن سبب فقدان وزنى.

Amly نهضة العرب

إننى أعرف البعض ممن ليس لديهم أسنان، لكننى لدىّ أسنان، وأريد تناول اللحم المحمر، وهو طبق زوجتى المفضل، مع ورق الكستناء الجلدية. كما أننى أريد الجزر. وأريد البطاطس التى غليت بقشرتها، وأريد مع هذا كله مشروباً قوياً وغنياً أتبع به هذا الطعام، وليس عصير التفاح المعلب الذى يعطوننا إياه. وفوق هذا كله أريد الذرة طازجة.

أحياناً أفكر بأننى لو خُيِّرت بين كوز ذرة والجلوس مع امرأة لاخترت الذرة ـ ليس ذلك لأننى لم أعد أرغب؛ فلازلت رجلاً وبعض الأشياء فينا لا تموت أبداً ـ لكن صورة انفجار حبات الذرة اللذيذة تحت أسنانى تسيل لعابى. وهذا محض خيال وأنا أعلم ذلك. فكلا الأمرين لن يحدث، لكننى فقط أردت الموازنة بين الخيارات، كما لو كنت واقفاً بين يدى سليمان الحكيم: هل أجلس مع النساء أم آكل الذرة. يا لها من معضلة رائعة. إننى أحياناً أبدل الذرة بالتفاح.

الجميع على طاولات الطعام يتحدثون عن السيرك ـ أقصد أولئك الذين يستطيعون التحدث. أما الصامتون ـ أولئك الذين تجمدت وجوههم، أو شلت أطرافهم، أو أولئك الذين ترتعد رؤوسهم وأيديهم بشدة، حتى إنهم لا يقوون على حمل وعاء الطعام ـ فقد جلسوا جميعاً فى جوانب الغرفة يتلقون المساعدة فى ازدراد بعض الطعام بأفواههم ثم مضغه بلطف. إنهم يذكروننى بصغار الطيور، إلا أنهم يفتقدون للحماسة تماماً، باستثناء محاولة طحن الطعام بفكيهم، وتبقى وجوههم ساكنة وخالية تماماً من أى تعبير على نحو مرعب، وأقول "مرعب" لأننى أدرك تماماً الطريق الذى أسير فيه. إننى لم أصل إلى هذه المحطة بعد، لكننى قطعاً على الطريق. وهناك طريقة واحدة لتفاديها، ولا أستطيع القول بأننى أهتم لهذا الخيار كثيراً هو الآخر.

توقفت بى الممرضة عند مكان تناولِ وجبتى. كان المرق على رغيف لحم قد شكل غشاءً دهنياً بالفعل. غرست شوكتى فى الطعام متفحصاً، فاهتز إطارها الهلالى بين يدىّ ساخراً منى. ومتقززاً من الطعام، رفعت بصرى عنه نحو جوزيف ماكجوينتى.

Amly نهضة العرب

لقد كان يجلس في مواجهتي، وهو وافد جديد على المكان ومتطفل - إنه طفولي ومتقاعد وذو فكين عريضين، وأنف به ندبات صغيرة، وأذنان عظيمتان. لقد ذكرتني أذناه بـ روزي؛ على الرغم من أنه لم يوجد لديه شيء آخر يذكرني بها. فقد كانت روحاً طاهرة، أما هو فكان - حسناً - إنه محام متقاعد. ولا أعلم ما الشيء الذى كانت تظن الممرضات أن مشترك بين المحامي والطبيب البيطرى؛ لكنهن دفعن مقعده المتحرك نحوى ليجلس في مواجهتي في ليلته الأولى، وقد ظل هذا مكانه على الدوام.

نظر نحوى، بينما فكه يتحرك للأمام وللخلف وكأنه بقرة تجتر طعامها. شيء لا يصدق. إنه يأكل هذا الطعام فعلاً.

كانت السيدات العجائز تثرثرن كطالبات المدارس وهن في سعادة غامرة.

قالت دوريس: "سيبقون هنا حتى يوم الأحد. لقد ذهب بيلي لاستيضاح الأمر".

فقالت نورما: "نعم، سيقدمون عرضين؛ أحدهما يوم السبت والآخر يوم الأحد. إن راندال وبناته سيأخذونني غداً"، ثم استدارت نحوى وقالت: "هل ستحضر هذه العروض يا جاكوب؟".

فتحت فمي لأجيب، لكن قبل أن أتمكن من ذلك قالت دوريس بصوت عال: "وهل رأيت تلك الأحصنة؟ إنني أرى أنها جميلة حقاً. لقد كانت لدينا خيول حين كنت صغيرة. أوه، لكم كنت أحب ركوب الخيل"، ثم نظرت في الفراغ، وفي غضون ثانية أمكنني تصور كم كانت شابة جميلة.

قالت هازل: "هل تذكرين حين كانت فرق السيرك تسافر بالقطار؟ لقد كانت إعلاناتهم تبدأ في الظهور قبل قدومهم بأيام ــ وقد كانوا يغطون بها كل الجدران فلا ترين حجراً واحداً بين كل إعلانين!".

فقالت نورما: "يا إلهي، إنني أتذكر ذلك بالقطع. ولقد وضعوا ملصقاتهم الإعلانية على جانب حظيرتنا في أحد الأعوام. وقد أخبر الرجال والدى أنهم يستخدمون نوعاً من الغراء لتثبيت الإعلانات سيتحلل بعد يومين من العرض لكنها ظلت كما هى"، ثم ضحكت وقالت: "إن أبى كان رجلاً يسهل خداعه!".

Amly نهضة العرب

"وبعد أيام من الإعلان يأتى القطار. وكان يصل دائماً مع بزوغ الفجر".

"لقد اعتاد أبى اصطحابنا إلى السكة الحديدية لنرى هبوط الفرقة. أوه، لقد كان مشهداً رائعاً. وبعد ذلك تتم متابعة الاستعراض! ورائحة الفول السودانى المحمص ــ"

"وفشار الكراكر جاك".

"والتفاح المسلوق، والآيس كريم، وعصير الليمون!".

"ونشارة الخشب التى كانت تزكم الأنوف برائحتها!".

فقال ماكجوينتي: "لقد اعتدت حمل الماء لتشرب الفيلة".

فتركت الشوكة من يدى وتطلعت نحوه فوجدته يشع بمشاعر الرضا الذاتى، وينتظر الآن قبالة الفتيات للتودد إليهن".

فقلت: "كلا، لم تكن تفعل".

ثم ساد الصمت.

فقال: "معذرة؟".

"إنك لم تكن تحمل الماء لتشرب الفيلة".

"بلى، لقد كنت أفعل ذلك بكل تأكيد".

"بل لم تكن تفعل".

فقال ببطء: "هل تتهمنى بالكذب؟".

"إذا قلت إنك كنت تحمل الماء للفيلة فأنا بالفعل أتهمك بالكذب".

حدقت الفتيات العجائز فىّ بأفواه مفتوحة وبدأ قلبى يخفق. أعلم أنه ما كان يجدر بى قول ذلك، لكننى، على نحو ما، لم أتمالك نفسى.

فوضع يده على حافة المائدة وبدت فيها البثور وفى مقدمة ذراعه أيضاً، ثم قال: "كيف تجرؤ؟".

فقلت: "اسمع يا صاحبى، لقد استمعت على مدار عقود لأناس عجائز مغفلين من أمثالك وهم يقولون إنهم كانوا يحملون الماء للفيلة، لكننى أقول لك إن ذلك لم يحدث أبداً".

Amly نهضة العرب

قال ماكجوينتى: "عجوز مغفل؟ عجوز *مغفل*؟"، ثم دفع نفسه للأمام، فتحرك كرسيه للخلف، ثم أشار بإصبعه ذى البثور نحوى ثم سقط كما لو كان ممتلئاً بالمتفجرات. ثم اختفى تحت حافة المائدة، وعيناه حائرتان، وفمه لا يزال مفتوحاً.

فصاحت السيدات العجائز: "أيتها المرضة، أيتها المرضة!".

وبعد لحظات سُمِع الدبيب المعتاد للنعال المطاطية، ثم ظهرت ممرضتان حملتا ماكجويتنى من ذراعيه فتذمر، وحاول يائساً دفعهما عنه.

ثم أتت ممرضة ثالثة، وكانت فتاة ضخمة سوداء ترتدى لباساً قرمزياً باهتاً، وتوقفت عند نهاية المائدة ويداها على فخذها، ثم سألت: "ما الذى يحدث هنا؟".

فقال ماكجوينتى وهو يستعيد بأمان مكانه على الكرسى: "لقد نعتنى هذا العجوز اللعين بالكذاب". ثم عدل قميصه، ورفع ذقنه الرمادية وأشاح بذراعيه عبر جسده وتابع، ووصفنى أيضاً بأننى "عجوز مغفل".

فقالت الفتاة التى ترتدى اللون القرمزى: "إننى على ثقة من أن السيد جانكوسكى لم يقصد ما قاله".

فقلت: "كلا، بل قصدت، إنه كذلك بالفعل. فهو الآخر يدعى أنه قد حمل الماء لتشرب الفيلة. هل لديك فكرة عن كمية الماء التى تكفى لشرب فيل؟".

فقالت نورما وهى تزم شفتيها وتهز رأسها: "حسناً، أنا لا أعلم، إننى واثقة يا سيد جانكوسكى بأننى لا أعرف شيئاً تعرفه أنت".

أوه. إننى أفهم الآن كيف يسير الأمر.

فقال ماكجوينتى وهو يميل ناحية نورما قليلاً هذه المرة، وقد رأى أنه يقترب من التصويت على شعبيته: "هذا جنون. أنا لا أفهم ما الذى يدفعنى لتقبل وصفى بالكاذب!".

فذكرته قائلاً: "وبالعجوز المغفل".

قالت الفتاة السوداء وقد ارتفع صوتها: "سيد جانكوسكى!"، ثم أتت من خلفى وحلت فرامل كرسى وتابعت القول: "أظن أن عليك البقاء فى غرفتك بمفردك لوقت أطول حتى تهدأ".

Amly نهضة العرب

فصحت وهى تبتعد عن المائدة فيٍ اتجاه الباب: "انتظرى دقيقة فقط، إننى لست بحاجة إلى أن أهدأ. فضلاً عن أننى لم أتناول طعامى بعد!".

فقالت من خلفي: "سوف أحضره لك داخل غرفتك".

"كلا، لا أريده فى الغرفة، أعيدينى حيث كنت! لا يمكنك فعل هذا بى!".

لكن اتضح أنه بإمكانها فعل ذلك. فقد سارت بى فى الردهة بسرعة البرق واستدارت بحدة نحو غرفتى. ثم ضغطت فرامل الكرسى بقوة جعلته يصدر صريرا عالياً.

فقلت لها وهى ترفع حمالات قدمى: "إننى سأعود حالاً".

فقالت وهى تضع قدمى على الأرض: "لن تفعل شيئاً كهذا أبداً".

فقلت بصوت عال بدت فيه نبرة التذمر: "هذا ليس عدلاً، لقد كنت أجلس على هذه المائدة دائماً. وهو هنا منذ أسبوعين. فلماذا يسانده كل الجلوس على مائدة الطعام؟".

مالت للأمام ودست ذراعيها تحت ذراعى وقالت: "لا أحد هنا يساند أحداً على المائدة"، وبينما كانت ترفعنى، استقر رأسى بجوار رأسها. كان شعرها قد تم فرده بمواد كيميائية وتفوح منه رائحة الزهور. وحين وضعتنى على طرف السرير كانت عيناى مستقرتان على صدرها؛ حيث رأيت بطاقتها.

فقلت: "روزمارى".

قالت: "نعم، سيد جانكوسكى؟".

"تعرفين أنه يكذب، أليس كذلك؟".

"لا أعلم عن كذبه شيئاً، ولا تعلم أنت كذلك شيئاً عن كذبه".

"لا، إننى أعلم. فقد عملت بالسيرك".

فطرفت بعينها وتوترت وقالت: "ماذا تعنى؟".

فترددت فى الحديث ثم غيرت رأيى وقلت: "لا تبالى بالأمر".

"هل كنت تعمل فى السيرك من قبل؟".

"لقد قلت لك لا تبالى بالأمر".

ثم سادت لحظة صمت غير مريح.

Amly نهضة العرب

ثم قالت وهى ترتب وضع قدمىّ: "تعلم أن السيد ماكجوينتى ربما قد أوذى بشكل خطير"، كانت تعمل بسرعة وكفاءة، ولكن دون أن تبدو متعجلة.

"كلا، لن يصاب بأذى؛ فالمحامون فى مِنْعَةٍ من التدمير".

فحدقت فىّ طويلاً. كانت تتأمل حقيقة شخصيتى فى واقع الأمر. وللحظة شعرت بالقلق من وضعى، فعادت سريعاً للعمل على تثبيتى وسألت: "هل ستصحبك أسرتك إلى عروض السيرك هذا الأسبوع؟".

فقلت ببعض التباهى: "أوه، نعم سيتم ذلك. فأحدهم يأتينى كل يوم أحد بانتظام يشبه عقارب الساعة".

نفضت البطانية وفردتها على قدمى وقالت: "هل تريد أن آتيك بالعشاء هنا؟".

فقلت: "لا".

ثم سادت لحظة صمت غير مريحة. كنت أدرك أن علىّ أن أتبع كلمة لا بقول شكراً لكن كان الوقت قد فات.

فقالت: "حسناً، إذن سأعود بعد قليل لأرى ما إذا كنت تريد أى شىء آخر".

بالفعل هذا ما سوف تفعله. وهذا ما تقوله دوماً.

وها هى قد عادت.

دخلت الغرفة على عجل وهى تضع صينية العشاء على فراش ركبتى وهى تقول: "والآن لا ينبغى عليك إخبار أحد بما حدث"، ثم وضعت المنديل الورقى، وشوكة بلاستيكية، وآنية من الفاكهة بدت شهية بما فيها من الفراولة والبطيخ والتفاح وقالت: "لقد حفظتها لأتناولها فى أثناء استراحتى؛ فأنا أتبع حمية غذائية. هل تحب تناول هذه الفاكهة سيد جانكوسكى؟".

كنت على وشك الرد، إلا أن يدى كانت أسبق من حديثى، وكانت ترتعد؛ فهذا تفاح، حمداً لله.

ربتت على يدى الأخرى وغادرت الغرفة وهى تتجاهل دموعى على نحو حكيم.

وضعت قطعة من التفاح فى فمى ورحت أستمتع بمذاق عصارتها، وكان المصباح الفلورسنت المزعج فوق رأسى يرسل ضوءه الساطع على يدى

Amly نهضة العرب

المغضنتين وهما تقطعان قطع الفاكهة. وبدت هاتان اليدان غريبتين عني. فلا يمكن أن تكون تلك هي يديّ.

إن العمر لص رهيب، فبمجرد أن تتمكن من مسار حياتك، يأتي هو إليك ليكسر ساقك ويحني ظهرك فيسكن الألم في جسدك، ويشوش عقلك وينشر في صمت مرض السرطان في جسد شريكة حياتك.

قال الطبيب إنها حالة انتشار لمرض السرطان. وسينقضي الأمر في غضون أسابيع أو أشهر. لكن حبيبة القلب كانت طيراً ضعيفاً فماتت بعد تسعة أيام فقط. ماتت بعد واحد وستين عاماً من الحياة معاً، أمسكت بيدى، وببساطة زفرت آخر أنفاسها.

ورغم أن أوقاتاً طويلة مرت عليّ، تمنيت لو أن بإمكاني فعل أي شيء لاستعادتها إلى جانبي، فإنني سعيد أنها قد رحلت أولاً. إن فقدانها كان كشرخ في القلب. كانت لحظة النهاية هي نهاية كل شيء بالنسبة لي. ولم أرد لها أن تعيش معي هذه المرحلة؛ فمن يبقى أخيراً، يشقى كثيراً.

لقد كنت دائم الاعتقاد بأنني أفضل التقدم في السن عن الموت، لكنني الآن لست واثقاً من ذلك. وأحياناً ما يكون ثبات الحال ـ والأغاني التي أسمعها، وحال العجائز اللاتي يملأن الردهة بالخارج بمقاعدهن المتحركة ـ من الأمور التي تدفعني للظن بأنني مازلت بعيداً عن الموت، وخصوصاً حين أذكر أنني مع هؤلاء العجائز، فإنني أتيقن أن كل شيء هو أمر تافه لا قيمة له.

لكن ما باليد حيلة إزاء ذلك. وكل ما يمكنني فعله هو قضاء الوقت انتظاراً لهذا القدر المحتوم، مراقباً أشباح ماضيّ تلتف حول حاضري المتهاوي. وهذه الأشباح تضرب وتدوي وتدخل البيت عليّ عنوة؛ فقد استحال على حاضري منافسة الماضي. وقد توقفت عن مقاومة تلك الأشباح.

وها هي تُحدِث دوياً وضجيجاً صاخباً حولي في هذه الأثناء.

فلتعتبروا أنفسكم في بيتكم. ولتمكثوا معي قليلاً. أنا آسف ـ فقد فعلتم وانتهى الأمر.

اللعنة على الأشباح.

Amly نهضة العرب

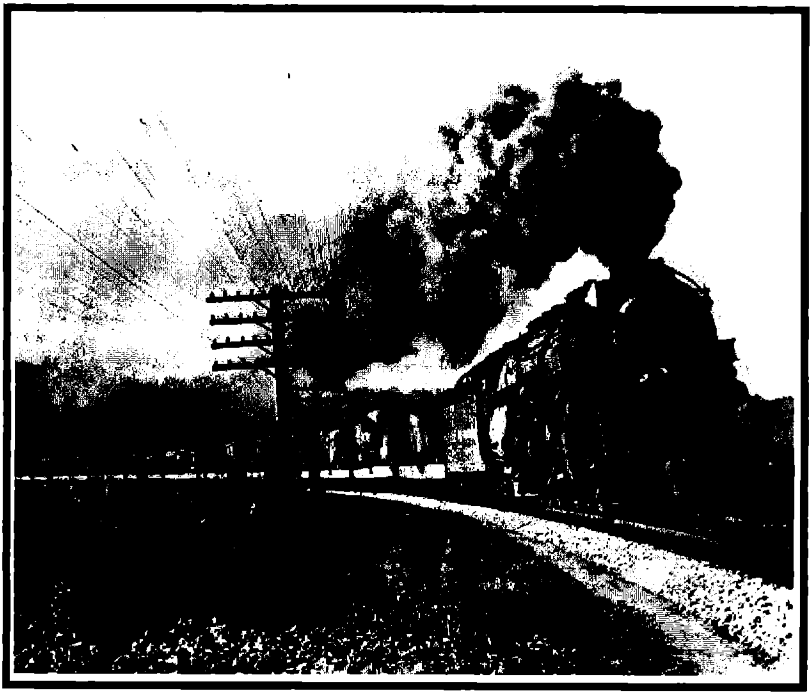

من مجموعة الصور الخاصة بـ "سي بي هوكس".

Amly نهضة العرب

الفصل الثانى

إننى فى الثالثة والعشرين من عمرى، وأجلس بجوار كاترين هيل؛ أو بالأحرى هى من تجلس بجوارى، لأنها جاءت إلى قاعة المحاضرات بعد قدومى؛ حيث إنها قد انسلت إلى المدرج فى هدوء دون أن يلاحظها أحد حتى التصقنا ببعضنا ثم انكمشت ثانية فى خجل رغم أن التلامس كان عرضياً.

كانت كاترين واحدة من أربع فتيات داخل قاعة الدراسة رقم ٣١ ولم يكن لقسوتها حدود. لقد كنت أفقد صوابى فى كل المرات التى كنت أفكر فيها قائلاً: *"أوه يا إلهى، يا إلهى، أخيراً ستتركنى أقوم بـ ـ"*، وعندئذ أتلقى صفعة على وجهى وأنا أقول: *"يا إلهى، هل أردت منى التوقف عند هذا الحد؟"*.

إننى ـ بقدر ما يمكننى قول ذلك ـ أكبر ذكر عذرى على وجه الأرض. وبالطبع لا يميل معظم من هم فى سنى للاعتراف بشيء كهذا. ولا حتى رفيقى فى الغرفة، إدوارد، الذى ادعى الانتصار فى هذا الأمر، رغم أننى أميل للاعتقاد بأن أقصى ما حققه فى هذا الشأن هو النظر إلى الصور الإباحية بين أغلفة إحدى المجلات. ومنذ زمن غير بعيد قام بعض الرفاق فى فريق كرة القدم بجمع ربع دولار من كل واحد منهم لإعطائه لامرأة تلتقى بهم فى حظيرة الماشية. ورغم أننى وددت توديع عذريتى فى كورنيل، إلا أننى لم أسمح لنفسى بالمشاركة فى هذا الأمر، وهذا ببساطة لأننى لم أستطع الإقدام عليه.

Amly نهضة العرب

وهكذا، خلال عشرة أيام، وبعد ست سنوات من تشريح وإخصاء الحيوانات وتوليد الأحصنة ووضع يدى فى مؤخرات البقر عدد مرات من الصعب أن أتذكرها، فأنا وظلى الوفى، عذريتى، سنترك إتاكا، حيث سألتحق بعيادة والدى البيطرية فى نورويش.

قال البروفسير ويلارد ماكجوفيرن بصوت خال من التعبيرات: "وهنا يمكن رؤية الدليل على تضخم الأمعاء الدقيقة"، وباستخدام مؤشر بيده، أشارٍ بوهن نحو أمعاء ملتوية لجثة عنزة محنطة بالملح والفلفل. وتابع قائلاً: "هذا، بالإضافة إلى أن وجود ورم ميساريقى ليمفى متضخم يؤكده الشكل الواضح لـ ـــ"

فُتِحَ الباب مُصدِرًا صريرًا فاستدار نحوه ماكجوفيرن بينما لا يزال مؤشره موضوعاً فى بطن العنزة. دخل العميد ويلكنز إلى القاعة، وفى رشاقة صعد درجات المنصة. تلاقى الرجلان، ووقفا قريبين جداً حتى كادت جبهتاهما أن تتلامسا. أنصت ماكجوفيرن لهمس ويلكنز المِلِحّ ثم استدار وهو يمسح بعينيه صفوف الطلاب فى نظرة قلق واضحة.

بدأ الجميع من حولى فى التململ. ورأتنى كاترين أنظر إليها وأنا أضع ركبة على الأخرى، وأملس بأصابع متراخية على تنورتها، فجف حلقى ونأيت بنظرى بعيداً.

"جاكوب جانكوسكى؟".

ومن فرط دهشتى من نداء اسمى، سقط القلم من يدى وتدحرج حتى استقر تحت قدمى كاترين، فتنحنحت ثم توقفت بسرعة. واستدار نحو بضع وخمسين زوجاً من الأعين ناظرة إلىّ وأنا أقول: "نعم، يا سيدى؟".

"هل لنا فى كلمة معك، لو سمحت؟".

أغلقت كراستى ووضعتها على المقعد. التقطت كاترين قلمى الرصاص من الأرض وتركت أصابعها تتراخى عند التقائها بأصابعى وهى تسلمنى القلم. أخذت طريقى فى الممر الفاصل فى المدرج وأنا أخطو على أطراف أصابعى

Amly نهضة العرب

وركبتاى تتخبطان ببعضهما. وقد تبعتنى همسات الطلاب طوال سيرى نحو مقدمة الغرفة.

حدق فىّ العميد ويلكنز قائلاً: "تعال معنا".

لا شك أننى ارتكبت شيئاً ما.

تبعته إلى الردهة وسار خلفى ماكجوفيرن وأغلق الباب. ولمدة دقيقة ظل الاثنان صامتين، وقد عقد كل منهما ذراعيه، وتجهم وجهه.

وانطلق عقلى مسرعاً، يحلل كل خطوة أو حركة قمت بها مؤخراً. هل ذهبوا إلى سكن الطلاب؟ هل وجدوا سائل إدوارد ــ أو حتى المجلة الإباحية؟ يا إلهى ـ إذن لقد طردت الآن من الجامعة، وسوف يقتلنى أبى، لا شك فى هذا. لكن لا داعى للقلق؛ فما الذى كان سيفعله تعليمى لأمى. حسناً، أعترف بأننى قد شربت بعض الشراب، لكن هذا لا يقارن بما حدث فى حظيرة الـ ــ.

أخذ العميد ويلكنز نفساً عميقاً، ورفع عينيه إلى عينىّ ووضع إحدى يديه على كتفى وقال: "يا بنى، هناك حادث قد وقع". وتوقف للحظة ثم تابع قائلاً: "إنه حادث سيارة"، وتوقف ثانية لكن لمدة أطول ثم تابع: "وكان والداك فى هذه السيارة".

فحدقت فيه، وأنا أتمنى أن يكمل كلامه.

"هل هما...؟ هل سوف...؟".

"أنا آسف يا بنىّ. لقد كان الحادث شنيعاً، ولم يكن باستطاعة أحد فعل أى شيء".

حدقت فى وجهه، محاولاً المحافظة على استمرار تواصل عينينا لكن ذلك كان صعباً؛ فقد حول عينيه بعيداً، وهو يتراجع نحو نهاية نفق طويل مظلم. وتفجرت النجوم فى محيط رؤيتى الواسع.

"هل أنت بخير يا بنىّ؟".

"ماذا؟".

"هل أنت بخير؟".

Amly نهضة العرب

فجـأة وجدتـه أمـامى مباشـرة مـرة أخـرى، فنظـرت بعيـنين نـصف مفتوحتين، وتساءلت عما يقصده بهذا السؤال. فكيف لى أن أكون بخير فـى لحظة كهذه؟ ثم أدركت أنه يسألنى إن كنت سأبكى أم لا.

تنحنح ثم قـال متابعـاً: "ستـضطر إلى العـودة هـذا اليـوم للتعـرف علـى الجثة، وسأوصلك إلى المحطة".

كان مأمور الشرطة ـ وهو أحد المرافقين فى هذه الرحلة ـ يقـف علـى الصف الجانبى مرتـدياً الـزى الرسمـى. وقـد حيـانى بإيمـاءة غـير مناسبة للموقف وشد على يدى بقوة. ثم قام، بعد تفكير فى أغلب الظن، بمعـانقتى بعنف، ثم ربت على ظهرى بصوت مرتفع، ثم تركنى ثانية بدفعة وزفـرة، ثم قادنى إلى المستشفى بسيارته الخاصـة، وهـى مـن نـوع فـايتون ولم يتعـد تاريخ صناعتها العامين، ولا شـك أنهـا تـساوى ثـروة طائلـة. هنـاك أشـياء كثيرة كان النـاس سيقومون بهـا علـى نحـو مختلـف، لـو أنهـم علمـوا مـا سيحدث فى هذا الشهر المشئوم.

قادنا المحقق إلى الدور السفلى ودخل إلى باب فيه وتركنـا فـى الردهـة. وبعد عشر دقائق ظهرت إحدى الممرضات على مدخل البـاب وأمـسكت بـه ليظل مفتوحاً فى دعوة صامتة لدخول الغرفة.

لم يكن بالمكان نوافذ. وعلـى أحـد الحـوائط كانـت هنـاك سـاعة، لكـن الغرفـة خاليـة تماماً. كانـت الأرضـية مفروشـة بمـشمع أرضـيات بـاللونين الأبيض والأخضر الزيتونى، وفـى المنتـصف كـان هنـاك سـريران مـن أسـرة المرضى، وعلى كل منهما ملاءة غطى بها جسد يرقـد علـى كـل سـرير مـن السريرين. إننى لا أستطيع مواصلة هـذا ولا يمكننـى حتـى الإخبـار بـأى نهاية له.

سألنى المحقق وهو يسير بين السريرين: "هل أنت مستعد؟".

ازدردت لعابى وأومأت بالإيجاب. وحينها أحـسست بيـد توضـع علـى كتفى؛ كانت يد المأمور.

فكشف المحقق أولاً عن وجه أبى ثم أمى بعد ذلك.

Amly نهضة العرب

لم يبدوَا كوالديّ، ولم يبدوا كأى شخص آخر.

كان الموت يطبق عليهما ـــ ومجموعات من البقع تملأ جسديهما المهشمين، كانت بقعاً قرمزية فى لون الباذنجان على أجساد بيضاء لا دم فيها؛ وقد غرقت عيناهما فى محجريهما الخاويين. أمى ـــ التى كانت جميلة وشديدة التدقيق فى حياتها ـ تبدو مكشرة فى موتها. كما أن شعرها المجدول قد انحشر فى فجوة بجمجمتها المهشمة، وفمها مفتوح، وذقنها منخفض وكأنها كانت تغط فى نومها.

بدأ القيء ينفجر من فمى. كان أحدهم يمسك بطبق تحسباً لهذا الموقف، لكننى قذفت بالقيء على الأرضية والحوائط. لقد سمعت صوت طرطشة فقط، فقد كانت عيناى مغلقتين. أتقيأه مرة وأخرى حتى لم يعد هناك ما يمكن أن أتقيئه. ورغم ذلك ظللت أتقيأ حتى ظننت أن ظاهر جسدى وباطنه سيتبادلان الأماكن.

أخذونى إلى مكان ما وأجلسونى على كرسى. أقبلت إلىّ ممرضة ترتدى زياً رسمياً ناصع البياض وأعطتنى بعض القهوة، وقد بقيت تلك القهوة بجوارى حتى بردت.

وبعد ذلك، أتى رجل الدين وجلس بجوارى. سألنى إن كان لدىّ من يمكنه الاتصال به، فقلت له إن كل أقاربى فى بولندا. فسألنى عن الجيران ورفاقى فى دار العبادة، لكننى لم أستطع التوصل ولو إلى اسم واحد. لا أحد. لا أثق أننى حتى قد أتذكر اسمى إن سألنى أحد عنه.

بعد أن تركنى خرجت من المكان، وكان يبعد عن منزلنا بميلين، وقد وصلت إلى المنزل قبل اختفاء الشمس بشكل كامل فى الأفق.

كان ممر السيارة خالياً بطبيعة الحال.

وقفت فى الساحة الخلفية، وأنا أمسك حقيبتى وأحدق فى البناية الواقعة خلف منزلنا، وعلى مدخلها وضعت لافتة جديدة، حروفها مصقولة وسوداء وقد كتب عليها:

Amly نهضة العرب

جانكوسكى وولده

طبيبان بيطريان

وبعد فترة، اتجهت ناحية المنزل وصعدت سلم الشرفة، وفتحت الباب الخلفى.

كانت جائزة أبى لى ــ جهاز راديو ــ موضوعةً على طاولة المطبخ. ومعطف أمى الأزرق موضوعاً على ظهر أحد المقاعد. كان على طاولة المطبخ ملابس كتانية تم كيها، وزهرية بها زهور بنفسج ذابلة، وسلطانية خلط وضعت على وجهها، وطبقان، وبعض السكاكين التى وضعت لتجف على فوطة الصحون المفرودة قرب الحوض.

فى هذا الصباح كان لدىّ والدان، وفى هذا الصباح تناولا إفطارهما.

جثوت على ركبتىّ هناك قرب الشرفة الخلفية، وأخذت أنوح وأنا أدفن وجهى بين يدىّ.

مع عودتى بدأت السيدات المساعدات فى دار العبادة تتوالين علىّ بدءاً بزوجة المأمور، وبعدها أحاطتنى الباقيات واحدة تلو الأخرى خلال ساعة.

كنت لا أزال عند الشرفة وقد وضعت وجهى بين ركبتىّ، وسمعت ذرات تراب تنسحق تحت إطارات السيارة، وأبوابها تُوصد، ثم تلا ذلك أن وجدت نفسى محاطاً بعجينة من اللحم البشرى، وأيدٍ قد ارتدت القفازات، ثم ضُممت إلى الصدور الطرية، واحتككت بالقبعات ذوات الخمر، وحوصرت بروائح الياسمين، واللافندر، وماء الورد. إن الموت حدث رسمى، وأرى هؤلاء وقد ارتدين أثواب العطلات البهيجة. ثم قمن بعد ذلك بالتربيت علىّ والاهتمام بأمرى، وفوق ذلك ثرثرن كثيراً.

كم هو مخز سلوك هؤلاء القوم! وكم هم أناس طيبون فى الوقت ذاته! إن من الصعب فهم هذه الإشكالية، صعب بالفعل، لكن إلهنا الحكيم يصرِّف الأمور على نحو لا نفهمه أحياناً. فهؤلاء هم من اهتموا بكل شىء.

Amly نهضة العرب

لقد أعدت غرفة الضيوف فى منزل جيم ومابل نوراتور، ولم يكن هناك من شىء أقلق بشأنه.

أخذوا حقيبتى وقادونى نحو السيارة، وخلف عجلة قيادتها جلس جيم نوراتور بوجه متجهم، وهو يمسك بها بكلتا يديه.

بعد يومين من دفن والدىّ، تم استدعائى إلى مكتب إدموند هايد، فى إسكوير، لكى أستمع لتفاصيل تركة والدى. جلست علىٍ كرسى جلدى فى مواجهة الرجل، وبينما هبطت أرضية الكرسى بى قليلاً، بدا لى أنه لا يوجد شىء لنتناقش حوله. فى البداية حسبته يسخر منى؛ فقد اتضح أن والدى كان يتقاضى أجره على شكل مقادير من الفول والبيض على مدار العامين الماضيين.

تكسر صوتى بداخلى وأنا أقول بغير تصديق: "فول وبيض؟".

"ودجاج وبضائع أخرى".

"إننى لا أفهم".

"هذا ما لدى الناس هنا يا بنى. فالمنطقة هنا كانت متضررة بشدة وكان والدك يحاول المساعدة. فلم يكن يسعه أن يقف هكذا وهو يرى الحيوانات تعانى من الأمراض".

"لكن... أنا لا أفهم. حتى لو كان يتلقى أجره فى هيئة، هه، أياً كانت الهيئة فما علاقة ذلك كله بالبنك؟".

"لقد فشلا فى تسديد رهن عقارى".

"لم يكن لدى والدىّ أى رهن عقارى".

بدا غير مرتاح، فرفع أصابعه المدببة أمام وجهه وقال: "حسناً، لقد كانت لديهما رهنيات فى واقع الأمر".

فجادلته قائلاً: "لا، لم يكن لديهما. لقد عاشا هنا ما يقرب من ثلاثين عاماً. وقد أعاد أبى كل سنت حصل عليه".

"لقد أفلس البنك".

Amly نهضة العرب

فضاقت عيناى وأنا أقول: "لقد قلت للتو إن كل شىء سوف يؤول للبنك".

فقال وهو يتنهد بعمق: "إنه بنك آخر. إنه البنك الذى ارتهن لديه والدك حين أفلس الآخر". ولا أستطيع الجزم بما إذا كان يحاول تصنع الصبر وفشل فى ذلك ببؤس، أم أنه يحاول دفعى بوقاحة للمغادرة.

توقفت، لأوازن بين خياراتى ثم قلت أخيراً:

"وماذا عن محتويات المنزل؛ ومحتويات العيادة البيطرية؟".

"سوف تؤول كلها للبنك".

"وماذا إن أردت الكفاح للاحتفاظ بها".

"كيف ذلك؟".

"ماذا لو عدت من الجامعة وتوليت إدارة العيادة وحاولت دفع المستحقات؟".

"ليس هكذا يسير الأمر، فليس لك الحق فى إدارة العيادة".

حدقت فى وجه إدموند هايد، الذى كان يرتدى حلة ثمينة، ويجلس خلف مكتب فخم، وأمامه الكتب المغلفة بالجلد، وخلفه أشعة الشمس تخترق نافذة مكتبه العازلة للحرارة. وانتابنى فجأة شعور بالاشمئزاز — إننى واثق من أن هذا الرجل لم يتقاض راتبه أبداً على هيئة فول وبيض.

ملت للأمام ونظرت فى عينيه، أردت أن أجعله هو الآخر شريكاً فى المشكلة. فقلت له: "ما الذى يفترض بى فعله الآن؟".

"لست أدرى. أتمنى لو كان لدىّ حل. إن البلاد كلها فى وضع صعب وهذه حقيقة". ثم مال ثانية على كرسيه، وأصابعه مازالت منتصبة، ومال برأسه، فى الوقت الذى خطرت على ذهنه فكرة فقال وهو مستغرق فى التفكير: "أرى أن بإمكانك التوجه إلى الغرب".

خطر ببالى ألا أغادر المكتب على الفور وأن ألكمه بقوة فى وجهه. ولكننى قمت من مجلسى وعدلت قبعتى وانصرفت.

Amly نهضة العرب

وحين وصلت للرصيف الجانبى للطريق، خطر ببالى شىء آخر؛ وهو أن السبب الوحيد الذى قد يدفع والدى للارتهان هو دفع رسوم الجامعة العريقة التى التحقت بها.

كان الألم الذى تسبب فيه هذا الإدراك المفاجئ قوياً حتى إننى أمسكت معدتى.

ولأنه لم تكن لدىّ بدائل أخرى، فقد عدت للدراسة ـ كحل مؤقت فى أحسن الأحوال. فتكلفة الغرفة والمعيشة مدفوعة حتى نهاية العام، لكن هذه النهاية على بعد ستة أيام فقط.

فاتتنى محاضرات المراجعة طوال الأسبوع. وكان الجميع مستعداً لمساعدتى، فأعطتنى كاترين كراسة محاضرات ثم عانقتنى على نحو أظن أن نتائجه كانت ستختلف كثيراً لو أننى كنت فى الوضع الطبيعى. لكننى نأيت؛ فلأول مرة فى حياتى لم أجد لدىّ اهتمام بالجنس.

إننى لا أستطيع تناول الطعام أو النوم، وبالطبع لا أستطيع حتى مواصلة المذاكرة. فإننى أحدق فى فقرة واحدة من الصفحة لمدة ربع ساعة دون أن أتمكن من استيعابها. وكيف يمكننى ذلك، وأنا أرى بين السطور وفى الخلفية البيضاء للصفحة صوراً لا نهاية لها لموت والدىّ؟ أشاهد سيارتهما البويك البيضاء وهى تطير عبر أحد الحواجز ومن فوقه لكى تتفادى الشاحنة الحمراء للسيد ماكفيرسون العجوز، الذى اعترف بعد أن نقل من موقع الحادث أنه لم يكن على يقين تام من الجانب الذى كان ينبغى أن يكون فيه على الطريق وأنه ربما ضغط دواسة الوقود بدلاً من الفرامل؟ السيد ماكفيرسون العجوز الذى قد توجه لدار العبادة فى أحد الأعياد دون أن يرتدى سرواله؟

أغلق مراقب الامتحان الباب واتخذ كرسيه، ونظر نحو ساعة الحائط وانتظر عقرب الدقائق إلى أن تقدم ثم قال:

"يمكنكم البدء الآن".

Amly نهضة العرب

تم توزيع اثنتين وخمسين ورقة امتحان، بدأ بعض الطلاب بتصفحها، وبدأ آخرون بالكتابة على الفور.

وبعد أربعين دقيقة من بدء الامتحان، لم يكن قلمى قد مس ورقة الإجابة. وحدقت فى كتيب الامتحان بيأس. كان يمتلئ بالمخططات والأرقام والخطوط والرسوم ـ سلاسل من الكلمات تنتهى بعلامات ترقيم ـ ببعضها نقاط تمام الجمل، أو علامات استفهام، ولم أفهم من أى منها أى شيء، حتى إننى تساءلت إن كان هذا النص مكتوباً باللغة الإنجليزية أم لا. فحاولت فهمه بالبولندية، فلم يفلح ذلك أيضاً، فحسبت أنه ربما كان بالهيروغليفية.

سعلت إحدى الطالبات، فانتبهت فتساقطت حبات عرق من جبهتى على كتيب الامتحان فمسحتها بكم قميصى، ثم حملت الكتيب بيدى.

فربما ـ لو قربته إلىّ أو أبعدته أكثر ـ أستطيع أن أرى أنه نص مكتوب بالإنجليزية، أو بالأحرى، أن الكلمات المكتوبة كلمات إنجليزية، لكننى لا أستطيع الانتقال من قراءة كلمة إلى أخرى والخروج بشيء يمكن فهمه.

سقطت قطرة عرق أخرى.

جُلت بنظرى فى قاعة الامتحان، فرأيت كاترين تكتب بسرعة، وشعرها البنى الخفيف ينسدل على وجهها. كانت كاترين تكتب بيدها اليسرى، ولأنها كانت تستخدم قلماً رصاصاً فقد كان ذراعها الأيسر من الرسغ إلى الكوع قد تلون بلون فضى. وبجانبها، كان إدوارد يجذب نفسه لأعلى متطلعاً إلى الساعة فى رعب، ثم يعود ثانية إلى كتيب الامتحان. ثم سرت بنظرى نحو نافذة القاعة.

كان نفاذ جزء من قبة السماء خلف أوراق الأشجار يصنع فسيفساء من اللونين الأزرق والأخضر، يتغير تركيبها بلطف كلما هبت الرياح. حدقت فى المشهد بشدة، وسمحت لتركيزى أن يلين، للنظر فيما وراء الأوراق والأشجار، فدخل فى حيزٍ بصرى سنجاب يتقافز بين الأشجار فى تثاقل، وكان يرفع ذيله كاملاً وراءه.

Amly نهضة العرب

دفعت الكرسي إلى الخلف مصدراً حكة عنيفة بالأرض ثم توقفت. كان حاجباي يقطران عرقاً وأصابعي ترتجف، وقد استدار اثنان وخمسون شخصاً ينظرون نحوى.

من المفترض أنني أعرف هؤلاء الأشخاص، وحتى أسبوع مضى كنت أعرفهم بالفعل، أعرف أين تعيش أسرهم، وأعرف وظائف آبائهم، وأعرف ما إذا كان لديهم إخوة أم لا، وإن كانوا يحبونهم أم لا. يا الله! إننى أتذكر حتى أولئك الذى اضطروا لترك الدراسة بعد الحادث: هنرى وينشستر الذى ترك أبوه إدارة تريد بيلدنج فى شيكاغو، وأليستر بارنز؛ الذى قام أبوه بإطلاق الرصاص على رأسه، ورينالد مونتى؛ الذى فشل فى محاولته العيش داخل سيارة بعد أن عجزت عائلته عن دفع تكاليف إقامته وإعاشته، وبوكى هايز؛ الذى ضل والده العاطل عن فرص العمل، لكن ماذا عن هؤلاء الذين ظلوا فى الصف؟ لم أعد أذكر عنهم شيئاً.

حدقت فى الوجوه دون أن أرى تفاصيلها ـــ رأيتها أجساماً بيضاوية فارغة لها شعر ـ نظرت من وجه لآخر وأنا فى يأس متزايد. أشعر الآن بضجيج ثقيل، وأدركت أننى كنت ألهث لالتقاط أنفاسى.

"جاكوب؟".

كان أقرب وجه لى به فم يتحرك. وقد أتى صوته خائفاً وقلقاً، وهو يقول: "هل أنت بخير؟".

طرفت عينى، وأنا غير قادر على التركيز. وبعد ثانية عبرت القاعة وقذفت بكتيب الامتحان على مكتب المراقب.

فقال وهو يتناوله: "هل انتهيت؟"، ثم سمعت صوت الورقة وأنا أتجه نحو الباب وهو ينادى من خلفى: "انتظر، إنك حتى لم تبدأ! لا يمكنك الانصراف. إذا انصرفت فلن أدعك ـــ"

وقطع عنى الباب بقية كلماته الأخيرة. وبينما تابعت سيرى فى الممر، نظرت نحو مكتب العميد ويلكنز. كان يقف فى النافذة ويراقب ما يحدث.

Amly نهضة العرب

ظللت سائراً حتى أطراف المدينة ثم انحرفت متتبعاً سكة القطار وظللت سائراً حتى أظلمت الدنيا وظهر القمر عالياً فى السماء، وواصلت السيرلعدة ساعات أخرى. تابعت السير حتى آلمتنى ساقاى، وتورمت قدماى، وعندئذ توقفت لأننى شعرت بالإعياء والجوع، ولأننى لم أعد أدرك فى أى مكان أنا. كنت كمن سار خلال نومه ثم استيقظ فجأة فوجد نفسه فى مكان كهذا.

كانت علامة الحضارة الوحيدة بالمكان هى سكة القطار التى انبسطت على بساط من الحصى. كان على أحد جانبى الطريق غابة أشجار ومنطقة أزيلت منها الأشجار على الجانب الآخر. ومن مكان ما سمعت صوت خرير الماء، فاتخذت طريقى نحوه مسترشداً فى سيرى بضوء القمر.

كان جدول الماء هذا بعرض قدمين على الأكثر. كان يجرى بطول صف الأشجار على الجانب الآخر من المنطقة الخالية ثم يتجه بعد ذلك فى قلب الأحراش. خلعت حذائى وجوربى وجلست على حافة الماء.

وعندما غمرت قدمىّ بالماء البارد آلمتنى بشدة، حتى إننى أخرجتهما ثانية. لكننى كنت مصراً فوضعتهما لفترات أطول وأطول فى الماء حتى بدأ الماء البارد يخدر مواضع التورم فى قدمىّ. ثم أرحت باطن قدمى على القاع الصخرى وعمدت إلى تخليل أصابع قدمى بالماء. وأخيراً بدأت برودة الماء بنشر ألمها الخفيف والمريح، فاستلقيت على حافة الجدول، وأرحت رأسى على صخرة مسطحة بينما كانت قدماى تجفان.

سمعت عواء ذئب من بعيد، بدا لى صوتاً وحيداً ومألوفاً على مسامعى، ثم تثاءبت، تاركاً عينىّ تنغلقان. وفى هذا الوقت أجيب الذئب البعيد بعواء لا يبعد عنى سوى بضع عشرات من الياردات، فنهضت مرة أخرى بشكل حاد.

عوى الذئب البعيد مرة أخرى لكنه أجيب هذه المرة بصافرة قطار. فارتديت جواربى وحذائى ونهضت، مستأنفا سيرى ناحية المنطقة الخالية من الأشجار.

Amly نهضة العرب

أصبح القطار أكثر قرباً الآن، وهو يقعقع ويدب بصوت مكتوم: *تشنك تشنك تشنك تشنك تشنك تشنك ...*

وضعت يدى على فخذى وسرت ناحية القضبان، وتوقفت قبلها بعدة ياردات، ملأت رائحة الوقود أنفي. ودوى صوت صافرة القطار ثانية ـــ *تويىىىىىىىىىى ـ*

ثم مرت القاطرة الضخمة، كانفجار عظيم، وهي تنحدر على القضبان فاصطدم بى تيار هائل من الريح. كانت تلك الريح تحرك بقوة فقاقيع الدخان الدوارة المتصاعدة التى تسير كحبل أسود يلتف حول القاطرة. كان المنظر، والصوت والرائحة قوية بدرجة كبيرة للغاية، فوقفت متجمداً أراقب، بينما كانت تمر نصف دستة من العربات المتدفقة خلف القاطرة، محملة بما يشبه المركبات، إلا أننى لم أتأكد منها؛ فقد كان القمر قد اختفى خلف إحدى السحب.

تخلصت من دهشتى، كان هناك بعض الناس على متن القطار. ولم يعنينى قط إلى أين يتجه؛ فأى مكان يتجه إليه كان سيبتعد بى عن ذئاب هذه الأحراش ويتجه بى نحو مظاهر الحياة المدنية، والطعام، وربما إيجاد عمل ـ وربما وجدت على الأقل تذكرة تعود بى إلى إتاكا، رغم أنى لا أملك سنتاً واحداً ولم يكن لديهم سبب يدفعهم لإعادتى مجاناً. لكن ماذا لو فعلوا؟ فليس لدىّ منزل هنا أعود إليه ولم تعد هناك عيادة أعمل بها.

مرت المزيد من العربات المسطحة للقطار، والتى كانت فيما يبدو محملة بكابلات الهاتف. نظرت إلى الخلف لأرى ما بعد ذلك من عربات. وكان القمر قد ظهر ثانية، فأضاء بنوره الضارب إلى الزرقة ما بدا لى أنه عربات بضائع.

بدأت العدو فى نفس اتجاه القطار. زلت قدماى على الحصا ـــ كان الركض هنا كالركض على الرمال، وعالجت الأمر بالاندفاع للأمام فتعثرت، ثم اندفعت وأنا أحاول استعادة توازنى قبل أن يزل أى جزء من جسدى

Amly نهضة العرب

ليكون بين العجلات الصلبة الضخمة والقضبان. استعدت توازنى وسرعتى، وأنا أتفحص العربات لأرى شيئاً يمكننى التعلق به.

كانت ثلاث منها مضاءة، ومغلقة بإحكام، ثم تبعتها بعد ذلك عربات بضائع. كانت أبواب تلك العربات مفتوحة لكنها ممتلئة بخيول ظهرت ذيولها من العربات. لاحظت أنه من الغريب جداً أن أتمكن من الملاحظة، رغم أننى أجرى بجوار قطار سريع فى قلب المجهول.

أبطأت من حركتى ثم توقفت. وبينما كنت أشعر بالدوار وفقدان الأمل، استدرت برأسى لأجد ثلاث عربات أخيرة مفتوحة خلفى.

تابعت العدو للأمام مرة أخرى، وبدأت أعد أثناء مرورها.

واحد، اثنان، ثلاثة ـ

أمسكت المقبض الحديدى ودفعت جسدى لأعلى، فاصطدمت قدمى اليسرى وكوعى الأيسر أولاً، ثم ذقنى الذى تحطم على الحافة الحديدية. تشبثت بشدة بهذه الأعضاء الثلاثة، كان ضجيج القطار يصم الآذان، وكان اصطدام عظم فكى بالحافة يبدو متناغماً مع هذا الضجيج. وبدأت أشتم رائحة إما أنها كانت صدأ أرضية القطار أو دم فكى، وبدأت أفكر فيما إذا كنت قد حطمت أسنانى قبل أن أدرك أن الخطر قد أضحى أشد من فقدان أسنانى ـ حاولت التوازن بقوة على حافة مدخل العربة بينما لا تزال قدمى اليمنى خارج العربة. فتشبثت بيدى اليمنى فى مقبض العربة وباليسرى غرست أظافرى فى أرضية العربة التى انسل خشبها بين أظافرى. إننى أكاد أخسر الأمر ـ فليس فى حذائى نتواءت مقاومة للانزلاق، وقد بدأت قدمى اليسرى بالفعل تنزلق رويداً رويداً نحو الباب. أما القدم اليمنى فقد ابتعدت أكثر نحو أسفل العربة وأصبحت على يقين من أنى سأفقدها، حتى إنى تأهبت وأغلقت عينىّ بشدة وأطبقت على أسنانى.

وبعد ثانيتين تقريباً، أدركت أننى لا أزال على حالى، ففتحت عينىّ ووازنت بين خياراتى ولم يكن أمامى سوى أحد خيارين، وحيث إن الترجل كان يعنى السقوط تحت عجلات القطار، فقد عددت إلى ثلاثة ثم

Amly نهضة العرب

قفزت لأعلى بكل ما أوتيت من قوة. تمكنت من وضع ركبتي اليسرى على الحافة. وباستخدام القدم، والركبة، والذقن، والكوع، والأظافر، حفرت طريقي داخل العربة وتكومت على أرضيتها. استلقيت وأخذت ألهث بشدة، وقد استنفدت طاقتي تماماً.

وعندئذ أدركت أنني أواجه ضوءاً باهتاً، فارتكزت لأعلى على كوعي.

كان هناك أربعة رجال يجلسون على جوالات طعام من الخيش الخشن، يلعبون الورق في ضوء مصباح زيتي. كان أحدهم عجوزاً ذا وجه تعلوه التجاعيد وقد تناثرت فيه شعيرات لحيته، وبيده كوب خزفي وضعه بين شفتيه. ولدهشته، يبدو أنه نسي أن يبعده ثانية عن فمه، فوضعه ومسح فمه بظهر كمه.

ثم قال ببطء: "حسناً، حسناً، حسناً. ماذا لدينا هنا؟".

ظل اثنان من الرجال في سكون تام وهما يحدقان فيّ من فوق أوراق اللعب. أما الرابع فقد قفز واقفاً على قدميه وتقدم.

كان أشبه بالوحش بلحيته السوداء الكثة. كانت ملابسه رثة، وحافة قبعته بدت كأن شخصاً قضم منها جزءًا. تعثرت قدماى وتراجعت للخلف ولكنى لم أجد مكاناً يمكن التراجع إليه. درت برأسي لأكتشف أنني أمام أكوام ضخمة من قماش الخيام.

وحين عدت بنظرى ثانية، كان الرجل في مواجهتي تماماً، وكانت رائحة الكحول تنبعث من فمه وهو يقول: "ليس لدينا غرف لغير العاملين يا أخي. يمكنك العودة من حيث أتيت".

فقال العجوز صاحب الكوب الخزفي: "انتظر يا بلاكي، لا تثر المشاكل الآن، هل تسمعني؟".

فقال بلاكي وهو يمسك بياقتي: "ما من مشكلة ستثار". أبعدت ذراعه عن ياقتي. فحاول بيده الأخرى فقابلت ذراعه موقفاً إياه وأصدر تلاقي ذراعينا صوت طرقعة.

Amly نهضة العرب

فصاح الرجل العجوز وهو يثرثر بجلبة: "احذر يا غلام! لا تعبث مع بلاكى".

فقلت وأنا أصد ضربة أخرى: "يبدو أن بلاكى هو من يعبث معى".

اندفع بلاكى نحوى، فسقطت على لفة من القماش. وقبل حتى أن يصطدم رأسي بشدة، تم جذبى إلى الأمام مرة أخرى. وبعد لحظة كان ذراعى ملوياً وراء ظهرى، وقدماى معلقتين على حافة مدخل الباب، ووجهى يقابل الأشجار التى تمر سريعاً عبر القطار.

جذب بلاكى ذراعى نحو منبت رقبتى وهزنى بقوة، فصاح الرجل العجوز: "بلاكى، لقد أمرتك. إننا لا نريد متاعب هنا. فدعه يذهب!".

أبعدنى بلاكى قليلاً عن باب العربة، ثم قذف بى بين لفات القماش. ثم عاد للرجال الآخرين، وتناول الكوب الخزفى وعاد به ماراً بجوارى، متسلقاً فوق قماش الخيمة ومبتعداً فى الركن البعيد من العربة. راقبته عن كثب، وأنا أحرك ذراعى المخلوع.

قال العجوز: "لا تتعجب أيها الغلام. إن إلقاء الناس من القطار هو أحد المهام المميزة فى عمل بلاكى، ولن يقوم بهذا العمل لفترة"، ثم ربت على الأرض براحة يده، وقال: "هنا، تعال واجلس هنا".

رمقت بلاكى بنظرة أخرى.

قال العجوز: "هيا تعال. لا تكن خجولاً. سيكون بلاكى لطيفاً الآن، أليس كذلك يا بلاكى؟".

زمجر بلاكى وتناول جرعة من شرابه.

فنهضت ثم سرت بحذر نحو الرجال الآخرين.

مد الرجل العجوز يده اليمنى نحوى، ولكنى ترددت فى مصافحته.

قال: "إننى كامل، وهذا جريدى، وذاك بيل. وأظن أنك تعرفت بالفعل على بلاكى". وابتسم كاشفاً عن ثلة أسنان مبعثرة فى فمه.

قال: "أعِدْ لنا ذلك الكوب الخزفى ثانية يا جريدى، هل يمكنك ذلك؟".

Amly نهضة العرب

وجه جريدى نظرتـه نحـوى، وقابلتهـا بنظـرة إلى عينيـه. ثـم قـام بعـد لحظات وتحرك فى صمت نحو بلاكى.

جاهد كامل حتى يتمكن من الوقوف. كان ثملاً تماماً حتى أننى ساعدته من كوعه حتى يثبت. وحين استقام واقفاً حمل مـصباح الكيروسـين وسـلطه على وجهى يحدق فيه. نظـر إلى ملابـسى، وتفحـصنى مـن قمـة رأسـى إلى أخمص قدمى.

ثم قال موجهاً حديثه إلى بلاكى: "والآن، أتدرى يا بلاكـى، لـيس هـذا من المتطفلين كما تظن، قم وتعال هنا وألق نظرة عليه، وتعلم الفارق".

زمجر بلاكى وأزدرد جرعة أخيرة مـن الـشراب، ثـم أعطـى الكـوب لـ جريدى.

فنظر إلىّ كامل وقال: "قلت لى ما اسمك؟".

"جاكوب جانكوسكى".

"لديك شعر أحمر".

"هكذا علمت".

"من أين أنت؟".

توقفت عن الرد. فهل أنا من نورويش أم من إتاكا؟ فهل موطن المـرء هـو ما غادره أم ما تمتد فيه جذوره؟

ثم قلت: "لست من أى مكان".

تجهم وجه كامل. تمايل قليلاً على ساقيه المنحنيتين، وهو يهذب ضـوء المصباح المتأرجح وقال: "هل ارتكبت شيئاً يا غلام؟ هل أنـت فـار مـن أمـر ما؟".

فقلت: "كلا، لست أى شىء مما تتصوره".

فنظر إلىَّ طويلاً هذه المرة ثم أومأ برأسه. وقال: "حسناً، إذن لـيس ذلـك من شأنى على أية حال. إلى أين وجهتك؟".

"لست على يقين من وجهتى".

"هل أنت عاطل عن العمل؟".

نهضة العرب Amly

"نعم سيدى. إننى كذلك حسب ظنى".

فقال: "لا عيب فى ذلك. فى أى شىء يمكنك أن تعمل؟".

فقلت: "أى شىء".

ظهر جريدى ومعه الكوب بيده وأعطاه إلى كامل. فمسح عنق الكوب بكم يده ثم مرره لى قائلاً: "هاك. خذ جرعة منه".

سبق لى أن أنهيت عذريتى مع الشراب لكن هذا الشراب كان وحشا مختلفا تماماً عما سبق لى. فقد أشعل حريقاً فى صدرى ورأسى. التقطت أنفاسى وجاهدت لمنع الدموع من الظهور فى عينىّ، كان كامل ينظر فى عينى مباشرة بينما رئتاى على وشك الاحتراق.

لاحظ كامل ما أنا عليه، فأومأ برأسه ببطء وقال: "إننا سنهبط فى أوتكا صباح الغد، وسآخذك لمقابلة العم آل.

"من؟ ماذا؟".

"تعرفه. إنه ألان بانكل، قائد الحلبة الفذ، سيد وأستاذ العوالم كلها؛ المعلوم فيها والمجهول".

ويبدو أننى بدوت محتاراً من حديثه، فقد فتح فمه الخالى من الأسنان وضحك وقال: "لا تقل لى إنك لم تدرك الأمر أيها الشاب".

فسألته: "أدرك ماذا؟".

صاح مستهزئا وهو ينظر لبقية رفاقه: "اللعنة عليكم أيها الشباب، إنه حقاً لا يعلم!".

تصنع جريدى وبيل الابتسام. وحده بلاكى بدا غير مستمتع بالحديث فتدحرج راقداً وساحباً قبعته أكثر على وجهه.

استدار كامل نحوى، وتنحنح، وتحدث ببطء مميزاً كل كلمة ينطق بها قائلاً: "إنك لم تقفز على قطار عادى أيها الشاب. لقد قفزت داخل السرية الطيارة لأفضل سيرك على وجه الأرض للأخوة بينزينى".

فقلت: "الـ *ماذا*؟".

فضحك كامل بشدة.

Amly نهضة العرب

وقال: "هذا عجيب، عجيب بالفعل". ثم عطس ومسح عينيه بظاهر يديه وتابع: "لقد هبطت فى سيرك أيها الشاب".

فحدقت فيه صامتاً.

فقال: "هذه هى الحلبة الكبرى"، وحمل المصباح عالياً ودار بأصابعه المنحنية وهو يشير إلى لفات القماش الضخمة وقال: "هذه إحدى العربات الماشية قد اتخذت الاتجاه العكسى لمرات الهبوط وهى مستقرة تماماً. بإمكانك أن تجد لنفسك مكاناً تنام فيه؛ فلم يبق سوى ساعات قليلة على الوصول. عليك فقط ألا تنام قريباً من الباب. فأحياناً ما تحدث هزات عنيفة".

Amly نهضة العرب

بتصريح من بفنيج أرشيف، كولومبوس، أوهايو

Amly

نهضة العرب

الفصل الثالث

استيقظت على صوت صرير المكابح. كنت أكثر استقراراً بين لفات القماش حين استيقظت مقارنة بما كنت عليه حينما بدأت نومى، كما كنت مشوش الذهن حين استيقظت، وعانيت لثانية قبل أن أتذكر المكان الذى أنا فيه.

توقف القطار وأصدر زفرته الأخيرة. تدحرج بلاكى، وبيل، وجريدى على أقدامهم وانسلوا خارج باب العربة دون حديث. وبعد أن ذهبوا، قام كامل يمشى مثقلاً، ثم مال علىّ ولكزنى قائلاً:

"هيا يا فتى، عليك أن تخرج من هنا قبل أن يأتى عمال الخيمة. وسأحاول تشغيلك هذا الصباح مع كريزى جو".

كنت أشعر بحكة فى قصبة ساقى وألم فظيع فى رقبتى، قلت وأنا أعتدل: " كريزى جو؟".

فقال كامل: "إنه مدير عروض الخيول في مخزن الأمتعة؛ فإن أوجست لا يسمح له بالاقتراب من مخزن الحلبة مطلقاً. والحقيقة أن مارلينا هى فى الغالب من لا تسمح له بالاقتراب منه، لكن ليس هناك فارق، وهى لن تسمح لك أنت أيضاً بالاقتراب فى عملك مع كريزى جو؛ فقد يطلق عليك النار على أقل تقدير. لقد عانينا من موجة طقس سيئ ومحطات عروض موحلة، وقد أصيب العديد ممن يعملون معه بالتعب من العمل وفترت همتهم، فتركوه لبعض الوقت".

"ولماذا يسمونه كريزى جو؟".

Amly نهضة العرب

فقال كامل وهو يحفر بإصبعه فى أذنه ويستكشف ما وجده بها: "لا أدرى السبب بالضبط، لكنى أظن أنه قد دخل السجن لفترة ولا أدرى ما السبب، ولا أقترح عليك أن تسأل فى ذلك"، ثم مسح إصبعه فى بنطاله واتجه نحو الباب.

ثم قال وهو يعيد النظر إلىّ ثانية: "هيا تعال إذن! فلن نستمر اليوم كله هنا"، ثم مكن نفسه من حافة العربة قبل أن ينزل منها بحذر على الحصى.

حككت قصبة ساقى ثانية فى يأس وربطت حذائى وتبعته.

كنا بجوار ساحة عشبية ضخمة، وخلفها تناثرت المبانى المبنية بالطوب، وقد أضاءها نور الصباح الباكر. وانحدر من القطار مئات من الرجال القذرين الذين طالت لحاهم وأحاطوا بالمكان كالنمل عندما يحيط بقطعة السكر، وهم يسبون، ويوزعون السجائر ويشعلونها، ثم أُلقِيت ألواح خشبية بشكل منحدر على الأرض وبرزت ست ثم ثمانى انشوطات لخيول خرجت من مكان مجهول، وانتشرت فى المكان. وبدأت الخيول تظهر واحداً تلو الآخر ـ خيول من نوع بيرشرونز كثيف الذيل ـ وخَطَتْ نحو الألواح المنحدرة فى ضجيج وهى تنخر وتنفر، وقد ألبست عدتها بالفعل. وكان الرجال على كلا الجانبين يحولون دون انغلاق الأبواب والمحافظة على ابتعاد الخيول عن حواف الألواح أثناء النزول.

اتجه نحونا مجموعة من الرجال، ورؤوسهم لأسفل.

فقال قائدهم وهو يمر بجوارنا ليصعد العربة: "صباح الخير يا كامل". وكان الآخرون يتبعونه فى الصعود للعربة. وأحاطوا بحزمة من القماش وجروها نحو مدخل العربة، وهم يزمجرون من الجهد. تحركت معه مقدار قدم ونصف، ثم ألقيت الحزمة على الأرض مثيرة سحابة من الغبار.

فقال كامل: "صباح الخير، يا ويل. هل لديك دخان لرجل عجوز مثلى؟".

فقال الرجل وهو يمدد جسمه ثم يتحسس جيبه: "بالتأكيد لدىّ"، ثم دس يده وأخرج سيجارة قد انثنت فى جيبه وقال: "إنها من نوع بول دورهام"، ثم مال للأمام يقدمها له وهو يقول: "آسف لانثنائها".

Amly نهضة العرب

فقال كامل: "ما يأتى منك خير. شكراً لك يا ويل. إننى ممتن لك".

أشار ويل بإصبعه نحوى وقال: "من هذا؟".

"إنه الأول من مايو. اسمه جاكوب جانكوسكى".

نظر ويل إلىّ، ثم استدار وأغلق الباب بعنف. ثم تابع حديثه مع كامل قائلاً: "هل هو جديد؟".

"إنه جديد بالفعل".

"هل وظفته فعلاً؟".

"كلا".

"حسناً، حظاً موفقاً"، وأشار بقبعته نحوى وقال: "لا تنم كثيراً يا فتى، إذا كنت تدرى ما أعنيه".

فقلت لكامل: "ماذا يقصد؟"، لكن كامل كان قد سار وهرولت قليلاً كى الحق به.

أصبح فى المكان الآن مئات الأحصنة بين هؤلاء الرجال القذرين. وللوهلة الأولى كان المشهد يبدو فوضوياً. ولكن بمرور الوقت وبينما كان كامل يشعل سيجارته، كانت عشرات الفرق من الرجال تتقدم وتتحرك بجوار العربات المسطحة لدفع العربات نحو مسارات الهبوط، وبمجرد أن تلمس العجلات الأمامية المسارات الخشبية المنزلقة، يبدأ الرجال فى توجيهها حتى لا تخرج عن المسار، وكان ذلك عملاً جيداً أيضاً. وبدأت العربات ثقيلة الحمولة فى الانحدار إلا أنها لم تكن تتوقف بعد المسار الخشبى إلا بمقدار عشرة أقدام على الأقل.

وفى ضوء الصباح استطعت أن أرى ما عجزت عن رؤيته ليلاً ــ إن العربات مطلية باللون القرمزى، وعجلاتها قد زينت باللون الذهبى على شكل قرص شمس مشرق، وعلى كل عربة كتب شعار "بينزينى براذرز، السيرك الأكثر جماهيرية فى العالم". وبينما كانت العربات تصطف فى مجموعات، تم وضع الخيول فى عدتها لسحب هذه الحمولة الثقيلة عبر الميدان.

Amly نهضة العرب

قال كامل وهو يجذبنى من ذراعى نحوه: "احترس"، وقد ضم قبعته بيده الأخرى، وأطبق على سيجارته بأسنانه.

مر بجوارنا ثلاثة رجال على خيولهم. كانوا يعبرون بخيولهم فى شكل متعرج مسافة الميدان طولاً، ويتحولون فى محيطه، ثم يعودون ثانية. كان قائدهم يدور برأسه يمنة ويسرة، يُقيّم أرضية الميدان بحنكة. كان يمسك طرفى اللجام بيد واحدة، وبالأخرى كان يستخرج رماحاً ذات أعلام من جعبة جلدية معه ويغرسها فى الأرض.

فسألت: "ما الذى يفعله؟".

قال كامل: "إنه يخطط أرضية الميدان". ثم توقف عند عربة المؤن ونادى: "جو! مرحباً جو!".

فأطل رأس من باب العربة.

"إن معى مبتدئ هنا، جئت به من القطار للتو. فهل لك به حاجة؟".

فتقدم الرجل بجسده كله وخطا على لوح الهبوط. ودفع لأعلى حرف قبعة مسحوقة بيده التى فقد منها ثلاثة أصابع. تفحصنى. ثم قذف من فمه عصارة تبغ بنية ثم عاد إلى داخل العربة.

فربت كامل على ذراعى مهنئاً وقال: "لقد تم تعيينك يا فتى".

"صحيح؟".

"نعم، هيا اذهب وابدأ بتنظيف بعض القذارة من المكان، وسأراك لاحقاً".

كانت العربة فى فوضى عارمة. وكنت أعمل مع غلام يدعى تشارلى، كان وجهه فى نعومة وجه الفتاة ولم يكن صوته قد اخشوشن بعد، وبعد أن جرفنا ما بدا لى طناً من المخلفات عبر الباب، توقفت، ومسحت الكمية المتبقية بنظرى وقلت: "كم حصاناً يتم شحنه فى هذه العربة؟".

"سبعة وعشرون".

"يا إلهى. لابد أنها تشحن بضغط شديد حتى لا تكاد تستطيع الحركة".

قال تشارلى: "وهذه هى الفكرة من ضغطها، فبمجرد دفع الحصان الأخير، لا يمكن لأى حصان أن يتحرك".

Amly نهضة العرب

لقد فهمت الآن مشهد الذيول الظاهرة من العربة ليلة أمس.

ظهر جو على مدخل باب العربة وقال: "لقد رفع العلم".

رمى تشارلى جاروفه وقصد الباب.

فقلت: "ما الذى يجرى؟ إلى أين أنت ذاهب؟".

"لقد رفع المطبخ العلم".

هززت رأسى وقلت: "أنا آسف، ما زلت لا أفهم ما تعنيه".

فقال: "الطعام".

الآن فهمت. ورميت أنا أيضاً جاروفى.

كانت الخيام القماشية ترتفع فى الميدان كعيش الغراب، رغم أن أكبر هذه الخيام ــ وهى الحلبة الرئيسية فى الغالب ــ ما زالت ترقد مسطحة على الأرض. كان الرجال يقفون عند وصلاتها يضمون حبالها لبعضها ويجمعون أجزاءها. ومع إقامة أقطابها الخشبية ارتفع الخط المركزى للحلبة وعليه علم الولايات المتحدة، وحين تم تثبيت حبال الخيمة، أصبحت الحلبة تشبه سطح المركب وصاريته.

وحول محيطها انتشرت فرق دق ـ كل فرقة مكونة من ثمانية رجال يدقون الخوازيق بسرعة كبيرة. ومع مرور الوقت تم تثبيت أحد الخوازيق، ولا تزال هناك خمسة خوازيق حرة. كان الضجيج الناجم عن ذلك مثل قذيفة مدفعية، تعم ما عداها من ضجة.

وكانت هناك فرق أخرى من الرجال ترفع قوائم ضخمة. ومررت أنا وتشارلى بمجموعة من عشرة أشخاص يميلون بكامل وزنهم مقابل حبل واحد بينما رجل على الجانب الآخر يقول: "اجذبوا، هزوا، اكسروا!"، ومرة ثانية: "ــ اجذبوا، هزوا، اكسروا! والآن أنزلوا الخازوق".

لم يكن المرء ليضل الطريق نحو المطبخ، فهناك العلم ذو اللونين الأزرق والبرتقالى، وهناك الموقد الذى يقذف ببخاره بقوة، والناس الذين يسيرون ناحيته. لقد واجهتنى رائحة الطعام كما تضرب قذيفة مدفع بطن رجل. لم أكن قد تناولت طعاماً منذ يومين، ومعدتى كانت تتلوى من الجوع.

Amly نهضة العرب

كانت جوانب خيمة المطبخ قد أقيمت بطريقة تسمح بسحبها، لكنها كانت مقسومة عند مركزها بستارة. وعلى الجوانب وضعت طاولات مدت عليها فرش الموائد ذات اللون الأحمر والأبيض، وعليها أدوات الطعام الفضية، وزهريات ورود. بدا المشهد متناقضاً تمام التناقض مع طابور الرجال القذرين المتحفزين خلف الطاولات.

فقلت لتشارلى ونحن نأخذ دورنا فى الطابور: "يا إلهى! انظر إلى هذه المائدة".

كانت على المائدة كميات من اللحم المفروم وصلصة الطماطم، وسلال من شرائح الخبز السميكة وقطع لولبية من اللحم الأحمر، وبيض مطهى بشتى الطرق، وعلب المربى، وسلطانيات البرتقال.

فقال تشارلى: "هذا كله لا يمثل شيئاً، فبيج بيرثا يملكون هذا كله، والنُّدل أيضاً. وهم سيأتون لك بالطعام حيث أنت".

"بيج بيرثا؟".

فقال: "بيرثا رينجلنج أصحاب السيرك".

"هل تعمل لديهم؟".

فقال بارتباك: "أوه... لا. لكننى أعرف أناسا يعملون لديهم".

أمسكت طبقاً ووضعت فيه كمية كبيرة من البطاطس والبيض، والصلصة، محاولا ألا أبدو فى حال بائس. كانت رائحة الطعام تملأ المكان. فتحت فمي وتنفست بعمق وأكلت، فإذا الطعام كان كما لو قد نزل علىّ من السماء! إنه من السماء بالفعل.

ظهر كامل فجأة وقال وهو يضع تذكرة فى يدى: "إليك هذه، أعطها لذلك الرجل الجالس هناك فى آخر الصف".

كان ذلك الرجل فى آخر الصف يجلس على كرسى قابل للطى، وينظر من أسفل حاجز قبعة مثنية، فمددت له يدى بالتذكرة. فنظر إلىّ وأدار ذراعيه أمامه بحزم وقال:

"ما قسمك؟".

فقلت: "معذرة؟".

Amly نهضة العرب

"ما القسم الذى تعمل فيه؟".

فقلت: "أوه... لست متأكداً منه؛ إننى منذ الصباح أقوم على تنظيف عربات التخزين".

فقال وهو لا يزال يتجاهل تذكرتي: "هذا لا يعنى شيئاً. فقد تكون تلك عربات تخزين الحلبات أو تخزين الأمتعة أو معرض الوحوش. ففى أى مخزن كنت من هذه؟".

لم أحر جواباً. إننى متأكد من أن كامل قد ذكر لى اثنين من هذه على الأقل إلا أننى لا أذكر هذه الاختصاصات.

فقال: "إذا لم تكن تعرف قسمك، فلن تعمل فى هذا العرض، فمن أنت إذن بالله عليك؟".

قال كامل وهو يظهر من خلفي: "هل كل شيء على ما يرام يا إزرا؟".

فقال إزرا وهو يبصق على الأرض: "كلا ليس على ما يرام. لدىّ هنا ريفى أحمق يريد اقتناص إفطاره من العرض لا أكثر".

فقال كامل: "إنه ليس ريفياً؛ إنه عامل، وهو معى".

"حقاً؟".

"نعم".

نقر الرجل حافة قبعته وتفحصنى من قمة رأسى حتى أخمص قدمي. وتوقف عدة مرات فى فحصي، ثم قال: "حسناً يا كامل، إذا كنت من ترشحه لى؛ فذلك يكفينى على ما أظن"، ثم امتدت يده وجذب التذكرة من يدى وقال: "هناك شيء آخر. عليك أن تعلمه كيف يتحدث وإلا طردته، مفهوم؟".

فسألت وأنا أتجه نحو المائدة: "إذن ما هو قسمى؟".

قال كامل وهو يجذبنى من كوعي: "أوه، ليس لديك قسم. إن موائدهم ليست لأمثالنا. عليك أن تبقى بالقرب منى حتى تتعلم الأشياء المتاحة لك".

تبعته وهو يدور حول الستارة، كانت الموائد على الطرف الآخر المقابل، ولم يكن بها شيء سوى رجاجة الملح ولم يكن بها أية زهور.

"من إذن الذين يجلسون على الجانب الآخر؟ هل هم العارضون؟".

Amly نهضة العرب

فنظر لى كامل بحدة وقال. "يا الله، هلا أغلقت فمك حتى تتعلم لغة العمل هنا؟".

جلس على الطاولة في الحال وألقى بنصف قطعة خبز فى فمه. ظل يمضغها لدقيقة ثم نظر إلىّ قائلاً: "أوه، هيا اجلس، لا تحزن، لقد كنت أراقبك للتو. هل رأيت كيف هو إزرا؟ إنه وغد. هيا اجلس".

نظرت نحوه لدقيقة ثم تقدمت نحو المائدة. ووضعت طبقى عليها، ونظرت إلى يدىّ الملطختين بالروث، ومسحتهما فى سروالى، فلم ينظفا، فبدأت الأكل بهما دون اكتراث.

ثم قلت أخيراً: "ما هو إذن المصطلح الصحيح لهؤلاء؟".

قال كامل وهو يحرك بفمه الطعام: "إنهم يدعون الشواذ، أما قسمك فيدعى قسم الأمتعة، على الأقل الآن".

"فأين هؤلاء الشواذ الآن؟".

"سيأتون فى أية لحظة. فهناك قسمان آخران من القطار لم يأتيا بعد. إنهم يسهرون لوقت متأخر وينامون فى وقت متأخر، ويصلون وقت الإفطار بالضبط، وحيث إننا نتحدث فى هذا الشأن، لا ينبغى عليك أن تدعوهم بالشواذ فى وجوههم مطلقاً".

"ماذا أسميهم إذن؟".

"العارضون".

فقلت وفى صوتى نبرة توتر: "ولماذا لا يكون هذا اسمهم دوماً؟".

فقال كامل: "يوجد حزبان: نحن وهم، وأنت واحد منا. لكن لا تقلق فسوف تتعلم". ثم دوت صافرة قطار من مسافة بعيدة فقال: "اذكر الشيطان يأتك فوراً".

"هل معهم العم آل؟".

"نعم، لكنك لن تعلم عنه شيئاً، ولن تقترب منه الآن. فهو يكون عصبياً كالدببة إذا شعر بألم فى الأسنان أثناء إقامة التجهيزات للعرض. قلى لى كيف تسير أمورك مع جو؟ هل أزلتما ما يكفى من روث الخيول؟".

Amly نهضة العرب

"أنا لا أبالى".

"نعم، أرى أنك أحق بشىء أفضل من هذا. لقد حدثت أحد أصدقائى فى الأمر". كان يتحدث وهو يقطع قطعة خبز أخرى ويمسح بها الدهن الذى فى طبقه، ثم تابع : "ابق معه بقية النهار وسوف نلحقك به".

"وماذا سأعمل معه؟".

"اعمل أى شىء يطلبه. وأنا أعنى ما أقول". ثم ضغط بحاجبه فى إشارة على التأكيد.

كان صديق كامل رجلاً ضئيلاً ذا كرش ضخم وصوت هادر. إنه معلق العرض الجانبى، واسمه سيسل. تفحصنى ثم أعلن أننى مناسب للعمل المطلوب. كان من المفترض بى أنا وجيمي وويد ـ وهما رجلان آخران يبدوان أكثر ملاءمة لمخالطة أهل المدينة ـ أن نوزع أنفسنا بالقرب من تجمعات الجمهور، وحين نتلقى الإشارة، نتقدم نحوهم ونبدأ فى حشدهم نحو المدخل.

كان العرض الجانبى فى جناح الملاهى، وكان مفعماً بالنشاط. فعلى أحد جوانبه، جاهدت مجموعة من الرجال السود فى تثبيت رايات العرض الجانبى. وعلى الجانب الآخر، كان هناك صيحات وصرخات حيث جلس رجال بيض بسترات بيضاء فى يثبتون كؤوس الليمون واحداً فوق آخر، مشكلين هرماً كاملاً من الكؤوس على طاولات ذات حوامل مخططة باللونين الأحمر والأبيض. كان جو المكان يمتلئ برائحة الفيشار والفول السودانى المحمص، وأصوات خفيفة مميزة لبعض الحيوانات.

وفى نهاية جناح الملاهى، وخلف بوابة التذاكر، وقفت خيمة ضخمة تضم داخلها كل أنواع المخلوقات وقد وضعت فى أقفاصها ـ لامات، جمال، حمير، وقردة، ودببة قطبية ــ واحد على الأقل من كل نوع، وأقفاص وراء أقفاص تضم كل أنواع القطط.

وكان سيسل وأحد رجاله السود مشغولين بشدة بإحدى الرايات التى تحمل صورة امرأة ضخمة. وبعد ثانيتين، ضرب سيسل بيده على رأس

Amly نهضة العرب

الرجل الأسود وقال: "هيا ثبت هذه الراية أيها الفتى! بعد دقيقة سيبدأ الجمهور فى القدوم، كيف سنجذبهم إلى الخيمة دون أن يشاهدوا روائع لوسيندا؟".

ثم انطلقت صافرة، فتجمد الجميع.

وهتف صوت ذكورى هادر: "الأبواب!".

وانطلق الجحيم من عقاله مع الهتاف. فقد أسرع رجال الحوامل خلف طاولاتهم، وهم يقومون بتعديلات نهائية على أدواتهم وانتظام ستراتهم وقبعاتهم. كان الاستثناء فى ذلك هو المسكين الذى يعمل على تثبيت راية لوسيندا، فكل الرجال السود قد انسلوا إلى خارج الخيمة وابتعدوا عن الأنظار.

صرخ سيسل: "ثبت هذه الراية اللعينة واخرج من هنا"، فقام الرجل بتعديل أخير ثم اختفى.

استدرت فوجدت سيلاً من الناس يندفع نحونا ومعهم أطفال صارخون، يقودونهم فى الطريق، ويشدون آباءهم للأمام من أيديهم.

لكزنى ويد فى جنبى وقال: "بسسسسست... هل تود رؤية عرض الوحوش؟".

"رؤية ماذا؟".

حشر رأسه بين خيمتنا وخيمة الحلبة وقال: "إنك تمد رقبتك منذ أن أتيت إلى هنا. فهل تريد المشاهدة خلسة لبعض الوقت؟".

فقلت وأنا أشير بنظرى نحو سيسل: "وماذا عنه؟".

"سنعود قبل أن يلاحظ تغيبنا. فضلاً عنه أنه لا يمكننا فعل شىء قبل أن يرحل الجمهور".

قادنى نحو بوابة التذاكر. كان يقف على حراستها رجال شيوخ، يجلسون خلف أربع منصات حمراء اللون. وقد تجاهلنا ثلاثة منهم. ونظر الرابع نحو ويد وأومأ له برأسه.

فقال ويد: "هيا بنا، ألق نظرة. وسأتابع أنا حركة سيسل".

Amly نهضة العرب

اختلست النظر إلى الداخل. كانت الخيمة ضخمة، ترتفع إلى عنان السماء وقد دعمت بقضبان حديدية مستقيمة وطويلة موزعة فى زوايا متعددة. كان نسيج قماش الخيمة مشدوداً للغاية حتى يكاد ينفذ الضوء ـ كان شعاع الشمس ينفذ من نسيج القماش ومسامه، فيضيء المنصة الكبرى، وتحت الأضواء، وفى مركز عرض الوحوش وقفت بطلة العرض محاطة برايات إعلانية عن العطور النباتية والفيشار والكاسترد المجمد.

وقد طليت أوكار الحيوانات ببراعة باللونين الذهبى والأحمر، ورفع جانبان من جوانب الخيمة الأربع لتظهر من خلفها الأسود، والنمور والببر، والفهود، والدببة، والشمبانزى والقردة العنكبوتية ـ وحتى إنسان الغاب. أما الجمال واللامات والحمر الوحشية والخيول فقد أوقفت خلف حاجز من حبال منخفضة معلقة على أوتاد حديدية. وقد غطت رؤوسها كميات من القش، ووقفت زرافتان فى منطقة معزولة بسور يحيطه سياج من السلاسل.

وبلا جدوى بحثت عن فيل بين هذا الجمع لكن عينىّ توقفت فجأة على امرأة. كانت تبدو تماماً مثل كاترين؛ فتدافعت أنفاسى ـ فقد كانت فى استواء وجهها، وقصة شعرها، ورشاقتها. كنت قد اعتدت تخيل ما تخفيه تنورة كاترين غير الشفافة. كانت تلك المرأة تقف أمام طابور من الخيول البيضاء والسوداء، وقد ارتدت قرصاً قرمزياً، وملابس ضيقة، وانتعلت شبشباً من الساتان، وكانت تتحدث لرجل يرتدى قبعة عالية وسترة ذات ذيول. احتضنت وجه أحد الخيول البيضاء، كان فرسًا عربيًا حروناً، وكان شعر عنقه وذيله أبيض. ثم رفعت يدها تعيد بها ما انسل من خصلات شعرها البنى وتعيد هيئة تسريحة شعرها. ثم بدأت فى تلمس شعر وجه الحصان وتربيته فى اتجاه وجهه. ثم تناولت أذنه بين راحتيها وتركتها تنسل من بين أصابعها.

ثم حدث اصطدام قوى، فالتفت لأجد باب أحد الأوكار الأقرب إلىّ قد أغلق، وحين عدت بنظرى وجدت المرأة تنظر نحوى. ضاقت حواجبها،

Amly نهضة العرب

لكن بنظرة قبول. وبعد ثوان أدركت أن عليّ إما أن أبتسم أو أبتعد ببصرى عنها، لكننى لم أستطع. وفى النهاية جاء الرجل ذو القبعة العالية ووضع يده على ذراعها واستدارت، ولكن ببطء ودون رغبة منها. وبعد ثوان قليلة اختلست نحوى نظرة أخرى.

عاد ويد وقال وهو يضربنى على منبت كتفى: "هيا لقد بدأ العرض".

• • •

"**السيداااات والساااااادة!** بقيت **خمس وعشرووووون** دقيقة على بدء العرض الكبير. **خمس وعشرووووون** دقيقة لا تزال تكفى وتزيد لتلحقوا بالاستمتاع بالعجائب المذهلة، الخيالية، الراااااائعة، والتى جمعناها لكم من أركان العالم الأربعة، ولا تزال لدينا أماكن فى الحلبة الكبرى! هناك فسحة من الوقت مازالت أمامكم لتتمكنوا من مشاهدة غرائب وعجائب الطبيعة والمناظر الرائعة! إن المجموعة التى لدينا هى الأكثر إبهاراً فى العالم، أؤكد لكم، سياداتى وسادتى، فى العالم".

كان سيسل يقف على منصته قرب مدخل العرض الجانبى، ويتمايل للأمام وللخلف، مجسداً عرضه بحركات جسده، وقد قام ما يقرب من خمسين شخصاً يحومون حول العرض على نحو متراخ. لم يكونوا فى كامل الاهتمام بالأمر، كانوا متوقفين هنا لكنهم لم يكونوا واقفين قصداً.

"ادخلوا هنا لكى تشاهدوا عرض الرائعة، الهائلة، المحبوبة لوسيندا ـــ أجمل امرأة بدينة فى العالم! ثمانمائة وخمسة وثمانين رطلاً من الجمال الكامل، سيداتى وسادتى! تعالوا لتشاهدوا النعامة البشرية ـــ إن بإمكانه ابتلاع وإعادة أى شيء تعطيه إياه. لتجربوا حافظات الأموال، الساعات، وحتى المصابيح الكهربية! أى شيء تريدونه وسوف يعيده لكم! ولا تفوتوا عرض فرانك أوتو؛ الرجل الأكثر رسماً للوشم على جسده! لقد أُخِذ رهينة فى الغابات المظلمة فى بورنيو، وحوكم على جريمة لم يقترفها، فماذا كان العقاب؟ حسناً، أيها الناس، لقد كان عقابه هو أن يملأ جسده بالوشم بأحبار ثابتة".

Amly نهضة العرب

تكاثف الجمهور وأثير انتباه الناس. كان جيمي وويد مختلطين بالناس قرب المؤخرة.

تمايل سيسل، ووضع إصبعه على شفتيه وغمز بعينيه على نحو عجيب ـ كانت إشارة مبالغاً فيها رفع فيها جانب فمه ناحية إحدى عينيه، ورفع إحدى يديه فى الهواء طالباً الهدوء وقال: "والآن، والآن ـ أقدم اعتذارى للسيدات، فما نحن بصدد الإعلان عنه خاص بالرجال فقط ـ الرجال فقط، ولأننا فى تجمع مختلط، ومراعاة للذوق، فإننى سأقول ذلك مرة واحدة. أيها السادة إن كان لديكم الدم الأمريكى الأحمر، وإن كان دم الرجولة يسرى فى عروقكم فلن تفوتوا ذلك الحدث ـ فإذا تبعتم هذا الرجل ـ هناك، وهناك بالضبط ـ فسوف ترون شيئاً مذهلاً، ومفاجئاً، وأضمن لكم أن ـ"

ثم توقف وأغلق عينيه، ورفع يديه، وهز رأسه ندماً ثم تابع: "لكن كلا. فمراعاة للأدب ومشاعر هذا الجمع، لا يمكننى قول المزيد، أيها السادة ـ عدا أنه لا ينبغى أن تفوتوا هذا العرض! ليس عليكم إلا أن تعطوا ربع دولار لهذا الرجل، وسوف يذهب بكم نحو هذه المفاجأة حالاً. إنكم لن تتذكروا أبداً هذا الربع الذى دفعتموه اليوم لكنكم أيضاً لن تنسوا أبداً ما ستشاهدونه؛ وسوف تتحدثون عنه طوال حياتكم".

شد سيسل ورتب وضعية معطفه، وشد حاشيته بكلتا يديه، ورسم على وجهه تعبيراً مختلفاً وأشار ناحية المدخل المقابل وقال: "سيداتى ـ بالإمكان إذا سمحتم أن تأتوا من هذا الطريق ـ فلدينا أيضاً العجائب والمغريات المناسبة لأحاسيسكن المرهفة. فلا يجوز بالرجل النبيل أن ينسى السيدات، خصوصاً لو كن فى جمالكن وروعتكن"، ثم ابتسم وأغلق عينيه. وبدأت النسوة ينظرن فى عصبية نحو رجالهن الذين بدءوا فى الاختفاء.

واشتعلت الحرب. فأمسكت إحدى النساء سريعاً بأكمام زوجها بإحدى يديها وانهالت عليه ضرباً بالأخرى. فعبس الرجل وقطب جبينه، وحاول تفادى ضرباتها. وحين تخلص منها أخيراً، شد صدر سترته وحدق فى

Amly نهضة العرب

وجه زوجته الغاضب. وحين اتجه لدفع ربع دولار، قلد أحدهم صوت الدجاجة، فسرى الضحك بين الجمهور.

أما بقية النساء، فقد راقبن أزواجهن مكرهات وهم ينضمون للصف، ربما كان ذلك لعدم رغبتهن في لفت الأنظار. شاهد سيسل ذلك، فنزل عن منصته. كان في ذروة الاهتمام وغاية تودده للنساء وهو يقودهن بلطف نحو أمور أكثر وقاراً واحتراماً.

تابع حديثه قائلاً: "إذا اتجهتن من هذه الناحية أيتها السيدات فسأريكن شيئاً لم ترينه من قبل. إنه شيء غير عادى، يمكنكن التحدث عنه في يوم الإجازة، أو مع الجدة والجد على مائدة العشاء. هيا تقدمن وأحضرن معكن الأطفال وستشاهدن عرض تسلية أسرى رائعاً. سترين حصاناً رأسه مكان ذيله، أليس هذا رائعاً أيتها السيدات. إنه مخلوق حى ذيله مكان رأسه. شاهدن ذلك بأعينكن. وحين ستخبرن أزواجكن بما رأيتن، فربما تمنوا أن لو ظلوا معكن خلال هذا العرض. نعم، سيتمنون ذلك، يا عزيزاتى".

وقد حوصرت فى هذه اللحظة. لقد اختفى معظم الرجال، وتركت نفسى للانجراف وسط أولئك المحافظين والسيدات والأطفال وبقية الرجال الذى ليس لديهم دم أمريكى أحمر. هذا، إذن، هو بالقطع الحصان الذى نما ذيله مكان رأسه ـ لقد وُضِع على حامل منتصب ولذا تدلى ذيله فى دلو طعامه.

قالت إحدى النساء: "أوه، اللعنة".

وقالت أخرى: "حسناً، إننى لم!"، لكن الغالبية ضحكت ارتياحاً، لأنه إذا كان عرض الحصان الذى يظهر ذيله عند رأسه بهذا السوء فكيف الحال بعرض الرجال فى الجانب الآخر؟

وصدرت ضجة خارج الخيمة.

"تباً لكم أيها الملاعين! إنك على حق، أنا أريد مالى ثانية ـــ هل تظن أننى سأدفع ربع دولار لمشاهدة حمالة سروال؟ لقد تحدثتم عن أمريكيين

Amly نهضة العرب

يحملون دماً أحمر، حسناً، إننى أحد هؤلاء أمامكم الآن! وأريد استرجاع مالى!".

قلت وأنا أمرر كتفى بين سيدتين كانتا أمامى: "معذرة، سيدتى".

"مرحى سيدتى! علام العجلة؟".

فقلت وأنا أندفع خارجاً: "عذراً، اسمحى لى بالمرور".

كان سيسل والرجل المحمر الوجه يتجادلان. وقد تقدم الرجل، ووضع كلتا يديه على صدر سيسل، ودفعه للخلف. تفرق من كانوا خلف سيسل فاصطدم بالحاشية المخططة لمنصته. فاجتمع خلفه عمال، كانوا يقفون على أطراف أصابعهم، وينظرون فى بلاهة.

فاخترقتهم حتى وصلت إلى سيسل بينما كان الرجل الآخر يجذبه ويهزه بعنف ـ كانت قبضته على مسافة بوصة واحدة من ذقن سيسل حين أمسكت بها وهى فى الهواء ولويتها خلف ظهره. ثم أحطت ذراعى برقبته وسحبته للخلف. فبدأ بالتهديد والتملص ونبش ذراعى بأظافره فضيقت قبضة ذراعى حول عنقه، وبعد جر تارة وسير تارة أخرى ذهبت به إلى نهاية الملهى، ثم دفعت به إلى الأرض فارتمى وسط سحابة من الغبار، وهو يلهث ويحاول استعادة صوته.

وخلال ثوان، مر بى رجلان مسرعان، فحملا الرجل من ذراعيه وجذباه ـ وهو لا يزال يسعل ـ ناحية المدينة. مال الرجلان عليه وربتا ظهره، وقالا له عبارات تشجيع، وعدلا وضع قبعته، التى ظلت على رأسه بأعجوبة.

قال ويد وهو يضرب بيده على كتفى: "عمل جيد. لقد أبليت بلاء حسناً. لتعد الآن. وسوف يتولون هم الأمر هنا".

فقلت وأنا أفحص الخدوش الدامية على ظاهر ذراعى: "من هم؟":

"المهدئون. فهم سيهدئون من غضبه، ويرضونه. وبهذه الطريقة نتقى شره". ثم عاد مخاطباً الجماهير، مصفقاً لمرة واحدة ـ بصوت عال ـ وحك يديه ببعضهما أمامه وقال: "حسناً، أيها الناس، إن كل شىء على ما يرام ولم يعد هنا ما يمكنكم مشاهدته".

Amly نهضة العرب

بدأ الجمهور فى مغادرة هذا المشهد. وحين اختفى الرجل ومرافقوه المصلحون خلف بناية من الطوب الأحمر بدءوا فى التفرق فعلاً، لكنهم استمروا فى النظر للخلف أملاً فى ألا يفوتهم أى مشهد قد يقع ثانية.

اخترق جيمى طريقه بين الزحام وقال لى: "مرحباً، سيسل يريد رؤيتك".

وقادنى بين الناس إلى المؤخرة. كان سيسل يجلس على حافة كرسى قابل للطى. كانت ساقاه وكاحلاه الممتلئان ممدودتين. كان وجهه محمراً ورطباً، وكان يستخدم كتيب البرنامج كمروحة على وجهه. ثم ضرب جيوب ثيابه حتى وصل إلى مقصده، فجذب زجاجة مسطحة مربعة الشكل، وزم شفتيه للخلف. ونزع سدادة الزجاجة بأسنانه. وقذف بها جانباً واستلم الزجاجة بفمه. ثم نظر إلىّ.

حدق فىّ للحظات. والزجاجة ثابتة على فمه. ثم أنزلها وأراحها على بطنه المستدير. ونقر بأصابعه عليها، وتفحصنى ملياً، ثم قال فى النهاية: "لقد أحسنت صنعاً فى ذلك الموقف".

"شكراً سيدى".

"أين تعلمت ذلك؟".

"لا أدرى سيدى. ربما من كرة القدم، أو المدرسة، أو من التشاحن مع أحد الحمقى اعتراضاً على فقدان حقيبته".

نظر إلىّ نظرة طويلة، بينما لا تزال أصابعه تنقر الزجاجة، وشفتاه مزمومتين، ثم قال: "هل ألحقك كامل بالسيرك بعد؟".

"ليس بشكل رسمى يا سيدى".

ثم ساد صمت آخر طويل. ضاقت عيناه بشدة وقال: "هل تعرف كيف تبقى فمك مغلقاً؟".

"نعم أعرف، سيدى".

ثم اجترع رشفة طويلة من الزجاجة وأراح عينيه ثم قال: "حسناً، إذن"، وهو يومئ برأسه ببطء.

Amly نهضة العرب

حل المساء، وبينما كان العارضون يبهجون الجماهير في الحلبة الرئيسية، كنت أقف قرب مؤخرة خيمة أصغر بكثير من الحلبة الكبرى على الطرف البعيد من الساحة، وكانت تقع خلف صف من عربات الراقصات التي يسمح بدخولها مقابل كلمة وخمسين سنتاً لا أكثر. كان مدخل تلك العربات باهت الضوء؛ فقد أضيء بسلسلة من المصابيح الحمراء، تلك التي تبعث الضوء الذي يتناسب مع طبيعة هذا المكان.

كانت مهمتي هي حفظ النظام، والتجول بشكل دوري على جوانب الخيمة وبيدي أنبوب معدني، أهش به المتلصصين، أو أدفعهم لدخول الخيمة مقابل دفع الخمسين سنتاً. وكان من المفترض بي أيضاً، غض الطرف عما شاهدته في العرض الجانبي، رغم أني لا أظن أن صاحبنا الذي كان ساخطاً ظهيرة هذا اليوم سيجد شيئاً يشكو بخصوصه هنا.

كان في الخيمة اثنا عشر صفاً من الكراسي القابلة للطي، كانت كلها مشغولة. وقد تم تمرير الشراب بين الرجال، وكل واحد منهم كان يغب من الزجاجة دون التفات حتى لا يذهب ببصره لحظة عن مسرح العرض.

فالمرأة التي على المسرح كانت رائعة الجمال حمراء الشعر ذات أهداب أطول من أن تكون حقيقية وبجوار شفتيها المتلئتين رسمت شامة. كانت ساقاها طويلتين، وعجزها ممتلئ، ولم تكن ترتدي سوى القليل من الملابس وترقص على أنغام الفرقة الموسيقية الصغيرة على يمينها. سارت في خطوات متسعة على بساط ريشي.

فدارت الطبلة المطوقة على خطوها، ثم توقفت، فتحت فمها في دهشة مصطنعة.

عاينت الحوائط الجانبية، فرأيت زوجاً من الأحذية على أطرافها يتلصصان تحت حافة الخيمة فلوحت بالأنبوب وضربت بها قماش الخيمة. فسمعت صوت نخير، ثم اختفت الأحذية. توقفت لدى المنفذ لأستمع، ثم عدت ثانية لموقعي.

Amly نهضة العرب

تمايلت ذات الشعر الأحمر مع نغمات الموسيقى، وهى تداعب ملابسها بأظافرها المصقولة. كان فى الملابس نسيج مذهب أو مفضض يلمع كلما حركتها للخلف أو الأمام عبر كتفيها ثم نزلت فجأة للأمام على خصرها، ومالت برأسها للخلف، وتراقصت.

فصاح الرجال، ووقف اثنان أو ثلاثة منهم، ملوحين بقبضة أيديهم مشجعين. نظرت إلى سيسل، الذى رمقنى بنظرة تفيد بأن أراقب حركاتهم.

وقفت المرأة، واستدارت، وسارت نحو منتصف المسرح. تعالت الآهات من الجمهور. استدارت بسرعة. وواجهت الجمهور واستمرت فى رقصها بشكل مثير.

"أبدعى، يا صغيرتى، أبدعى".

ردد الناس الهتاف وقد أصبحوا أكثر فظاظة، فأشار لى سيسل بيده للأمام، فتقدمت لأكون أقرب من صفوف الكراسى.

استدارت المرأة ثانية، وهزت رأسها فانسدل شعرها على كتفيها، فتعالت صيحات الابتهاج من الجمهور. ثم توقفت وغمزت بعينيها، فعمت صيحة إعجاب جمهور الرجال.

"أوه، هيا، يا حلوة، أرينا ما لديك!".

فهزت رأسها، وهى تمط شفتيها فيٍ خجل مصطنع.

"أوه، هيا! لقد دفعت خمسين سنتاً".

فهزت رأسها ثانية، وظلت تطرف بعينها باحتشام نحو الأرض.

ثم توقفت بعد لحظات من التأرجح اللطيف.

سادت لحظة التقاط أنفاس جماعية. كانت لحظة صمت خارقة قبل أن ينطلق الرجال بصيحات الابتهاج.

"تلك هى النساء بحق".

"الرحمة يا ربى".

"اللعنة، يا لها من مثيرة".

بدأت تنظر إلى الرجال نظرة دلال.

Amly نهضة العرب

بدأت الطبول تدق، وبدأت هى الرقص بسرعة شديدة.

فصاح الرجال صيحات الرضا.

"أوه هذه هى الإثارة".

"رائعة يا فتاتى، إنك رائعة".

"ليرعاك الله".

اشتد دق الطبول، واشتد رقصها معها.

يا إلهى. إن الاضطراب يمكن أن يسود الخيمة دون أن ألاحظه، فلم يعد فى رأسى نقطة دم واحدة.

استقامت المرأة ثم انحنت انحناءة احترام، وحين وقفت منتصبة كانت ترفع يديها تحية، ورفع الرجال قبعاتهم يلوحون بها، ويحركون قبضات أيديهم، ويصرخون كالحيوانات.

قال سيسل وهو يصعد المسرح وقد شبك يديه: "حسنا يا رجال، فلنُحَىٌ باربرا بحرارة على أدائها، فبدأ الرجال فى التحية وإطلاق الصفير والتصفيق بأيديهم عالياً.

"نعم، ألم يكن ذلك رائعاً؟ إنها فتاة رائعة، وهذا هو يوم حظكم السعيد أيها الرجال. فهى ستكون الليلة فى استقبال عدد محدود من الرجال الذين يريدون مقابلتها بعد هذا العرض. إن هذا فخر حقيقى، يا رجال. فهى جوهرة. إن باربرا جوهرة حقيقية".

"هل رأيتم هذا الجمال من قبل؟".

"يا له من جمال أيها الرجال".

كنت سعيداً لأن شيئاً لم يتطلب تدخلى؛ لأننى حاولت جاهداً المحافظة على رباطة جأشى. فهذه أول مرة أرى فيها امرأة مثيرة، ولا أظننى سأعود كما كنت قبل هذا المشهد.

Amly نهضة العرب

من مجموعة الصور بمتحف سيرك رينجلنج بساراسوتا، فلوريدا

Amly نهضة العرب

الفصل الرابع

قضيت الدقائق الخمسة والأربعين التالية واقفاً فى حراسة خيمة الملابس لـ باربرا بينما هى تستقبل زوارها. كان خمسة فقط ـ من بين من حضروا العرض ـ مستعدين لدفع مقابل هذه المتعة؛ وهو دولاران، وقد شكل الرواد صفاً ثابتاً. دخل الأول، وبعد سبع دقائق خرج مترنحاً من الخيمة ودخل التالى.

بعد مغادرة آخر شخص، ظهرت باربرا على باب الخيمة. كانت عارية سوى من روب حريرى شرقى، لم تكلف نفسها عناء ربطه. كان شعرها غير مصفف ودون ترتيب، وفمها ملطخاً بآثار طلاء الشفاه، وتحمل فى يدها سيجارة مشتعلة.

فقالت وهى تلوح لى بالذهاب: "انتهى الأمر، عزيزى ليس هناك من يريد مقابلتى بعد ذلك"، كانت رائحة الشراب تنبعث من فمها وعينيها.

عدت إلى الخيمة ثانية لأجمع الكراسى أو أساعد فى تفكيك المسرح بينما كان سيسل يعد المال. وفى النهاية، حصلت على دولار إضافى أكثر من الباقين.

كانت الحلبة الكبرى لا تزال مقامة، بارقة كأنها شبح لمسرح رومانى. حدقت فيها وأنصت لما يتهادى من أصوات لردود فعل الجمهور، التى كانت بين الضحك، والتصفيق، والصفير، وأحياناً يكون هناك كتمان

Amly نهضة العرب

تام للأنفاس أو صرخات عصبية. نظرت فى ساعة جيبى فإذا هى العاشرة إلا الربع.

فكرت في مشاهدة جزء من العرض، لكننى خفت من أنى لو عبرت الساحة فقد أطلب فى مهمة أخرى، كان العمال الذين قضوا معظم نهارهم فى النوم فى أية زاوية يجدونها، قد بدأوا فى تفكيك هذه المدينة القماشية الضخمة بنفس الكفاءة التى أقيمت بها. فأسقطت الخيام على الأرض وتداعت الدعائم وبدأت الخيول، والعربات، والرجال فى ترك الساحة، حاملين كل شيء ثانية إلى السكة الحديدية المجاورة.

هبطت إلى الأرض وأرحت رأسى على ركبتيّ.

"جاكوب؟ أهذا أنت يا جاكوب؟".

فرفعت بصرى. فإذا هو كامل يمشي مترنحاً بعرجته، وينظر نحوى قائلاً: "يا الله، بالصدفة فكرت أنه أنت. إن المتلصصين القدامى لم يعودوا يعملون على نحو جيد".

أجلس نفسه بجوارى وأبرز زجاجة صغيرة خضراء اللون. نزع السدادة وأخذ منها جرعة.

"إننى أهرم يا جاكوب. إننى أعانى فى نهاية كل يوم. اللعنة إننى أعاني الآن وما انقضى اليوم بعد. إن السيرك الطيار سينفض بعد ساعتين تقريباً، وسنبدأ فى القيام بالشيء ذاته بعد خمس ساعات من الانتهاء. إن هذه الحياة لم تعد تصلح لعجوز مثلى".

مرر لى زجاجة شرابه.

فقلت له وأنا أنظر إلى ذلك السائل الكريه بداخلها: "ما هذا بالله عليك؟".

فقال وهو يستردها ثانية: "إنه شراب منبه".

"هل تشرب المنبهات؟".

"نعم، وما المشكلة؟".

ثم جلسنا فى صمت للحظات.

نهضة العرب Amly

قال كامل فى النهاية: "هذا التحريم اللعين، إن هذا الشراب كان ذا مذاق أفضل بكثير قبل أن تمنعه الحكومة. إنه لايزال يؤدى الغرض لكن مذاقه كريه. وهو عار علىّ، إلا أنه ما يدفع جسدى الهرم هذا للعمل حتى الآن. لقد انتهت صلاحيتى. إننى لم أعد أصلح إلا لبيع التذاكر، وأحسب أيضاً أننى أكثر حمقاً من أن أصلح لعمل كهذا".

نظرت إلى وجهه فوجدت أن رأيه سديد فقلت له: "ألا يوجد أى عمل آخر يمكنك القيام به بدلاً من ذلك، ربما وراء الكواليس؟".

"إن بيع التذاكر هى المحطة الأخيرة".

"ماذا ستفعل عندما تصبح غير صالح للعمل بالمرة؟".

"أظن أننى سأكون حينها على موعد مع بلاكى"، ثم استدار نحوى قائلاً فى إيحاء للأمل: "أوه، هل معك أى سجائر؟".

"كلا، للأسف".

تنهد قائلاً: "وأنا لم أفترض أن أجد معك".

ثم جلسنا فى صمت، نراقب الفريق تلو الآخر ينقل الأدوات، والحيوانات، والخيام إلى القطارات. وقد خرج العارضون من الجانب الخلفى للحلبة الكبرى واختفوا فى غرف ملابسهم ثم ظهروا ثانية فى ملابسهم العادية. وقد توقفوا فى مجموعات، يضحكون ويتحدثون، وبعضهم ما زال يمسح وجهه. إنهم مبهجون حتى خارج العروض. وقد انتشر العمال السود فى المكان كله وقد احتلوا العالم ذاته لكن فى بعد مختلف على ما يبدو، فلا تلاقى بين البعدين.

قاطع كامل تأملاتى قائلاً: "هل أنت طالب جامعى؟".

"نعم سيدى، إننى كذلك".

"لقد توقعت ذلك".

ثم عرض علىّ زجاجته ثانية، لكنى هززت رأسى رافضاً.

"هل أنهيت دراستك؟".

فقلت: "لا".

Amly نهضة العرب

"ولماذا؟".

لم أحر جواباً.

"كم عمرك يا جاكوب؟".

"ثلاثة وعشرون عاماً".

"إن لدىّ ولد فى مثل سنك".

توقف عزف الموسيقى، وبدأ أهالى البلدة يهرولون خارج الحلبة الكبرى. ثم توقفوا يتساءلون فى حيرة عما حدث لعرض الوحوش الذى كانوا قد مروا به. وأثناء خروجهم من الناحية الأمامية للخيمة، كان جيش من الرجال قد اقتحمها من الخلف يجمع المدرجات والمقاعد وحواجز الحلبة، التى كانت تصدر الضجيج وهى تُعبأ داخل العربات، لقد بدأ هدم الحلبة حتى قبل أن يغادرها الجمهور.

بدأ كامل يسعل وقد ثمل من الشراب، وقد كان الجَهْد قد نال من جسده كله. فهممت لأرى ما إذا كان يحتاج إلى ضربة على ظهره لكنه رفع يده ليوقفنى عن ذلك. ثم نخر، وتنحنح، ثم بصق. ثم أكمل ما فى الزجاجة، ومسح فمه بظهر يده وهو ينظر نحوى، ويتفحصنى بعينيه من قمة رأسى حتى أخمص قدمى.

ثم قال: "اسمع، إننى لا أحاول التدخل فى شؤونك، لكننى أعلم أنك لم تبدأ تشردك هذا من زمن طويل. فأنت نظيف جداً، وملابسك بحالة جيدة للغاية، ولا تملك شيئاً فى حياتك، وتجمع ما يلاقيك فى طريقك ــ وربما لا يكون ما تجمعه شيئاً حسناً، لكنك تجمعه كله بنفس الطريقة. أعلم أننى لا أجيد الكلام، لكن فتى مثلك لا ينبغى أن يظل عاملاً. لقد كنت كذلك، وهذه ليست حياة يتمناها المرء". ثم أراح باطن ذراعيه على ركبتيه وأدار وجهه نحوى وقال: "إن كانت لديك حياة، فعد إليها، أظن أن ذلك ما ينبغى عليك فعله".

مرت لحظة صمت قبل أن أجيب، ثم أجبته فى صوت مكسور: "ليس لدىّ حياة أعود إليها".

Amly نهضة العرب

فرمقنى للحظات أطول ثم أومأ برأسه وقال: "إننى آسف للغاية لسماع هذا".

تشتت جموع الجماهير، وهى تتحرك من الحلبة نحو ساحة الانتظار، ثم إلى أطراف البلدة. ومن خلف الحلبة ارتفعت صورة ظلية ببالون نحو السماء، وتبعها عويل أحد الأطفال. ثم ضحك ثم صوت محرك سيارات وأصوات ترتفع قد ملأتها الإثارة.

"هل رأيت لأى درجة انثنت بجسدها؟".

"لقد كدت أموت حين أسقط المهرج سرواله".

"أين جيمى ــ هانك، هل رأيت جيمى؟".

وفجأة قام كامل زاحفاً على قدميه وهو يقول: "هو! ها هو ذا. ها هو ذاك السافل".

"من هو ذاك؟".

"إنه العم آل! هيا لنحدثه فى إلحاقك بالعمل فى العرض".

واستقام بسرعة لم أتوقع قدرته عليها، فنهضت خلفه أتبعه.

ليس من الممكن أن يخطئ المرء فى معرفة العم آل. إنه قائد الحلبة وهو أمر واضح تماماً من هيئته، فهو يرتدى معطفاً قرمزياً وبنطال ركوب خيل أبيض وقبعة عالية وله شارب مهذب. كان يسير بخطوات واسعة خلال الساحة كقائد فرقة موسيقية متنقلة، وقد برزت بطنه للأمام وهو يوزع الأوامر فى صوت هادر.

توقف حتى مر بيت الأسد من أمامه ثم تابع سيره ماراً بمجموعة من الرجال تجاهد فى حزم لفات قماش الخيام. ودون أن يوقف سيره صفع أحد الرجال على رأسه، فأصدر الرجل صوتاً كالعواء واستدار، وهو يحك أذنه من أثر الضربة، وكان العم آل كان قد مر، وخلفه تابعوه.

قال كامل وهو يستدير بوجهه فوق كتفيه: "لقد تذكرت، مهما حدث، لا تذكر أمام العم آل شيئاً عن رنجلينج".

"ولماذا؟".

Amly نهضة العرب

"افعل ما أقوله لك وحسب".

عدا كامل مسرعاً نحو العم آل وقطع طريقه وقال: "سيدى، ها أنت أخيراً. هل لى بكلمة معك سريعاً؟"، كان صوته وهو يحادثه مصطنعاً ومتباكياً.

فقال آل بصوت هادر: "ليس الآن يا فتى، ليس الآن"، وهو يمر بنا فى خطوة عسكرية مثل أولئك النازيين الذين نراهم فى عناوين الأخبار أثناء مشاهدة الأفلام. فسار كامل بعربته فى وهن فى أثره، وهو يدفع رأسه فى اتجاهه ثم يميله ثانية ثم يعيده فى الناحية الأخرى وكأنه كلب يشعر بالخزى.

"إننى لن أستغرق أكثر من دقيقة يا سيدى. إننى فقط أريد أن أسأل إن كانت هناك حاجة لرجال فى أحد الأقسام".

"هل تفكر فى تغيير عملك أم ماذا؟".

فارتفع صوت كامل وتحسن وهو يقول: "أوه، كلا يا سيدى. إننى سعيد حيث أنا. نعم سيدى. إننى سعيد كحيوان بطلينوس"، ثم قهقه كالمجنون.

اتسعت المسافة بين الرجلين فتعثر كامل ثم توقف قائلاً عبر المسافة المتزايدة: "سيدى؟". ثم توقف وقال: "سيدى؟".

كان العم آل قد اختفى بين الناس، والخيول، والعربات.

فقال كامل ساخطاً وهو يمسك بقبعته ويرميها على الأرض: "اللعنة، اللعنة!".

قلت له: "لا عليك يا كامل، إننى أقدر محاولتك".

فصاح: "لا، إنه وضع سيئ بالفعل".

"كامل، أنا ـــ"

"اصمت أرجوك. إننى لا أريد سماع ذلك. إنك فتى جيد، ولن أقف هنا وأراك تعيساً لمجرد أن هذا العجوز السمين الهائج لا يجد وقتاً لسماعى.

Amly نهضة العرب

إنني لن أسمح لنفسي بذلك، ولذا عليك أن تحترم من يكبرونك ولا تتسبب في مضايقتي".

كانت عيناه تحترقان غضباً وهو يتحدث.

ثم ملت لأسفل، والتقطت قبعته، ونظفت ما علاها من غبار، ثم مددت يدى له بها.

بعد دقيقة، أخذها من يدى وقال بأسلوب فظ: "حسناً إذن، أظن أن هذا حسن".

أخذنى كامل إلى إحدى العربات وطلب منى أن أظل فى الخارج. فملت على إحدى العجلات البارزة الضخمة وأمضيت وقتى أولاً فى استخراج ما استقر تحت أظافرى ثم مضغ قطع كبيرة من الأعشاب. وفى إحدى اللحظات سقط رأسى للأمام فى غفوة من النعاس.

ظهر كامل بعد نحو ساعة، مترنحاً، وبإحدى يديه قارورة وباليد الأخرى سيجارة ملفوفة وجفونه ترف كصارى مركب.

فقال من خلفى: "هذا هو إيرل. إنه سيهتم بك".

خطا رجل أصلع إلى أسفل العربة. وكان ضخماً، وكانت رقبته أعظم من رأسه. وكانت الأوشام ذات اللون الأخضر تغطى عظام أصابعه وذراعه ذى الشعر الكثيف. فمد يده وقال:

"أهلاً بك".

فقلت فى ارتباك: "أهلاً". واستدرت نحو كامل الذى سار مترنحاً فى الاتجاه العام للقطار. وكان يغنى بصوت بشع.

فوضع إيرل يده على فمه وقال له: "اصمت يا كامل، اذهب والحق بالقطار قبل أن يفوتك".

فسقط كامل على ركبتيه.

قال إيرل: "يا إلهى، انتظر هنا، سأعود بعد دقائق".

Amly نهضة العرب

ثم سار باتجاه العجوز وحمله من على الأرض بسهولة وكأنه يحمل طفلاً، فترك كامل ذراعيه وساقيه ورأسه يتدليان على كتفى إيرل، وهو يقهقه ويتثاءب.

أجلس إيرل كامل على حافة باب إحدى العربات، وتشاور مع أحد الأشخاص بالعربة، ثم عاد.

ثم قال: "سيقتل هذا العجوز بسبب ما يتعاطاه من مخدرات وخمور. فإن لم يمت بعلة في بطنه، فسيسقط يوماً ما من هذا القطار اللعين. إننى لا ألمس هذه المواد أبداً".

كنت لا أزال منزرعاً فى مكانى الذى تركنى فيه، فنظر لى مستغرباً: "هل ستأتى أم لا؟".

حين انطلق الجزء الأخير من القطار، كنت قد تكومت تحت أحد الأسرَّة فى عربة نوم محشوراً فى مقابل شخص آخر. كان هو المالك الأساسى لهذا المكان لكن تم إقناعه بأن يلحقنى به ساعة أو ساعتين مقابل الدولار الذى كان معى. كان منزعجاً على أية حال، وقمت أنا بضم ركبتىَ إلى صدرى حتى أضغط نفسى فى المكان قدر الإمكان.

كانت رائحة الأجساد والملابس غير النظيفة تعم المكان. كانت الأسرّة مكدسة لثلاثة أدوار، وكان السرير يحمل فرداً واحداً على الأقل، وأحياناً اثنين، والحال نفسه فى الفراغات التى تحت الأسرّة. وكان الرفيق الذى يحتل الفراغ الأرضى بجوارى، يكور بطانية رمادية رقيقة محاولاً دون جدوى أن يصنع منها وسادة.

ووسط أصوات مختلطة تهادى أحد الأصوات قائلاً بالبولندية: *"اوجيكز ناسز كترويزجست نيبى، سويش زى إيمى توى، بريجدز كروليستو توى -"*

فقال مضيفى وهو يطل برأسه داخل الممر: "يا إلهى، تحدث بالإنجليزية أيها البولندى اللعين"، ثم عاد ثانية إلى أسفل السرير وهو يهز رأسه قائلاً: "يبدو أن بعض هؤلاء الرجال قد أتوا لتوهم من المركب اللعين الذى أقلهم من بلادهم".

Amly نهضة العرب

استمر الرجل في كلامه البولندى قائلاً: *"ـ آى نى وودز ناسزنا بوكسزين الى لاس تسباو اودى تسيجو، آمين".*

فارتكنت على الحائط وأغلقت عينى وقلت: "آمين".

تمايل القطار، فبرقت الأضواء لدقيقة ثم انطفأت. ومن مكان ما فى المقدمة صدر دوى صافرة. بدأنا فى السير وعادت الأضواء ثانية. كنت متعباً لدرجة تفوق الوصف وكان رأسى يصطدم بالحائط بلا هوادة نتيجة اهتزاز القطار بشدة.

استيقظت بعد فترة من الوقت لأجد نفسى مباشرة أمام حذاء عمل ضخم طويل.

"هل أنت مستعد إذن؟".

هززت رأسى، محاولاً استجماع معنى الكلام.

ثم سمعت أوتاراً تصر وتفرقع. ثم رأيت ركبة، ثم وجه إيرل يقول وهو ينظر لى من تحت السرير: "أمازلت هنا؟".

"نعم، أنا آسف".

فاهتززت وحاولت جاهداً استخراج قدمى.

فقال مضيفى وهو يمدد رجليه: "الحمد لله".

فقلت بالبولندية: "بيردول زى".

سمعت ضحكة أتت من سرير على بعد أقدام منى.

قال إيرل: "هيا، إن آل قد يكون لديه وقت يكفى للاسترخاء، ولكن ليس للإزعاج، وأظن أن هذه هى فرصتك الآن".

ثم قادنى خلال عربتى نوم أخريين. وحين وصلنا الرصيف فى النهاية، كنا فى مواجهة مؤخرة عربة مختلفة تماماً. فمن خلال نافذتها، استطعت رؤية خشبها اللامع، ومصابيح الأضواء المثبتة داخلها.

ثم استدار إيرل نحوى وقال: "هل أنت مستعد؟".

فقلت: "بالتأكيد".

Amly نهضة العرب

والحقيقة أننى لم أكن كذلك. جذبنى بشدة من مؤخرة عنقى ودفعنى فى إطار الباب بيده وبيده الأخرى جذب الباب بشدة ففتحه ثم دفعنى. فسقطت للأمام، ويداى ممدودتان. ثم وقفت أمام قضيب نحاسى واستقمت فى وقفتى، وأنا أنظر إلى إيرل فى اندهاش من تصرفه هذا. ثم رأيت بقية من بالغرفة.

قال العم آل وهو يغوص فى أعماق كرسى مجنح: "ما هذا؟"، وكان جالساً إلى طاولة ومعه ثلاثة رجال آخرين، وكان يهز سيجاراً ضخماً بين إبهام وسبابة إحدى يديه، وباليد الأخرى يحمل خمس ورقات لعب رصت بشكل مروحى. وعلى الطاولة استقر إلى جواره كأس من الشراب وخلفه تماماً تكدست أكوام من فيشات البوكر.

"لقد قفز إلى القطار يا سيدى. وقد وُجد وهو يتسلل إلى إحدى عربات النوم".

فقال آل: "هل هذا صحيح؟". وبتكاسل أخذ نفس دخان من سيجاره ثم وضعه على حافة منفضة السجائر. ثم مال للوراء ثانية، وأخذ يتفحص أوراق لعبه والدخان يتسرب من بين أركان فمه، ثم قال وهو يميل للأمام ويقذف بكومته من الفيشات فى الصندوق: "سأرى أوراقك الثلاثة، وأزيدك بخمس".

قال إيرل: "هل تريد منى أن أقذف به من باب القطار يا سيدىّ؟"، ثم تقدم ورفعنى عن الأرض من طية سترتى. فتوترت وقبضت بيدى على ذراعيه، لأمنعه إن حاول أن يقذف بى ثانية. ألقيت النظرات على وجه العم آل والنصف السفلى من وجه إيرل ــ وهو ما يمكننى رؤيته فقط. ثم كررت ذلك ثانية.

فرد العم آل أوراقه ووضعها على الطاولة بعناية وقال: "ليس الآن، يا إيرل"، ثم مد يده نحو سيجاره ليسحب منه بعض الدخان، وقال "أنزله".

أنزلنى إيرل إلى الأرض وظهرى نحو العم آل. وبحركة تنم عن بعض الحنان قام بهندمة سترتى ثانية.

Amly نهضة العرب

قال العم آل: "تقدم".

فتقدمت وأنا أشعر بالامتنان والسعادة لابتعادى عن إيرل.

ثم قال وهو ينفث دائرة دخان من فمه: "إننى لا أصدق أننى ابتهجت بالترابك، ما اسمك؟".

"جاكوب جانكوسكى يا سيدى".

"وماذا، بالله عليك، تظن نفسك فاعلاً على قطارى يا جاكوب جانكوسكى؟".

فقلت: "أبحث عن عمل".

فاستمر العم آل فى التحديق إلىّ وهو ينفث دوائر الدخان فى كسل. ثم وضع يده على بطنه، وهو يضرب بها ببطه على معطفه.

"هل سبق لك العمل فى سيرك من قبل، يا جاكوب؟".

"كلا يا سيدى".

"هل ذهبت إلى أية عروض من قبل؟".

"بالطبع، ذهبت يا سيدى".

"أى عرض حضرت؟".

فقلت: "حضرت عرض رينجلنج براذرز"، وسرت شهقة عنيفة جعلتنى أدير ظهرى، فإذا بعينى إيرل تنظران إلىّ فى تحذير.

فأضفت بسرعة وأنا أستدير نحو العم آل: "لكنه كان عرضاً بشعاً. كان بشعاً بالفعل".

فقال العم آل: "هل هذا صحيح؟".

"نعم يا سيدى".

"هل رأيت عرضنا إذن يا جاكوب؟".

فقلت وأنا أشعر أن حمرة تسرى فى وجنتيّ: "نعم شاهدته يا سيدى".

فسأل: "وما رأيك فيه؟".

"إنه... رائع".

"فما أكثر ما أعجبك فيه؟".

Amly نهضة العرب

قبضت أنفاسي وحبست الكلام للخروج مع هواء الزفير وقلت: "أعجبني عرض الخيول البيضاء والسوداء، والفتاة التي ترتدي الثياب الوردية اللون ذات الترتر اللامع".

"هل سمعت ذلك يا أوجست؟ إن الفتى أعجب بفتاتك مارلينا".

فقام الرجل الذي كان يواجهه واستدار ـ إنه ذلك الرجل الذي كان في خيمة عرض الوحوش إلا أنه لا يرتدي قبعته العالية. كان وجهه الواضح المعالم جامداً لا تبدو عليه انفعالات، وشعره الناعم يلمع ببريق الكريم العطري الموضوع عليه. وكان لديه هو الآخر شارب، إلا أنه على غير هيئة شارب العم آل؛ ينتهي عند منتهى شفتيه.

ثم سأل العم آل: "فما الذي ترى أن بإمكانك القيام به معنا في هذا العرض؟"، ثم مال للأمام والتقط كأسه من الطاولة وعب ما فيه وابتلعه دفعة واحدة فحضر نادل، كأنه ظهر من الخفاء، وأعاد ملء الكأس.

"سأقوم بأي عمل أكلف به وحسب. ولكن إن كان بالإمكان، فإني أفضل العمل مع الحيوانات".

فقال: "الحيوانات، هل سمعت ما قاله يا أوجست؟ إن الفتى يريد العمل مع الحيوانات. تريد حمل الماء لسقي الفيلة حسب ظني، أليس كذلك؟".

فارتفع حاجب إيرل وقال: "لكننا يا سيدي ليس لدينا أية ـــ"

فارتج العم آل وهو يقفز واقفاً ويقول صارخاً: "اصمت!"، ثم تحركت يده نحو الكأس فأوقعته على بساط الأرضية. فحدق فيها وضم قبضته وازداد وجهه قتامة أكثر وأكثر. ثم أظهر أسنانه وجعل يحك بعضها ببعض في صوت غير آدمي، وهو يطأ الكأس بقدمه مرة بعد مرة.

ثم سادت لحظة صمت، لم يخرقها سوى الدق المنتظم لقضبان السكة الحديدية أثناء مرور القطار عليها. ثم انحنى النادل إلى الأرضية ليجرف الزجاج.

Amly نهضة العرب

أخذ العم آل نفساً عميقاً ثم استدار نحو النافذة وقبعته مشبوكة على ظهره، وحين التفت إلينا فى نهاية الأمر كان قد عاد لوجهه اللون الوردى ثانية، وقد تكلف ابتسامة مصطنعة على شفتيه.

ثم قال وهو ينطق اسمى وكأنه شيء بغيض فى حلقه: "سأخبرك الآن بحقيقة الأمر يا *جاكوب جانكوسكى*. إننى قد رأيت آلافاً من عينتك. هل تظن أنى لا أستطيع قراءة ما برأسك ككتاب مفتوح؟ ما الأمر إذن ــ هل تشاجرت مع أمك؟ أم أنك تريد عيش مغامرة بسيطة أثناء عطلاتك الدراسية؟".

"كلا يا سيدى، الأمر ليس على هذا النحو".

"إننى لا أهتم بهذا الأمر اللعين ــ فحتى لو منحتك وظيفة فى هذا العرض فلن تصمد لأسبوع، ولا حتى ليوم. إن هذا العرض بمثابة مضخة بترول لا يعمل عليها إلا الأشداء من الرجال. ولكنك لا تعلم أى شيء عن الشدة، أليس كذلك يا فتى الجامعة؟".

ثم حدق إلىّ كأنه يدفعنى للكلام ثم قال وهو يلوح بيديه: "والآن اغرب عن وجهى. أره طريق الباب يا إيرل. وانتظر حتى ترى إشارة الضوء الأحمر قبل أن تقذف به ــ لا أريد أن تأخذك شفقة فى إيذاء *هذا الطفل المدلل*".

فقال أوجست وهو يتكلف الابتسامة وقد وضح عليه الاستمتاع بالأمر: "انتظر لحظة يا آل، هل هو محق؟ هل أنت طالب جامعى بالفعل؟".

فقلت وأنا أشعر أننى فأر تتلاعب به القطط: "لقد كنت كذلك".

ثم قال وبريق عينيه يمتلئ سخرية: "وماذا كنت تدرس، الفنون الجميلة مثلاً؟ أو ربما الرقص الفلكلورى الرومانى؟ أو النقد الأدبى الأرسطى؟ أو ربما أتممت ــ سيد جانكوسكى ــ شهادة جامعية فى عزف الأكورديون؟".

"لقد كنت أدرس الطب البيطرى؟".

Amly نهضة العرب

تغيرت هيئته تماماً على الفور وهو يردد: "كلية الطب البيطرى؟ هل أنت طبيب بيطرى؟".

"ليس تماماً يا سيدى".

"ماذا تعنى بليس تماماً؟".

"إننى لم أدخل الامتحانات النهائية".

"ولماذا لم تفعل؟".

"هذا ما حدث".

"وهل كانت هذه الامتحانات النهائية خاصة بالسنة النهائية؟".

"نعم".

"فى أية جامعة كنت تدرس؟".

"كورنيل".

تبادل أوجست والعم آل النظرات.

ثم قال أوجست: "لقد قالت مارلينا إن سيلفر ستار كان فى حالة صحية سيئة وأرادتنى أن أتحدث مع مدير الرحلة بشأن إيجاد طبيب بيطرى. ألا ترى أنه لا داعى الآن لمخاطبة المدير؟".

فقال العم آل: "وماذا تقترح؟".

"لندع الفتى يلق نظرة فى الصباح".

"وأين نضعه الليلة برأيك، ونحن قد تخطينا مقدار حمولتنا بالفعل؟"، ثم تابع وهو يلتقط سيجاره من حافة المنفضة وينفضه عليها: "أرى أن نضعه فى إحدى العربات المسطحة وحسب".

فقال أوجست: "لقد كنت أفكر فى الوصول به إلى عربة الخيول".

فتجهم العم آل وقال: "ماذا؟ مع خيول مارلينا؟".

"أتقصد فى المنطقة التى تستخدمها الماعز؟ أليست تلك هى المنطقة التى ينام فيها ذلك القذر الضئيل ــ أوه، ما اسم هذا الرجل؟"، ثم تابع وهو يطقطق أصابعه: "ستينكو؟ كينكو؟ ذلك المهرج الذى يصطحب كلباً؟".

فابتسم أوجست قائلاً: "نعم، هناك بالضبط".

Amly نهضة العرب

فقادنى أوجست عائداً خلال عربات النوم حتى وصلنا إلى رصيف صغير يواجه مؤخرة عربة تخزين.

استفسر أوجست بلطف قائلاً: "هل أنت راسخ القدم يا جاكوب؟".

فأجبته: "أظننى كذلك".

فقال: "هذا جيد" وبدون توان، مال للأمام، ممسكاً شيئاً من جانب عربة التخزين وتسلق برشاقة نحو سطح العربة.

فصرخت قائلاً: "يا إلهى"، وأنا أنظر عالياً نحو المكان الذى اختفى فيه أوجست ثم رحت أنظر لأسفل حيث زوج القضبان العارية والعقد التى تحت عربات القطار. اتجه القطار نحو أحد المنحنيات، فاندفعت بيدى كى أحفظ بها توازنى والتقطت أنفاسى بصعوبة.

ثم أتانى صوت صارخ من السطح يقول: "هيا اصعد".

"كيف فعلت هذا؟ وما الذى أمسكت به؟".

"هناك سلم على جانب العربة مباشرة. مل للأمام كى تصل إليه وستجده".

"وماذا لو لم أجده؟".

"أظن أن ذلك سيكون إذن وقت الرحيل، أليس كذلك؟".

تقدمت بحذر نحو الحافة. استطعت رؤية طرف سلم حديدى رفيع.

وجهت بصرى نحوه ومسحت بيدى على أفخاذى. ثم خطوت للأمام.

التقت يدى اليمنى بجانب السلم، وتمسكت باليسرى بشدة حتى بلغت من الجانب الآخر للسلم. دفعت قدمى على العارضة وتشبثت بقوة على السلم، محاولاً التقاط أنفاسى.

"حسنا، هيا اصعد إذن".

نظرت لأعلى فإذا بأوجست ينظر نحوى من أعلى مبتسماً، والرياح تحرك شعره.

صعدت إلى السطح، فتحرك هو. وحين جلست إلى جواره وضع يده على كتفى وقال: "استدر. أريدك أن ترى شيئاً".

Amly نهضة العرب

أشار نحو الطول الممتد للقطار. كان ممتداً خلفنا كأنه حية ضخمة وكانت العربات تهتز وتنحنى وهى تمر بأى منحنى.

قال أوجست: "إنه منظر جميل يا جاكوب، أليس كذلك؟"، فعدت ببصرى إليه. كان ينظر نحوى مباشرة وعيناه تلمعان وهو يقول: "إنه ليس فى جمال مارلينا فتاتى، رغم ـ هاى، هاى"، وأخذ يضرب لسانه ويغمز بعينيه.

وقبل أن أتمكن من الاعتراض بدأ هو فى الرقص على سطح القطار.

رفعت رقبتى لأعد عربات التخزين. وكانت ست عربات.

"أوجست؟".

فقال وقد توقفت فى نصف استدارة: "ماذا؟".

"أى عربة تلك التى ينام فيها كينكو؟".

فقال وهو يهبط بشكل مفاجئ: "إنها هذه. ألست فتى محظوظاً؟"، ثم تسلل داخل فتحة السقف واختفى.

فخطوت سريعاً على ركبتى ويدى وناديته:

"أوجست؟".

فعاد الصوت من الظلام يرد علىّ: "ماذا؟".

"هل هناك سلم؟".

"لا، أسقط نفسك بالداخل وحسب".

انخفضت بجسدى داخل العربة وتعلقت بأطراف قدمى، ثم اصطدمت بأرضية العربة، وتلقيت تحية مفاجئة من الصهيل.

تسللت خيوط رفيعة من ضوء القمر خلال الجوانب المضلعة لعربة التخزين. كان على أحد جانبىّ صف من الخيول، وكان الجانب الآخر مسدوداً بجدار من الواضح أنه يدوى الصنع.

تقدم أوجست بالداخل بضع خطوات ثم دفع الباب بالحائط من خلفه، وانفتح كاشفاً عن غرفة تستعمل كبديل مؤقت مضاءة بمصباح من الكيروسين. كان المصباح يستقر على صندوق موضوع بشكل مقلوب على

Amly نهضة العرب

سرير نقال. كان هناك قزم ينام على بطنه على هذا السرير وأمامه كتاب ضخم مفتوح. كان في مثل سني، ولديه شعر أحمر كالذى لدىّ. لكن، وعلى غير حالى، كان شعر لحيته ورأسه كثيفاً وكأنه قش مفروش على فوح. وكان وجهه، ورقبته، وذراعاه، ويداه تمتلئ بالنمش على نحو مخيف.

قال أوجست في اشمئزاز: "كينكو".

فرد القزم بنفس القدر من الاشمئزاز: "أوجست".

فقال أوجست وهو يتجول في الغرفة الصغيرة: "هذا جاكوب"، كان يميل ويتلمس الأشياء في الغرفة وهو يتجول ثم تابع : "سوف ينام معك هنا للفترة".

فتقدمت نحوه ماداً يدى قائلاً: "مرحباً".

تجاهل كينكو يدى ببرود ثم عاد ببصره إلى أوجست قائلاً: "ما هو؟".

"اسمه جاكوب".

"لقد قلت ما هو ولم أقل من هو".

"سيساعد بالعمل في عروض الحيوانات".

فقفز كينكو على قدميه وقال: "في عروض الحيوانات؟ انس ذلك. إنني مارض، وليس هناك أى مجال لينام معى عامل في غرفة واحدة".

صدرت من خلفه زمجرة، ولأول مرة في حياتى أرى كلبا من نوع جاك رسيل. كان يقف في نهاية السرير وشعر عنقه مرفوع لأعلى.

فقال أوجست ببطء: "إننى مدير قطاع الخيول والمشرف على الحيوانات وبعد من فيض كرمى السماح لك بالنوم هنا أصلاً. ومن فيض كرمى أيضاً أن هذا المكان لا يكتظ بالعمال. وبالطبع يمكننى تغيير الوضع في أية لحظة. هذا بالإضافة إلى أن هذا الرجل هو البيطرى الجديد للعرض ـــ من جامعة كورنيل ـ مما يجعله في نظرى أهم قدراً منك بكثير. وربما كان من الجدير بك أن تعرض عليه سريرك".

Amly نهضة العرب

بـرق ضـوء الـمصباح علـى عينـى أوجـست أثنـاء حديثـه وكانـت شـفتاه ترتجفان تحت بريق المصباح الخافت.

وبعد لحظة، استدار نحوى وانحنى وهو يـضرب الأرض بقدميـه وقـال: "تصبح على خير يا جاكوب. إننى على ثقة من أن كينكـو سـيريحك هنـا، أليس كذلك يا كينكو؟".

كان كينكو يحدق إليه.

هذب أوجست شعره على جانبى رأسه بكلتا يديه ثم غادر مغلقاً البـاب خلفه. ظللت محدقاً فى الجدار الخشبى المشكل بحـدة حتـى بـدأت أسمـع صوت خطواته فوقنا. ثم استدرت.

كان كينكو والكلب يحدقان إلىّ. ثم رفع الكلب لسانه وبـدأ فـى يزمجـر بغضب.

قضيت ليلتى على بطانية حصان مغضنة بجوار الحائط، وبعيـداً عـن السرير قدر المستطاع،وكانت البطانيـة رطبـة، وأيـا مـن كـان يغطـى منافـذ العربة بها حين تحولت هذه إلى غرفة، فقد قام بعمل قذر فعـلاً، فقـد نـال المطر من البطانية وامتلأت بالفطريات والعفن.

استيقظت فى وثبة وبدأت أحك ذراعى ورقبتى بـشكل عنيـف. لا أدرى إن كان ذلك من أثر النوم على فرش حصان أم بسبب الهـواء وأنـا لا أدرى. كان ما يظهر من السماء خلال فتحات العربة أسود، وكـان القطـار لا يـزال فى حركته.

استيقظت بسبب حلم، ولكننى لم أستطع تذكر تفاصيله. أغلقت عينىّ، محاولاً الوصول بشكل متردد إلى زوايا عقلى للتذكر.

لقد كانت أمى. كانت تقف فى مزرعة مـن عبـاد الـشمس وترتـدى ثوبـاً أزرق وتنشر الغسيل على أحد الحبال. كانت تضع فى فمها مشابك الغسيل الخشبية وتضع المزيد منها فى مئزر حول خـصرها. وكانـت مـشغولة بنـشر ملاءة على حبل الغسيل، وهى تغنى بالبولندية فى هدوء.

ثم ومض ضوء كالبرق.

Amly نهضة العرب

وكنت أنا مستلقياً على الأرض أتطلع إلى امرأة عاريـة، وشـعرت بموجـة من الإثارة الهائلة، ثم الندم، ثم غثيان بعد ذلك.

وعندئذ كنت...

كنت...

Amly

نهضة العرب

الفصل الخامس

لقد كنت الآن أنتحب كعجوز أحمق. وهذا ما أنا عليه بالفعل.

أظن أنني كنت نائماً. وأقسم إنني منذ ثوان معدودة كنت فى الثالثة والعشرين من العمر. والآن ها أنا ذا فى ذلك الجسد البائس الجاف.

شهقت ومسحت دموعى الحمقاء، محاولاً استجماع نفسى لأن الفتاة قد عادت، لقد كانت تلك الفتاة الممتلئة التى ترتدى الزى الوردى. وإما أن هذه الفتاة كانت تعمل طوال الليل، أو أننى فقدت إحساسى بقدوم النهار. وأنا أكره ألا أعرف الأمر بالضبط.

تمنيت أيضاً لو استطعت تذكر اسمها، لكننى لم أستطع ذلك. وهذا ما يحدث حين تكون فى التسعين أو فى الثالثة والتسعين من العمر.

قالت الممرضة وهى تنقر مفتاح الإضاءة: "صباح الخير سيد جانكوسكى"، ثم اتجهت نحو النافذة وعدلت الستائر الأفقية للنافذة لتسمح بدخول ضوء الشمس وهى تقول: "لقد حان وقت النهوض والابتهاج".

فغمغمت قائلاً: "ولم؟".

فقالت وهى تتجه نحو جانب سريرى: "لقد منّ الله الكريم عليك بيوم آخر فى الحياة"، ثم ضغطت زراً فى سياج سريرى، فبدأ السرير فى الطنين وبعد ثوان كنت قاعداً فى استقامة على السرير، وتابعت هى حديثها قائلة: "فضلاً عن أنك ستذهب لعرض السيرك غداً".

Amly نهضة العرب

السيرك! هذا يعنى أننى لم أفقد يوماً أثناء نومى.

فتحت علبة ترمومتر مخصص للاستخدام مرة واحدة ووضعته فى أذنى. ولقد كان حالى هكذا كل صباح. فأنا مثل قطعة لحم أخرجت من قعر الثلاجة، صلاحيتها محل شك إلى أن يثبت العكس.

وبعد أن أخذ الترمومتر القراءة، رمت الممرضة به فى سلة المهملات وكتبت شيئاً على تقرير حالتى الصحية، ثم تناولت طوق قياس ضغط الدم من على الحائط.

وسألت وهى تلف الطوق حول ذراعى وتنفخ فيه الهواء: "هل تريد الإفطار فى غرفة الطعام هذا الصباح، أم تحب أن آتيك بإفطارك هنا؟".

"أنا لا أريد إفطاراً".

قالت وهى تدس سماعة تحت كوعى وتراقب مؤشر قياس الضغط: "كُفْ عن هذا يا سيد جانكوسكى. فعليك أن تحافظ على قوتك".

حاولت أن ألتقط اسمها من البطاقة التى تضعها على صدرها وأنا أقول: "ولماذا؟ هل سأدخل سباق الماراثون؟".

قالت: "بل لكى لا تصاب بأذى، وحتى لا يفوتك حضور عرض السيرك"، وبعد تفريغ الطوق من الهواء نزعت الجهاز عن ذراعى وعلقته ثانية على الحائط.

وأخيراً! رأيت اسمها.

فقلت لأتأكد أننى أذكر اسمها: "سأتناوله هنا إذن يا روزمارى". إن الاحتفاظ بمظهر الشخص الذى مازال عقله يعمل بشكل جيد هو أمر لا غنى عنه. وعلى أية حال، فإن عقلى لم يشوش تماماً بعد. كل ما فى الأمر أن فى عقلى ما ينبغى تذكره أكثر بكثير مما لدى غيرى.

قالت وهى تكتب شيئاً أخيراً قبل أن تغلق ملف تقرير حالتى: "إننى أعلن لك الآن أنك فى قوة حصان. وإذا حافظت على وزنك، فإننى أؤكد لك أنك ستعيش عشر سنين أخرى".

فقلت: "هراء".

Amly نهضة العرب

حين عادت روزماري لتضعني في الردهة، طلبت منها أن تأخذني إلى النافذة حتى أستطيع رؤية ما يجرى فى الحديقة من إعدادات.

كان اليوم صحواً، تطل شمسه بخطوط ضوئها من بين السحب الكثيفة. إننى أذكر تماماً كيف يجرى العمل لإقامة عروض السيرك حين يكون الجو ممطراً. وليس ما يجرى أمامى الآن هو ما اعتدت أن أراه فى ساحات السيرك، حتى إننى أظن أن استعمالهم لكلمة عمال قد تلاشى، وأن أماكن النوم قد تحسنت عن ذى قبل ــ فقد صارت مثل عربات السكنى المتنقلة التى انتشرت هذه الأيام، حتى إن بعضها قد ثُبِّتت عليه أطباق استقبال فضائية محمولة.

بعد تناول الغداء بوقت قصير شاهدت أول نزيلة بدار الرعاية يقودها أقاربها عبر الشارع، وبعد عشر دقائق شاهدت عربة قطار حقيقية. كانت هناك روتى ــ أوه ونيللى كومبتون أيضاً، لكن ما الهدف؟ إنها كحبة اللفت، ولن تتذكر أى شيء مما تراه. ثم رأيت دوريس ــ وهذا بالتأكيد هو راندال الذى تتحدث عنه كثيراً. وها هو ذاك الوغد ماكجوينتى. أوه، نعم إنه ديك الدجاج الآن، فعائلته تحيط به وقد وضعت على ركبتيه بطانية مربعة، ولا شك أنه الآن يحكى قصصاً خيالية عن الفيلة.

وخلف الحلبة الكبرى، كان هناك صف متألق من خيول البيرشيرون السوداء، وكان كل حصان من هذه المجموعة به بعض البياض. فهل هى خيول وثب؟ إن خيول عروض الوثب عادة تكون بيضاء حتى إن مسحوق مادة راتينج القلفونية الذى يجعل قدمى العارض تلتصقان بظهورها لا يظهر أثناء العرض.

وحتى لو كانت خيول عرض الجرأة، فهى لا تقارن بمجموعة مارلينا من الخيول. فلا شيء ولا أحد يمكن أن يقارن بمارلينا.

بحثت فى المكان عن فيل، بمزيج من الخوف والإحباط.

عادت عربة القطار ثانية فى المساء وقد ربطت البالونات فى كراسيهم المتحركة ووضعوا قبعات سمجة على رؤوسهم. حتى إن بعضهم كان يعمل

Amly نهضة العرب

فى حجرة حلوى غزل البنات ـ إنها معبأة! وهم يعتقدون أنه قد يدوم معهم لمدة أسبوع. فى أيام شبابى، كان غزل البنات طازجاً، حيث كان يغزل فى آلة الغزل ويوضع فى قراطيس ورقية.

فى تمام الخامسة، أقبلت علىّ ممرضة رشيقة لها وجه كوجه الفرس وقالت: "هل أنت مستعد لتناول العشاء يا سيد جانكوسكى"، وكانت تتحدث وهى تركل فرامل مقعدى وتدور به.

فهمهمت خائفاً قائلاً: "هرمف"؛ لأنها لم تنتظر منى جواباً.

وحين وصلنا غرفة الطعام، قادتنى إلى طاولتى المعتادة.

فقلت: "لا، انتظرى، إننى لا أريد الجلوس هنا الليلة".

فقالت: "لا تقلق يا سيد جانكوسكى. إننى متأكدة أن السيد ماكجوينتى قد سامحك لما فعلته ليلة أمس".

فقلت وأنا أشير نحو طاولة أخرى: "نعم، حسناً، لكننى لم أسامحه، إننى أريد الجلوس على تلك الطاولة هناك".

فقالت: "لكن هذه الطاولة ليس عليها أحد".

"بالضبط".

"أوه، سيد جانكوسكى. لم لا تدعنى ــ"

"فقط، ضعينى فى المكان الذى طلبته، اللعنة".

توقف مقعدى، وخيمت لحظات صمت قاتلة. وبعد ثوان عاد للحركة مجدداً. وأوقفتنى الممرضة إلى الطاولة التى اخترتها ثم تركتنى. وحين عادت لتضع طبق العشاء أمامى فى عنف، كانت تزم شفتيها.

إن المشكلة الوحيدة فى الجلوس وحيداً على الطاولة هو أنه ليس هناك شىء يلهيك عن سماع حديث الآخرين. إننى لا أسترق السمع؛ لكننى لا أستطيع منع نفسى من سماع حديثهم. كان معظمهم يتحدث عن السيرك؛ وهذا أمر لا بأس به. أما الذى *لم* يكن جيداً بالفعل فكان ذلك العجوز الأحمق ماكجوينتى الذى يجلس إلى *طاولتى* المعتادة، ويرافق *صديقاتى*، ويتزعم المجلس كأنه الملك آرثر. وهذا ليس كل شىء ــ فمن الواضح أنه

Amly نهضة العرب

أخبر شخصاً ما كان يعمل فى ذلك السيرك بأنه كان يحمل الماء للفيلة، وقاموا إثر ذلك بتحسين مكانه فى المقاعد ليكون بجوار الحلبة! أمر مشين فعلاً! وها هو جالس يحكى مرة بعد مرة عن تلك المعاملة الخاصة التى تلقاها بينما جلست هازل، ودوريس، ونورما يحدقن إليه بشغف.

لم أستطع التحمل أكثر من ذلك. فنظرت إلى ما فى طبقى. فوجدت به خليطاً ما وعليه بعض من الصلصة الباهتة اللون، وإلى جانبه بعض من الجيلى ذو البثور.

فصحت قائلاً: "أيتها المرضة، أيتها المرضة".

التفتت إلىّ إحداهن ونظرت إلى عينىّ، ولما رأت أننى لا أحتضر أتتنى على مهل وقالت:

"ماذا تريد يا سيد جانكوسكى؟".

"ما رأيك فى أن تحضرى لى طعاماً حقيقياً؟".

"معذرة؟".

"طعام حقيقى. تعلمين ـ ذلك الذى يأكله الناس خارج هذا المكان".

"أوه، سيد جانكوسكى ـــ"

"لا تقولى لى "أوه، سيد جانكوسكى" أيتها الشابة، إن هذا طعام أطفال ولم أره منذ أن كنت فى الخامسة من عمرى. وأنا الآن فى التسعين أو الثالثة والتسعين".

"إنه ليس طعام أطفال".

فقلت وأنا أمرر شوكتى فى تلك الكومة المغطاة بالصلصة: "بل هو طعام أطفال، فلا شىء فيه يمكن أكله. انظرى ـــ"، فتهاوت الكومة أمامى، وخرجت الشوكة ملطخة بما فيها، فتابعت: "أتسمين هذا طعاماً؟ إننى أريد شيئاً أغرس فيه أسنانى. شيئاً يطحنه فمى".

ثم قلت وأنا أهز قطعة الجيلى الحمراء بشوكتى وهى ترتج بشدة: "وما المفترض أن يكون هذا بالله عليك؟".

"إنه سلاطة".

Amly نهضة العرب

"*سلاطة*؟ هل ترين أية خضراوات لتقول إنها سلاطة؟ إننى لا أرى أية خضراوات".

فقالت بصوت ثابت لكنه متكلف: "إنه سلاطة فاكهة".

"هل ترين أية فاكهة؟".

"نعم. إننى أرى فاكهة فى واقع الأمر"، وكانت تشير إلى بثرة داخل الجيلى وتقول: "هنا، وهنا. تلك قطعة موز، وهذا عنب. لم لا تجرب تناوله؟".

"ولم لا تجربينه *أنت*؟".

عقدت ذراعيها على صدرها. فقد بدأت المربية تفقد صبرها وقالت: "إن هذا الطعام خاص لنزلاء هذا المكان. وقد وضع بشكل خاص على يد إخصائيين فى التغذية ومتخصصين فى أمراض الشيخوخة —"

"وأنا لا أريده، فأنا أريد طعاماً حقيقياً".

خيم صمت تام على أرجاء الغرفة. ونظرت حولى فوجدت كل العيون تتجه نحوى، فقلت بصوت عال: "ماذا؟ هل هذا طلب عظيم؟ ألا تفتقدون جميعكم الطعام الحقيقى؟ إنكم بالطبع لستم سعداء بهذا... بهذا ... *الطعام اللين الخاص بالأطفال والمرضى*؟"، ثم وضعت يدى عند حافة الطبق ودفعته.

كانت دفعة خفيفة حقاً.

فانطلق الطبق عبر الطاولة وسقط على الأرض محطماً.

استُدعِيَت الدكتورة راسهيد. جلست على جانب سريرى وسألتنى بعض الأسئلة التى حاولت أن أجيب عليها بشكل مهذب، لكننى كنت أشعر بامتلال شديد من طريقة التعامل معى كما لو أننى غير عاقل، حتى إننى خشيت أن أصنف على أننى رجل غريب الأطوار. وبعد نصف ساعة من الأسئلة، طلبت من الممرضة أن تأتى معها إلى الردهة. فأرهفت سمعى، لكن أذنىّ العجوزتين — رغم ضخامتهما الدميمة — لم تلتقطا سوى القليل من حديث الطبيبة: "إن لديه اكتئاباً، اكتئاباً حاداً، ويظهر عليه فى شكل عدوانى غير معتاد بين كبار السن".

Amly نهضة العرب

فصحت من سريرى قائلاً: "إننى لست أصم كما تعلمون، إننى عجوز فحسب":

فأطلت الدكتورة راسهيد إلىّ ببصرها وأخذت المرضة من مرفقها وتحركا صوب الصالة بعيداً عن مجال سمعى.

فى تلك الليلة، ظهرت حبة دواء جديدة فى كوب دوائى الورقى. وكانت الحبوب فى راحة يدى فعلاً قبل أن ألاحظها.

فسألت وأنا أدفعها وأقلبها وأفحص جانبها الآخر: "ما هذا؟".

فقالت المرضة: "ماذا؟".

فقلت وأنا أحرك حبة الدواء الغريبة: "هذه، تلك الحبة بالتحديد إنها جديدة".

"إنها حبة تسمى إيلافيل".

"ولأى شيء أتناولها؟".

"لكى تساعدك على التحسن".

فكررت سؤالى: "لأى شيء أتناولها؟".

فلم تجب، فتطلعت نحوها، والتقت نظراتنا.

قالت فى النهاية: "من أجل الاكتئاب".

"لن أتناولها".

"سيد جانكوسكى ــ"

"إننى لست مصاباً بالاكتئاب".

"لقد وصفتها لك الدكتورة راسهيد. وسوف ــ"

"هل تريدون تخديرى. تريدون ضمى إلى قطيع أكلة الجيلى. إننى لن أتناولها، ولتعلمى هذا".

"سيد جانكوسكى، إن لدىّ هنا أحد عشر مريضاً آخر غيرك علىّ الاعتناء بهم. والآن تناول دواءك من فضلك".

"لقد كنت أعتقد أننا نزلاء".

تجمدت لعبارتى كل ملامح وجهها الذابل.

Amly نهضة العرب

فقلت وأنا أتلاعب بهذه الحبة فى الهواء: "إننى سأتناول دوائى إلا هذه الحبة"، طارت الحبة فى الهواء واستقرت على الأرض. وقذفت ببقية الأقراص فى فمى. ثم قلت بشكل مشوش لأحافظ على تمركز الأقراص على منتصف لسانى: "أين الماء؟".

أعطتنى كوب الماء البلاستيكى، واستعادت الحبة من على أرضية الغرفة، واتجهت نحو الحمام. وسمعت صوت تدفق الماء، ثم عادت.

"سيد جانكوسكى، سأذهب لإحضار حبة إيلافيل أخرى وإذا لم تتناولها، فسوف أستدعى الدكتورة راسهيد، لتصف لك تلك الجرعة حقناً. فى كلتا الحالتين ستتناول جرعة إيلافيل، والأمر عائد إليك فى طريقة التناول".

حين أحضرت الحبة، ابتلعتها على الفور. وبعد ربع ساعة، تم حقنى أيضاً ــ ليس بـ "إيلافيل" هذه المرة، بل بشئ آخر ــ لكن هذا ليس عدلاً لأننى قد تناولت الحبة اللعينة فعلاً.

وخلال دقائق، عدت لقطيع أكلة الجيلى. حسناً، إنه قطيع فى نهاية الأمر أياً كان مستواه. ولكن لأننى استمررت فى تذكير نفسى دائماً بالحادثة التى دبرت لى هذا الوضع السيئ الذى أنا عليه، فإننى أكاد أجزم أنه لو أتانى أحد بالجيلاتين ذى البثور حالاً وطلب منى أن آكله، لأكلته على الفور.

ماذا فعلوا بى؟

لقد ثرت غاضباً بكل ذرة حياة تبقت فى جسدى المحطم، ولكن دون جدوى. لقد ضاع غضبى هباء كنسمة هبت من الشاطئ. إننى أتأمل هذه الحقيقة المؤسفة حين أرى ظلمة النوم تلف رأسى. فها هى تنتظر وقتها وتقترب أكثر مع كل ثورة غضب. علىّ الآن أن أدع غضبى الذى أصبح عادة عندى، مع التذكير بأن أعود إليه فى الصباح. والآن، سوف أترك نفسى للاندفاع مع القطيع، فليست لدىّ مقاومة الآن حقاً.

Amly نهضة العرب

بتصريح من كين هدزت زنيد

Amly
نهضة العرب

الفصل السادس

زمجر القطار وهو يقاوم المقاومة المتزايدة لمكابح الهواء فيه. وبعد عدة دقائق وبعد هزة نهائية وممتدة، توقف ذلك الوحش الحديدى الهائل وأصدر زفرة دخان.

قذف كينكو ببطانيته ثم هب واقفاً. لم يكن يتجاوز أربعة أقدام طولاً. تمدد وتثاءب، ومط شفتيه، ثم هرش رأسه، وإبطيه، وما بين فخذيه. كانت الكلبة ترقص عند قدميه، وكانت تهز ذيلها المجدوع بشدة.

قال وهو يحملها: "هيا يا كوينى، هل تريدين الخروج؟ هل تريدين الخروج يا كوينى؟"، ثم قبلها فى رأسها ذى اللونين؛ البنى والأبيض، وعبر بها الغرفة خارجاً.

كنت أراقبه من خلال بطانية الفرس المهترئة التى ألتف بها.

فقلت: "كينكو؟".

ولو لم يكن صفع الباب بشدة هو السبب، لقلت إنه لم يسمعنى.

كنا على سكة حديدية جانبية خلف قطار فلاينج سكوادارون، الذى كان قد سبق إلى هنا بساعات. كانت مدينة الخيام قد أقيمت بالفعل، مما أثار بهجة أهل المدينة الذين تزاحموا للمشاهدة. وقد جلست طوابير من الأطفال على قمة قطار فلاينج سكوادرون لتفحص الساحة بعيونهم المشرقة. وكان آباؤهم محتشدين أسفل القطار وهم يمسكون بأيدى إخوتهم الصغار وهم يشيرون نحو الأشياء العجيبة التى تبدو أمامهم.

Amly نهضة العرب

كان العمال قد هبطوا من عربات النوم بالقطار الرئيسى، وأشعلوا سجائرهم، وساروا فى الساحة تجاه المطبخ. فقد كانت رايته ذات اللونين الأزرق والبرتقالى قد ارتفعت، وكان الرجل الذى بجوارها ينفث بخاره مبشراً بوجود إفطار فيها.

ظهر العارضون من عربات أقرب لمؤخرة القطار وأفضل حالاً من بقية العربات. كان هناك تدرج هرمي واضح: فالأقرب للمؤخرة هم الأكثر جذباً للأرباح. نزل العم آل من عربة قبل العربة الأخيرة مباشرة. ولم أستطع إغفال أننى وكينكو كنا نحتل المكان الأقرب إلى محرك القطار.

"جاكوب!".

استدرت فإذا بأوجست يخطو خطوات واسعة باتجاهى، ويرتدى قميصاً مجعداً، وقد نعّم ذقنه تماماً. وكان يبدو على شعره الناعم كالحرير أثر التمشيط الحديث.

سألنى: "كيف الحال هذا الصباح يا فتى؟".

فقلت: "على خير حال، لكنى مجهد قليلاً".

"هل سبب لك هذا القزم أية متاعب؟".

"كلا؛ فقد كان طيباً معى".

ثم صفق بيديه وقال: "حسناً، حسناً. ألن نلقى نظرة على الحصان إذن؟ لا أظن أن به شيئاً ذا بال. إن مارلينا تدلل خيولها بشدة. أوه، ها هى إذن فتاتى الصغيرة". ناداها بانشراح: "تعالى يا عزيزتى"، ثم قال: "أريد أن أعرفكِ بجاكوب. إنه أحد معجبيك".

شعرت بالخجل يتسلل إلى وجهى.

توقفت بجوارى، وهى تبتسم لى حين استدار أوجست نحو عربة التخزين، وقالت وهى تمد يدها مصافحة: "لقد شرفت بلقائك". كانت تشبه كاترين بشكل كبير عن قرب - فلها ملامح رقيقة، وشاحبة كالبورسلين الهش، ويعلو أرنبة أنفها بعض النمش. وكانت عيناها زرقاوين لامعتين، وشعرها أقرب للسواد بحيث لا يمكن وصفه بأنه أشقر.

Amly نهضة العرب

فقلت: "الشرف لى"، وكنت أدرك فى ألم أننى لم أحلق منذ يومين وأن ملابس متيبسة بما علاها من روث، وأن ذلك الروث لم يكن هو الشىء الوحيد المثير للرائحة الكريهة المنبعثة من جسدى.

مالت برأسها قليلاً وقالت: "إنك أنت من رأيته بالأمس، أليس كذلك؟ فى معرض الوحوش؟"

فقلت بكذب غريزى: "لا أظن ذلك".

"إنه أنت بالتأكيد. قبل العرض مباشرة. وذلك حين أوصد باب قفص الشمبانزى".

رمقت أوجست ببصرى، لكنه كان لا يزال ينظر فى الاتجاه الآخر. وتبعت هى نظرتى ويبدو أنها فهمت.

ثم قالت وقد انخفض صوتها: "لست من ولاية بوسطن، أليس كذلك؟".

"كلا، إننى لست منها".

فقالت: "هه، يبدو كأنك كذلك على نحو ما"، ثم تابعت فى بهجة: "حسناً إذن، لقد قال أوجى إنك بيطرى"، استدار أوجست نحونا على ذكر اسمه.

فقلت: "كلا. أقصد لست كذلك بالضبط".

فقال أوجست: "إنه متواضع. بيت! هاى، بيت!".

كانت هناك مجموعة من الرجال تقف أمام عربة التخزين بجوار عارضة المائلة فى العربة فالتفت الرجل الطويل ذو الشعر الأسود من بينهم وقال: "نعم، أيها الرئيس؟".

"أخرج بقية الخيول وأحضر سيلفر ستار هنا، حسناً؟".

"على الفور".

وبعد لحظات خرج أحد عشر حصاناً ــ خمسة بيض، وستة سود ــ ثم دخل بيت للعربة مرة أخرى. وبعد لحظة عاد ليقول: "إن سيلفر ستار لا يريد الحركة أيها الرئيس".

فقال أوجست: "أجبره على التحرك".

Amly نهضة العرب

فقالت مارلينا وهى ترمق أوجست بنظرة حادة: "أوه، لا. لا تفعل"، ثم صعدت عارضة النزول واختفت داخل العربة.

انتظرت خارج العربة مع أوجست، ونحن نستمع إلى توسلات عطوفة، وقرقعة باللسان. وبعد عدة دقائق، ظهرت على الباب ومعها جواد عربى ذو عرف فضى.

خطت مارلينا خارجة من العربة أمامه، وهى تقرقع بلسانها وتهمهم، والجواد يرفع رأسه ويرتد للخلف. وفى النهاية تبعها ونزل العارضة، كانت رأسه تهتز بعنف مع كل خطوة يخطوها. وفى أسفل العارضة، انجذب للخلف بشدة حتى كاد يجلس على عجزه.

فقال أوجست: "يا إلهى، مارلينا ـــ أظنك قلت إنه مجرد إعياء بسيط".

تغير وجه مارلينا ليصبح رمادى اللون وقالت: "لقد كان الأمر كذلك. لم يكن بهذه الحالة أبداً بالأمس. كان يعرج قليلاً منذ أيام، لكنه لم يكن كذلك *أبداً*".

ثم بدأت تقرقع ثانية وتشد بقوة حتى خطا الفرس فى نهاية الأمر على حصا السكة. كان يقف وهو مائل بظهره للخلف، وقدماه الخلفيتان تتحملان وزنا أكبر مما تستطيع. غاص قلبى فى جوفى، فهذه دلائل تقليدية لعرض السير على قشر البيض.

فقال أوجست: "ماذا ترى فيه؟".

فقلت له "أمهلنى دقيقة" رغم أنى كنت شبه متأكد من الحالة، ثم سألته: "هل لديكم مختبر حوافر؟".

"كلا. لكن الحدادين لديهم. هل أرسل بيت لإحضاره؟".

"ليس بعد، فربما لا أحتاج إليه".

جثمت بجانب الكتف الأيسر للحصان وتحسست بيدى ساقه من بداية الكتف وحتى أعلى الحافر مباشرة، ولكنه لم يجفل. ثم وضعت يدى على

Amly نهضة العرب

ملامسة حافره، وكان يشع حرارة. وبعد ذلك وضعت السبابة والإبهام أعلى الحافر مباشرة من الخلف، فوجدت وريد الساق ينبض بشدة.

فقلت: "اللعنة".

فقالت مارلينا: "ما الأمر؟".

فاعتدلت، وتوجهت نحو قدم سيلفر ستار، وقد وضعها بثبات على الأرض.

فقلت وأنا أحاول جذب حافره لأعلى: "هيا يا فتى".

ثم رفعها في النهاية. كان باطن الحافر متورماً وقاتماً، وقرب حافته سرى خط أحمر، فوضعته في الحال.

قلت: "إن هذا الحصان سيصاب بعرج الخيول".

فقالت مارلينا وهي تضرب يدها على فمها: "أوه، يا إلهي".

وقال أوجست: "ماذا؟ إنه ماذا؟".

فقلت: "إنه سيصاب بعرج الخيول. ويحدث هذا حين تسوى الخلايا الواصلة بين الحافر وعظمة الحافر ويبدأ عظم الحافر بالدوران في اتجاه باطن الحافر".

"حدثني بكلام واضح من فضلك. هل هذا شيء خطير؟".

نظرت نحو مارلينا التي كانت لا تزال تغطي فمها بيدها وقلت: "نعم، خطير".

"هل يمكنك علاجه؟".

"بإمكاننا أن نضجعه لأعلى لفترة طويلة، ونحاول المحافظة على عدم ملامسة قدميه للأرض، ويقدم له العشب الجاف فقط كطعام، ويمنع من تناول الحبوب ويمنع من العمل".

"لكن هل يمكنك علاجه؟".

ترددت قليلاً، ونظرت سريعاً نحو مارلينا ثم قلت: "في الغالب لن أتمكن من ذلك".

حدق أوجست إلى سيلفر ستار وزفر في أوداجه التي انتفخت

Amly نهضة العرب

هدر من خلفنا صوت لا يمكن أن تخطئه الأذن قائلاً: "حسناً، حسناً، حسناً! هذا لو لم يكن حصاننا الخاص أيها الطبيب!".

تقدم العم آل نحونا مرتدياً سروالاً مربعاً باللونين الأبيض والأسود وصدرة قرمزية اللون. وكان يحمل عصا ذات رأس فضية، يلوح بها بقوة نحو أى من العمال المنتشرين خلفه فى غير نظام.

ثم سأل وهو يتوقف أمامى مرحاً: "ما الذى تقوله إذن أيها المتشائم؟ هل عالجت الحصان؟".

فقلت: "ليس تماماً".

"ولم لا؟".

فقال أوجست: "يبدو أن الحصان سيصاب بعرج الخيول".

فقال العم آل: "سيصاب بماذا؟".

"إن علته فى قدمه".

امتقع لون العم آل وهو يمعن النظر فى سيلفر ستار، ثم قال: "تبدو لى قدمه على خير حال".

فقلت: "إنها ليست كذلك".

فاستدار نحوى وقال: "فماذا تقترح إذن بهذا الشأن؟".

"أقترح الراحة فى الإسطبل ومنع الحبوب من طعامه. وسوى هذا لا يمكننا فعل أى شيء".

"الراحة أمر غير وارد. فهذا الحصان قائد مجموعة عرض القوة".

"إذا استمر هذا الحصان فى العمل فسوف تدورعظمة حافره حتى تثقب باطن الحافر وحينها سنفقده نهائياً"، كان كلامى قاطعاً ولا لبس فيه.

طرفت عينا العم آل، وتتطلع إلى مارلينا ثم سأل:

"كم سيطول غيابه عن العمل؟".

توقفت لأختار كلماتى التالية بعناية ثم قلت: "ربما للأبد".

فصاح وهو يضرب الأرض بعصاه: *"اللعنة"*، ثم نظر لأتباعه وقال: "وكيف لى بالحصول على حصان لعرض القوة فى منتصف الموسم؟".

Amly نهضة العرب

فهزوا أكتفاهم وهمهموا وتحاشوا النظر له.

فقال: "حمقى عديموا الفائدة، لا أرى لماذا أحتفظ بكم أصلاً؟"، ثم أشار إلى بعصاه وقال: "حسناً، أنت! لقد تم تثبيتك فى العمل. عليك أن تعالج هذا الحصان. وراتبك الأسبوعى تسعة دولارات. وسوف يكون أوجست هو رئيسك فى العمل. أما إن فقدت الحصان فسوف تطرد، بل إنك فى الحقيقة ستطرد حال حدوث أية دلائل متاعب من جانبك"، ثم تقدم نحو مارلينا وربت على كتفها وقال بعطف: "عزيزتى، لا تجزعى. فجاكوب سيتولى أمر رعايته على خير وجه. أوجست، اذهب وأحضر إفطاراً للفتاة. علينا أن نواصل طريقنا".

فاستدار نحوه أوجست وقال: "ماذا تقصد بمواصلة الطريق؟".

فقال العم آل وملامحه تبدو غامضة: "سنفكك السيرك ونواصل التحرك".

"ما هذا الهراء الذى تقوله؟ لقد وصلنا لتونا. ومازلنا ننصب السيرك!".

"لقد حدث تغيير فى الخطط يا أوجست، مجرد تغيير فى الخطط".

انصرف العم آل وأتباعه. وظل أوجست محدقاً نحوهم وفمه مفتوح.

وانتشرت الشائعات فى المطبخ.

فعند طاولات البطاطس المحمرة دار هذا الحديث:

"لقد قَدِم سيرك كارسون براذرز إلى هنا منذ أسابيع ورفعوا سعر الإقامة؛ فأفسدوا علينا المنطقة".

قال شخص ما ساخراً: "ها، لقد كنا دائماً من يقوم بهذا الفعل".

وأمام طاولات البيض المخفوق قال أحدهم:

"لقد سمعوا هنا أننا نحمل معنا مسكرات. وقد تهجم الشرطة على المكان".

فرد عليه آخر: "إنهم سيهاجمون المكان حقاً لكن ليس بسبب المسكرات بل بسبب خيمة البغاء".

وعلى طاولات طحين الشوفان قال أحدهم:

Amly نهضة العرب

"لقد كان العم آل عنيداً مع شريف البلدة بشأن أجر الساحة فى العام الماضى".

"إن رجال الشرطة يقولون إن علينا أن نغادر فى غضون ساعتين وإلا طاردونا".

وكان إزرا يجلس مترهلاً فى نفس الموقع الذى كان فيه بالأمس، وذراعاه معقودان وذقنه مضغوطة على صدره. لم يعرنى اهتماماً على أية حال.

نادانى أوجست وأنا أتجه نحو الحاجز القماشي للخيمة قائلاً: "أنت هناك، أيها الرجل المحترم، أين تظن نفسك ذاهباً؟".

"إلى الجانب الآخر من خيمة الطعام".

فقال: "هراء. إنك بيطرى هذا السيرك. تعالى معى؛ رغم أن لدىّ رغبة ملحة فى أن أرسلك إلى هناك لتأتينى بما يتداولونه من أحاديث".

تبعت أوجست ومارلينا إلى الموائد جيدة الفراش. كان كينكو يجلس على بعد عدة طاولات مع ثلاثة أقزام آخر وكوينى على رجليه. كانت كوينى تتطلع إلى المائدة وهى مفعمة بالأمل ، ولسانها يتدلى على جانب فمها. لكن كينكو كان يتجاهلها وكذلك من معه على الطاولة. كان ينظر نحوى مباشرة وفكه يتحرك من جانب لآخر فى شراسة.

قال أوجست وهو يدفع سلطانية عصيدة نحو مارلينا: "تناولى طعامك يا حبيبتى، فلا شيء يستحق القلق. فلدينا هنا بيطرى أصلى سيتولى الأمر".

فتحت فمى بنية الاعتراض على التوصيف ثم أغلقته ثانية.

فقد أقبلت شقراء جميلة نحونا وقالت: "حبيبتى مارلينا، لن تصدقى ما سمعته!".

فقالت مارلينا: "مرحباً لوتى. ليس لدىّ فكرة عن أى شيء، ما الأخبار لديك؟".

انسلت لوتى بجوار مارلينا وتحدثتا بلا توقف، ولا حتى من أجل التقاط الأنفاس. إن لوتى بهلوانة جوية فى السيرك، وقد أتت لتوها بخبر

Amly نهضة العرب

جديد من مصدر موثوق؛ فالمراقب الخاص بها قد سمع العم آل يتبادل حديثاً حاراً مع المنسق خارج الحلبة الكبرى. وفي وقت قصير من بدء حديثها أحيطت المائدة بالمستمعين، ومن بين ما قالته لوتى وما كان يلقيه مستمعوها من نتف، استطعت تجميع نص كامل لتاريخ آلان جيه. بانكل، وبنزيني براذرز موست سبكتاكيولار شو أون إيرث.

لقد كان العم آل صقراً حواماً، أو نسراً، أو آكل جيف. فمنذ خمسة عشر عاماً كان يعمل مديراً لسيرك سيئ السمعة عبارة عن مجموعة من العارضين ذوى ثياب رثة وأجسام ضعيفة يتنقلون من بلدة لأخرى بواسطة بضعة خيول بائسة مريضة بالقلاع.

وفى أغسطس من عام ١٩٢٨، وبلا سبب اقتصادى واضح، انهار سيرك بنزيني براذرز موست سبكتاكيولار شو أون إيرث. فببساطة نفدت منهم الأموال ولم يتمكنوا من الانتقال إلى المدينة التالية، ولم يعبأوا بتسيير العمل مرة أخرى، فقام المدير العام باستقلال أحد القطارات وترك المدينة وما فيها مخلفاً وراءه كل شيء ـ الناس، المعدات، والحيوانات.

وكان من حظ العم آل السعيد أنه كان في الجوار واستطاع الحصول على عربة نوم وعربتين مسطحتين مقابل مبلغ أعطاه لمسئولى السكة الحديدية الذين كانوا قد يئسوا من إخلاء السكة الحديدية من هذه المحتويات. وقد استوعبت العربتان المسطحتان بسهولة عرباته القليلة البالية. ولأن عربات القطار كانت تحمل شعار بنزيني براذرز موست سبكتاكيولار شو أون إيرث، فقد استبقى آلان بانكل على هذا الشعار واحتفظ به وانضمت عربته رسمياً لعروض سيرك القطارات.

وحين حدث الكساد الكبير، بدأت عروض سيرك كبرى في الانهيار، وكان العم آل لا يكاد يصدق هذا الحظ السعيد. فقد بدأت تلك الانهيارات بسيرك جينترى براذرز وباك جونز في عام ١٩٢٩. وشهد العام التالى نهاية سيرك كول براذرز، وكريستى براذرز، والعظيم جون روبنسون. وفي كل مناسبة انهيار كان العم آل متواجداً، لاغتنام البقايا: مثل بضعة عربات

Amly نهضة العرب

قطار، بضعة عارضين أكفاء، أو نمر، أو جمل. كان لديه عيون في كل مكان ـ فما إن تظهر بوادر المتاعب في أحد عروض السيرك الكبيرة، يتم الإبراق بالخبر للعم آل، الذي يحضر من فوره لمكان الواقعة.

وكبر العم آل ونما من هذه البقايا؛ ففي مينابوليس، حصل على ستة عربات استعراض وأسد لا أسنان له. وفي أوهايو ضم إليه بالع سيوف وعربة مسطحة. وفي ديس مونيس، حصل على خيمة تبديل ملابس، وفرس نهر وعربة نقل ولوسيندا الجميلة. ومن بورتلاند حصل على ثمانية عشر حصان جر، وحمارين وحشيين، وحدادين. وفي سياتل، حصل على عربتي نوم وأحد الفلتات البشرية المميزة ـ كانت امرأة ذات لحية ـــ وهذا ما كان يسعده، فإن ما كان العم آل يلتمسه بشدة ويحلم به في نومه هو الفلتات البشرية. ليست تلك الفلتات المصطنعة: مثل رجل مغطى من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه بالوشم، أو بنساء يتقيأن ما يبتلعنه من حافظات نقود ومصابيح، أو فتيات شعرهن من العشب، أو رجال يدقون أوتاداً في فجوات حلوقهم. لقد كان العم آل يسعى وراء الفلتات الحقيقية والفلتات الإباحية. وقد كان هذا هو السبب وراء ارتحالنا من هذا المكان إلى مدينة جولييت.

فقد تواترت الأخبار بأن سيرك فوكس برازرز قد انهار لتوه، وقد سعد العم آل لذلك لأن لديهم الأعجوبة العالمية الشهيرة تشارلز مانسفيلد ـــ ليفينجستون، وهو رجل وسيم رشيق لديه توأم طفيلي يخرج من صدره، ويدعوه تشاز. ويبدو تشاز هذا كطفل ورأسه فوق في قفصه الصدرى. ويرتدى سترات صغيرة للغاية، وحذاءً أسود صمم خصيصاً له، وحين يسير تشارلز يمسك بيدى تشاز الصغيرتين، ويشاع أن عضوه الصغير يمكنه الانتصاب.

كان العم آل يائساً من الوصول لمدينة جولييت قبل أن يقوم أحد باختطاف هذه الأعجوبة قبله. وهكذا، على الرغم من أن ملصقاتنا الإعلانية كانت تملأ مدينة ساراتوجا سبرنجس، ورغم أنه كان من المفترض بنا

Amly نهضة العرب

الوقف فيها ليومين وأننا تناولنا للتو ٢٢٠٠ رغيف من الخبز، ١١٦ رطلاً من الزبد، ٣٦٠ عبوة بيض، ١٥٧٠ رطلاً من اللحم، ١١ علبة من الكراث، ١٠٥ أرطال من السكر، ٢٤ قفصاً من البرتقال، ٥٢ رطلاً من الدهن، ١٢٠٠ رطلاً من الخضراوات، ٢١٢ كوباً من القهوة تم تقديمها فى الساحة؛ هذا غير أطنان من القش واللفت، والبنجر وغير ذلك من أطعمة الحيوانات، التى تم تكويمها خلف خيمة عرض الوحوش؛ هذا بخلاف مئات من أهل المدينة المحتشدين على حواف الساحة من الآن، وقد كانوا فى حالة من الإثارة فى بادئ الأمر، ثم الحيرة، ثم هم الآن فى حالة غضب متزايد؛ ورغم هذا كله؛ فإننا الآن نقوم بتفكيك الساحة والاستعداد للانطلاق.

كان الطاهى فى حالة من الذهول، ومنسق العرض يهدد بالاستقالة. ورئيس قطاع الخيول فى حالة غضب عارم، وهو يخبر أفراد فلاينج سكوادرون المحاصرين بنبأ الرحيل المفاجئ.

إن الجميع هنا قد مر بهذا الطريق من قبل. ويتجه قلقهم فى معظمه إلى الخوف من عدم كفاية الطعام خلال الرحلة التى ستمتد لثلاثة أيام إلى مدينة جوليبت. فإن طاقم المطبخ يقومون بأقصى ما لديهم، محاولين إعادة ما يستطيعون إعادته من طعام إلى القطار مع وعد منهم بتقديم داكيز ــ وهى على ما يبدو وجبات معلبة ــ فى أقرب فرصة ممكنة.

حين علم أوجست بأن أمامنا رحلة تمتد ثلاثة أيام، أطلق سيلاً من اللعنات والسباب، ثم بدأ يخطو سريعاً فى كل اتجاه وهو يكيل اللعنات للعم آل ويصرخ مصدراً أوامره للباقين. وبينما كنا نعيد تخزين طعام الحيوانات فى القطار، توجه أوجست إلى وكيل المطبخ ليحاول إقناعه ــ أو رشوته إذا اقتضى الأمر ــ ليقتسم معه بعضاً من طعام الناس لحيواناته.

كنت أنا ودياموند جو نحمل دلاءً مملوءة بفضلات ذبائح من خلف خيمة عرض الوحوش عائدين بها للقطار، وقد تم الحصول عليها من مزارع المواشى بالمدينة. وقد كانت مثيرة للاشمئزاز، ملطخة بالدم، كريهة الرائحة، ومحروقة حرقاً خفيفاً. وقد وضعنا هذه الدلاء على مدخل عربات

Amly نهضة العرب

الماشية. فبدأ سكانها ـــ الجمال، الحمر الوحشية، وغيرها من آكلات العشب ـ في الهيجان والركل وكل مظاهر الاحتجاج الممكنة لهم، لكنهم سيضطرون للسفر وبجوارهم هذا اللحم، فلا مكان آخر ليوضع فيه، والقطط المفترسة ستسافر على العربات المسطحة فى أقفاص العرض.

وحين انتهينا من النقل، ذهبت لأبحث عن أوجست، فوجدته خلف خيمة المطبخ، يملأ عربة يد بكل ما استطاع انتزاعه من طاقم المطبخ.

قلت له: "لقد شحنًا ما فيه الكفاية، هل هناك من أمر بشأن الماء؟".

"أفرغ الدلاء وأعد ملئها بالماء. لقد ملأوا عربة الماء لكنها لن تكفى لثلاثة أيام. سيكون علينا التوقف خلال الرحلة. إن العم آل قد يكون عجوزاً صعب المراس لكنه ليس أحمق. فإنه لن يخاطر بحياة الحيوانات؛ فبدون حيوانات لن يكون هناك سيرك. هل وضعت اللحم كله على متن القطار؟".

"قدر ما أستطيع".

"إن الأولوية هى للحم! وإذا رأيت أن تتخلص من العشب لتفسح مجالاً لوضع اللحم فافعل دون تردد. إن الوحوش الكاسرة أكثر أهمية من الحيوانات آكلة العشب".

"لقد ملأنا المكان عن آخره. إلا إذا بحثنا عن مكان آخر للنوم أنا وكينكو؛ فلا مكان آخر لأى شيء".

توقف أوجست قليلاً وأغلق شفتيه المزمومتين، ثم قال فى النهاية: "لا، إن مارلينا لن تسمح بوجود لحم على سطح مكان واحد مع خيولها".

هكذا عرفت مكان إقامتى على أقل تقدير، حتى لو كان ذلك فى مكان أدنى من منزلة الوحوش الكاسرة.

كان الماء الذى بدلاء شرب الخيول غير صافٍ وتطفو على سطحه قطع من الشوفان، إلا أنه كان ماء فى نهاية الأمر، فأخرجت الدلاء وخلعت قميصى ثم سكبت ما فيها على ذراعى ورأسى وصدرى.

Amly نهضة العرب

قال أوجست: "هل تحس الآن بشعور أفضل قليلاً من الانتعاش أيها الطبيب؟".

كنت أميل لأسفل والماء يتقاطر من شعرى، فمسحت عينيّ واعتدلت قائلاً: "أنا آسف، لكننى لم أجد ماء آخر يمكننى استخدامه. وقد كنت على وشك سكبه على أية حال".

"لا، لا شيء فى هذا، أنت محق تماماً. إننا لا نريد أن يكون طبيب سيركنا البيطرى كأحد العمال العاديين؛ أليس كذلك؟ ودعنى أخبرك بأمر آخر يا جاكوب، صحيح أن الوقت قد فات الآن، إلا أنه حال وصولنا إلى مدينة جولييت سوف أدبر لك أمر حصتك الخاصة من الماء. إن لكل فرد من العارضين والرؤساء دلوين من الماء الخاص به"، ثم تابع وهو يحك إبهامه بأصابعه: "وقد تزيد أيضاً فى بعض الأحيان. وسأقوم أيضاً بإدراجك فى جدول رجل يوم الاثنين وأتدبر أمر طاقم ثياب آخر لك".

"رجل يوم الاثنين؟".

"ما هو اليوم الذى كانت أمك تغسل فيه الملابس يا جاكوب؟".

فحدقت فيه قائلاً: "إنك بالقطع لا تعنى أن ــ"

"كل هذا الغسيل ينشر على حبال ــ فمن السيئ تركه ليرمى فى النفايات لمجرد اتساخه".

"ولكن ــ"

"لا تبال يا جاكوب. إذا لم تكن تعرف إجابة سؤال فلا تقم بتوجيهه. ليس عليك من الآن استخدام ماء قذر للاغتسال به. اتبعنى".

قادنى باتجاه مؤخرة الساحة إلى واحدة من ثلاث خيام فقط كانت لا تزال منصوبة. وداخل الخيمة كان هناك مئات من دلاء الماء التى رصت بشكل محكم إلى صفين أمام صناديق وحمالات ملابس، ويحمل كل دلو اسم صاحبه أو الحروف الأولى من اسمه. كما كان بالخيمة رجال فى أوضاع متباينة من نزع الثياب، يستخدمون هذه الدلاء فى الاستحمام والحلاقة.

فأشار نحو زوج من الدلاء وقال: "إليك هذين، استخدمهما".

Amly نهضة العرب

فقلت له وقد قرأت الاسم على الدلو: "لكن ماذا بشأن وولتر؟".

"أوه، إننى أعرف وولتر، وسيتفهم الأمر. هل لديك شفرة حلاقة؟".

"كلا".

فقال وهو يشير عبر الخيمة: "لدىّ بعض منها فى نهاية الخيمة. وهى شفرات مسجلة باسمى. هيا أسرع ـ فأظن أننا سنغادر المكان فى غضون نصف ساعة".

فقلت: "شكراً جزيلاً".

فقال: "لا داعى للشكر. سأترك لك قميصاً فى عربة المواشى".

حين عدت إلى عربة المواشى، كان سيلفر ستار بجوار الجدار الأقصى للعربة وهو مغمور حتى ركبتيه بالقش. كانت عيناه غائرتين ونبضه سريعاً.

كانت بقية الخيول لا تزال بالخارج، ولهذا تمكنت من أن ألقى نظرة فاحصة على المكان للمرة الأولى. كان بالعربة ستة عشر مربط خيل، وقد تم نصبها بفواصل فيما بينها يمكن لها الانفراج لتسمح بدخول فرس وراء آخر. ولو لم تكن العربة قد تم إخلاء بعض الأماكن فيها لتلك العنزات الغريبة التى لم أرها بعد، لكفت لاثنين وثلاثين حصاناً.

وجدت قميصاً نظيفاً أبيض اللون معلقاً بطرف سرير كينكو. فخلعت قميصى القديم ورميته على فرش الحصان. وقبل أن أرتدى القميص، وضعت فيه أنفى، مستنشقاً رائحة الصابون التى تنبعث منه.

وبينما كنت أعقد أزرار القميص، لفتت نظرى كتب كينكو. كانت موضوعة على العارضة بجوار مصباح الكيروسين. أدخلت أطراف القميص فى السروال وجلست على طرف السرير، وتناولت أول كتاب.

كان الكتاب يضم الأعمال الكاملة لشكسبير. وتحته كتاب يضم مجموعة من قصائد ووردسورث، ثم كتاب دينى، وكتاب مسرحيات لأوسكار وايلد. وكانت بعض الكتب الهزلية الصغيرة مخبَّأة تحت غلاف كتاب شكسبير، وقد ميزتها على الفور؛ فقد كانت مجلاته الإباحية.

Amly نهضة العرب

فتحت إحداها. وجدت رسماً غير متقن لـ "أوليف أويل" وهى مستلقية على سرير فى وضع مناف للأخلاق.

"ماذا تظن نفسك فاعلاً هنا بحق الجحيم؟".

فسقطت المجلة من يدى، ثم ملت لأعيدها من الأرض سريعاً.

فقال كينكو وهو ينقض وينتزع المجلة من يدى: "اتركها فى مكانها وحسب وانهض من سريرى!".

فقفزت واقفاً.

فقال وهو يلكز صدرى بإصبعه: "اسمع يا فتى. إننى لست سعيداً بأن تشاركنى مكان نومى، لكن يبدو لى أنه لا خيار لى فى هذا الأمر. لكن عليك أن تعلم أن لدىّ الخيار كاملاً فيما يخص عبثك بأغراضى".

لم يكن قد حلق ذقنه بعد، وقد تحول لون عينيه الأزرق إلى لون البنجر الأحمر.

فتمتمت بالقول: "أنت محق، وأنا آسف. فما كان ينبغى أن أمس أغراضك الشخصية".

"اسمع أيها الأحمق، لقد كانت لدىّ غرفة خاصة لطيفة حتى قدومك. فضلاً عن أننى فى مزاج معتل على أية حال. لقد قام أحد السفلة باستخدام حصتي من الماء هذا اليوم. فيحسن بك أن تبتعد عن طريقى. قد أكون قصيراً لكننى قادر على النيل منك".

اتسعت حدقتا عينىّ لذكر أمر الماء، ثم عادتا لوضعهما الطبيعى لكن ليس بالسرعة الكافية.

ضاقت عيناه بشدة وهو ينظر ملياً إلى قميصى وذقنى الحليقة. ثم قذف بالمجلة على سريره وقال: "عليك اللعنة. أما كفاك ما فعلت".

"إننى جد آسف، فما كنت أعلم أن الماء يخصك. لقد قال لى أوجست إن بإمكانى استخدامه".

"هل قال أيضاً إن بإمكانك العبث بأغراضى الشخصية؟".

فتوقفت ثم قلت مرتبكاً: "كلا".

Amly نهضة العرب

ثم جمع كتبه وأغراضه ووضعها فى الصندوق.

"كينكو ـ وولتر ـ إننى آسف".

"أيها الفتى، إن اسمى بالنسبة لك هو كينكو، أصدقائى فقط هم من يحق لهم مناداتى بـ وولتر".

توجهت نحو الزاوية واختبأت خلف بطانية الحصان الخاصة بى. ساعد كينكو كوينى على الصعود للسرير، ثم نام بجوارها، وهو يحدق بشدة فى السقف حتى ظننت أنه يكاد يحرقه بنظراته.

بعد وقت ليس بالطويل، انطلق القطار، وبدأ بضعة عشرات من الرجال الغاضبين فى مطاردتنا لبعض الوقت، وهم يلوحون بالعصى ومضارب البيسبول، إلا أن ذلك لم يكن لغرض معين سوى التحدث به خلال تناول العشاء. فلو أرادوا قتالنا حقاً، لكان لديهم الوقت قبل رحيلنا.

إننى أستطيع تفهم غضبهم ـــ فزوجاتهم وأطفالهم ظلوا فى تطلع لمشاهدة السيرك منذ عدة أيام، وهم أيضاً ربما كانوا يتطلعون لبعض المتعة التى يشاع عن توافرها فى مؤخرة الساحة. أما الآن؛ فبدلاً من مشاهدة باربرا المثيرة، فسيكتفون بمجلاتهم الإباحية. إننى أستطيع تفهم سبب غضب رجال كهؤلاء.

تحركت أنا وكينكو كثيراً فى الغرفة ونحن نلوذ بصمت عدائى واضح عندما بدأ القطار فى زيادة سرعته. ثم استلقى على سريره، وأخذ يقرأ. ووضعت كوينى رأسها على قدميه. ويبدو فى الغالب أنها قد نامت، لكنها كانت كلما استيقظت نظرت إلىّ. وكنت أنا أجلس على بطانية الحصان، مجهد البدن ولكن ليس بالدرجة التى تدفعنى للاستلقاء على ما فيها من هوام وفطريات.

وفى الوقت الذى يفترض به أن يكون ساعة العشاء، نهضت وتمددت. وكانت عينا كينكو ترمقنى من خلف كتابه، ثم تعود لمتابعة النص.

سرت نحو الخيول، ووقفت أتطلع إلى ظهورها التى تبدلت بين الأبيض والأسود. كنا حين شحنَّاها فى القطار قد ضغطناها لنفسح لسيلفر ستار

Amly نهضة العرب

أربعة مرابط لِتَسَع حجمه وهو راقد. ورغم أن بقية الخيول كانت في عربات غير مألوفة، فإنها لم تُبدِ كثيراً من الاضطرابات، ربما لأنها وُضعت بنفس ترتيبها السابق. إن الأسماء المحفورة في المرابط لم تعد مطابقة لشاغليها بعد عملية الضغط، لكنني استطعت تحديد هوية الخيول بالشكل الصحيح. كان الحصان الرابع يدعى بلاكي. وتساءلت إن كانت طباع بلاكي تشبه طباع الشخص الذى يحمل نفس الاسم.

لم أستطع رؤية سيلفر ستار مما يعنى أنه كان مستلقياً على الأرض. وهذا الوضع يحمل أخباراً جيدة وسيئة في ذات الوقت؛ فالأخبار الجيدة هي أنه بوضعه هذا يرفع حمل وزنه عن قدميه، والأخبار السيئة هي أنه قد بلغ به الألم حداً لا يستطيع فيه محاولة الوقوف على قدميه. وبسبب الطريقة التي أُنشئتَ بها هذه المرابط، فقد كان من غير الممكن فحص حالته حتى يتوقف القطار ويتم تفريغ العربة من الخيول الأخرى.

جلست قبالة باب العربة المفتوح أراقب الفضاء وهو يمر سريعاً أمام العربة وقد بدأ الظلام في الحلول. وفي النهاية تسللت للداخل وخلدت للنوم.

بدا لى الوقت كأنه دقائق فقط قد مرت قبل أن تصرخ فرامل القطار فاتحة إياه. وعلى الفور تقريباً، فتح باب غرفة الماعز، وخرج كينكو وكويني إلى الممر. أمال كينكو أحد كتفيه إلى الجدار ودس يده بعمق داخل جيوبه متجاهلاً إياى على نحو متعمد. وحين توقف القطار تماماً، قفز على الأرض، واستدار وصفق مرتين، فقفزت كويني بين ذراعيه واختفيا معاً. نهضت على قدمىّ وأنا أراقب الباب المفتوح.

كنا على سكة جانبية في مكان مجهول. وكان القسمان الآخران من القطار قد توقفا أيضاً، وقد امتدا أمامنا على القضبان، وبينهما مسافة تقدر بنصف ميل.

Amly نهضة العرب

هبط الناس من القطار مع ضوء الصباح الباكر. كان العارضون يمددون أجسامهم في غمغمات وقد تجمعوا في مجموعات يتبادلون الحديث والتدخين بينما بدأ العمال في نصب عوارض الهبوط لإنزال المواشي.

ووصل أوجست ورجاله بعد عشر دقائق.

قال أوجست: "جو، تول أمر القرود. بيت، أوتس، أنزلا الدواب واسقياها من مياه جارية بدلاً من مخزون المياه، فنحن نحاول الاقتصاد في الماء".

فقلت: "لكن لا تنزلوا سيلفر ستار من القطار".

خيم صمت طويل نظر الرجال فيه أولاً نحوي ثم إلى أوجست الذي تجمدت نظرته للحظة:

ثم قال أخيراً: "نعم، هذا صحيح. لا تنزلوا سيلفر ستار من القطار".

ثم استدار وسار بعيداً، وتأملني الرجال الآخرون بعيون واسعة.

فهرولت مسافة كي ألحق بأوجست ثم قلت وأنا أخطو لأحاذيه: "أنا آسف، لم أقصد توجيه الأوامر".

توقف أمام عربة الجمال وفتح الباب. فقوبلنا بالزمجرة والشكوى من الجمال العربية التي بلغ بها الضيق مبلغه.

فقال أوجست متهللاً، وهو يجر دلواً من اللحم باتجاهي: "لا بأس، لا بأس أيها الفتى، يمكنك أن تأتي لمساعدتي في إطعام الوحوش"، فالتقطت الدلو من يده المعدنية الرفيعة فهاجمتني منه سحابة من الذباب الغاضب.

فقلت: "أوه، يا إلهي"، ثم تركت الدلو واستدرت بالاتجاه الآخر محاولاً التقيؤ. مسحت دموعاً سقطت من عينيّ، وأنا لا أزال أتقيأ. قلت لأوجست: "أوجست، لا يمكننا أن نطعم الوحوش من هذا".

"ولم لا؟".

"لقد فسد".

لم أتلق منه إجابة، فاستدرت لأجده قد وضع دلواً آخر بجوار الذي تركته. ثم سار بموازاة السكة حاملاً دلوين آخرين، فالتقطت دلوي وتبعته.

Amly نهضة العرب

فتابعت حديثى قائلاً: "إن هذا اللحم قد تعفن ولا شك أن الوحوش لن تأكله".

"فلنتمنَّ أن تأكله وإلا اضطررنا لاتخاذ قرارات صعبة".

"هه؟".

"لا يزال أمامنا طريق طويل حتى نصل لمدينة جولييت، إضافة أنه لم يعد لدينا من الماعز شيء".

فصعقت لدرجة منعتنى من الرد عليه.

وحين وصلنا للقسم الثانى من القطار، قفز أوجست على عربة مسطحة وجر أبواب أقفاص اثنين من الوحوش. فتح الأقفال وتركها معلقة على الأبواب، ثم قفز ثانية على الأرض.

قال وهو يلكزنى من الخلف: "هيا إذن".

"هيا ماذا؟".

فقال: "هيا، ضع لكل منها دلواً".

فصعدت وأنا كاره إلى ظهر العربة المسطحة. كانت تفوح من الوحوش رائحة بول نفاذة للغاية. ناولنى أوجست دلاء اللحم، واحداً بعد الآخر. ووضعتها على السطح الخشبى للعربة الذى أثر فيه تعرضه الدائم للجو المفتوح، وقد حاولت أن أكتم نَفَسى من هول الرائحة.

كان كل قفص يحوى قسمين: فعلى يسارى زوج من الأسود، وعلى يمينى، كان هناك نمر وفهد. وكانت الحيوانات الأربعة هائلة الحجم. وقد رفعت رؤوسها، وتشممت ما هو آت، وتحركت شواربها بقوة.

قال أوجست: "حسنا، هيا أقدم".

"ماذا علىّ فعله بالضبط، هل أفتح الباب وأقذف فيه باللحم وحسب؟".

"هذا إن لم تجد طريقة أفضل".

نهض النمر، وكان كتلة تزن ستمائة رطل من ألوان الأبيض، والأسود، والبرتقالى الرائعة المنظر. كان رأسه ضخماً وشواربه طويلة. فأتى نحو

Amly نهضة العرب

الباب، ودار قليلاً ثم انسحب للوراء. وحين عاد، بدأ يهدر ويزمجر وقفز نحو مصراع الباب فارتج قفل الباب مصطدماً بالقضبان.

فقال أوجست، وهو يشير نحو الأسود التي كانت تسعى نحوى هي الأخرى: "يمكنك أن تبدأ بإطعام ريكس؛ ذلك الأسد في الناحية اليسرى".

كان ريكس أصغر بشكل ملحوظ من النمر، وله جدائل في شعر عنقه وضلوعه تبدو واضحة تحت جلده الباهت. تجاسرت والتقطت أحد الدلاء.

فصاح بي وهو يشير إلى دلو آخر: "انتظر، انتظر. ليس هذا الدلو، بل ذاك".

لم أر فارقاً بين الاثنين، لكنني كنت قد تأكدت أنه من غير الصواب مجادلة أوجست، ولذلك أذعنت لرأيه دون استفسار.

حين رآني الأسد متجهاً نحوه، اندفع نحو الباب. فتجمدت مكاني.

"ما الأمر يا جاكوب؟".

تلفت حولي، فوجدت وجه أوجست متوهجاً.

ثم تابع قائلاً: "هل أنت خائف من ريكس؟ إنه مجرد *قط لعوب* لا خوف منه".

توقف ريكس لكي يحك جلده الأجرب في القضبان الأمامية للقفص.

وبأصابع مرتبكة، رفعت القفل ووضعته عند قدمي. ثم حملت الدلو وانتظرت. وحين أخذ ريكس دورته في القفص مبتعداً عن الباب، قمت بفتحه.

وقبل أن أتمكن من إخراج اللحم من الدلو، هجم بفكيه الضخمين على ذراعي فصرخت. اندلق ما في الدلو على الأرض، وتبعثر ما فيه من أحشاء في كل مكان، فترك الأسد ذراعي وانقض على اللحم.

فصفَقْت الباب مغلقاً إياه بقوة وحافظت على تثبيت ركبتي عليه. والتفت لأرى ما كانت ذراعي لا تزال في مكانها أم لا، فوجدتها في مكانها. كانت زلقة من آثار لعاب الأسد وحمراء كما لو كانت قد غمرت

Amly نهضة العرب

فى ماء مغلى. لكن الجلد لم يحترق. وبعد لحظة أدركت أن أوجست يضحك من خلفى فى صخب شديد.

فاستدرت نحوه قائلاً: "ماذا بك؟ هل ترى ذلك مضحكاً؟".

فقال أوجست دون محاولة لإخفاء سعادته بما حدث: "نعم أراه كذلك".

فهبطت عن العربة وتفحصت ذراعى مرة أخرى وقلت: "لقد جننت حقاً، أتعلم ذلك؟".

قال أوجست ضاحكاً، وهو يحاول اللحاق بى: "انتظر يا جاكوب، لا تغضب لقد كنت أمازحك لا أكثر".

"ما المزاح فى أن أفقد ذراعى".

"ليس لهذا الأسد أية أسنان".

تلعثمت وحدقت فى حصا السكة وكأن هذه الحقيقة قد قيدتنى، ثم تابعت سيرى. وفى هذه المرة لم يتبعنى أوجست.

اتجهت مباشرة وأنا فى حالة من الغضب الشديد نحو تيار الماء الجارى، وارتكزت على ركبتى بجوار رجلين يسقيان اثنين من الحمر الوحشية. فجفل أحدهما، ونهق وهو يدفع كمامة فمه المخططة فى الهواء. فنظر إلىّ الرجل الذى يمسك بزمامه نظرات حادة متتالية وهو يصارع للمحافظة على سيطرته على الحمار ثم صاح فىّ: "اللعنة، ما هذا؟ هل هذا دم؟".

فنظرت لأسفل، فإذا بى ملطخ بدماء الأحشاء فقلت: "نعم، لقد كنت أطعم الوحوش".

"هل فقدت صوابك، هل تريد التسبب فى قتلى؟".

فتراجعت عن النبع، وأنا أنظر خلفى نحو الحمار حتى هدأت ثورته، ثم جثمت نحو الماء لأغسل الدم وآثار لعاب الأسد عن ذراعى.

فى النهاية، عدت ثانية إلى القسم الثانى من القطار. كان دياموند جو على متن عربة مسطحة بجوار قفص الشمبانزى. كان رافعاً أكمام قميصه

Amly نهضة العرب

الرمادى، مظهراً ذراعين مشعرتين قويتين. كان الشمبانزى يجلس على مؤخرته، يتناول حفنات من البقوليات مخلوطة بالفاكهة، وكان يراقبنا بعينيه السوداوين اللامعتين.

فسألته: "هل تحتاج إلى مساعدة؟".

"كلا، فأنا على وشك الانتهاء. سمعت أن أوجست أخذك إلى قفص ريكس العجوز".

فتطلعت ببصرى نحوه وبدأت فى الغضب، لكن جو لم يكن مبتسماً.

وقال متابعاً: "كن حذراً. ربما لا يستطيع ريكس قضم ذراعك، لكن ليو سيفعل. كن على يقين من هذا. لا أدرى لماذا طلب أوجست أن تفعل ذلك فى الأساس. إن كليف هو المختص بإطعام الوحوش. إلا إذا كان أوجست قد تعمد ذلك". ثم توقف ومد يده نحو القفص، وتلامس مع الشمبانزى بالأصابع قبل أن يغلق الباب. ثم قفز من العربة وقال: "اسمع، سأقول لك ما سأقوله مرة واحدة. إن أوجست شخص غريب وعليك أن تحذر منه. إنه لا يحب المجادلة فى سلطاته. وتنتابه لحظات جنون، هل تعلم ما أعنيه؟".

"أظننى أعلم".

"لا، أظنك لم تعلم بعد. لكنك سوف تعلم لاحقاً. قل لى، هل أكلت؟".

"كلا".

فأشار نحو مسار فلاينج سكوادرون. كان هناك طاولات منصوبة بمحاذاة مسار القطار، فقال: "إن الطهاة قد جهزوا إفطاراً متواضعاً. وقد وضعوا أيضاً بعض الوجبات المعلبة. فاحرص على الحصول على واحدة منها لأننا فى الغالب لن نتوقف ثانية حتى حلول الليل. فاحصل على واحدة منها، فكما أقول دائماً إن الحصول على الأشياء أمر نافع دوماً".

"شكراً لك يا جو".

"لا عليك".

Amly نهضة العرب

عدت إلى عربة المواشي ومعي وجبتي المعلبة، التي كانت تحوى شطيرة من اللحم وتفاحة وعلبتين من الشراب. وحين وجدت مارلينا تجلس على القش بجوار سيلفر ستار، وضعت صندوق طعامي وتوجهت نحوها ببطء.

كان سيلفر ستار ينام على جنبه، كان جانب بطنه يخفق بقوة، وكان تنفسه سطحياً وسريعاً. وقد جلست مارلينا عند رأسه وقد عقدت ساقيها تحتها.

قالت وهى تتطلع نحوى: "لم يصبه أى تحسن، أليس كذلك؟".

فهززت رأسى بالنفى.

قالت بصوت ضعيف وأجوف، يكاد يقترب من البكاء: "لا أفهم كيف حدث هذا بتلك السرعة".

جثوت بجوارها وقلت: "هكذا تسير الأمور أحياناً. ولا يكون بسبب خطأ منك فى الوقت ذاته".

مسحت على وجهه بيدها، وهى تمرر أصابعها فى أنحاء خده المرهق وعلى أسفل ذقنه، فطرف بعينيه.

وسألت: "هل من شيء آخر يمكننا فعله؟".

"ليس أكثر من تركه على متن القطار. وحتى فى أفضل الظروف، لن يكون هناك شيء يمكننا فعله سوى قطع الطعام عنه، والدعاء له".

نظرت نحوى ثم عادت ببصرها ثانية حين رأت ذراعى، قالت: "أوه، يا إلهى. ماذا حدث لك؟".

نظرت نحو ذراعى وقلت: "أوه، لا شيء على الإطلاق".

قالت وهى تنهض على ركبتيها: "كلا، بل هناك شيء". أخذت باطن ذراعى بين يديها وحركته نحو ضوء الشمس المتسلل من فوارق جدان العربة وقالت: "يبدو أن هذا قد وقع لك حديثاً. يبدو أنه سيشكل كدمة فيما بعد. هل يؤلمك؟". ثم أخذت ظاهر ذراعى على إحدى يديها ومررت الأخرى على البقعة الزرقاء التى بدأت تمتد تحت جلد ذراعى. كانت راحة يدها باردة وناعمة، وقد أوقف ذلك شعر جسدى.

أغلقت عينىّ وازدردت لعابى بصعوبة وقلت: "لا، الحقيقة، أننى ــ"

Amly نهضة العرب

ثم دوت صافرة، فنظرت باتجاه الباب. فأتاح ذلك لى فرصة لاستعادة ذراعى من بين يديها والنهوض واقفاً.

وهتف صوت عميق من مكان ما قرب مقدمة القطار يقول: "عشروون دقيقة، عشروون دقيقة بقيت على المغادرة!".

فأطل جو برأسه من باب العربة قائلاً: "هيا! علينا شحن هذه الحيوانات ثانية"، ثم قال وهو يلمس حافة قبعته نحو مارلينا: "آسف سيدتى، لم ألحظ وجودك".

"لا بأس يا جو".

ظل جو واقفاً على مدخل الباب على نحو أخرق ثم قال فى نفاد صبر: "علينا البدء بذلك فوراً".

فقالت مارلينا: "هيا اذهب أنت، وسأبقى فى هذا الجزء من الرحلة مع سيلفر ستار".

فقلت بسرعة: "لا يمكنك ذلك".

فنظرت نحوى وقالت وقد تمدد حلقها وشحب وجهها: "ولماذا؟".

"لأنه بمجرد شحن بقية الخيول، ستظلين محتجزة هنا".

"أعلم ذلك".

"فماذا لو حدث شيء؟".

"لن يحدث شيء. وحتى لو حدث، فسوف أقفز من فوق الخيول"، ثم استقرت على القش، وعقدت ساقيها ثانية كما كانت.

فقلت متشككاً: "لست أدرى". لكن مارلينا كانت تحدق فى سيلفر ستار وعلى وجهها تعبير يوحى بأنها لن تتزحزح من جانبه.

فعدت للنظر نحو جو الذى رفع يديه فى إشارة سخط واستسلام.

وبعد نظرة أخيرة نحو مارلينا، أدرت حاجز المربط مغلقاً إياه، وساعدت جو على شحن بقية الخيول.

كان دياموند جو محقاً بشأن طول هذا الجزء من الرحلة؛ فلم تتوقف قبل بداية مساء ذلك اليوم.

Amly نهضة العرب

لم أتبادل مع كينكو أى حوار منذ غادرنا ساراتوجا سبرنجس. لقد كان من الواضح أنه يكرهنى، وأنا لا ألومه على ذلك ـ لأن أوجست هو من زرع فيه هذه الكراهية، إلا أننى لا أجد داعياً لأن أشرح له ذلك.

مكثت فى المقدمة مع الخيول لأمنحه بعض الخصوصية. إضافة إلى أننى لا أزال قلقًا من احتجاز مارلينا نفسها فى نهاية صف من الخيول التى تزن ألف رطل.

حين توقف القطار، قامت بالقفز برشاقة على ظهور الخيول ثم إلى الأرض. وحين برز كينكو من غرفة الماعز انقبضت عيناه فى شعور خاطف بالذعر. ثم تحولت عينه من مارلينا نحو الباب المفتوح للعربة فى عدم مبالاة متعمدة.

قمت أنا وأوتسى بإنزال الخيول والجمال واللامات وسقيها. أما دياموند جو وكليف وبعض الآخرين فقد اتجهوا لتولى أمر حيوانات الأقفاص فى القسم الثانى من القطار، ولم يظهر أوجست.

وبعد أن أعدنا الحيوانات إلى متن القطار، صعدت إلى عربة الخيول، وتطلعت فى الغرفة.

كان كينكو يجلس على السرير عاقداً ساقيه، وكانت كوينى تشمشم فراش نوم متنقل وضع مكان بطانية الحصان المبتلاة بما فيها. وعلى الفراش وضعت بطانية حمراء مربعة مطوية بعناية ووسادة ناعمة فى كيس أبيض. وعلى الوسادة وضعت بطاقة ورقية مربعة. وحين ملت نحوها لألتقطها، قفزت كوينى كأننى ركلتها. قرأت البطاقة وكان فيها:

السيد والسيدة أوجست روزنبلوث يطلبان شرف حضورك سريعاً فى حجرة القطار رقم ٣ بالعربة رقم ٤٨، وذلك لتناول الشراب بعد عشاء متأخر.

نظرت فى الورقة بدهشة، بينما كان كينكو يرمقنى بشدة.

قال: "إنك لا تضيع الوقت فى الفوز بالحظوة والرضا. أليس كذلك؟".

Amly نهضة العرب

من مجموعة الصور بمتحف سيرك رينجلنج بسراسوتا. فلوريدا

Amly نهضة العرب

الفصل السابع

لم تكن عربات القطار مرقمة ترقيماً تسلسلياً، وقد استغرقت بعض الوقت حتى وجدت العربة رقم ٤٨، التى كانت مطلية بلون بنى قاتم وزينت بحروف ذهبية بطول قدم لعبارة بنزينى براذرز سبكتاكيولار شو أون إيرث. وتحت العبارة مباشرة، كتب اسم آخر هو: كريستى بروز سيركس، وكان الاسم الأخير قد وضع فى ألوان براقة حديثة الطلاء، ويمكن رؤيته بوضوح.

تهادى إلىّ صوت مارلينا من نافذة الغرفة: "جاكوب!". وبعد ثوان ظهرت فى نهاية الممر، وهى تلوح لى عبر حاجز الغرفة وقد التفت تنورتها حولها كالمروحة. ونادت مرة أخرى: "جاكوب! أوه، إننى سعيدة بأنك استطعت القدوم. تفضل بالدخول".

فقلت وأنا أتأمل ما حولى: "شكراً". ثم صعدت العربة وتبعتها إلى الممر الداخلى بالعربة ومنه إلى الغرفة الثانية بها.

كانت الغرفة رقم ٣ مبهرة، كما أنها كانت ذات ترقيم خاطئ كما وضح لى. كانت تتكون من نصف مساحة العربة، وتحوى غرفة إضافية داخلها على الأقل، وقد أحيطت تلك الغرفة بستار سميك مخملى اللون. أما الغرفة الرئيسية فقد كانت مكسوة بخشب الجوز، ومؤثثة بأثاث أحمر اللون، ومائدة طعام، ومطبخ.

قالت مارلينا وهي تشير نحو أحد الكراسى: "خذ راحتك من فضلك. أوجست سيأتى حالاً".

Amly نهضة العرب

قلت لها: "شكراً".

جلست فى مواجهتى.

ثم قامت ثانية على عجل وقالت: "أوه، كيف نسيت واجب الضيافة؟ أتود تناول بعض الشراب؟".

فقلت: "شكراً لك. سيكون ذلك شرفاً لى".

فمرت بجوارى متجهة نحو صندوق الثلج.

"سيدة روزنبلوث، هل لى بسؤال إذا سمحت؟".

قالت وهى تنزع غطاء الزجاجة: "أوه، نادنى مارلينا من فضلك"، ثم أمالت كأساً طويلة وصبت فيها الشراب ببطء فى جانبه، حتى تتحاشى ارتفاع الزبد فيه ثم تابعت: "واسأل ما بدا لك من أسئلة، تفضل"، ثم ناولتنى كأسى، واستدارت لملء كأس أخرى.

"كيف يحصل الجميع فى هذا القطار على كل هذا الشراب؟".

قالت وهى تعود لمجلسها وترفع كأسها نحوى: "إننا نسافر دائماً إلى كندا بداية كل موسم، والقوانين هناك أكثر مرونة".

وأخذنا نتجرع الشراب.

"ألا تتعرضون لمضايقات من قبل حرس الحدود؟".

فقالت: "إننا نضع الشراب فى بطون الإبل".

فقلت: "آسف، ولكننى لا أفهم هذا".

"الإبل تتقيؤه، فنعيد تعبئته مرة أخرى".

كدت أتقيأ ما بفمى من أنفى، فضحكت، ووضعت يدها على فمها فى احتشام. ثم تنهدت وتركت كأسها وقالت: "جاكوب؟".

"نعم؟".

"لقد أخبرنى أوجست بما حدث هذا الصباح".

نظرت إلى ذراعى المصاب بالكدمات.

فقالت خجلة وهى تنظر فى حجرها: "إنه يشعر بالندم الرهيب. فهو يحبك، إنه يحبك بالفعل. الأمر لا يعدو ... حسنا، إنه أمر معقد".

نهضة العرب Amly

فقلت: "مرحى، لا شيء في الأمر. إنني على ما يرام".

صاح أوجست قادماً من خلفي: "جاكوب، صديقي العزيز! إنني في غاية السعادة لأنك انضممت إلى سهرتنا هذه. وأرى أن مارلينا قد قدمت لك الشراب بالفعل؛ ألم تعرض لك غرفة الملابس بعد؟".

"غرفة الملابس؟".

فقال، وهو يدير رأسه ويهزه في حزن: "مارلينا"، ثم هز إصبعه في شكل تأنيب وقال: "تك، تك، حبيبتي".

فقالت وهي تقفز على قدميها: "أوه، لقد نسيت تماماً!".

سار أوجست نحو الستارة المخملية وأزاحها، وقال: "تاد ــ دا".

كانت هناك ثلاثة أثواب طرحت جنباً إلى جنب على السرير. كما كانت هناك سترتا سهرة رجالية مع أحذيتهما، وثوب جميل من الحرير وردى اللون، له حلية على رقبته وذيله.

صاحت مارلينا، وصفقت بيدها في ابتهاج. ثم اندفعت نحو السرير وأخذت الثوب وضمته إلى جسدها ودارت.

استدرت نحو أوجست وقلت: "أليس هذا من رجل يوم الاثنين ــ"

"هل تقصد أن السترة توضع مع الغسيل؟ كلا يا جاكوب. فلمنصب مدير الفروسية اعتباراته. فبالإمكان غسلها هناك"، وأشار نحو باب خشبي لامع وتابع قائلاً: "فسنقوم أنا ومارلينا بتبديل ثيابنا، شيء لم تره من قبل يا عزيزى، أليس كذلك؟".

جذبت الحذاء الحرير الوردى اللون بكعب قدمها ومسحت عليه بلطف.

كان آخر شيء رأيته وأنا أغلق باب الحمام عليّ هو مجموعة من الأقدام المتداخلة تتجه نحو السرير. وحين عدت، كانت مارلينا وأوجست نموذجاً للأبهة، حيث كانا يحومان في خلفية الغرفة، بينما كان ثلاثة سقاة بقفازات بيضاء يسيرون في ضجة بطاولة صغيرة ذات عجلات عليها طبق كبير ذو قبة فضية تغطيه.

Amly نهضة العرب

كانت فتحة عنق فستان مارلينا لا تكاد توارى كتفيها؛ حيث كانت تُظهر عظم كتفها. أحست بنظراتي نحوها فاحمر وجهى خجلاً.

كَان العشاء رائعاً: بدأنا أولاً بحساء أصداف بحرية ثم أتبعناه بالطبق الرئيسي والبطاطس المسلوقة والهليون المغطى بالكريمة. ثم تناولنا بعد ذلك سلاطة سرطان البحر. وبعد ذلك وضعت الحلوى ـ وهى قطع البرقوق الإنجليزى مع صلصة خاصة ـ كنت أظن أننى لن أقدر على تناول قطعة واحدة منه، لكننى بعد دقائق كنت أمسح طبقى بالملعقة.

قال أوجست فى تشدق بطيء بالكلمات: "يبدو أن جاكوب لم يغرم بعشاء الليلة".

فتوقفت عن مسح الطبق فوراً.

ثم انبرى هو ومارلينا ضاحكين. فوضعت ملعقتى، وأنا أكاد أموت خزياً.

ثم قال ضاحكاً: "كلا، كلا يا فتى ـ إننى أمازحك فحسب"، ثم مال إلىّ يربت يدى ويقول: "كل. أمتع نفسك. هيا، إليك المزيد".

"لا، لا أستطيع".

فقال وهو يعيد ملء كأسى دون انتظار جواب منى: "حسناً، إليك المزيد من الشراب".

كان أوجست كريماً، وساحراً، ومرحاً ـ حتى إننى فى تلك الليلة بدأت أعتقد أن حادثة الأسد هذه كانت مجرد دعابة منه. كان وجهه يتوهج بالعاطفة حين بدأ يحكى لى قصة ارتباطه بمارلينا، وكيف ميز موهبتها مع الخيل منذ أن خطت قدمها عرض الوحوش للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات ـ وقد شعر بذلك من الخيول ذاتها. كما حكى لى كيف رفض ـ رغم حزن العم آل ـ ألا يتزحزح حتى يوقعها فى حبه ويتزوجها.

قال أوجست وهو يصب ما بقى من زجاجة الشراب فى كأس ويمد إحدى يديه للأخرى: "لقد تطلب هذا بعض الجهد؛ فمارلينا لم تكن سهلة الترويض. فضلاً عن أنها كانت مخطوبة فعلاً فى هذا الوقت. لكنها فضلت

Amly نهضة العرب

هذا الوضع على أن تكون زوجة مصرفى ممل، أليس كذلك يا حبيبتى؟ وعلى أية حال فهذا ما ولدت من أجله؛ فليس من اليسير على أى شخص أن يتعامل مع خيول عروض القوة. إن الأمر يحتاج لموهبة ربانية أو، لتقل، حاسة سادسة حتى تستطيع القيام بهذا العمل. إن هذه الفتاة تحدث الخيول، وصدقنى إن قلت لك إن الخيول تنصت إليها".

قضينا أربع ساعات، شربنا خلالها الكثير من الشراب، ورقص أوجست مع مارلينا على لحن أغنية "ربما كان هذا هو القمر" بينما اتكأت فى كسل على كرسى منجد ووضعت ساقى اليمنى على ذراعه. دار أوجست بمارلينا ثم توقفت هى لتكمل الدورة عند امتداد ذراعه. كان يترنح، وقد تشعث شعر رأسه الأسود. وتدلت رابطة عنقه من أحد جوانب ياقته، وانحلت بعض أزرار من قميصه، وحدق فى مارلينا بحدة كما لو كان شخصاً آخر.

فقالت مارلينا: "ما الخطب يا أوجى؟ هل أنت بخير؟".

استمر فى النظر نحوها، وهو يميل رأسه كما لو كان يقيمها. ثم زم طرف شفتيه، وبدأ يومئ ببطء حتى بدا أنه لا يكاد يحرك رأسه.

اتسعت عينا مارلينا. حاولت أن تبعده، لكنه تناول ذقنها فى يده.

اعتدلت فى جلستى، وأصبحت فجأة فى انتباه كامل.

حدق أوجست لدقيقة أخرى، كانت عيناه تلمعان فى حدة. ثم تغير وجهه مرة أخرى، حتى أصبح ذا ملمح صبيانى لفترة ظننت فيها أنه يكاد يبكى. ثم جذبها إليه من ذقنها ثم جعل يقبلها فى فمها. ثم وجه نفسه نحو غرفة النوم وانهار بوجهه على السرير.

فقالت مارلينا: "اسمح لى لحظة".

دخلت غرفة النوم ودحرجته على السرير فدار معها حتى استقر فى منتصفه. نزعت حذاءه وأسقطته على الأرض. وحين خرجت، سحبت الستارة المخملية مغلقة الغرفة ثم غيرت رأيها فوراً. وعادت لتفتحها من جديد ثم أغلقت المذياع، وجلست أمامى.

Amly نهضة العرب

سرى نحونا من الغرفة غطيط مختلط بتمتمات ذات مضمون ملوكى.

كان رأسى يطن. وقد أصبحت ثملاً تماماً.

سألتها: "ما هذا الذى حدث بحق الجحيم؟".

قالت مارلينا وهى تنزع عنها حذاءها وتعقد ساقيها وتميل لتحك ما فوق قدمها: "وما الذى حدث؟"، وكانت أصابع أوجست قد تركت آثاراً حمراء اللون على ذقنها.

فقلت بسرعة: "ذلك الذى حدث الآن حين كنتما ترقصان".

التفتت نحوى فى حدة. كان وجهها ممتلئاً بالضيق، وللحظة خشيت أنها قد تنخرط فى البكاء. ثم استدارت ناحية النافذة ووضعت إصبعاً على شفتيها وظلت صامتة نحو نصف دقيقة.

ثم قالت: "عليك أن تدرك شيئاً يتعلق بأوجى وهو شىء لا أعرف بالضبط كيف أشرحه لك".

فملت للأمام وقلت: "حاولى قدر الاستطاعة".

"إنه... إنه زئبقى؛ لديه القدرة على أن يكون أكثر الرجال سحراً على وجه الأرض. مثلما كان الليلة".

انتظرت استمرارها فى الحديث وقلت: "ثم ماذا...؟".

مالت على ظهر مقعدها وقالت: "لكنه، حسناً إن... لديه بعض لحظات الجنون. كما حدث اليوم".

"وماذا حدث اليوم؟".

"عندما كاد أن يجعلك طعاماً للأسد".

"أوه، ذلك الحادث. لا يمكننى القول إن الأمر أبهجنى، لكننى لم أكن فى خطر على الإطلاق؛ فـ ريكس ليس لديه أسنان".

فقالت فى هدوء: "نعم، ليس لديه أسنان، لكنه يزن أربعمائة رطل ولديه مخالب".

نهضة العرب Amly

تركت كأسى على الطاولة وكأن ثقل الحقيقة التى ذكرتها قد أغرقنى فى مكانى. توقفت مارلينا للحظات ثم نظرت عينىّ وسألت: "جانكوسكى اسم بولندى، أليس كذلك؟".

"نعم، بالطبع هو كذلك".

"إن البولنديين عموماً لا يحبون اليهود".

"لم أكن أعلم أن أوجست يهودى".

فقالت: "ألم تدرك ذلك رغم اسم روزنبلوث الذى ينتهى به اسمه؟"، ثم نظرت إلى أصابع يديها ثم كومتهما فى حجرها وتابعت: "إن عائلتى تتبع ديانة أخرى، وقد تبرأوا منى حين عرفوا ديانته".

"إننى آسف لسماع هذا، وإن كنت غير مندهش له".

نظرت نحوى فى حدة.

وقالت: "إننى لم أقصد هذا. إننى لست... لست مثله".

ساد بيننا، للحظات، صمت غير مريح.

فسألت فى النهاية: "ولماذا أنا هنا إذن؟"، كان عقلى الثمل لم يعد محتملاً الأمر كله.

"لقد أردت أن ألطف آثار ما حدث اليوم".

"وهل نجحت فى ذلك؟ ألم يكن غير راغباً فى وجودى؟".

"كلا، بل رغب فى وجودك بالفعل. فقد أراد أيضاً مصالحتك، لكن الأمر يصعب عليه. إنه لا يستطيع مغالبة لحظات الجنون التى تنتابه. إنها تحرجه، ولذلك فإن أفضل ما يمكن عمله هو التظاهر بعدم وجودها"، ثم تنهدت واستدارت نحوى وهى ترسم ابتسامة ضيقة على شفتيها قائلة: "إضافة إلى أننا قضينا وقتاً ممتعاً معاً. أليس كذلك؟".

"نعم، لقد كان العشاء لطيفاً. شكراً لك".

وبينما كانت تعمنا لحظة صمت أخرى، تبين لى أنه إن لم أكن أرغب فى القفز عبر عربات القطار وأنا فى هذا السكر الشديد وفى هذا الليل الهائل، فإن علىّ أن أنام حيث أنا.

Amly نهضة العرب

قالت مارلينا: "جاكوب، من فضلك، إننى أريد أن تظل العلاقة بيننا على ما يرام. وأوجست سعيد بانضمامك لنا. وكذلك العم آل سعيد أيضاً بانضمامك إلينا".

"وما سبب تلك السعادة بالضبط؟".

"إن العم آل كان منزعجاً لعدم وجود طبيب بيطرى فى السيرك، وقد أتاه الآن من حيث لا يدرى أحد طلاب إحدى الجامعات العريقة".

فحدقت نحوها، وأنا لا أزال أحاول أن أفهم.

تابعت قائلة: "إن لدى رينجلنج طبيب بيطرى. وأكثر ما يسعد العم آل أن يكون مثل رينجلنج".

"كنت أظن أنه يكره رينجلنج".

"عزيزى، لقد أراد دوماً أن يكون هو رينجلنج".

أملت رأسى للخلف وأغلقت عينىّ، لكن هذا تسبب لى فى دوار فظيع، ففتحتهما ثانية محاولاً التركيز باتجاه القدمين المتدليتين من السرير.

عندما استيقظت من نومى كان القطار متوقفاً ــ هل يعقل أننى ظللت نائماً حتى مع صرير فرامل القطار؟ كانت الشمس مطلة علىّ من الشباك، ومخى ينتفض داخل جمجمتى، وكانت عيناى تحترقان ألماً وطعم فمى يشبه بالوعة المجارى.

ترنحت واقفاً على قدمىّ ونظرت نحو غرفة النوم. كان أوجست ملتفاً حول مارلينا، وذراعه تحيط بها، كانا راقدين على السرير وهما بكامل لباسهما.

واجهتنى بعض النظرات الغريبة حين ظهرت لها خارجاً من العربة رقم ٤٨ مرتدياً القميص التكسيدو وعلى ذراعى ملابسى الأخرى. وفى نهاية القطار كان معظم الناظرين إلىّ من العارضين، وقد تابعونى بسخرية مكتومة. وحين مررت بعربات نوم العمال، كانت النظرات أكثر حدة وريبة.

صعدت إلى عربة المواشى فى خفة ودفعت باب الغرفة الصغرى فاتحاً إياه.

Amly نهضة العرب

كان كينكو جالساً على طرف سريره، وبإحدى يديه المجلة الإباحية، وباليد الأخرى يقوم بحركات غريبة.

توقف تماماً عما كان يفعله. وسادت الغرفة لحظة صمت تام تبعت حفيف علبة كولا فارغة تنطلق نحو رأسي فتفاديتها.

صرخ كينكو والعلبة تصطدم بإطار الباب خلفي: "اخرج من هنا!"، ثم قفز واقفاً فى شكل وحشي ثم كرر: "اخرج من هنا عليك اللعنة".

فاستدرت نحو الباب وأنا أحمى وجهى بذراعى فسقطت ملابسى. ثم سمعت صوت سحّاب بنطال يُجَرّ، وما هى إلا لحظة حتى كانت أعمال شكسبير ترتطم بالحائط بجانبى فصحت قائلاً: "حسناً، حسناً، إننى سأخرج!".

جذبت الباب مغلقاً إياه، وأسندت ظهرى للحائط وقد استمرت اللعنات والشتائم تتوالى بلا انقطاع.

ظهر أوتس خارج عربة المواشى. ونظر فى حذر نحو الباب المغلق ثم هز كتفيه استهجاناً وقال: "مرحباً أيها الفتى المختال. هل ستساعدنا فى أمر هذه الحيوانات أم لا؟".

فقفزت على الأرض قائلاً: "بالتأكيد، طبعاً سأساعدك".

فحدق فىّ.

فقلت: "ما الأمر؟".

فقال: "ألن تقوم أولاً بتغيير حلتك المبهرجة هذه؟".

فرمقت الباب المغلق خلفى ثانية. وسمعت شيئاً ثقيلاً يضرب فى الحائط، فقلت: "أوه، كلا. أظن أننى سأبقى كما أنا".

"أنت وشأنك. إن كليف قد قام بتنظيف الوحوش ويريد منا إحضار اللحم".

فى هذا الصباح كان الضجيج الصادر من عربة الإبل أشد من أمس.

Amly نهضة العرب

قال أوتس: "من المؤكد أن الحيوانات آكلة العشب لا تحب التواجد فى مكان به لحم، وقد وددت مع هذا أن يكفوا عن هذه الضجة فلا يزال أمامنا سفر طويل على هذا الوضع".

فتحت الباب، فانطلق سيل من الذباب خارجاً من العربة. ورأيت الدود فى اللحم فى نفس اللحظة التى هبت فيها الرائحة. استطعت التراجع بضع أقدام قبل أن أتقيأ ثم لحقنى أوتس منحنياً للأمام، وقد أمسك بطنه بيديه.

وبعد أن أنتهى من قيئه، بدأ يلتقط أنفاسه بعمق، ثم تناول منديلاً قذراً من جيبه، ثم وضعه على فمه وأنفه وعاد إلى العربة. جذب أحد الدلاء وجرى به نحو نطاق الأشجار وأفرغه هناك. كتم أنفاسه حتى منتصف مساحة عودته.

ثم توقف، وانحنى واضعاً يده على ركبتيه، ملتقطاً بعض الهواء النقى.

حاولت أن أساعده لكننى فى كل مرة كنت أقترب من العربة، كان حجابى الحاجز يعود فيصدر تقلصاته ثانية.

وحين عاد أوتس قلت له وأنا لا أزال أتقيأ: "أنا آسف. لكننى لا أستطيع ذلك. لا أستطيع فعلاً".

فرمقنى بنظره شذرا.

فقلت محاولاً شرح الأمر: "إن معدتى معتلة؛ فقد شربت كثيراً ليلة أمس".

فقال: "نعم، أنا واثق من ذلك. اذهب واجلس أيها الفتى الأنيق، وسأهتم أنا بالأمر".

أفرغ أوتس ما تبقى من اللحم عند النطاق الشجرى وتركه كومة يئز حولها الذباب.

تركنا باب عربة الإبل مفتوحاً، ولكن كان من الواضح أن تجديد الهواء لم يكن كافياً.

Amly نهضة العرب

قدنا الإبل واللامات خارج العربة وقيدناها إلى جانب القطار. ثم أهرقنا دلاء الماء على أرضية العربة مستخدمين مسَّاحات لجرف ما تبقى من القارات على الأرضية. كانت الرائحة الكريهة لا تزال تعم المكان، لكن كان هذا أقصى ما يمكننا فعله.

وبعد أن تولينا أمر بقية الحيوانات، عدت إلى عربة الخيول. كان سيلفر ستار راقداً على جنبه، وإلى جواره كانت مارلينا راكعة نحوه لا تزال فى فستانها الوردى الذى كانت ترتديه ليلة أمس. سرت عبر الصف الطويل من حواجز المرابط المفتوحة وتوقفت بجوارها.

كانت عينا الفرس شبه مغلقة وكان يجفل ويهمهم فى رد فعل على مثيرات غير مرئية.

قالت مارلينا دون أن تنظر نحوى: "لقد بات أسوأ من السابق".

وبعد لحظة قلت: "نعم".

"هل هناك أى فرصة أمامه للتعافى؟ أى فرصة كانت؟".

ترددت، لأن ما على طرف لسانى كان مجرد كذبة رأيت ألا أنطق بها.

فقالت: "بإمكانك أن تخبرنى بالحقيقة. إننى أريد معرفتها".

"للأسف لا. ليست هناك أى فرصة للتعافى".

وضعت يدها على عنقه وتركتها ثم قالت: "فى هذه الحالة، عدنى أن يكون ذلك سريعاً؛ فأنا لا أريد له أن يعانى".

فهمت ما قصدته بقولها؛ فأغلقت عينىّ وقلت: "أعدك بذلك".

نهضت وهى تنظر نحوه. لم أفقد ثباتى فحسب، بل كنت مذهولاً بالفعل من رد فعلها الخاضع وذلك حين صدر من حنجرتها صوت حشرجة غريب، تبعه صوت أنين، ثم تعالى صوت حشرجتها. لم تكن حتى تحاول مسح دموعها المنهمرة على خديها، لكنها ظلت واقفة على هذا الحال وقد ضمت إليها ذراعيها، وكان كتفاها يرتجان من بكائها، وهى تحاول التقاط الأنفاس. وبدت كأنها على وشك الانهيار التام.

Amly نهضة العرب

حدقت نحوها مرعوباً. فلم يكن لدىّ إخوة من البنات، إلى جانب خبرتى المحدودة فى التخفيف عن النساء فى أمور أقل فداحة من هذه بكثير. وبعد لحظات من التردد، وضعت يدى على كتفها.

استدارت فى الحال ورمت بنفسها نحوى، ودست وجنتيها المبتلتين فى قميصى ـ قميص أوجست التكسيدو. مررت يدى على ظهرها مصدراً أصوات تهدئة حتى توقفت دموعها فى النهاية؛ فابتعدت عن صدرى.

كانت عيناها وأنفها قد انتفخا واحمرا، وتلزج وجهها بالمخاط والدموع. فتنشقت ومسحت جفونها السفلية بظاهر يديها، ثم استقامت بذراعيها وغادرت دون أن تنظر ثانية، وكان كعب حذائها العالى يدق وهى تسير بطول العربة.

كنت أقف بجوار سريره أهز كتفه وأقول: "أوجست". فانقلب على نحو مترهل وكأنه جثة لا حياة فيها.

فملت نحوه وصحت فى أذنه: "أوجست!".

فنخر منزعجاً.

"أوجست! استيقظ!".

وأخيراً بدل وضعه ودار، ووضع يده على عينيه وقال: "أوه، يا إلهى، يا إلهى، إن رأسى يكاد ينفجر. أغلق هذه الستارة من فضلك".

"هل لديك بندقية؟".

رفع يده عن عينيه واعتدل جالساً.

"ماذا؟".

"يجب أن أقتل سيلفر ستار".

"لا يمكنك هذا".

"إننى مضطر إلى ذلك".

"لقد سمعت العم آل. فإذا مات الحصان، فستكون فى انتظار أول إشارة حمراء".

"وما الذى يعنيه ذلك بالتحديد؟".

Amly نهضة العرب

"يعنى أنه سيتم القذف بك من القطار وهو يسير. فإن كنت محظوظاً ألقى بك عند الإشارة الحمراء، حيث يمكنك أن تجد أناساً يدلونك على المدينة القريبة. وإن لم تكن كذلك فادع الله أن يفتحوا الباب ليقذفوا بك أثناء عبور القطار لأحد الجسور".

إن ملاحظة كامل بشأن موعد له مع بلاكى أصبحت ذات دلالة الآن — مثلما فهمت غيرها من التعليقات لدى مقابلتى الأولى مع العم آل. قلت: "فى هذه الحالة إذن سأتمسك بفرصى وأمكث هنا بالتحديد حين يبدأ القطار فى التحرك. لكن فى كل الأحوال علينا تخليص هذا الحصان من حياته".

فقال أوجست أخيراً: "اللعنة"، ثم دار بساقيه حتى استقر جالساً على حافة سريره. ثم حك خديه اللذين نبت فيهما شعر لحيته. ثم سألنى وهو يلحظنى ليحك أصابعه المغطاة بجوربه الأسود: "هل تعلم مارلينا بالأمر؟".

"نعم، تعلم".

"ثم قال وهو يقف على قدميه: "اللعنة"، ووضع إحدى يديه على رأسه وتابع قائلاً: "إن هذا الأمر سيفجر غضب العم آل. حسناً. قابلنى عند عربة الخيول بعد دقائق قليلة. وسوف أحضر السلاح"

ثم استدرت مغادراً.

ثم قال: "أوه، جاكوب؟".

فقلت: "نعم".

"قم أولاً بتغيير قميصى من فضلك".

حين عدت ثانية إلى عربة المواشى كان باب الغرفة الداخلية مفتوحاً، فرفعت رأسى لأنظر داخلها ببعض التوجس، لكن كينكو لم يكن بالغرفة. فدخلت الغرفة وبدلت ثيابى. وبعد عدة دقائق ظهر أوجست ومعه بندقية.

فقال وهو يصعد العارضة: "ها هى ذى"، ثم أعطانى البندقية ووضع بيدى رصاصتين فوضعت إحداهما فى جيبى ومددت له يدى بالأخرى قائلاً: "لن أحتاج سوى واحدة فقط".

Amly نهضة العرب

"وماذا لو أخطأت التصويب؟".

"بالله عليك يا أوجست. إننى سأكون فى جواره تماماً".

فنظر لى لحظة، ثم أخذ الرصاصة الأخرى وقال: "حسناً إذن. خذه بعيداً عن القطار".

"هل تمزح؟ إنه لا يستطيع الحركة مطلقاً".

"لا يمكنك القيام بهذا هنا. فالخيول الأخرى قريبة جداً من العربة".

فنظرت إليه وحسب.

ثم استدار إلى حائط العربة وهو يضرب وشماً على ألواحها ثم قال فى النهاية: "اللعنة، حسناً، لك ما تريد".

ثم سار نحو الباب ونادى: "أوتس! جو! خذا الخيول الأخرى بعيداً عن هنا، إلى أبعد مسافة ممكنة بعد القسم الثانى من القطار".

سمعت صوت شخص ما فى الخارج.

فقال أوجست: "نعم أعلم. لكن سيتوجب عليهم الانتظار. نعم أعلم ذلك. وسوف أتحدث مع العم آل وأخبره أن لدينا هنا... معضلة بسيطة".

ثم التفت إلىّ ثانية وقال: "سأذهب لأجد آل".

"ويجدر بك أيضاً أن تجد مارلينا".

"حسبت أنها قد علمت بالأمر؟".

"لقد علمت بالفعل، لكننى لا أحب أن تكون وحدها حين تسمع صوت الرصاصة".

رمقنى أوجست بنظره طويلاً وعلى نحو حاد. ثم هبط العارضة، وهو يدك عليها بقدميه بقوة كانت ترج العربة كلها من تحته.

انتظرت خمس عشرة دقيقة كاملة، وذلك لكى أمنح أوجست وقتاً ليقابل العم آل ومارلينا، وأمنح الوقت أيضاً للرجال كى يبتعدوا بالخيول مسافة كافية.

Amly نهضة العرب

وأخيراً أمسكت بالبندقية، وحشوت الرصاصة فى خزينة إطلاق النار ودفعت صمام الأمان. كان رباط سيلفر ستار مشدوداً إلى مربطه، وأذناه ملتصقتان، فوضعت فوهة البندقية تحت أذنه اليسرى وجذبت الزناد.

أحدث صوت الرصاصة ما يشبه الانفجار، وارتد كعب البندقية إلى كتفى.

تصلب جسد سيلفر ستار، وتجاوبت عضلات جسده مع الرصاصة برعدة عصبية أخيرة. ومن بعيد سمعت أنة واحدة يائسة.

وأنا أهبط من العربة كانت أذناى تمتلئان بالطنين. ورغم ذلك بدا لى المشهد صامتاً على نحو سخيف. احتشد جمع صغير من الناس، وقد وقفوا ساكنين دون حراك وقد استطالت وجوههم. جذب أحدهم قبعته من رأسه وضمها إلى صدره.

مشيت بعيداً مسافة بضع عشرات من الياردات، وصعدت الضفة العشبية وجلست هناك أدلك كتفى.

دخل أوتس، وبيت، وإيرل إلى عربة الخيول ثم ظهروا ثانية، وهم يجرون جثة سيلفر ستار الهامدة ويهبطون بها العارضة عبر حبل مربوط من قدميه الخلفيتين. وفى وضعه المقلوب، بدت بطنه ضخمة ومعرضة للأذى. وكان رأسه الخالى من الحياة يومئ بكل الطاعة مع كل جذبة من الحبل.

جلست مكانى لما يقرب من الساعة وأنا أحدق فى العشب الموجود بين قدمى. واقتلعت بعض هذه الأعشاب وأدرتها بين يدى وأنا أتساءل عن سر تأخير تحركهم حتى تلك اللحظة.

بعد فترة، اقترب أوجست متجهاً نحوى. نظر نحوى، ثم مال ليلتقط البندقية. لم أنتبه إلى أننى أحضرتها معى.

قال: "هيا يا فتى وإلا تخلفت عن القطار".

"أظننى سأتخلف بالفعل".

"لا تقلق بشأن ما قلته سابقاً ـــ لقد تحدثت مع آل، ولن تلقى من القطار. إنك فى أمان".

Amly نهضة العرب

حدقت فى الأرض وأنا مقطب الجبين. وبعد مدة، جلس أوجست بجوارى.

قال: "أم أنك تريد غير ذلك؟".

أجبته بالقول: "كيف حال مارلينا؟".

فنظر نحوى للحظة ثم دفع يده فى جيب قميصه وأخرج علبة سجائر من نوع كاملز، وهزها فأبرز سيجارة وقدمها لى.

فقلتُ: "شكراً".

فقال وهو ينزع السيجارة من العلبة بفمه: "أهذه أول مرة تطلق فيها الرصاص على حصان؟".

"كلا، لكن هذا لا يعنى أننى أحب هذا العمل".

"إن هذا جزء من كونك بيطرياً يا فتى".

"رغم أننى لست كذلك من الناحية النظرية".

"هذا لأنك فَوَّتَّ الامتحان. إنه أمر صعب".

"إنه صعب بالفعل".

"لا، إنه ليس كذلك. فما هذه الشهادة سوى قطعة ورق، ولا أحد يهتم بها. إنك الآن ضمن فريق العمل فى هذا السيرك. والقواعد فيه مختلفة".

"وكيف الاختلاف؟".

أشار نحو القطار وقال: "أخبرنى بصدق؛ هل تظن أن هذا أفضل سيرك على وجه الأرض بحق؟".

فلم أجب.

فقال وهو يميل نحوى بكتفه: "ماذا تقول؟".

"لست أدرى".

"الإجابة هى لا. فهو لا يقترب أبداً من هذه المرتبة. وغالباً لن يكون من بين عروض السيرك الخمسة عشر الأفضل فى العالم. إننا تقريباً نحمل ثلث ما يحمله سيرك رينجلنج. فأنت تعرف الآن بالفعل أن مارلينا ليست من سلالة ملكية رومانية. ولوسيندا؟ إن لوسيندا أبعد ما تكون عن وزن

Amly نهضة العرب

الثلاثمائة رطل التى يتحدثون عنها بل تزن أربعمائة رطل على الأكثر. وهل تظن حقاً أن فرانك أوتو قد عوقب بتغطية جسده بالأوشام من قبل غزاة فى بورنيو؟ هذا لم يحدث قط. لقد كان أوتو سائقاً على متن فلاينج سكوادرون. وقد صنع هذه الأوشام فى تسع سنوات. وهل تدرى أيضاً ما فعله العم آل حين مات فرس البحر لديه؟ لقد غمر الماء بمادة الفورمالدهايد واستمر فى عرض فرس البحر. وظللنا طيلة أسبوعين نسافر وبصحبتنا فرس نهر مخلل. إن كل ما تراه وهم يا جاكوب، ولا عيب فى ذلك. فهذا ما يريده الناس منا. هذا ما يتوقعونه".

نهض ومد إلىّ يده. وبعد لحظة تناولت يده تاركاً إياه ليجذبنى واقفاً على قدمى.

وسرنا باتجاه القطار.

قلت: "اللعنة يا أوجست، لقد نسيت أن الوحوش لم تتناول طعامها. لقد رمينا اللحم الخاص بها".

"كل شيء على ما يرام يا فتى؛ فقد تمت معالجة هذه المشكلة".

"ماذا تقصد بأنه قد تمت معالجتها؟".

ثم توقفت عن السير.

"أوجست، ما الذى تعنيه بقولك هذا؟".

واستمر أوجست فى سيره وقد علق البندقية على كتفيه بشكل عرضي.

Amly نهضة العرب

الفصل الثامن

"استيقظ يا سيد جانكوسكى. يبدو أنك تحلم حلماً مزعجاً".

فتحت عينى سريعاً. أين أنا؟ أوه، إننى فى الجحيم.

اعترضت قائلاً: "إننى لم أكن أحلم".

قالت المرضة: "على أية حال، لقد تحدثت أثناء نومك كثيراً". إنها تلك الممرضة الحسناء السمراء مرة أخرى. لا أعرف لماذا تواجهنى صعوبة فى تذكر اسمها؟ قالت متأملة: "لقد كنت تتحدث عن شىء يخص القطط ـ إننى على ثقة من أنه قد تم إطعامها، حتى لو استيقظت من منامك قبل أن ترى هذا"، ثم فكت أساور معصمى وقالت: "إنك لن تكرر ما حدث ثانية، أليس كذلك؟".

فقلت وأنا أنظر إليها بطرف عينى: "لا. إن لدىّ الجرأة على الشكوى الدائمة من التفاهة التى يطعموننا إياها والإطاحة بطبقى من على المائدة".

فتوقفت ونظرت نحوى. ثم انفجرت ضاحكة وقالت وهى تفك أساور معصمى بيديها الدافئتين: "حسناً، إنك رجل مثير للاهتمام دائماً".

"أوه، يا إلهى".

لقد أتانى اسمها فى لحظة: إنه روزمارى! ها، إننى لم أصل للخرف بعد.

روزمارى. روزمارى. روزمارى.

Amly نهضة العرب

لابد أن أفكر في طريقة لحفظ هذا الاسم. عليّ أن أضعه في جملة مسجوعة أو شيئاً كهذا. لقد تذكرت الاسم هذا الصباح، لكن ليس هناك ما يضمن أن أتذكره غداً أو حتى في وقت لاحق من هذا اليوم.

اتجهت نحو النافذة لتفتح الستائر.

فقلت: "هلا سمحت؟".

فردت: "أسمح بماذا؟".

"تسمحين بالتصحيح لى إن كنت مخطئاً، أليست هذه غرفتى؟ فماذا لو أننى لا أريد فتح الستائر؟ اسمعى، لقد سئمت من اعتقاد الجميع بأنهم يعلمون ما أريده على نحو أفضل منى".

فحدقت فىّ روزمارى، ثم أنزلت الستائر، وسارت إلى خارج الغرفة، وأغلقت الباب خلفها. فتحت فمى فى دهشة من فعلها.

وبعد لحظة دق على الباب ثلاث مرات. وفتح مصدراً صريره.

"صباح الخير سيد جانكوسكى، هل تأذن لى بالدخول؟".

ما هذا الهراء الذى تقوم به؟

كررت قولها: "لقد قلت هل تأذن لى بالدخول؟".

فتمتمت بالقول: "نعم، بالطبع".

فقالت وهى تدخل الغرفة وتسير إلى نهاية سريرى: "شكراً جزيلاً لك. والآن، هل تسمح لى برفع الستائر حتى تشرق عليك شمس إلهنا الرحيم، أم تريد البقاء فى هذا الظلام البغيض طوال النهار؟".

"أوه، اذهبى وارفعيها. وتوقفى عن هذا العبث الذى تقومين به".

قالت وهى تتجه نحو النافذة وترفع شرائح الستارة: "هذا ليس عبثاً يا سيد جانكوسكى. إنه ليس كذلك على الإطلاق. إننى لم أفكر فى إدارة الأمر على هذا النحو من قبل. فشكراً لك على تنبيهى لذلك".

هل تسخر منى تلك الفتاة؟ ضاقت عينى وهى تنظر نحوها لتفحص وجهها بحثاً عن ملامح هذه السخرية.

Amly نهضة العرب

"والآن هل ظنى فى محله بشأن إحضار الإفطار هنا فى الغرفة؟".

لم أجب على سؤالها؛ فقد كنت لا أزال فى حيرة بشأن ما إذا كانت تهزأ بى أم لا. قد يصبح تناول الطعام داخل الغرفة وصفة تضاف إلى صحيفة حالتى الصحية منذ الآن، لكنهم يسألوننى السؤال اللعين ذاته كل صباح. وبالطبع فإننى أفضل تناوله فى غرفة الطعام قطعاً. فتناول الطعام فى الغرفة يشعرنى بما لو أننى لم أعد صالحاً لأى شىء. لكن الطعام يتبع تغيير الحفاضات فى الصباح الباكر، مما يجعل رائحة الغائط تملأ الردهة وهذا يجعلنى أتقيأ. وعلى مدار ما لا يقل عن ساعة أو اثنتين يتم تنظيف وإطعام هؤلاء العجزة ثم إخراجهم من الغرف، ولذا فإنه من الأحوط الابتعاد فى تلك المرحلة.

"والآن سيد جانكوسكى ـ إذا كنت ترغب من الناس أن يتصرفوا كما ترغب، فعليك تنبيههم إلى ذلك بطريقة ما".

فقلت: "نعم من فضلك، سأتناول إفطارى هنا".

"حسناً إذن. هل تريد أن تأخذ حمامك قبل الإفطار أم بعده؟".

فقلت فى انزعاج واضح: "وما الذى أوحى إليك بأننى أريد الاستحمام"، وقلت ذلك رغم أننى لم أكن واثقاً من أننى لا أحتاج للاستحمام.

فقالت فى ابتسامة واسعة: "لأن هذا هو اليوم الذى سيزورك فيه أهلك. ولأننى ظننت أنك ترغب فى أن تكون منتعشاً فى أثناء موعدك الخارجى بعد ظهر اليوم".

موعد خارجى؟ آه، نعم! إنه موعد التوجه لعروض السيرك. ينبغى الاعتراف بأن الاستيقاظ فى صباح يومين متتاليين ونيل الفرصة لزيارة السيرك القريب منا هو أمر لطيف حقاً.

فقلت فى لطف: "حسناً، أريد الاستحمام قبل تناول الإفطار من فضلك".

إن أحد أكثر الأمور خزياً، عندما يتقدم المرء فى العمر، هو أن الناس يصرون دائماً على مساعدتك على القيام بأشياء مثل الاستحمام أو الذهاب إلى المرحاض.

Amly نهضة العرب

والحقيقة أننى لم أكن أحتاج لمساعدة فى أى من هذين الأمرين، لكنهم جميعاً يخافون دائماً من أنى قد أنزلق وأكسر فخذى مرة أخرى حتى إن لدىّ وصيفة ترافقنى دائمًا، سواء رضيت بذلك أم أبيت. إننى دائماً أصر على التوجه إلى المرحاض وحدى، لكن يبقى دائماً شخص فى الانتظار فى حال حدوث طارئ، وبسبب ما يكون دائماً هذا الشخص المنتظر من النساء. وأيا من كانت، فإننى أصر على أن تستدير حتى أنزل سروالى وأجلس على المرحاض، ثم أرسلها خارج المرحاض حتى أنتهى من قضاء حاجتى.

أما الاستحمام فهو أمر أكثر حرجاً؛ لأن علىّ أن أكون عرياناً كما ولدتنى أمى أمام ممرضة. وحيث إن هناك أشياء لا يمكن أن تموت مع الزمن، لذا ـ حتى وأنا فى التسعينات من عمرى ـ فإنه أحياناً ما تعترينى الرغبة الجنسية، وليس لى حيلة فى ذلك. ودائماً ما تتظاهر هؤلاء الممرضات بعدم الملاحظة. وأظن أنهن قد تدربن على التصرف على هذا النحو رغم أن التظاهر بعدم ملاحظة الأمر أسوأ من الاعتراف بملاحظته. فهو يعنى أنهن ينظرن إلى كونى شيخاً هرماً لا ضرر منه، مع أنه قد تنتابه الرغبة أحياناً. وعلى الرغم من أن إحداهن قد أخذت الأمر على محمل الجد وحاولت فعلاً التصرف حيال الوضع، فربما أموت من الصدمة.

ساعدتنى روزمارى على الوصول إلى حجيرة الاستحمام وقالت: "هناك، ليس عليك الآن سوى التمسك بذلك القضيب المعدنى ـــ"

فقلت وأنا أمسك بالقضيب وأريح نفسى على كرسى الاستحمام: "أعرف، أعرف. فقد استحممت من قبل". هبطت رزومارى برأس خرطوم المياه بضع ياردات على حامله ليكون قريباً منى.

سألتنى وهى تقلب يدها فى الماء ولا تزال حريصة على أن تنأى ببصرها منى: "ما رأيك فى درجة حرارة الماء يا سيد جانكوسكى".

"رائعة. أعطنى فقط بعضاً من سائل الاستحمام واخرجى من فضلك، حسناً؟".

Amly نهضة العرب

فتحت علبة سائل الاستحمام وعصرتها فسقطت بعض قطرات منه في يدى، وهي كافية لما تبقى لدى من شعيرات في رأسي ثم قالت: "ولماذا الخروج سيد جانكوسكى؟ إنك متغير المزاج اليوم، أليس كذلك؟".

ثم جذبت الستارة وقالت: "نادنى إن احتجت إلى أى شيء وسأكون هنا بالقرب منك".

قلت: "هررررمف".

وبمجرد خروجها بدأت الاستمتاع بحمامى؛ فتناولت رأس خرطوم المياه من حامله وبدأت أرش به على جسدى عن قرب، موجهاً إياه نحو كتفى وأسفل ظهرى وإلى ساقىّ النحيلتين. حتى إننى ملت برأسى للخلف وأغلقت عينى وسلطت الماء على وجهى مباشرة. وتظاهرت بأننى فى حمام استوائى، فأخذت أهز رأسى، وأصبحت مرحاً للغاية. واستمتعت أيضا بتسليط الماء على جميع أعضاء جسمى.

أحياناً حين أكون فى فراشى، أغلق عينى وأتذكر هيئة ــ وإحساس ــ امرأة تستحم معى. وتكون تلك المرأة هى زوجتى فى العادة ــ لكن ليس دائماً. لقد كنت وفياً لها على الدوام ولم أقم ـ ولو لمرة واحدة طيلة ستين سنة ـ بخيانتها، سوى فى خيالاتى، وأظنها لم تكن لتمانع فى هذا؛ فقد كانت امرأة متفاهمة لأقصى حد.

يا إلهى، إننى أفتقد هذه المرأة؛ ليس فقط لأننى لم أكن لآتى إلى هنا لو كانت حية، رغم أن هذه إرادة الله، ومهما كان ما قد بلغناه من هرم فقد كنا سنظل على اهتمامنا ببعض البعض كما كان الأمر دائماً. لكنها ما إن رحلت، لم أستطع مواجهة أولادى. ففى أول مناسبة سقطت فيها أرضاً، حسموا أمرهم بشأنى على نحو سريع للغاية.

فقالوا يا أبانا لقد كسر فخذك، وكأننى لم ألاحظ ما حدث. رفضت طلبهم، وهددت بقطع المال عنهم إلى أن تذكرت أنهم هم من سيتحكمون فى أموالى. إنهم لم يذكرونى بتلك الحقيقة ــ فقد تركونى هكذا وحسب؛ ألوم وأشجب كعجوز أحمق حتى تذكرت الوضع من تلقاء نفسى. وقد

Amly نهضة العرب

جعلنى هذا أكثر غضباً؛ فلو منحونى أى قدر من الاحترام لجعلونى على بينة من الأمر من حولى. لقد شعرت كأنى طفل صغير ترك ليفرغ ما يحتبس فى نفسه من الغضب.

ومع اتساع دائرة العجز حولى، بدأ موقفى يضعف.

فقلت لهم: "أنتم محقون. أظن أننى أحتاج *لبعض* المساعدة. أرى أن أستخدم شخصاً ما أثناء النهار للمساعدة فى أمر الطهى والنظافة ليس إلا. هل ترفضون؟ حسناً، ما رأيكم إذن فى صديقة ترافقنى؟ أعلم أن الأمور قد أفلتت من يدىّ *قليلاً* منذ وفاة أمكم... لكننى أظن أنكم قلتم ... حسناً، إذن لينتقل أحدكم إلى هنا ليعيش معى... لكننى لا أفهم... حسناً سيمون، أعلم أن لديك بيتاً واسعاً فلو أننى...؟".

إنه ليس كذلك.

إننى أتذكر مغادرتى لمنزلى لآخر مرة، وأنا مكوم كقطة مريضة فى طريقها إلى الطبيب البيطرى. وحين سارت بى السيارة، كانت عيناى غائمتين تماماً بالدموع حتى إننى لم أستطع النظر للخلف.

قالوا لى إنه ليس بيت رعاية، بل هو بيت للمساعدة على الحياة ـ وهو متقدم كما ترى. وستحصل فقط على المساعدة التى تحتاج إليها. وحين تصبح أكثر هرماً وشيخوخة سوف...

لقد كانوا دائماً يخفضون أصواتهم عند هذه العبارة، كما لو أننى لن أتمكن من تتبع الفكرة إلى نهايتها المنطقية.

ولمدة طويلة، رسخ لدى إحساس بأننى قد تعرضت للخيانة؛ حيث إن أحداً من أبنائى الخمسة لم يعرض علىّ الانتقال للإقامة معه ـ لكن هذا الإحساس قد فارقنى الآن. فالآن وقد فكرت فى الأمر ملياً، وجدت أنه كان لديهم من المشكلات ما يكفيهم، ولم يكن بإمكان أحدهم إضافتى إلى قائمة مشكلاته.

فسيمون قد قارب على السبعين، وقد أصيب بنوبة قلبية واحدة على الأقل. وروث أصيبت بالبول السكرى، وبيتر يعانى من متاعب فى البروستاتا. وزوجة جوزيف قد هجرته إلى أحد فتيان أكواخ الشواطئ عندما

Amly نهضة العرب

كانا فى اليونان، أما دينا التى تعافت من إصابتها بسرطان الثدى ـــ ولله الحمد ــ فقد أصبح لزاماً عليها الآن استقبال حفيدتها لتعيش معها، فى محاولة منها لإعادة تلك الفتاة إلى جادة الصواب بعد إنجاب طفلين غير شرعيين وإلقاء القبض عليها بتهمة سرقة معروضات متجر.

هذا هو كل ما أعرفه. وهناك المزيد مما لم يذكروه لى لرغبتهم فى عدم إزعاجى. لقد كنت على علم ببعض مشكلاتهم، لكننى عندما كنت أسألهم كانوا يهونون من الأمر رغبة منهم فى عدم إغضاب الجد الكبير، كما تعلم.

فلماذا كانوا يفعلون هذا؟ هذا هو السؤال الذى وددت معرفته. إننى أكره هذه السياسة الفوضوية من العزلة لفرض الحماية، لأنها تمحو وجودى بالفعل. فلو لم أكن على دراية بما يجرى فى حياتهم، فبأى شىء سأتبادل معهم الحديث؟

لقد وجدت أن الأمر لا يتعلق بى على الإطلاق، بل هى آلية حماية خاصة بهم، أو هى طريقة منهم سيهيئون بها أنفسهم لوفاتى مستقبلاً، يشبه ذلك ما يقوم به المراهقون حين يتغيبون عن بيت والديهم لفترات طويلة تمهيداً منهم للمغادرة النهائية للمنزل. حين بلغ سيمون سن السادسة عشرة وأصبح كثيراً الجدال والمناكفة ظننت أنه الوحيد فى ذلك. لكن ما أن بلغت دينا نفس السن، حتى نهجت نفس المنهج، ولم يكن ذلك عيباً فيها ــ لقد كانت مبرمجة لتفعل هذا.

ولكن رغم هذا العرض المهذب، فقد كانت عائلتى وفية لى فى الزيارة بشكل كامل. فيأتى أحدهم كل أحد، رغم أى عائق ممكن. ويظل يتحدث، ويتحدث ويتحدث، عن مدى تحسن الجو أو سوئه أو جماله، وعن ما يقومون به خلال العطلة، وعن ما تناولوه من طعام للغداء. وحين تقترب الساعة من الخامسة ينظر الزائر إلى ساعته فى سعادة ثم يغادر.

وأحياناً يحاول بعضهم أن أنزل معه للعب البينجو فى ردهة الدار وهو فى طريقه إلى المغادرة، كما حدث منذ أسبوعين، حين عرض أحدهم قائلاً: "ألا تنضم إلى الآخرين لآخذك معى فى طريقى للخروج؟ فقد يكون ذلك ممتعاً".

Amly نهضة العرب

نعم، بالتأكيد سيكون ذلك ممتعاً لو أنك كنت قطعة لفت أصفر. ضحكوا، وهو الأمر الذى أسعدنى حتى لو لم أكن أقصد المزاح بعبارتى. على مرى هذا، يجدر بالشخص الاستفادة من أى شئ؛ فضحكهم يعنى أنهم كانوا على أقل تقدير ينصتون لما تقول.

إن ما أذكره من تفاهات لا يكاد يلفت انتباههم، وأنا لا ألومهم على ذلك. فكل قصصى قد عفا عليها الزمن. فماذا لو تمكنت من الحديث عن وباء الأنفلونزا الإسبانية، وتطور السيارات، والحروب العالمية والحروب الباردة، وحروب العصابات، والقمر الصناعى الروسى سبوتنيك ـ إنها أمور قد أصبحت جزءاً من التاريخ الآن. ولكن ماذا لدىّ غير هذا لأقدمه؟ فأنا لم أعايش غير هذه الأشياء. وتلك هى حقيقة الشيخوخة، وأعتقد أنها لب الأمر كله. فأنا لم أستعد بعد لأكون هرماً.

لكن لا ينبغى على أن أشتكى، فتلك هى سنة الحياة.

عادت روزمارى ومعها صينية الإفطار. وحين رفعت الغطاء البنى البلاستيكى وجدت أنها وضعت فى عصيدتى بعض الكريمة والسكر غير النقى.

قالت: "لا تخبر الدكتورة راسهيد بأمر الكريمة".

"ولم لا؟ هل من المفترض ألا أتناولها؟".

"لست أنت على وجه الخصوص. بل إن ذلك جزء من النظام الغذائى الخاص؛ فبعض نزلائنا لا يمكنهم هضم العناصر الدسمة التى اعتادوها فى السابق".

فقلت فى حنق: "وماذا عن الزبد؟". وقفز عقلى للخلف أياماً وأسابيع وأشهر وسنوات محاولاً تتبع آخر مرة ظهر فيها الزبد فى حياتى. اللعنة؛ إنها على صواب. كيف لم ألحظ ذلك. ربما قد لاحظته، وهذا هو سبب كراهيتى الشديدة للطعام. حسناً، ليس فى الأمر عجب. إننى أظن أن هذا النظام أيضاً يتطلب تقليلاً للملح فى الطعام.

Amly نهضة العرب

قالت وهى تهز رأسها بالنفى: "إن هذا النظام يفترض به المحافظة على صحتك لمدة أطول. لكننى لا أدرى، أيها الشيوخ، لماذا لم تستمتعوا بتناول الزبد فى أيام الشباب والصحة"، ثم نظرت نحوى بحدة وقالت: "أمازالت لديك حويصلتك الصفراوية؟".

"نعم".

فلانت قسمات وجهها ثانية وقالت: "حسناً. فلتستمتع إذن بهذه الكريمة يا سيد جانكوسكى. هل تريد تشغيل التلفاز أثناء تناول الطعام؟".

فقلت: "لا. فلم يعد فى هذا الجهاز التافه ما يمكن مشاهدته على أية حال".

فقالت وهى تعيد طى البطانية عند نهاية السرير: "لا يكن أن أتفق معك على رأى كهذا. لتضرب الجرس إذا احتجت أى شىء".

وحين غادرت، قررت أن أكون شخصاً أكثر لطفاً. سأحاول إيجاد طريقة تذكرنى بالاسم. وأرى أن أفعل ذلك بلف قطعة من منديل المائدة حول إصبعى ذلك لأننى لا أملك أية خيوط. لقد كان الناس عادة يفعلون ذلك فى الأفلام حين كنت شاباً. كانوا يغطون أصابعهم بخيوط ليتذكروا الأشياء التى ينبغى عليهم تذكرها.

مددت يدى نحو المنديل ــ وحينذاك لمحت يدى. لقد كانتا مجعدتين وبهما بثور، وناحلتين ــ تماماً كوجهى المتهالك ــ المغطى بالبقع سيئة المظهر. إنه وجهى. لقد دفعت الطعام جانباً وفتحت مرآة الزينة بشكل كامل محاولاً تبين ما وراء هذا الوجه المجعد. لا فائدة من هذا؛ فحتى حين أنظر إلى هاتين العينين الزرقاوين، لا أجد نفسى فيهما. فمتى يا ترى بدأ هذا التحول؟

ولم أكن راغباً فى الطعام بتاتاً. ولذا وضعت الغطاء البنى على الصينية مرة أخرى ثم حددت، بقدر من الصعوبة، موقع لوحة التحكم فى سريرى. ضغطت الزر الذى يسطح مقدمة رأس السرير فأصبحت طاولة الطعام محلقة فوقى كنسر. أوه، انتظر. فى التحكم زر آخر يهبط بمستوى السرير. يمكننى إذن أن أتقلب على جبينى دون أن أصدم طاولة الطعام اللعينة هذه

Amly نهضة العرب

وأسقطها أرضاً. فلا أريد حدوث هذا ثانية حتى لا يعتبروا هذا فقداناً للأعصاب ومن ثم يقومون باستدعاء الدكتورة راسهيد.

وحين أصبح سريرى مسطحاً ومنخفضاً، درت على جنبى وحدقت من خلال الستارة المفتوحة نحو السماء الزرقاء التى خلفها. وبعد دقائق وجدت نفسى فى حالة من السلام التام.

هذه هى السماء، إنها هى ـ كما هى دائماً.

Amly نهضة العرب

الفصل التاسع

كنت فى حلم يقظة، أحدق نحو السماء من خلال الباب المفتوح حين هدأت مكابح القطار وزفر زفرة التوقف، وبدأ كل شىء فى القطار يميل للأمام. ثبت نفسى بالتشبث بأرضية القطار الخشنة، وبعد أن استعدت توازنى، عدلت شعرى بأصابعى وربطت حذائى. فلابد أننا قد وصلنا أخيراً إلى جولييت.

أصدر الباب الخشبى غير المصقول صريراً وهو يفتح ليخرج منه كينكو. مال بكتفه على إطار الباب الرئيسى للعربة بينما كانت كوينى عند قدميه، تحدق فى الأفق المار أمامها عن كثب. إنه لم ينظر إلىّ منذ حادث يوم أمس، وبصراحة، فإننى أجد صعوبة أنا الآخر فى النظر إليه، وهو متأرجح كما هى حاله، فى النظر نحوه ببالغ التعاطف لكبحه جماح نفسه وعدم السماح لنفسه حتى بالضحك. حين أصدر القطار صوت الوقفة النهائية، وشهق شهقته الأخيرة، ترجل كينكو وكوينى من العربة بطريقة القفز المعتادة.

كان المشهد خارج القطار هادئاً على نحو سخيف. ورغم أن فريق فلاينج سكوادرون قد وصل للمكان قبلنا بنصف ساعة كاملة، فقد كان رجاله يقفون حوله فى صمت. فلم يكن هناك ضجيج إلقاء الأوامر المألوفة. لم تكن هناك تلك الجلبة المعتادة لهرولة الرجال وتدفقهم، ولا سبابهم، ولا لفات الحبال المتطايرة، وليست هناك حركة لفرق الرجال. لم يكن هناك سوى مئات من الرجال الشعث ينظرون فى حيرة إلى الخيام المنصوبة لسيرك آخر فى المكان.

Amly نهضة العرب

كان يبدو مهجوراً كأنه مدينة للأشباح. كانت به حلبة كبرى، لكن دون جمهرة من الناس، وخيمة مطبخ لكنها بلا راية مرفوعة. وكانت العربات وخيام تبديل الملابس تشغل الجزء الخلفي من الساحة، لكن الرجال تُرِكوا فيه للتجول دون هدف، أو للجلوس في الظل بلا غاية.

قفزت من عربة الخيول في الوقت الذى توقفت فيه سيارة بلايموث ذات اللونين الأسود والبيج في ساحة انتظار السيارات. هبط منها رجلان يرتديان الحلل، ويحملان حقائب أوراق ويمسحان المشهد كله بنظريهما من تحت القبعات الهامبورجية التي يرتديانها.

سار العم آل باتجاههما، *دون بطانته*، وكان يرتدى قبعته العالية، ويلوح بعصاه ذات الرأس الفضية. صافح الرجلين، ووجهه يبدو عليه الابتهاج والود. وفي أثناء حديثه للرجلين، كان يومئ بالرضا عن الساحة بشكل واضح بينما رجال الأعمال أمامه يومئون وقد عقدوا أذرعهم أمامهم، وهم يعدون ويتأملون.

سمعت صوتاً لطحن الحصى من خلفي، ثم ظهر أوجست عند كتفي وقال: "هذا هو آل زعيمنا، بإمكانه أن يشتم رائحة مسئولي المدينة على بعد ميل. هل تلاحظ ـــ إنه سيدفع عمدة البلدة لعض أصابعه بحلول الظهيرة"،ثم ربت كتفي وقال: "هيا بنا".

فسألته: "إلى أين؟".

فقال: "سننزل إلى المدينة لتناول الإفطار. فلا شك عندى أنه لن يكون هنا طعام، ربما حتى الغد".

"يا إلهي ـ حقاً؟".

"حسناً، إننا سنحاول إحضار طعام، لكننا لم نعط المنسق الوقت الكافي لتدبر الأمر".

"وماذا عن هؤلاء؟".

"من هؤلاء؟".

فأشرت نحو السيرك المنهار.

Amly نهضة العرب

"هؤلاء؟ حين يشعرون بالجوع، سيبدءون بالانصراف. وهذا أفضل لجميع الأطراف فى حقيقة الأمر".

"وماذا عن رجالنا؟".

"أوه، رجالنا سيتدبرون أمر أنفسهم حتى يظهر شئ ما فى الأفق. لا تقلق بشأنهم. فلن يتركهم آل يموتون جوعاً".

توقفنا عند مطعم صغير لا يبعد كثيراً عن شارع المدينة الرئيسى. كان بطول أحد جدارنه صف من الموائد ذات المقاعد طويلة الظهر، وعلى الجدار المقابل طاولة تقديم طلبات معدنية رصت أمامها مقاعد مرتفعة دون ظهر ذات أقراص جلوس حمراء اللون. وأمام طاولة التقديم، جلس بضعة رجال يدخنون ويتبادلون الحديث مع الفتاة الواقفة خلف الطاولة.

فتحت الباب لـ مارلينا، فاتجهت مباشرة إلى إحدى الطاولات وتسللت إلى الداخل لتجاور الحائط. وجلس أوجست على الجانب المقابل للمائدة، فما كان أمامى سوى الجلوس بجوارها. عقدت ذراعيها وحدقت فى الحائط صامتة.

قالت الفتاة وهى لا تزال خلف الطاولة: "صباح الخير، ماذا تطلبون؟".

قالت أوجست: "وجبة كاملة؛ فأنا أتضور جوعاً".

"كيف تريد البيض بها؟".

"نصف مقلى".

"وأنت سيدتى؟".

قالت مارلينا وهى تضع ساقها على الأخرى وتهز قدمها: "أريد قهوة فقط"، كانت حركة قدمها عصبية وعنيفة، ولم تنظر إلى النادلة أثناء حديثها ولا نحو أوجست أو نحوى.

قالت الفتاة: "وأنت سيدى؟".

فقلت: "سآخذ مثل ما طلب السيد. شكراً ".

مال أوجست للخلف وأخرج علبة سجائر من ماركة كاملز الخاصة به. ونقر قاعدة العلبة فنفرت منها سيجارة فى الهواء، فالتقطها بشفتيه ثم عاد لوضعه وعيناه تلمعان ويداه مبسوطتان فى شعور بالانتصار.

Amly نهضة العرب

استدارت مارلينا نحوه. وصفقت بحركة بسيطة، ووجهها جامد على نحو معتمد.

قال أوجست: "إليك عن هذا حبيبتى، لا تعط الأمر أكثر من حجمه تعلمين أن اللحم قد نفد لدينا".

قالت الفتاة وهى تتسلل من جانبى: "عذراً"، فأفسحت لها الطريق، فسارت نحو الباب، وهى تدق بحذائها أرضية المطعم وساقاها يتأرجحان من تحت ردائها الأحمر المتوهج.

قال أوجست وهو يشعل سيجارته من خلف يديه المكورتين على السيجارة: "يا للنساء"، ثم أغلق الولاعة وقال: "أوه، إننى آسف. هل تريد سيجارة؟".

"لا شكرا. فأنا لا أدخن".

فقال متأملاً وهو يسحب الدخان ليملأ به صدره: "لا تدخن! بل عليك ذلك؛ فالسجائر مفيدة لصحتك". ثم أعاد العلبة إلى جيبه وأشار إلى النادلة. وكانت تقف عند صينية الخبز وتمسك ملعقة تبسط بها الطعام.

قال: "بسرعة من فضلك، فليس لدينا اليوم بطوله هنا".

فتسمرت الفتاة حين سمعت كلامه وتسمرت الملعقة فى الهواء، ونظر نحونا اثنان من رجال الطاولة ببطء وبعيون متسعة.

فقلت: "أوم، أوجست".

فقال وقد بدا مرتبكاً على نحو حقيقى: "ماذا؟".

وهنا ردت النادلة ببرود: "إننى أعد الطعام بأسرع ما يمكن".

فقال أوجست: "حسناً، وهذا ما كنت أطلبه"، ثم مال نحوى وقال بصوت منخفض: "ألم أقل لك؟ هؤلاء هن النساء. هذه بلا شك فى أيام دورتها الشهرية أو ما شابه".

حين عدت للساحة، كانت بعض الخيام المختارة من سيرك بنزينى برازرز قد نصبت: خيمة عروض الحيوانات، وخيمة إسطبل الخيل. وخيمة المطبخ وقد رفع علمه، وملأت رائحة الدهون جو المكان.

Amly نهضة العرب

فقال لى أحد الرجال الخارجين من المطبخ: "الأمر لا يستحق العناء، فلا شىء سوى كعكة مقلية مع بعض الهندباء البرية لهضمها".

فقلت له: "شكراً، وأقدر لك تحذيرك إياى".

فبصق ثم سار بعيداً.

كان من تبقى من عمال سيرك فوكس براذرز قد اصطف أمام عربة التوظيف، وقد حداهم الأمل جميعاً. كان بعضهم يبتسم ويمزح، لكن ضحكهم كان بصوت أعلى من الطبيعى، والبعض الآخر كان يحدقون أمامهم، وقد عقدوا أذرعهم أمامهم. وبدأ آخرون فى التململ والمغادرة وهم مطأطئ رؤوسهم، وكان يدخلون العربة واحداً تلو الآخر للقاء العم آل.

خرج معظمهم من عنده مهزوماً منكسراً. كان بعضهم يمسح عينيه ويشاور الآخرين ممن هم فى مقدمة الصف، والبعض الآخر كان ينظر للأمام بشكل رزين قبل أن يبدأ هبوط العربة.

ثم دخل للعربة قزمان مع بعضهما. وغادرا بعد بضع دقائق بوجوه كئيبة، وتوقفا للحديث مع جماعة من الرجال. ثم سارا بجوار السكة جنباً إلى جنب وقد رفعا رأسيهما وحملا على أكتافهما أكياس وسادات معبأة بالأغراض.

جلت بنظرى وسط الجمع كى أرى الأعجوبة الشهيرة. وكان هناك بالقطع الكثير من الأعاجيب. فكان بين الجمع أقزام، وعمالقة، وامرأة ذات لحية (وقد كان لدى آل واحدة بالفعل، مما يقلل من حظ هذه فى العمل معه)، وكان هناك رجل عظيم البدانة (ربما يسعده الحظ إن أراد العم آل عمل زوج بدين من رجل وامرأة). وكانت هناك تشكيلة منوعة من الرجال الذين بدت عليهم التعاسة بوجه عام ومعهم كلابهم. لكن لم يكن من بينهم ذلك الرجل الذى يلتصق به طفل من الصدر.

بعد أن أتم العم آل اختياراته، قام عمالنا بتفكيك خيام هذا السيرك عدا خيمة الحيوانات وخيمة اسطبل الخيول. كان من تبقى من رجال فوكس براذرز، والذين أصبحوا عاطلين عن العمل، قد جلسوا يشاهدون ما يجرى

Amly نهضة العرب

وهم يدخنون ويبصقون سوائل الدخان من أفواههم على نباتات الجزر البرى العشبية الطويلة الشوكية.

وحين اكتشف العم آل أن مسئولى المدينة لم يقوموا بجرد محتويات عربة خيول سيرك فوكس براذرز بعد، دُفعت مجموعة من الخيول الغربية من إحدى الخيام إلى خيمة أخرى. لنقل إنه نوع من الامتصاص. ولم يكن العم آل هو الوحيد الذى كانت لديه هذه الفكرة ـ فكان هناك حفنة قليلة من الفلاحين يحيطون بأطراف الساحة يشدون حبال عنان بعض الخيول.

فسألت بيت: "هل سيذهبون بهذه الخيول هكذا؟".

فقال: "غالباً، طالما أنهم لم يمسوا خيولنا فلا يهمنى هذا الأمر. فلتكن على حذر وانتباه. فأمامنا يوم أو اثنان حتى نستطيع تحديد ما كان وما سيكون، ولا أريد أن نفقد شيئاً مما لدينا".

كانت عربة خيولنا قد تضاعف إشغالها. وكانت الخيول الكبيرة فى حالة هيجان شديد. وقد أقنعت أحد مسئولى المدينة بأن نفتح أحد الصنابير العامة لكى نسقى هذه الخيول، لكنها ظلت بلا طعام.

عاد أوجست ونحن نملأ الحوض الأخير بالماء.

قال: "ماذا تفعلان؟ إن الخيول لم تخرج من القطار منذ ثلاثة أيام ـــ اذهبا وأخرجا الخيول إلى رصيف السكة وسيروا بها حتى لا تعتل ويصيبها الخمول".

فرد بيت قائلاً: "اللعنة، وما تظن فى رأيك أنه كان يجرى على مدار الأربع ساعات الماضية؟".

"لقد استخدمت عربات خيولنا؟".

"وماذا كان أمامى غير ذلك لأستخدمه ؟".

"كان عليك استخدام عربة خيولهم".

فصاح بيت: "إننى لا أعرف عربتهم العينة تلك. ثم ما هى الفائدة من استخدام عربتهم إن كنا قد قررنا ألا نستخدمها لتظل على هيئتها الجيدة؟".

فتح أوجست فمه، ثم أغلقه ثانية واختفى.

Amly نهضة العرب

قبل أن يمر وقت طويل تجمعت الشاحنات فى الساحة، ثم توجهت الواحدة تلو الأخرى نحو خيمة المطبخ واختفت خلفه كميات هائلة من الطعام. واندفع طاقم المطبخ فى العمل، وفى لحظات بدأ تشغيل الغلايات وفاحت رائحة الطعام الشهى ــ طعام حقيقى ــ عبر الساحة.

وصل طعام وفرش الحيوانات بعد قليل، فى عربات دون الشاحنات. وحين حملنا العشب الجاف إلى خيمة الإسطبل، صهلت الخيول، وزامت، ومدت أعناقها، لتخطف بعضاً منه قبل أن يوضع أمامها على الأرض.

ولم تكن بقية الحيوانات فى خيمة العرض أقل سعادة لرؤيتنا ــ فالشمبانزى كانت تصرخ وتتأرجح بين قضبان أقفاصها، كاشفة عن أسنانها البارزة. أما آكلات اللحوم فكانت تتحرك بسرعة فى أقفاصها، بينما كانت أكلات الأعشاب تهز رؤوسها، مصدرة نخيراً وصراخاً ونباحاً مقترناً بحالة من الهيجان الشديد.

فتحت قفص أنثى إنسان الغاب ووضعت وعاءً به بعض الفاكهة والخضراوات والجوز. وبينما كنت أغلق الباب، امتدت ذراعها الطويلة عبر القضبان لتشير إلى البرتقال الذى كان فى وعاء آخر.

فقلت: "هذا، تريدين هذا؟".

فاستمرت فى الإشارة إليه، وهى تطرف بعينها نحوى. كانت ملامحها متغيرة الشكل وكان وجهها يبدو كطبق كبير بشعر أحمر. وكانت هى أجمل وأضخم شىء رأيته فى هذا المكان.

فقلت وأنا أمد يدى لها بالبرتقالة: "ها هى ذى، إنها لك".

فأخذت البرتقالة ووضعتها على الأرض. ثم مدت يدها ثانية. وبعد ثوان من التوجس، مددت لها يدى فأحاطتها بأصابعها الطويلة مصافحة ثم تركتها. بعد ذلك جلست على مؤخرتها وأخذت تقشر البرتقالة.

ووقفت أنظر فى ذهول. لقد كانت تشكرنى.

قال أوجست وهو خارج من خيمة الحيوانات: "إذن هذا هو الحال"، ثم ربت كتفى وقال: "فلتأت معى أيها الفتى لنتناول بعضاً من عصير

Amly نهضة العرب

الليمون فى غرفة مارلينا بدلاً من هذا العصير الردىء. سنضع عليه بعضاً من الشراب، اتفقنا؟".

فقلت له: "سآتيك بعد قليل، يجب أن أتفحص حالة بقية الحيوانات". ونظراً للحالة الغريبة التى كانت عليها عربة خيول سيرك فوكس براذرز ـ والتى كانت أعدادهم تتناقص طوال ظهيرة اليوم، ولقد رأيت أنه قد تم إطعامهم وسقيهم هذا اليوم ـ فإننى أردت إلقاء نظرة على المجموعة التى تمت إضافتها هذا اليوم.

فقال أوجست بحزم: "لا، بل تعال معى الآن".

نظرت إليه باستغراب من لهجة حديثه وقلت: "حسناً، سآتى معك، لكن هل تعلم إذا ما كان قد قُدِّم لهذه الخيول الطعام والشراب أم لا؟".

"سيتم إطعامهم وسقيهم فى النهاية".

فقلت: "ماذا؟".

"سيتم إطعامهم وسقيهم فى النهاية".

"أوجست، إن درجة الحرارة تتخطى التسعين، ولا يمكننا أن ندع هذه الخيول بلا ماء".

"بل يمكننا ذلك، وسنقوم بذلك فعلاً. هذه هى طريقة العم آل فى إنجاز الأمر. إنه الآن يتفاوض مع عمدة المدينة لبعض الوقت، وبعد حين سيجد العمدة أنه لا يعرف كيف سيتصرف فى الزراف والحمر الوحشية. والأسود، فيهبط بالسعر الذى حدده، وحينها ـ حينها فقط ـ نبدأ نحن بالتحرك".

قلت وأنا أستدير للسير بعيداً: "آسف، لكننى لا يمكننى الاشتراك فى عمل كهذا".

فحجزنى بذراعه، ثم توقف أمامى ومال باقتراب شديد منى، ووضع إصبعاً على وجهى ثم قال: "بل يمكنك. فهذه الحيوانات سيتم الاهتمام بها، لكن ليس الآن. هكذا تجرى الأمور".

"بل هذا هراء ليس إلا".

Amly نهضة العرب

"إن العم آل قد قام بجهد عظيم ليؤسس هذا السيرك. وقد صرنا لما صرنا إليه بفضل هذا السيرك. من يدرى بما يجرى داخل هذه الخيمة؟ إذا كان هناك شيء لا يريده، فهذا حسن، فمن سيهتم؟ لكن إن كان هناك ما يريده وعبثت أنت بما يدبر له فستدفع لذلك ثمناً باهظاً، وعليك أن تكون على ثقة من أن العم آل سيبطش بك فى حينها. هل تفهمنى؟"، ثم صرّ على أسنانه وهو يعيد: " هل ... تفهمنى؟".

فنظرت إلى وجهه ذى الملامح الصارمة وقلت: "أفهمك تماماً".

فقال وهو يرفع إصبعه عن وجهى ويتراجع خطوات للخلف: "حسناً"، ثم كررها ثانية وهو يومئ برأسه ويدفع ملامح وجهه نحو الاسترخاء ثانية. ثم اصطنع الضحك قائلاً: "أتعلم، سيكون هذا الشراب طيباً".

"أظننى سأذهب".

فراقبنى وأنا أسير للحظة ثم هتف: "افعل ما يحلو لك".

جلست على مسافة من الخيمة التى تؤوى تلك المجموعة المعزولة من الحيوانات، وجعلت أنظر إليها فى يأس متزايد. اندفعت جدران الخيمة إثر هبة ريح مفاجئة. لم يكن هناك حتى تيار معاكس لهذه الهبة. لم أكن أكثر إحساساً بالحرارة وجفاف الحلق مثل هذا اليوم. نزعت قبعتى ومسحت جبهتى بذراعى الذى علاه الغبار.

حين ارتفعت الراية ذات اللونين البرتقالى والأزرق فوق المطبخ إيذاناً بالعشاء، انضمت ثلة من المنضمين الجدد إلى سيرك بنزينى براذرز لطابور العشاء، ومعهم تذاكر العشاء الحمراء بين أيديهم. كان الرجل السمين من المحظوظين بالالتحاق بالعمل، وكذلك الفتاة ذات اللحية، وبضعة أقزام. لقد وظف العم آل العارضين فقط، ومع ذلك فقد وجد أحدهم من تعساء الحظ، نفسه خارج العمل بعد دقائق معدودات من تعيينه بعد أن لمحه أوجست ينظر نحو مارلينا مليًا بعد خروجه من عربة التوظيف.

وقد حاول آخرون الانضمام إلى صف الطعام، دون أن يمكنهم إزرا من ذلك. إن مهمته الوحيدة هى أن يعرف كل فرد فى السيرك، والشهادة لله،

Amly نهضة العرب

فالرجل يجيد هذه المهمة. فما أن يشير بإبهامه نحو أحد تعساء الحظ حتى يتقدم بلاكى للتعامل معه. وقد نجح واحد أو اثنان من هؤلاء المرفوضين فى نيل لقيمات قبل أن يفتضح أمرهم ويطاح بهم من خيمة الطعام.

كان الكثير من الرجال الأقذار قد حلقوا ببصرهم صامتين فى محيط المكان والجوع يملأ عيونهم. وبينما كانت مارلينا تخطو بعيداً عن طاولات الطعام البخارية، ناداها أحدهم. كان رجلاً طويلاً، نحيلاً، وله وجنتان مجعدتان بشكل صارخٍ، ولو كان هذا الرجل فى ظروف مختلفة، فإنى أظن أنه كان سيبدو وسيماً.

"أيتها السيدة ــ هاى، سيدتى. هلاّ استبقيت لى أى شىء؟ كسرة خبز لا أكثر؟".

توقفت مارلينا ونظرت نحوه. كان وجهه غائراً، وعيناه يائستين. ثم نظرت إلى طبقها.

فقال الرجل وهو يجرى لسانه على شفتيه المشققتين: "هيا أيتها السيدة، ليكن قلبك رحيماً، فأنا لم آكل منذ يومين".

فقال أوجست وهو يمسك بمرفقها ويسير نحو إحدى الطاولات فى منتصف الخيمة: "تحركى". لم تكن تلك هى طاولته المعتادة، لكننى لاحظت أن الناس هنا لا يجادلون أوجست. جلست مارلينا فى صمت، وهى تنظر على فترات لهؤلاء الرجال فى خارج الخيمة.

قالت وهى تقذف بسكينها عن الطاولة: "هذا ليس عدلاً، لا يمكننى أن أتناول طعامى وهؤلاء المساكين بالخارج"، ثم توقفت وتناولت طبقها.

فقال أوجست بحدة: "إلى أين؟".

فنظرت مارلينا نحوه وقالت: "كيف لى أن آكل وهؤلاء لم يتناولوا طعاما منذ يومين؟".

فقال أوجست: "لن تعطيه طعامك، *فاجلسى الآن*".

بدأ الكثير من الناس على الطاولات الأخرى فى النظر نحوهما. فابتسم أوجست فى عصبية ومال نحو مارلينا قائلاً: "عزيزتى، أعلم أن هذا أمر

Amly نهضة العرب

يصعب عليك احتماله. لكنك إن أعطيت هذا الرجل طعاماً، فسيشجعه ذلك على أن يبقى فى المكان، فماذا بعد؟ لقد انتهى العم آل من اختيار من يريدهم للعمل معه، وهذا الرجل ليس منهم. وعليه أن يغادر، هذا كل ما فى الأمر ـ وكلما أسرع بالمغادرة، كان ذلك أفضل لما له من مصلحة فى ذلك حقاً. وهذه هى الطيبة بالفعل".

ضاقت عينا مارلينا ووضعت طبقها على الطاولة ثانية. وغرست شوكتها فى شريحة لحم، ووضعتها على قطعة خبز. ثم جذبت خبز أوجست ووضعته على الجانب الآخر للشريحة، وانطلقت.

فصاح أوجست: "أين تظنين نفسك ذاهبة؟".

اتجهت مباشرة نحو الرجل النحيل، وتناولت يده ووضعت فيها الشطيرة، ثم سارت بين تصفيق وصفير من العمال فى الجانب الآخر للخيمة.

استشاط أوجست غضباً، وظهر نبض وريده فى جانب رأسه. وبعد دقيقة، أخذ طبقه ورمى ما فيه فى المخلفات ثم غادر.

نظرت فى طبقى فإذا به شرائح من اللحم، والقرنبيط الأخضر، والبطاطس المهروسة، والكرنب، ورغم أننى كنت أعمل كالكلب طوال النهار، فإننى لم أستطع تناول شيء.

رغم اقتراب الساعة من السابعة، إلا أن الشمس كانت لا تزال عالية فى السماء، والهواء ثقيلاً. إن تضاريس المنطقة مختلفة عما خلفناه وراءنا فى الشمال الشرقى. فالأرض مسطحة هنا، وجافة جفاف العظام. والساحة مغطاة بأعشاب طويلة، لكنها مسفوعة بأشعة الشمس وهشة للغاية. وعلى الحواف، قرب السكة الحديدية، كانت هناك أعشاب طويلة مقصوصة ــ كانت نباتات خشنة ذات سيقان خيطية وأوراق صغيرة، وأزهار مضغوطة. وهى مبرمجة نحو توجيه براعمها ناحية الشمس ولا شئ أكثر من هذا.

وبينما كنت ماراً على خيمة إسطبل الخيول، رأيت كينكو واقفاً فى ظل إحدى هذه النباتات وقد رفعت كوينى ساقها الخلفية؛ حيث كانت تتغوط

Amly نهضة العرب

برازاً سائلاً، وتندفع للأمام بضع بوصات كلما دفعت دفقة من ذلك البراز السائل.

فقلت وأنا أقف بجانبه: "ما الأمر؟".

فحدق فيّ قائلاً: "وكيف يبدو لك الأمر؟ إنها تعانى من الإسهال".

"ماذا تناولت فى طعامها؟".

"اللعنة، ومن يدرى؟".

تقدمت ونظرت ملياً إلى إحدى برك برازها الصغيرة بحثاً عن علامات لوجود طفيليات، فثبت لى خلوها من ذلك. فقلت له: "ابحث فى خيمة الطعام عن بعض العسل".

فقال كينكو وهو يعتدل وينظر نحوى: "هه؟".

فقلت له: "عسل. وإذا استطعت الحصول على قدر ضئيل من مسحوق شجر الدردار، فأضفه إلى العسل. لكن ملعقة من العسل ستفى بالغرض بمفردها".

فقطب جبينه نحوى للحظة وذراعاه حول خاصرته ثم قال فى تشكك: "حسناً"، ثم التفت ثانية إلى كلبته.

واصلت سيرى، وفى النهاية جلست على بقعة عشبية على مسافة من خيمة الحيوانات الخاصة بسيرك فوكس برازرز. كانت تقف فى عزلة رهيبة، كما لو أن حولها حقلاً من الألغام. فلا أحد قريب منها بمسافة ياردة. ولابد أن ظروف الحيوانات داخلها قد أصبحت مميتة، لكننى - باستثناء تجاوز العم آل وأوجست، وخطف عربة الماء لرى الحيوانات - لم أجد شيئاً آخر ذا جدوى. بلغ بى الإحباط مبلغاً لم أعد معه أستطيع الاستقرار فى مكانى، فنهضت واتجهت بدلاً من ذلك نحو خيمة الحيوانات الخاصة بنا.

حتى مع آنية الماء الممتلئة ومع نسمة هواء يتهادى، إلا أن الحيوانات داخل الخيمة كانت فى شبه دوار من تأثير الحرارة الشديدة. فالحمر الوحشية والزراف، وغيرها من الحيوانات آكلة العشب ظلت واقفة على أرجلها لكنها مدت أعناقها وأوشكت عيونها على الانغلاق. حتى ثور التيبت

Amly نهضة العرب

الضخم كان بلا حراك رغم الذباب الذى يطن بلا رحمة حول أذنيه وعينيه. وقد هششت الذباب عنه، إلا أنه عاد ثانية. فلا أمل فى إبعاده أبداً.

وكان الدب القطبى مستلقياً على بطنه، وقد مد أنفه ورأسه للأمام. وقد بدا فى حالة هدوئه هذه غير مؤذ ـ وربما بدا لطيفاً، مع تركز معظم حجمه فى ثلث جسده الأخير. كان يسحب نفساً عميقاً، ويمسكه، ثم يزفر طويلاً. يا له من مسكين. فلا شك أن حرارة القطب الشمالى لا تقارن أبداً بما هى عليه الآن.

أما أنثى إنسان الغاب، فقد تمددت على ظهرها ومدت ذراعيها وساقيها للخارج. استدارت برأسها لتنظر نحوى، وهى ترف بعينيها فى حزن وكأنها تعتذر عن عدم قدرتها على القيام بالمزيد.

فأشرت لها بعينى بما يفيد أنه *لا بأس فى ذلك؛ فإننى أتفهم حالها.*

ثم طرفت بعينها مرة أخرى واستدارت بوجهها تنظر للسقف مرة أخرى.

وحين وصلت إلى خيول مارلينا، نخرت بأنوفها فى رضا وحركت شفاهها تجاه يدىّ اللتين ما زالتا تحملان رائحة خبز التفاح. وحين أدركت الخيول أننى لا أحمل شيئاً بيدى، فقدت اهتمامها وتراجعت للخلف فى حالة من شبه فقدان للوعى.

كانت الوحوش تنام على جنبها فى هدوء تام وعيونها غير مقفلة تماماً. ولولا الصعود والهبوط المنتظم لأقفاصها، لظننت أنها ميتة. دفعت رأسى بين القضبان لأراقبها لوقت أطول، ثم استدرت فى النهاية لأغادر المكان. كنت على بعد ثلاث ياردات من المكان حين قررت العودة فجأة لأقفاص الوحوش. وخطر لى أن أرضية أقفاصها قد نظفت مما كان فيها على نحو رائع.

كانت مارلينا وأوجست يتجادلان بصوت مرتفع حتى إننى كنت أسمع الصوت من بعد عشرين ياردة. توقفت خارج خيمتها، وكنت غير واثق من رغبتى فى التدخل، وكنت على ثقة من رغبتى فى الاستماع لما يدور ـ لكننى فى النهاية دفعت نفسى للتدخل وتدخلت بالحديث وأنا على باب الخيمة.

"أوجست! مرحباً أوجست!".

Amly نهضة العرب

فسكتت الأصوات، وسرت حركة فى الخيمة، وحاول أحدهما إسكات الآخر، ثم هتف أوجست: "ما الأمر؟".

"هل قام كليف بإطعام الوحوش؟".

فظهر وجهه من شق فى باب الخيمة وقال: "آه. نعم. حسناً، إن الأمر ينطوى على بعض الصعوبات وأنا أدبر لهم شيئاً ما".

"وما هو؟".

فقال: "سيأتى غداً صباحاً. لا تقلق. سيكون كل شيء على ما يرام"، ثم مال برأسه ليرى من ورائى وقال: "أوه، يا إلهى. ليس الآن".

إن العم آل يسير نحونا بخطواته الواسعة وقد ارتدى معطفه الأحمر وقبعته العالية، وكان يضرب الأرض بساقيه التى ارتدى عليهما بنطالا مربعاً ذا حمالات. وكان تابعوه يسعون خلفه، ويسيرون فى خطوات عصبية بغية اللحاق به.

تنهد أوجست ورفع لى باب الخيمة لأدخل وقال: "انضم أنت أيضا واجلس معنا. فيبدو أنك تتلقى أول دروسك فى إدارة الأعمال الآن".

دلفت إلى داخل الخيمة بسرعة. كانت مارلينا جالسة على كرسى طاولة الزينة. وقد ضمت ذراعيها، وعقدت ساقيها. وكانت تحرك قدمها بغضب واضح.

قال أوجست: "عزيزتى مارلينا، استجمعى شتات نفسك الآن".

فنادى العم آل من خلف فتحة الخيمة مباشرة: "مارلينا؟ مارلينا؟ هل يمكننى الدخول يا عزيزتى؟ أريد الحديث مع أوجست".

أطبقت مارلينا شفتيها ثم فتحتهما ودارت بعينها، ثم قالت: "نعم، عم آل. يمكنك القدوم بالطبع، فهلا تفضلت بالدخول؟".

فتح باب الخيمة ودخل العم آل وهو يتصبب عرقاً على نحو واضح، وقد ملأت الابتسامة وجهه.

قال وهو يتوقف أمام أوجست: "لقد تمت الصفقة".

فقال أوجست: "لقد حصلت عليه إذن".

فرد العم آل وقد طرف بعينه فى دهشة: "حصلت على ماذا؟".

Amly نهضة العرب

فقال أجست: "على الأعجوبة، تشارلز واتست".

"كلا، كلا. لا تهتم بأمره".

قال أوجست: "ماذا تعنى بقولك لا تهتم بأمره. لقد ظننت أننا قطعنا كل هذه المسافة من أجله، فماذا حدث؟".

فقال العم آل بشكل غامض: "ماذا تقول؟"، وارتفعت رؤوس التابعين من خلفه لتهتز بالنفى فى عنف. وقام أحدهم بحركة تمثيلية لقطع الرقبة.

فنظر إليهم أوجست وتنهد ثم قال: "لقد سبقنا إليه سيرك رينجلنج".

فقال العم آل: "لا تبال بالأمر. إن لدىّ أخباراً ــ أخباراً مهمة للغاية! بل هى أخبار تفوق كل التوقعات!"، ثم التفت إلى أتباعه، فقوبل بضحكات صادقة منهم. ثم استدار نحو أوجست ثانية وقال: "فلتخمن".

ثم استدار نحو مارلينا متطلعاً.

فقالت مارلينا وهى تبادله النظرات: "أنا لا أعلم شيئاً".

فصاح العم آل وهو يبسط ذراعيه فى شعور بالنصر والفرح: "لقد حصلنا على أنثى فيل"، وضربت عصاه أحد تابعيه، فارتد إلى الوراء.

تجمد وجه أوجست وقال: "ماذا؟".

"أنثى، أنثى فيل".

"هل أصبح لديك فيل؟".

"بل أصبح لديك *أنت* يا أوجست. اسمها روزى، وهى فى الخامسة والثلاثين من العمر، وهى فى غاية الذكاء. إنها أفضل أنثى لديهم. لا أطيق الانتظار لأرى العرض الذى ستؤدونه بها ــ"، ثم أغلق عينيه وهو يتخيل تلك الصورة، وأصابع يديه تترنحان أمام وجهه. ثم ابتسم جذلاً وهو مغمض العينين وقال: "إننى أتصور مارلينا فى عرضها. فمن الممكن أن تركبها مارلينا خلال استعراض السيرك أو خلال العرض الكبير، ثم تتبعون ذلك بعرض على الحلبة الرئيسية هنا!"، ثم استدار حوله ثم طقطق بأصابعه وقال: "أين هى؟ هيا، هيا أيها الحمقى!".

Amly نهضة العرب

فظهرت زجاجة شراب قدمها بانحناءة لتفحصها مارلينا. ثم فك إطارها العلوى ودفع السدادة الفلينية.

ثم ظهرت من خلفه كؤوس مصفوفة وضعت على طاولة زينة مارلينا.

قامٍ العم آل بصب مقادير صغيرة فى كل كأس ومرر واحداً لمارلينا وواحداً لأوجست وواحداً لى.

ثم رفع الكأس الأخير عالياً. وغامت عينه لأعلى وضم يده الأخرى لصدره، وهو يتنهد بعمق.

ثم قال: "إنها لسعادة عظيمة أن أحتفل بهذه المناسبة الكبرى معكم ــ يا أعز أصدقائى فى هذه الدنيا"، ثم تحرك للأمام بقدميه المجهدتين وانحدرت من عينه دمعة حقيقة تدحرجت على وجنته السمينة ثم تابع: "إننا لم نحصل على بيطرى ــ من طلاب جامعة كورنيل ــ فحسب، بل حصلنا على فيل أيضاً"، ثم تنهد فى سعادة وتوقف، ثم تابع مغالباً نفسه: "لقد انتظرت هذا اليوم لسنوات. وهذه مجرد بداية يا أصدقائى. إننا الآن أعضاء فى الفئة العليا من عروض السيرك. لقد أصبحنا سيركاً يجذب إليه الأنظار".

من خلفه تهادى بعض التصفيق. فى حين كانت مارلينا تثبت كأسها على ركبتها. وكان أوجست يقف أمامه جامداً، لا يحرك عضلة واحدة من جسده سوى تلك التي يمسك بها كأسه.

ثم رفع كأسه عالياً وصاح قائلاً: "نخب سيرك بنزينى براذرز؛ موست سبكتاكيولار شو أون إيرث".

فهتفت الأصوات من خلفه: " بنزينى براذرز، بنزينى براذرز ". بينما ظل أوجست ومارلينا على صمتهما.

ارتشف العم آل كأسه وقذف به نحو أقرب عضو فى فرقة تابعيه، والذى تناوله ووضعه فى جيب سترته، ثم تبع آل وهو يخرج من الخيمة. أغلقت فتحة الخيمة، وعدنا كما كنا نحن الثلاثة.

Amly نهضة العرب

مرت لحظة ساد فيها الصمت المطبق. ثم هز أوجست رأسه بعنف كما لو كان يفيق من إغماءة.

ثم قال وهو يرتشف ما بكأسه دفعة واحدة: "أرى أن نذهب لنرى ذلك الوحش المطاطى. جاكوب، بإمكانك الآن أن ترعى تلك الحيوانات اللعينة. هل أنت سعيد الآن؟".

نظرت نحوه بعيون واسعة، ثم ارتشفت كأسى أنا الآخر. وبطرف عينى لمحت مارلينا تشرب كأسها هى الأخرى.

كانت خيمة حيوانات سيرك فوكس برازرز تعج الآن بحركة رجال سيرك بنزينى برازرز. كانوا يسعون هنا وهناك يملأون أحواض المياه، ويملأون بالعشب، ويجرفون روث الحيوانات. رفعت بعض جوانب الخيمة ليسرى النسيم عبرها. أدرت بصرى فى الخيمة ونحن ندخلها، أتطلع إلى تلك الحيوانات فى أسى. ووجدتها، لحسن الحظ، قد بدت فى كامل حيويتها.

أما تلك الفيلة فكانت تلوح بجوار الجدار الأقصى للخيمة. كانت وحشاً هائلاً بلون السحب العاصفة.

اندفعنا بين الرجال وتوقفنا أمامها. كانت هائلة الحجم ــ فكان طولها يصل إلى عشر أقدام على الأقل. وكان جلدها مرقشاً ومجعداً مثل مجرى نهر جاف من قمة خرطومها وحتى نهاية قدمها الضخمة. كانت أذناها فقط هما المتساوين. نظرت إلينا بعينين آدميتين تماماً. كانت عيناها كهرمانية اللون، وغائرة بعمق رأسها، ومتصلة بأجفان طويلة بشكل مخيف.

قال أوجست: "يا إلهى".

امتد خرطومها نحونا، كان يتحرك بحرية كأنه مخلوق آخر غيرها. لوحت به أمام أوجست، ثم أمام مارلينا، ثم أمامى فى النهاية. وفى نهاية هذا الخرطوم، كان هناك نتوء يشبه الإصبع وكان يهتز وينقبض. وكان منخارها ينفتح وينغلق، ويشهق ويزفر، ثم ارتد الخرطوم إلى الوراء. تمايل

Amly نهضة العرب

أمامها كأنه دودة راقصة ضخمة قوية. كان إصبع الخرطوم يلتقط العشب من الأرض ثم يلقى به ثانية. نظرت إلى الخرطوم المتمايل ووددت لو اقترب ثانية. فمددت يدى إليها عارضاً إبرازه، لكنها لم تفعل.

كان أوجست ينظر نحوها فى ذعر، بينما نظرت إليها مارلينا فى بساطة، ولم أدر أنا كيف أحدد انطباعى تجاهها. إننى لم أواجه أبدا حيواناً بهذا الحجم؛ فقد ارتفعت فوق رؤوسنا بمقدار أربعة أقدام تقريباً.

قال رجل كان عن يميننا: "من المسئول عنها؟"، كان قميصه مهترئاً وغير مقفل وقد نفر من تحت حمالة بنطاله.

فرد عليه أوجست وهو يمد قامته: "إننى مدير قطاع الخيول والمشرف على الحيوانات".

فقال الرجل وهو يلوك عصارة دخان فى ركن فمه: "من فى رجالك مسئول عن هذه الفيلة؟".

أخرجت الفيلة خرطومها وربتت كتفه، فضربها بعيداً عنه وخطا بعيداً عن مرمى خرطومها. ففتحت فمها الذى يشبه المجرفة فى هيئة أقرب للتبسم، ثم بدأت فى التمايل، وقضاء وقتها فى تحريك خرطومها.

سأل أوجست الرجل: "ولماذا تريد أن تعرف؟".

"لأقول له كلمة لا أكثر".

"لماذا؟".

فقال الرجل: "لأعلمه بما هو مقدم عليه".

"ماذا تقصد؟".

"أرنى المسئول عن هذا الحيوان، وسأخبرك بما أعنيه".

جذبنى أوجست من ذراعى ومال بى للأمام قائلاً: "هذا هو المسئول. ما الأمر إذن؟".

نظر الرجل نحوى وهو يدس كتلة الدخان فى فمه عميقاً، ثم استمر فى حديثه لأوجست.

"لديك هنا أغبى حيوان على وجه الأرض".

Amly نهضة العرب

بدا أوجست مشدوهاً، وقال: "لقد علمت أنها الأفضل. لقد قال آل إنها الأفضل على الإطلاق".

تمخض الرجل وبصق لعاباً بنى اللون تجاه هذا الوحش الهائل وقال: إذا كانت هى الأفضل، فلماذا هى الوحيدة التى تبقت لدينا؟ هل تظن أنكم أول سيرك يأتى ليلتقط بقايانا، إنكم حتى لم تأتوا هنا منذ ثلاثة أيام. حسناً، أتمنى لكم حظاً سعيداً"، ثم استدار مغادراً.

فقال أوجست بسرعة: "انتظر. أخبرنى بالمزيد عنها. هل هى حرون؟".

"كلا، بل هى كتلة صماء كجعبة مطارق".

"ومن أين أُحضِرتَ؟".

"من شاحنة فيلة ـــ كانت لبولندى قذر سقط ميتاً فى مدينة ليبرتيفلل، فأعطتها لنا إدارة المدينة مقابل مبلغ زهيد. ومع ذلك كانت صفقة خاسرة؛ فهى لا تفعل أى شيء سوى تناول الطعام".

شحب وجه أوجست وهو ينظر إليه وقال: "هل تعنى أنها لم تشترك فى أى عروض سيرك أبداً؟".

فاختفى الرجل خلفها، ثم عاد يحمل قضيباً خشبياً يبلغ طوله ثلاث أقدام وبنهايته خطاف معدنى طوله أربع بوصات.

قال: "ها هو الخطاف الخاص بها. سوف تحتاجون إليه. أتمنى لكم حظاً سعيداً، ولى أيضاً. وسيوافينى هذا الحظ السعيد عاجلاً إن لم أقابل فيلاً آخر فى حياتى"، ثم بصق ثانية ومضى.

تبعه أوجست ومارلينا بنظراتهما. ونظرت أنا للخلف فى الوقت الذى جذبت فيه الفيلة خرطومها من الحوض، ثم حملته وصوبته، ثم أطلقت ما به من ماء بكل قوتها نحو الرجل فنزعت عنه قبعته.

توقف الرجل، وشعره وملابسه تقطر ماء. ثم سكن للحظة. بعد ذلك مسح وجهه ومال ليلتقط قبعته وانحنى لجمهور المشاهدين من العمال فى الخيمة، ثم تابع طريقه.

Amly نهضة العرب

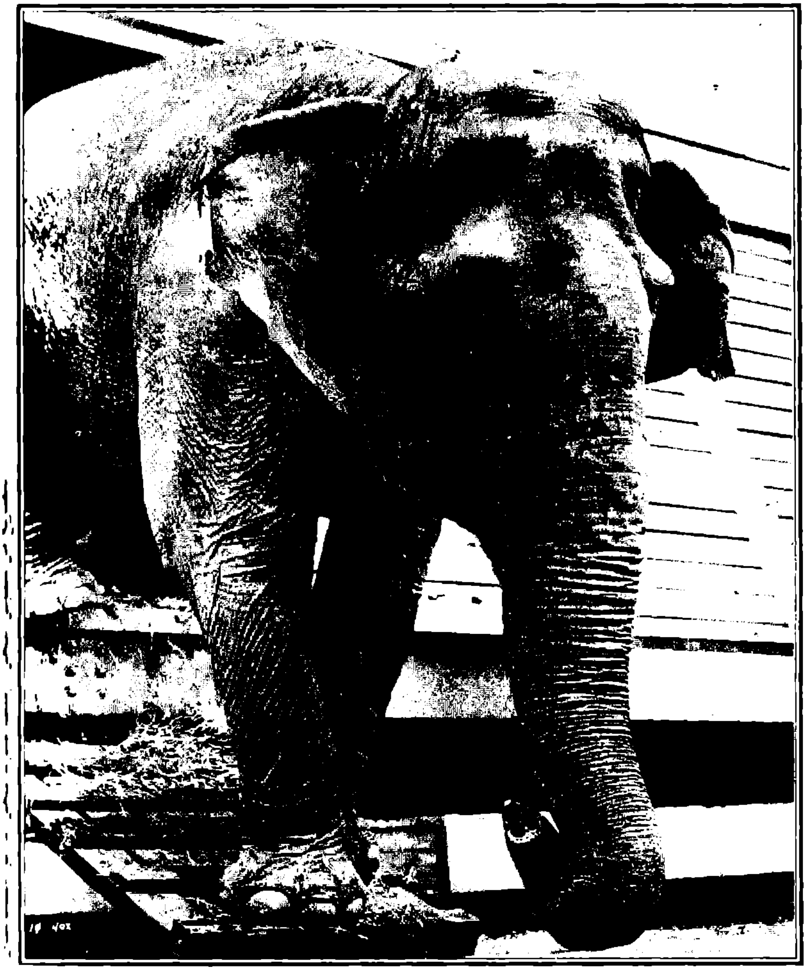

Amly نهضة العرب

الفصل العاشر

أخذ أوجست يرغى ويزبد واستشاط غضباً وتحول لون وجهه إلى الأرجوانى القاتم. ثم انصرف قاصداً العم آل فى غالب الظن ليشتبك معه فى جدال حول ما فعل.

تبادلت النظرات أنا ومارلينا، وباتفاق صامت، قررنا ألا نتبعه.

غادر الرجال المكان واحداً تلو الآخر. وقد أُطعمت الحيوانات وشربت أخيراً، واستقرت فى أماكنها لقضاء الليل. وقد أحست بالأمان فى نهاية يوم بائس.

بقيت وحدى أنا ومارلينا، وكنت أمد يدى بمختلف ألوان الطعام نحو خرطوم روزى الفضولى، وكلما جذب ذلك الأصبع المطاطى الناتئ فى طرف الخرطوم قبضة عشب من يدى، صرخت مارلينا ضاحكة. وكانت روزى تهز رأسها وتفتح فمها فيما يشبه الابتسامة.

استدرت لأجد مارلينا تحدق فىّ. ولم يكن يُسمع داخل الخيمة سوى أصوات جرجرة الأقدام، ونخير الأنوف، وطحن الأفواه الهادئ. وخارج الخيمة وعلى بعد مسافة منها، كان يتهاوى صوت عزف للهارمونيكا ــ كان لحناً تكرر ثلاث مرات ورغم ذلك لم أستطع تحديده.

لست أدرى كيف حدث هذا ــ هل اقتربت منها؟ هل اقتربت منى؟ لكن ما أعرفه بالضبط هو أنها أصبحت بين ذراعىّ ونحن نتراقص ونميل ببطء أمام حاجز الحبال المنخفض. وبينما كنا ندور ببعضنا، لمحت روزى ترفع خرطومها وهى باسمة الوجه.

Amly نهضة العرب

وفجأة جذبت مارلينا نفسها بعيداً عني.

وقفت بلا حراك، وكانت ذراعي لا تزال مرفوعة قليلاً، ولا أدرى ماذا أفعل.

قالت مارلينا: "أوه"، وقد احمر وجهها خجلاً على نحو عنيف، وبدأت تنظر إلى كل شيء في المكان عدا وجهي، ثم قالت: "حسنا، فلنذهب وننتظر أوجست حتى يأتي".

حدقت إليها للحظة طويلة. لقد أردت تقبليها. أردت تقبليها كما لم أرد أى شيء في حياتي من قبل.

وفى النهاية قلت: "نعم، نعم. لنذهب".

بعد ساعة عاد أوجست إلى الغرفة الخاصة. اندفع دخل الغرفة في غضب وأغلق الباب خلفه بعنف شديد، فاتجهت مارلينا في الحال نحو الخزانة.

قال هو يقذف قبعته في زاوية الغرفة وينزع سترته بعنف: "إن هذا اللعين عديم الفائدة دفع ألفي دولار مقابل هذا الحيوان اللعين". وألقى بنفسه في أقرب مقعد ووضع يده على رأسه وهو يردد: *"ألفي دولار"*.

أخرجت مارلينا زجاجة من الشراب ثم توقفت ونظرت نحو أوجست، ثم أعادتها ثانية وتناولت منقوع الشعير.

قال أوجست وهو يفك بعنف رابطة عنقه ويجذب ياقة قميصه: "وهناك ما هو أسوأ ــ أوه، هذا كثير، هل تريدون معرفة ما فعله غير ذلك؟ مممم، هيا خمنوا".

نظر نحو مارلينا، التي كانت هادئة تماماً وهي تصب مقداراً وافياً من الشراب في ثلاث كؤوس.

صرخ أوجست قائلاً: "لقد قلت خمني!".

فقالت مارلينا بهدوء: "إنني فعلاً لا أعلم"، ثم أعادت غطاء الزجاجة إلى فوهتها.

Amly نهضة العرب

"لقد أنفق بقية المال على عربة لعينة لتشحن الفيلة اللعينة".

استدارت مارلينا وقد لفت الحديث انتباهها فجأة وقالت: "هل استخدم أياً من العارضين؟".

"بالطبع فعل".

"ولكن ــ"

قاطعها أوجست قائلاً: "نعم، بالضبط".

ناولته مارلينا كأسه، ونبهتني إلى أن أتناول كأسي، ثم جلست.

تناولت جرعة من كأسي وانتظرت قدر استطاعتي ثم قلت: "نعم، حسناً، كلاكما يفهم ما تتحدثان عنه، لكنني لا أفهم. فهل تمانعان في إشراكي في الفهم؟".

زفر أوجست من بين صدغيه المنتفخين، وأزاح خصلة شعر سقطت على جبينه ثم مال للأمام، وأسند مرفقيه على ركبتيه. ثم رفع رأسه فكانت عيناه تجاهي، ثم قال: "هذا يعني، *يا جاكوب*، أننا قد وظفنا أناساً دون أن نجد لهم مكاناً لوضعهم فيه. هذا يعني *يا جاكوب* أن العم آل خصص إحدى عربات نوم العمال كعربة نوم للعارضين. ولأن من بين من وظفهم امرأتان؛ فقد كان عليه تقسيم الغرفة. وهذا يعني *يا جاكوب* أنه لكي تسكن ستة من العارضين، فإننا سنضع أربعة وستين عاملاً للنوم تحت العربات على عربات القطار المسطحة".

فقلت: "لكن هذه حماقة. عليه أن يملأ عربة النوم بكل من يحتاج لسرير".

قالت مارلينا: "لا يمكنه ذلك".

"ولماذا؟".

"لأن من غير الممكن خلط العمال بالعارضين".

"أليس هذا ما أفعله أنا وكينكو؟".

Amly نهضة العرب

زفر أوجست واعتدل فى جلسته قائلاً: "ها!"، وقد برزت على وجهه ابتسامة متكلفة وتابع وهو يميل برأسه ويبتسم: "أخبرنا بالله عليك، إننى أتحرق شوقاً لأعرف كيف يسير الأمر بينكما؟".

أخذت مارلينا نفساً عميقاً وعقدت ساقيها. وبعد لحظة، بدأ ذلك الحذاء الأحمر الجلدى الذى ترتديه فى الاهتزاز كالعادة.

أفرغت الشراب كله فى حلقى مباشرة وغادرت الغرفة.

كان ذلك الشراب قوياً وقد بدأ تأثيره علىّ فى مكان ما بين غرف القطار الخاصة والعربات الأخرى الأقل درجة. وبدا من الواضح أننى لست الوحيد الواقع تحت تأثير السكر ـ فقد تمت تلك "الصفقة"، وكان كل من يعمل لدى سيرك بنزينى براذرز ينفث غيظه فى تلك الليلة. كانت التجمعات فى تلك الليلة على كل لون؛ بدءاً من احتفالات على موسيقى الجاز بالراديو مصحوبة بالضحك الهيستيرى، وانتهاء بتجمعات متناثرة من الرجال المتسخين الذين احتشدوا على مسافات من القطار لتبادل كل أنواع المسكرات. لمحت فى هذا المشهد كامل، الذى رفع يده نحوى للتحية قبل أن يمر بجماعة سترينو وهو يحمل مصباح كيروسين.

سمعت صوت حركة تقلب بين الأعشاب الطويلة، فتوقفت لأبحث الأمر، فرأيت رجلا وامرأة يمارسان الحب. ولوهلة لم أع ما كان يدور أمامى، وحين وعيته نأيت ببصرى وانطلقت بعيداً.

وبينما كنت أقترب من عربة الخيول، رأيت أناساً يجلسون على بابها المفتوح ويتحركون على غير هدى إلى خارج العربة.

كان المزيد من هؤلاء داخل العربة، وكان كينكو يدير الحفلة وبإحدى يديه زجاجة شراب وعلى وجهه الثمل أمارات كرم الضيافة. وحين رآنى سار نحوى فى سرعة وترنح، فامتدت بعض الأيدى لالتقاطه قبل سقوطه.

صاح وعيناه تلمعان بشدة: "جاكوب! صديقى!"، ثم مرر نفسه من بين أصدقائه واعتدل، ثم قال مخاطباً الجمع الذى زاد على ثلاثين رجلا ملأ

Amly نهضة العرب

المكان المخصص لخيول مارلينا: "أيها القوم، أيها الأصدقاء"، ثم سار نحوى ووضع ذراعه حول خصرى وتابع: "هذا هو جاكوب، أعز أصدقائى على الإطلاق". ثم توقف وتناول رشفة من الزجاجة وقال: "من فضلكم، من فضلكم قوموا بتحيته إكراماً لى".

فبدأ ضيوفه بالصفير والضحك. وبدأ كينكو فى الضحك حتى سعل. ترك خصرى ولوح بيده أمام وجهه الذى تحول للون الأرجوانى حتى توقف عن إطلاق الرزاز من فمه. ثم طرح ذراعه على خصر رجل آخر يقف بجواره، فترنحا معاً.

ولما كانت غرفة الماعز ممتلئة بمن فيها، فقد قصدت الجانب الآخر من العربة، فى المكان الذى كان سيلفر ستار يستلقى فيه. وهبطت جالساً بجانب جدار العربة ذى الشرائح المتراصة.

أصدرت كومة القش التى بجوارى حفيفاً؛ فتطلعت ببصرى لأكشف الأمر، آملاً ألا يكون فأراً، فرأيت ذيل كوينى الأبيض المجذوع للحظة واحدة، وذلك قبل أن تندس أكثر داخل القش، مثل سرطان يندس داخل رمال الشاطئ.

ومن هذه اللحظة، لم أعد واعياً لترتيب الأحداث التى لحقت. فقد مررت إلىّ الزجاجات كى أشارك فى الشراب، وأنا على يقين من أننى شاركت معظمهم الشراب. وفى وقت قليل، بدأت الأشياء تسبح أمامى وامتلأ قلبى بالعطف الإنسانى تجاه كل شخص وكل شىء. كانوا يحيطوننى بأذرعهم وأفعل أنا مثل ذلك. كنا نضحك بصخب شديد — ولكنى لا أذكر بالضبط علام كنا نضحك، لكن المرح كان يملأ المكان.

هناك لعبة يكون عليك فيها أن تصوب وترمى نحو هدف، فإن أخطأت تناول شراباً. ويبدو أننى أخطأت التصويب كثيراً؛ لدرجة أننى فكرت فى الرمى ثم الزحف للخروج مبتعداً من كثرة ما كان فيه الجميع من مرح.

كنت أجلس فى الزاوية. ولا أذكر تماماً كيف وصلت إليها، لكننى كنت مستنداً إلى الجدار ورأسى مسترخ على ركبتى. وتمنيت أن يتوقف

Amly نهضة العرب

العالم عن الدوران أمام ناظرىّ، لكنه لم يفعل، ولذا عدت برأسى فاستندت على الحائط.

سمعت صوتاً مثيراً يأتى من مكان قريب منى يقول: "حسناً الآن، ماذا لدينا هنا؟".

فتحت عينى فأبصرت نفسى أحتضن امرأة، فأدرت عينىّ لأرى الوجه فإذا هى باربرا. طرفت بعينى سريعاً، فى محاولة منى لأوحد صورتها أمام عينى. يا إلهى لا فائدة من هذا. لكن لا ـ انتظر! إن الأمر على ما يرام إن الصورة المزدوجة أمامى ليست متعددة لباربرا فقط، بل هى لأكثر من امرأة.

قالت باربرا وهى تمد يدها وتمسح على وجهى: "مرحباً حبيبى، هل أنت بخير؟".

فقلت وأنا أحاول الإيماء برأسى: *"مممم"*.

توانت وهى تدور بأطراف أصابعها تحت ذقنى واستدارت نحو الشقراء التى جثمت بجوارها وهى تقول: "إنه صغير جداً. أوه، إنه جذاب كالبرعم الصغير. أليس كذلك يا نيل؟".

سحبت نيل دفقة من دخان سيجارتها ونفثت الهواء من جانب فمها وقالت: "بالطبع هو كذلك. لا أظن أننى رأيته من قبل".

فقالت باربرا: "لقد كان يحرس خارج خيمتى قبل ليال". ثم عادت بوجهها إلىّ وقالت بنعومة وهى تحرك ظاهر أصابعها على وجنتى: "ما اسمك يا عزيزى؟".

فقلت وأنا على شفا التقيؤ: "جاكوب".

فقالت لنيل: "جاكوب. أوه، لقد تذكرت. أعرف الآن من أنت؛ إنه ذاك الشخص الذى كان يتحدث عن وولتر. إنه جديد هنا. عامل مبتدئ وقد أثبت جدارة عند خيمتى".

Amly نهضة العرب

جـذبت ذقنـى ورفعتـه، وحـدقت بعمـق فـى عينـىّ. كنـت أحـاول رد الجميل لكن كـان لـدىّ صـعوبة فـى التركيـز. قالـت: "أوه، إنـك سـاحر. أخبرنى إذن يا جاكوب، هل قبلت امرأة من قبل؟".

فقلت: "أنا... أوه... أوه..."

فضحكت نيل ومالت باربرا للوراء ووضعت يدها علـى خـصرها وقالـت: "ما رأيك فى القيام بالترحيب المناسب به؟".

قالت نيل: "عملياً، يتوجب علينا ذلـك؛ فهـو عامـل مبتـدئ ولا يـزال بكراً"، وأخذت تتحسس أماكن حساسة فى جسدى.

وبدأت باربرا تشاركها هذا الفعل حتى انهارت أعصابى تماماً.

حاولت التقاط أنفاسى؛ فما تجرعته من الشراب كان قد زال أثره فوراً.

مرت بقية الليلة على ذهنى كنوبات من الصرع. كنت مدركاً أننى كنـت أترنح مع امرأتين، لكنـى أظـن أننـى سـقطت خـارج بـاب العربـة. وعلـى الأقل، فأنا أدرك الآن أننى وجدت نفسى ملقى علـى الأرض، ثـم نهـضت ثانية واندفعت فى الظلام حتى جلست على طرف سرير.

وفى هذه المرة كانت هناك صورتان لباربرا بكل تأكيد، وصـورتان للمـرأة الأخرى أيضاً؛ تلك التى تدعى نيل. أليس كذلك؟

تراجعت باربرا للخلـف ورفعـت ذراعيهـا فـى الهـواء. وأمالـت رأسـها للخلف وبدأت ترقص رقصات مـثيرة. لكننـى ببـساطة لم أعـد قـادراً علـى الجلوس ثانية، فسقطت. وبدأت إحداهما فى نزع ملابـسى عنـى فهمهمـت بشىء لا أذكره تماماً، لكننى لا أظنـه كـان تـشجيعياً لفعـل شـىء وشـعرت فجأة أننى لست على مايرام.

أوه، يا إلهى، إنها تلمسنى الآن. وكنت أشاهد ذلك وأنا فى خزى تام.

أما المرأة الأخرى ــ فقد عادت لتكون صورة واحدة، اللعنة! ألن تستقيم الصورة لدىّ أبداً؟ ــ فقد استلقت على السرير بجوارى.

فلهثت، فضحكتا للهاثى، لكـن صـوتهما كـان مبتهجـاً، كـان الـصوت مشجعاً لى وهما تحاولان الحصول منى على أية استجابة.

Amly نهضة العرب

أوه، يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى الرحمة.
إننى لست قادراً على ــ
أوه، يا إلهى، إننى فى حاجة إلى ــ

فأدرت رأسى وألقيت ما تحويه معدتى من طعام ــ والذى كان لسوء الحظ ــ فى وجه نيل.

سرى فى المكان صوت احتكاك ما، ثم كسر شعاع ضوء ظلمة المكان من حولى.

كان كينكو ينظر إلىّ قائلاً: "استيقظ، يا فتى الفتيان. رئيسك يبحث عنك".

كان يمسك بغطاء شيء فاتحاً إياه، وبدأت الأمور تتضح لدىّ؛ لأنه حين أدرك جسدى المكوم أن عقلى بدأ فى العمل، اتضح لى سريعاً أننى مكوم فى صندوق ملابس.

رفع كينكو غطاء الصندوق فاتحاً إياه تماماً، ثم ابتعد. حررت وضع رقبتى التى كانت فى وضع انثناء ثم جاهدت حتى استطعت الجلوس فى مكانى. كان ذلك الصندوق موضوعاً فى خيمة، ومحاطاً بعوارض لا تنتهى وضعت عليها ملابسى الداخلية وديكورات، وطاولات زينة ذات مرايا.

فسألت فى صوت خفيض: "أين أنا؟"، ثم تنحنحت محاولاً تنقية حلقى الجاف.

قال كينكو: "أنت فى خيمة المهرج" وهو يشير إلى عبوات الطلاء الموضوعة على طاولة الزينة.

رفعت ذراعى لأغطى به عينى فوجدته مكسواً بلباس حريرى. إنه روب نوم أحمر حريرى على وجه الدقة. وكان مفتوحاً تماماً.

شددت طرفى الروب إلى بعضهما، وأنا أتساءل عما إذا كان كينكو قد لاحظ شيئاً. مسحت جبهتى التى لاحظت أنها زلقة على غير العادة. كما كانت يداى ذات لون أبيض براق.

Amly نهضة العرب

فقلت وأنا أحدق فيهما: "ما الذى ـــ؟"
فاستدار كينكو وأعطانى مرآة فتناولتها وأنا أشعر بذعر شديد. وحين رفعتها إلى وجهى، رأيت فيها وجه مهرج.

مددت برأسى أنظر خارج الخيمة، نظرت يميناً ويساراً وأسرعت متجهاً نحو عربة الخيول. وتبعتنى الضحكات والصيحات.
"هووووىىى، انظر إلى تلك المرأة المثيرة!".
"مرحباً فريد ــ انظر لنا فى أمر الفتاة الجديدة هذه!".
"قولى لى يا عزيزتى ــ هل لديك خطط لهذه الليلة؟".
انزويت داخل غرفة الماعز وأغلقت الباب خلفى بشدة، واستندت إليه والتقطت أنفاسى فى تثاقل وأنصتُّ حتى انتهت ضحكات الرجال فى الخارج. سحبت خرقة من القماش ومسحت بها وجهى ثانية. كنت قد حككته قبل خروجى من غرفة المهرج، ولكننى لم أكن واثقاً من أن ما عليه من ألوان قد محى تماماً، بل لم أكن واثقاً من أن أى جزء من جسدى كان خالياً من هذه الألوان. الأسوأ من ذلك أننى لست أدرى حتى الآن ما الذى فعلته بالضبط. لا أذكر مما حدث سوى مقتطفات وعلى قدر ما كانت تمثله هذه المقتطفات من رعب لى، كان رعبى أكبر مما يكون قد حدث فيما بين هذه المقتطفات.
وخطر لى فجأة أننى لم أعد على يقين مما إذا كنت قد تخيلت عن عمدى أم لا.

دخل كينكو الغرفة بعد دقائق، وكنت مستلقياً على فراشى وذراعاى على رأسى.
فقال: "يحسن بك أن تخرج؛ فإنه لا يزال يبحث عنك".
سمعت شيئاً يشمشم فى أذنى، فرفعت رأسى فاصطدمت بفم رطب، فإذا بها كوينى تقفز للخلف وكأنها قد هوجمت بمنجنيق. وكانت تفحصنى

Amly نهضة العرب

من بعد ثلاث أقدام، وهى تشمشم فى فضول. أوه، من المؤكد أن جسد يفوح منه خليط روائح متنوع هذا الصباح. أسقطت رأسى ثانية إلى الفراش.

قال كينكو: "هل تريد أن تطرد من العمل، أم ماذا؟".

فغمغمت بالقول: "لم أعد أبالى".

"ماذا؟".

"إننى سأترك العمل هنا على أية حال".

"ما هذا الهراء الذى تقوله؟".

لم أستطع الإجابة. فلم أستطع أن أخبره بأن تعرضى للخزى الذى فاق التصديق ليس السبب الرئيسى، بل إنه فشلى فى أول محاولة لى لإثبات رجولتى ـ وهو شىء طالما فكرت فيه على مدى السنوات الثمانى الماضية ناهيك عن التقيؤ فى وجه إحدى المرأتين ثم الإغماء ومن ثم تسليمى لشخص دهن وجهى بالأصباغ وكومنى فى صندوق ملابسى، رغم أنه كان يعرف بعض ما دار من ذلك على الأقل، بما أنه علم أين يجدنى هذا الصباح. وربما كان مشاركاً فيما حدث.

قال كينكو: "لا تكن لينا كالنساء. هل تريد أن ينتهى بك الأمر بالتسكع على السكة مثل هؤلاء المساكين بالخارج؟ والآن انهض واخرج لعملك قبل أن يتم طردك".

ولكنى تسمرت فى مكانى.

"قلت لك انهض!".

فتذمرت قائلاً: "وما يعنيك فى الأمر؟ عليك أن تكف عن الصياح لأ رأسى يؤلمنى".

"انهض الآن وإلا جرحت ما تبقى من جسدك".

حملت نفسي على النهوض ورمقته بنظرة حادة. كان رأسى يط وشعرت أن أثقالاً من الرصاص مربوطة فى مفاصلى. ولأنه كان يراقبنى فقد استدرت بوجهى نحو الحائط. مع ذلك ظل وجهى يتوهج خزياً.

Amly نهضة العرب

قال كينكو: "أوه، هل لك بنصيحة؟ لو أنك أرسلت بعض الورود لباربرا فسيكون ذلك جيداً. إن المرأة الأخرى مجرد امرأة عديمة الفائدة، أما باربرا فصديقة".

عمنى العار الذى أدركته لتوى. وبعد دفع نوبات من الدوار عنى، حدقت فى الأرض وأنا أشعر يقيناً أننى لن أتمكن من النظر فى عين أحد ثانية.

كان قطار سيرك فوكس براذرز قد جُر عن السكة، وعربة الفيل التى تسببت فى خلاف شديد قد جُرت لتنطلق خلفنا مباشرة بمحرك قطارنا. كانت هذه العربة مزودة بفتحات بدلاً من الشرائح الخشبية كما هو الحال فى العربات الأخرى. وكان عمال فلاينج سكوادرون مشغولين بتفكيك الخيام ـ كانوا قد فككوا الخيام الكبيرة فعلاً، فبدت من خلف تلك الخيام مبانى مدينة جولييت. وكان بعض أهل المدينة قد تجمهروا لمشاهدة تلك النشاطات.

وجدت أوجست فى خيمة الحيوانات، كان يقف أمام الفيلة الجديدة.

صاح وهو يحرك خطاف الفيل أمامها قائلاً: "تحركى!".

فهزت خرطومها وطرفت بعينها.

فتحرك خلفها ولكزها فى مؤخرة ساقها وقال: "قلت تحركى، تحركى عليك اللعنة".

ضاقت عيناها وبسطت أذنيها الضخمتين على رأسها.

لاحظ أوجست وجودى وتجمد فى مكانه. ثم أسقط الخطاف جانباً وقال: "قضيت ليلة سيئة، أليس كذلك؟".

سرت حرارة شديدة فى مؤخرة عنقى ثم انتشرت سريعاً فى رأسى كله.

"لا تهتم للأمر. أحضر عصاة وساعدنى فى تحريك هذا الوحش الغبى".

أتى بيت من خلفه وهو يثنى قبعته بين يديه ويقول: "أوجست؟".

استدار أوجست نحوه غاضباً وهو يقول: "أوه، يا إلهى. ما الأمر يا بيت؟ ألا ترى أننى مشغول؟".

"إن لحوم الوحوش موجودة".

"حسناً، تول أمرها. فليس لدينا من الوقت الكثير".

"ماذا تريد منى أن أفعله بها بالضبط؟".

"وماذا تظن نفسك فاعلاً بها؟".

فقال بيت فى اضطراب واضح: "لكن أيها الرئيس ـــ"

قال أوجست وقد بدأ الوريد الذى فى جانب رأسه يبرز على نحو مفزع: "اللعنة! هل ينبغى علىّ الاهتمام بكل شىء فى هذا المكان بنفسى؟"، ثم قال وهو يدفع الخطاف نحوى: "إليك هذا، حاول أن تعلم هذا الوحش شيئاً ما، أى شىء يمكنك فعله. فحسب علمى أنها لا تعلم شيئاً سوى تناول الطعام والتغوط ولا شىء غير هذا".

تناولت الخطاف منه وراقبته حتى خرج من الخيمة. كنت لا أزال أراقبه حين اندفع خرطوم روزى بجوار وجهى دافعاً هواءه الساخن فى الهواء. فدرت لأجد نفسى فى مواجهة عينها الكهرمانية، فطرفت لى. ثم تحول نظرى من تلك العين إلى الخطاف الذى بيدى.

نظرت إلى عينها ثانية، فطرفت فانحنيت ووضعت الخطاف أرضاً.

فهزت خرطومها نحو الأرض، ورفرفت بأذنيها كأنهما أوراق شجر هائل الحجم، وفتحت فمها فى ابتسامة.

فقلت لها: "مرحباً روزى، أنا جاكوب".

وبعد لحظة تردد، مددت يدى قليلاً، فاندفع الخرطوم نحوى نافخا الهواء منه. فتجاسرت ووضعت يدى على كتفها. كان جلدها خشناً ومشعرا ودافئاً على نحو يثير العجب.

فقلت لها ثانية وأنا أربت كتفها فى محاولة استبيان: "مرحباً".

اندفع ذلك الشراع على أذنها للأمام ثم ارتد ثانية، وعاد الخرطوم نحوى، فلمسته بتردد، ثم مررت بيدى عليه. فأخذنى ذلك التلامس واستغرقت فيه تماماً، حتى أننى لم أر أوجست إلا وهو يقف أمام بشكل مفاجئ.

Amly نهضة العرب

"ما الذى حل بكم جميعاً هذا الصباح؟ يجدر بى أن أطردكم جميعاً من العمل؛ فهذا بيت لا يستطيع تدبر أمر عمله، وأنت تبدأ اليوم باختفاء عجيب، وها أنت الآن تلاعب الفيل. أين ذلك الخطاف اللعين؟".

ملت إلى الأرض واستعدت الخطاف. فجذبه منى أوجست بشدة، وعادت آذان الفيل للخلف مرة أخرى.

فقال أوجست مخاطباً إياى: "والآن أيها الحنون، هناك مهمة أريد أن تقوم بها. ابحث عن مارلينا. واحرص على ألا تتجه خلف خيمة الحيوانات لبعض الوقت".

"ولماذا؟".

التقط أوجست نفسه وشد بقوة على الخطاف بيده حتى ابيضت وقال وهو يصر على أسنانه: "لأننى أمرتك بهذا ليس إلا".

وبشكل غريزى اتجهت نحو خلفية خيمة الحيوانات لأعرف ما لا يفترض بمارلينا أن تشاهده. فاستدرت عند الزاوية تماماً حين كان بيت يبدأ بذبح حصان هرم ذى لون رمادى. صرخ الحصان والدم ينطلق مندفعاً مسافة ست أقدام من خلال الفجوة التى صنعها بيت فى رقبته.

فصحت وأنا أتراجع للخلف: "يا إلهى!".

بدأ قلب الحصان فى التوقف تدريجياً، وضعف تدفق الدم. وفى النهاية، سقط الحصان على ركبتيه مندفعاً للأمام. ثم حك الأرض بحوافره الأمامية قبل أن يسقط جثة هامدة. كانت عيناه مفتوحتين على اتساعهما. وحول رقبته تكونت بركة دم قاتمة اللون.

رفع بيت نظره نحوى، وهو لا يزال مائلاً على الحيوان المرتجف على الأرض.

كان يقف بجواره حصان هزيل كستنائى اللون مشدوداً إلى وتد وقد انتابه الرعب. كان أنف الحصان متوهجاً بلون أحمر، وكمامته مستقيمة تماماً للأمام، ورباطه مشدوداً للغاية وكأنه يهرب، تمطى بيت الحصان

Amly نهضة العرب

الميت وشد الرباط إلى جانب رأس الحصان الكستنائى ثم جز حلقه، فاندفع تيار دم آخر، وسرت آلام احتضار أخرى. وتكوم جسد آخر ميتاً.

وقف بيت وقد ارتخت ذراعاه إلى جانبيه، وأكمام قميصه إلى مرفقيه، وبيده سكينه الذى كان لا يزال يقطر دماً. ظل يراقب الحصان حتى لفظ أنفاسه تماماً ثم عاد ببصره نحوى.

مسح أنفه وبصق وعاد ليتم ما بدأ.

طرقت باب الغرفة الخاصة بمارلينا وأنا أقول: "مارلينا؟ هل أنت بالداخل؟".

فقالت بصوت خفيض من الداخل: "جاكوب؟".

فقلت: "نعم".

"ادخل".

كانت تقف بجوار إحدى النوافذ المفتوحة، تنظر نحو مقدمة القطار. وحين دخلت، التفتت إلىّ برأسها. كانت حدقتا عينيها متسعتين، ووجهها شاحباً وكأنه خال من الدماء.

قالت بصوت متهدج وهى تقاوم دموعها: "أوه، جاكوب..."

فقلت وأنا أعبر داخل الحجرة: "ما الأمر؟ ما الذى حدث؟".

وضعت يدها على فمها وعادت تنظر من النافذة.

كان أوجست وروزى يواصلان صخبهما عند مقدمة القطار. وكان تطور حدة التعامل بينهما تمثل عذاباً شديداً، وقد وقف جميع من فى الساحة يراقبون ما يحدث.

ضربها أوجست من الخلف، فهرولت روزى خطوات قليلة للأمام. وحين اقترب منها أوجست، ضربها مرة أخرى، لكنها كانت ضربة أعنف جعلتها ترفع خرطومها، وتخور، وتعدو فى كل اتجاه. اندفع أوجست مطلقاً سيلاً من اللعنات وهو يجرى إلى جوارها، ملوحاً بالخطاف، وموجها طرفه نحو كتفها. فتذمرت روزى، ولم تتحرك هذه المرة. حتى من كل تلك المسافة، كنا نرى هذا الصراع.

Amly نهضة العرب

اختنقت مارلينا بالبكاء. وبشكل غريزى، مددت يدى نحو يـدها وحـين لامستها، أمسكت بأصابعى بقوة.

بعد بضع ضربات أخـرى، رأت روزى عربـة الفيـل فـى مقدمـة القطـار رفعـت خرطومهـا وصـرخت، وانطلقـت فـى عـدوها العاصـف. واختفـى أوجست خلف سحابة من الغبار وراءها. ثم صعدت إلى متن القطـار بارتيـاح واضح.

انقشع الغبار وظهر أوجست وهو يصيح ويلـوح بذراعيـه، سـار ديامونـد جو وأوتس فى تثاقل نحو عربة الفيل، وقاما بإغلاق الباب بحركة روتينيـة بطيئة.

Amly
نهضة العرب

الفصل الحادى عشر

أمضى كينكو الساعات الأولى من بداية انطلاقنا نحو شيكاغو فى تعليم دوينى ـ التى يبدو أنها تعافت من الإسهال ـ كيف تسير على قائمتيها الخلفيتين مستخدماً فى ذلك قطعاً من لحم بقرى مقدد.

"لأعلى! لأعلى يا كوينى، لأعلى! هيا يا فتاة. أحسنت يا فتاتى!".

كنت أنا مستلقياً على فراشى، متكوراً ومواجهاً الحائط. ولم تكن حالتى الجسدية أقل سوءاً من حالتى الذهنية. كان رأسى مزدحماً بالمشاهد التى كانت تتقافز ككرات معلقة فى خيوط: مشهد والدىّ وهما على قيد الحياة، ومشهد التحاقى بجامعة كورنيل، ثم وفاة والدىّ، والبلاطات الخضراء والبيضاء تحتهما فى المشرحة، مشهد مارلينا ورقْصِنا معاً فى غرفة الحيوانات، مشهد مارلينا هذا الصباح وهى تقاوم دموعها عند النافذة، ثم مشهد روزى وخرطومها المتشمشم الفضولى؛ روزى التى ترتفع عشر أقدام وكأنها جبل صلب، وهى تئن تحت وقع ضربات أوجست، ثم مشهد أوجست وتنقله الرشيق على سطح قطار متحرك. ومشهد أوجست وهو يمسك الخطاف على نحو جنونى، ثم مشهد باربرا، وهى ترقص على خشبة العرض، ثم مشهد باربرا ونيل وخدماتهما الجليلة.

إن ذكرى ليلة أمس تضرب رأسى ككرة مدمرة. أغلقت عينىّ بشدة محاولاً تفريغ عقلى من أفكاره، لكنى لم أستطع. فكلما حاولت التخلص من تلك الذكرى، طغت على عقلى بشدة.

Amly
نهضة العرب

أخيراً توقفت كوينى عن نباحها المستثار، وأصدرت قوائم سرير كينكو صريراً. ثم خيم الصمت على المكان. كان ينظر إلى وكنت أشعر بذلك، فاستدرت على فراشي وواجهته.

كان على طرف سريره، وقدماه العاريتان معقودتان وشعره الأحمر غير مصفف، وكانت كوينى تتمطى فى حجره تاركة قدميها الخلفيتين تتمددان للخارج وكأنها ضفدعة.

قال كينكو: "إذن، ما هى قصتك على أية حال؟".

اخترق ضوء الشمس كالسكاكين من خلال شرائح العربة خلفه. وأقفلت عينى فى تكشيرة.

"كلا، إننى جاد فى سؤالى. من أين أنت؟".

قلت: "من العدم"، ثم استدرت ثانية إلى الحائط وجذبت الوسادة واضعاً إياها على رأسى.

"لماذا أنت غاضب هكذا؟ هل بسبب ليلة أمس؟".

كان مجرد ذكر الأمر قد زاد المرارة فى حلقى.

"هل أنت خجل من هذا الأمر أو ما شابه؟".

فقلت بحدة: "بالله عليك، هلا تركتنى وشأنى؟".

ظل هادئاً. وبعد ثوان، استدرت ثانية فى اتجاهه. كان لا يزال ينظر نحوى، وهو يلاعب أذن كوينى بأصابعه وكانت هى تلعق يده الأخرى، وتهز ذيلها القصير.

قلت له: "آسف، ولكننى لم أقم بشيء كهذا من قبل أبداً".

"حسناً، نعم ــ لقد بدا هذا واضحاً تماماً".

أمسكت، رأسى بكلتا يدى الذى كان يطن بقوة.

فتابع حديثه قائلاً: "اسمع، ما حدث ليس أمراً ذا أهمية. فستتعلم كيف تمسك ما شربته دون أن تتقيأ، أما بالنسبة للمسألة الأخرى، فعلىَّ أن أعيدك إلى هناك مرة أخرى. وهذا يجعلنا متعادلين، فأنا أدين لك

Amly نهضة العرب

بمعروف. فقد أوقفت وصفة العسل إسهال كوينى تماماً. إذن، هل تعرف القراءة؟".

فطرفت بعينىّ عدة مرات وقلت: "هه؟".

"أقصد هل تريد القراءة بدلاً من الاستلقاء هكذا فى غيظ؟".

فأغلقت عينىّ وغطيتهما بيدى وقلت: "بل سأستلقى هنا هكذا مغتاظاً".
كنت أشعر كأن مخى قد تضخم وضاقت عليه سعة جمجمتى. وكانت عيناى تؤلمانى بشدة، ولدىّ ميل للقىء.

فقال كينكو: "كما تحب".

فقلت: "ربما فى وقت لاحق".

"بالطبع، كيفما تريد".

ثم ساد بعض الصمت.

"كينكو؟".

"نعم؟".

"إننى أقدر لك هذا العرض".

"لا عليك".

ثم ساد صمت أطول.

"جاكوب؟".

"نعم؟".

"يمكنك أن تنادينى وولتر إن أردت".

ومن تحت يدى، اتسعت حدقتا عينىّ بشدة.

أصدر سريره صريراً وهو يعدل وضعه عليه. فاختلست نظرة من خلال أصابعى، فوجدته قد طوى الوسادة تحت رأسه ونام على ظهره وسحب كتاباً من الصندوق. استقرت كوينى على قدميها وجعلت تنظر نحوى. كان حاجباها يرتعدان فى قلق.

Amly نهضة العرب

اقترب القطار من شيكاغو بعد ظهر اليوم بوقت طويل. ورغم أن رأسى ما زال يطن وجسدى يؤلمنى، فقد وقفت على باب العربة أمد عنقى ليبدو بشكل جيد. أخيراً وصلنا إلى مدينة سانت فالنتينز داى ماساكر، مدينة موسيقى الجاز والعصابات والحانات.

كنت أرى بعض البنايات المرتفعة التى تظهر من بعيد، وبينما كنت أحاول تحديد أى منها هو مبنى آليرتون، كنا قد وصلنا إلى مزارع الماشية، التى كانت تمتد على مسافة أميال، ثم بدأنا فى السير ببطء. كانت المبانى مسطحة وقبيحة المنظر، والحظائر ممتلئة بقطعان الأبقار المذعورة القصيرة والحيوانات القذرة كريهة الرائحة، التى كانت تتناطح قرب السكة تماماً. لكن ذلك لا يقارن بالضوضاء والروائح الكريهة المنبعثة من المبانى؛ فخلال دقائق أقبلت روائح دم منتنة وصراخا حاداً، مما دفعنى للعودة سريعاً نحو بطانية الحصان العفنة ـ فهى أهون كثيراً من رائحة الموت.

كانت معدتى ضعيفة للغاية لدرجة أننى رغم أن الساحة كانت ستقام خلف حظائر الماشية، فإننى مكثت داخل العربة حتى يتم إقامة السيرك. وبعد فترة، ورغبة منى فى صحبة الحيوانات، دخلت خيمة الحيوانات وتجولت فى محيطها.

ومن المستحيل وصف ما حل بى من تعاطف نحو هذه الحيوانات ـ الضباع، الجمال، وكل الحيوانات. حتى الدب القطبى الذى جلس على مقعدته يمضغ مخالبه التى يبلغ طولها أربع بوصات بأسنانه. لقد حل حب مفاجئ بقلبى نحو هذه الحيوانات، كان كالطوفان الجارف، كان صلباً كالمسلة وزلقاً كالماء.

لقد وجد أبى أن واجبه هو الاستمرار فى مداواة الحيوانات حتى بعد أن توقف الناس عن دفع المال له. لم يستطع أن يقف ساكناً وهو يرى حصانا يتلوى من المغص أو بقرة تعانى من الولادة حتى لو كان ذلك يعنى له إفلاسه الشخصى، إن المقارنة بين الأمرين ليست واردة؛ لا جدال فى أننى الشىء الوحيد الحائل بين هذه الحيوانات وبين الحسابات التجارية

Amly نهضة العرب

لأوجست والعم آل، وما كان سيفعله أبى فى موقف كهذا ـ وما كان سيود منى أن أفعله ـ هو رعاية تلك الحيوانات. وبغض النظر عما فعلته ليلة أمس، فأنا راعى هذه الحيوانات، وحاميها. إن رعايتى لهذه الحيوانات أكبر من كونها وظيفة. إنها عهد ووفاء تجاه أبى.

كان أحد قرود الشمبانزى يحتاج إلى تدليل، فحملته على فخذى وأنا أتجول فى الخيمة. وصلت إلى بقعة كبيرة فارغة، وأدركت أنها مكان روزى، لابد أن أوجست يلاقى صعوبة فى إخراجها من العربة. ولو كنت أشعر تجاهه بأى مشاعر طيبة لحاولت مساعدته، لكننى لا أشعر بها تجاهه.

قال بيت: "مرحباً يا دكتور. إن أوتس يظن أن إحدى الزرافات قد أصيبت ببرد، فهلا ألقيت عليها نظرة؟".

قلت: "بالطبع".

قال بيت وهو يمد يده ليتناول الشمبانزى: "تعال يا بوبو".

لكن ذراعَى الشمبانزى كثة الشعر وساقيه تشبثا بى.

فقلت وأنا أحاول نزع ذراعيه عنى: "هيا الآن، سأعود إليك"، لكن بوبو لم يحرك ساكناً.

فقلت: "هيا اذهب الآن".

ولكن ما من جدوى.

فقلت وأنا أضم وجهى إلى جلده الأسود: "حسناً، سأمنحك عناقاً أخيراً".

فتوهج وجه الشمبانزى بابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه الكبيرة وقبلنى على وجنتى. ثم نزل عنى، وانزلق بين يدى بيت، وتشبث به بساقيه المعقوفتين.

كانت هناك كمية صغيرة من المخاط تسيل من مجرى الزرافة الأنفى. وهذا شىء لا أعتبره أمراً خطيراً فى الحصان، ولكن لأننى لا أعرف شيئاً عن الزرافات، قررت انتهاج مبدأ السلامة وعالجتها من خلال كمادات

Amly نهضة العرب

للرقبة وهو أمر تطلب سلماً ثابتاً، وكان أوتس بالأسفل يناولنى ما أحتاج إليه من أدوات.

كانت الزرافة حيواناً جباناً وجميلاً ورعديداً، وربما كانت أعجب مخلوق رأيته على الإطلاق. فسيقانها ورقبتها، وجسدها مائل ومغطى بعلامات تشبه قطع أحاجى الأشكال. وعلى قمة رأسها المثلث الشكل، برز نتوءان مكسوان بفراء جسدها، فوق أذنيها الكبيرتين مباشرة. وكانت عيناها كبيرتين وسوداوين، ولها شفتان ناعمتان كالتى لدى الحصان. كان لها عنان أمسكت به، لكنها ظلت ساكنة حتى مسحت ما فى مدخل أنفها، وأحطت حلقها بقطعة صوفية ناعمة. وحين انتهيت من ذلك، نزلت.

قلت لأوتس وأنا أمسح يدى فى خرقة: "هل يمكن أن تغطى غيابى بعض الوقت؟".

"بالطبع، لكن لماذا؟".

فقلت: "علىّ أن أذهب لمكان ما".

ضاقت عينا أوتس وقال: "تريد الرحيل، أليس كذلك؟".

"ماذا؟ لا أريد ذلك بالطبع".

"يجدر بك أن تخبرنى الآن؛ لأنك إن كنت تفكر فى مغادرة العمل والرحيل، فإننى لن أغطى غيابك أثناء قيامك بهذا".

"إننى لن أرحل، لماذا تظن ذلك؟".

"بسبب... حسناً، أنت تعلم. بسبب تلك الأمور التى حدثت لك".

"لا، إننى لن أرحل. عليك فقط أن تغطى غيابى من فضلك".

أليس هناك من أحد لم يسمع بتفاصيل الخزى الذى لحق بى؟

انطلقت سائراً على قدمى، وبعد ميلين من المشى وجدت نفسى فى منطقة سكنية. كانت المنازل فى حالة سيئة وبحاجة إلى ترميم، والعديد منها كان على نوافذه ألواح خشبية. مررت بطابور خبز ـ كان صفاً طويلا من أناس بائسين يرتدون أسمالاً بالية ويقصدون باب إحدى الجمعيات

Amly نهضة العرب

الدينية. عـرض علـىّ غـلام أسـود أن يلمـع لى حـذائى، وبينمـا كنـت أهـم بالسماح له، تذكرت أنى لا أملك سنتاً واحداً.

وأخيراً، رأيت إحدى دور العبـادة. جلسـت علـى أحـد مقاعـدها قـرب مؤخرة القاعة، ولمدة طويلة كنت أحدق فى الزجاج الملون بهـا. ورغـم أننـى كنت أريد التوبة، إلا أننى لم أجد نفسى قادراً علـى مواجهـة الأمـر، وفـى النهاية تركت المقعد وقمت للدعاء لروح والدى. وبينما كنت متجهـاً لمغـادرة المكان، لمحت مارلينا ـ لابد أنها أتت حين كنت أدعو لوالدى. رأيتها من الخلف فقط. لكنها بلا شك كانت تجلس فى المقعـد الأمـامى، وقـد ارتـدت ثوباً أصفر باهتاً وقبعة من نفس اللون. كانت رقبتها رقيقة وكتفاها مـربعين، وكانت بعض الخصلات الملتفة من شعرها البنـى الفـاتح قـد تـسللت خـارج إطار قبعتها.

كانت تركع على وسادة لتصلى، وشعرت بالخطيئة تحيط بقلبى.

أسرعت بالخروج قبل أن أفقد طهارة روحى تماماً.

حين عدت إلى ساحة السيرك، كانـت روزى قـد وُضِـعت فـى خيمـة الحيوانـات. لم أدر كيـف ولم أسـأل. ابتـسمت لى وأنـا أقـترب ثـم حكـت عينيها، مستخدمة طرف خرطومها الذى عقفته ليكون كقبضة يـد. راقبتهـا لـدقيقتين، ثـم تجـاوزت سـور الحبـال حولهـا. انبـسطت أذناهـا وضـاقت عيناها، ففاض قلبى ظناً منـى أن ذلـك رد فعلـها علـى اقترابـى منهـا. ثـم سمعت صوته.

"جاكوب؟".

ظللت أنظر نحو روزى لبضع ثوان قبل أن أستدير لأواجهه.

قال أوجست، وهو يحك حذاءه فى الأرض: "اسمعنى الآن، أعلم أننـى كنت فظاً خلال اليومين الماضيين فى التعامل معك".

كان من المفترض بى أن أرد بشىء ما، شىء يرفع عنـه الحـرج حيـالى، لكننى لم أفعل. فلم أكن أشعر بنزعة تسامح معه.

Amly نهضة العرب

"ما أحاول قوله هو أننى تجاوزت قليلاً. فأنت تعلم ضغوط عملى. وهذه أمور تحدث للجميع"، ثم مد يده مصافحاً وقال: "أصدقاء مرة أخرى؟".

توقفت لثوان، ثم صافحت يده الممدودة. إنه رئيسي فى العمل على أية حال. فطالما قررت البقاء فمن الحمق إذن أن أخلق سبباً لطردى من العمل.

فقال وهو يشد على يدى بقوة ويربت كتفى: "رجل طيب. سأصطحبك أنت ومارلينا الليلة للعشاء فى الخارج. وهذه دعوى مصالحة لكليكما. إننى أعرف مكاناً رائعاً يصلح لذلك".

"ماذا عن العرض؟".

"ليس هناك جدوى من إقامة عرض الليلة؛ فلا أحد يعلم بوجودنا حتى الآن. وهذا ما يحدث حين تقطع خط سيرك وتجول هائماً فى كل مكان".

ثم تنهد وقال: "لكن يبدو أن العم آل يدرك الأمر أفضل منا".

فقلت: "لا أدرى، فليلة أمس كانت نوعاً ما... سيئة".

"سنعالج هذا الأمر يا جاكوب، سنعالجه بذات الطريقة. موعدنا فى التاسعة تماماً"، وابتسم ابتسامة مشرقة ثم انصرف.

راقبته وهو يغادر المكان، وقد صدمتنى حقيقة أننى لا أريد الاجتماع به فى أى مكان، وفى الوقت ذاته أود البقاء مع مارلينا طوال الوقت.

فُتح باب الغرفة الخاصة فظهرت مارلينا، وكانت رائعة الحسن فى فستانها الساتان الأحمر اللون.

فقالت وهى تنظر لنفسها: "ما رأيك؟ هل بفستانى من عيب؟"، وظلت تتفحص جسدها وقدمها.

فقلت: "كلا، تبدين رائعة فيه".

ثم رفعت عينيها نحوى.

خرج أوجست من خلف الستارة الخضراء، مرتدياً رابطة عنق بيضاء. ألقى نظرة نحوى وقال: "لا يمكنك الخروج معنا هكذا".

Amly نهضة العرب

"إننى لا أملك شيئاً سوى هذا".

"فعليك الاستعارة إذن. هيا. أسرع. فسيارة الأجرة فى الانتظار".

انطلقت بنا السيارة بين مجموعة معقدة من ساحات انتظار السيارات والمنعطفات الخلفية قبل أن تتوقف بشكل مفاجئ فى زاوية بمنطقة صناعية.

خرج أوجست من السيارة وأعطى السائق أجرته. وقال وهو يخرج مارلينا من السيارة: "هيا"، ثم تبعتهما فى الخروج.

كنا فى منعطف محاط بمستودعات ضخمة مبنية بالطوب الأحمر. كانت مصابيح الشوارع توضح التكوين الخشن لأسفلت الطريق. وعلى جانب الطريق كانت توجد حاوية قمامة قد امتلأت بجوار الحائط. وعلى الجانب الآخر كانت هناك سيارات مركونة ـ من أنواع رودستر، كوبس، سيدان، وحتى الليموزين ـ وكانت كل السيارات لامعة وجديدة.

توقف أوجست أمام باب له فجوة. فطرق الباب بشدة ثم توقف وهو ينقر الأرض بقدمه. ثم انفتح ثقب باب مثلث الشكل، كاشفاً عن عينى رجل تحت حاجب واحد كث الشعر. كانت أصوات الحفل تتهادى إلينا من خلفه.

"نعم؟".

قال أوجست: "نحن هنا لمشاهدة العرض".

"أى عرض؟".

فقال أوجست باسماً: "عرض فرانكى بكل تأكيد".

أغلقت فتحة الباب. ثم سمع صوت نقر ورنين تبعه صوت سحب مزلاج لا تخطئه الأذن ثم فتح الباب.

تفحصنا الرجل سريعاً، ثم سمح لنا بالدخول. سرنا عبر بهو كسيت أرضيته بالبلاط، مروراً بنقطة تفتيش المعاطف وبها موظفون يرتدون زياً موحداً، ثم نزلنا عدة درجات نحو صالة الرقص التى كسيت أرضيتها بالرخام. ومن سقف الصالة تدلت ثريا من الكريستال محكمة الصنع. كانت

Amly نهضة العرب

الفرقة تعزف على رصيف مرتفع عن ساحة المرقص الذى كان يعج بأزواج من الراقصين؛ كانت الطاولات العادية والطاولات المقفلة على شكل حرف U تحيط بساحة الرقص. وعلى أرضية أعلى بدرجات، امتدت طاولة تقديم شراب خشبية بطول الحائط الخلفى وخلفها السقاة وقد ارتدوا حلل السهرة السوداء، وعلى الأرفف صُفَّت مئات من زجاجات الشراب أمام مرآة دخانية على الحائط.

انتظرت أنا ومارلينا عند إحدى الطاولات ذات الكسوة الجلدية بينما ذهب أوجست لإحضار المشروبات. كانت مارلينا تشاهد الفرقة، وساقاها معقودين وقدمها تهتز بشدة أيضاً. كانت تحرك قدمها بالاتساق مع الموسيقى، مديرة رسغ قدمها.

وُضِعَت كأس أمامى. وبعد ثانية، جلس أوجست بجوار مارلينا. تفحصت الكأس فوجدته يحتوى على مكعبات ثلج وشراب غريب الشكل.

قالت مارلينا: "هل أنت بخير؟".

فقلت: "لا بأس".

فتابعت: "تبدو مخضر اللون قليلاً".

فقال أوجست: "صديقنا جاكوب يعانى آثاراً سيئة للشراب. ونحن الآن نعالج هذه الأعراض بطريقة ناجعة".

فقالت مارلينا فى توجس وهى تعود بنظرها إلى الفرقة: "حسنا، أخبرنى إن احتاج الأمر لابتعادى".

رفع أوجست كأسه قائلاً: "نخب الصداقة".

عادت مارلينا ببصرها للطاولة لتحدد مكان كأسها الرقيق ثم تحمله بين يديها بينما كنا ننظر نحو كؤوسنا. كانت ترتشف شرابها ببطء وتلذذ من خلال أنبوب امتصاص، كانت تنقره بأظافرها المصقولة. صب أوجست كأس شراب لنفسه مرة أخرى. وصب الثانى من أجلى وحين لامس شفتىّ، صد لسانى تقدمه إلى جوفى بشكل غريزى. كان أوجست يراقبنى، ولذا تظاهرت بازدراده قبل أن أضع الكأس على الطاولة.

Amly نهضة العرب

"هكذا يا فتى. بضع كؤوس أخرى وستنساب كالمطر".

لم أكن أعلم ما طرأ عليّ بعد الشراب، لكن مارلينا ــ وبعد تناول كأس ثانية من الشراب ــ عادت لحيويتها ثانية، فجذبت أوجست لساحة الرقص. وبينما كان يدور بها في المرقص، ملت أنا على كأس وراحة يدى قابضة عليه وارتشفته.

عاد أوجست ومارلينا إلى الطاولة وقد احمر وجههما من آثار الرقص. تنهدت مارلينا وحركت الهواء أمام وجهها بقائمة الشراب للترويح عن نفسها. وأشعل أوجست سيجارة.

استقرت عيناه على كأسى الفارغ؛ فقال وهو ينهض: "أوه ــ أرى أننى أهملتك، هل تريد المزيد؟".

فقلت فى فتور: "أوه، لا بأس". أما مارلينا فأومأت بالإيجاب ببساطة، ثم عادت بتركيزها مرة أخرى نحو المرقص.

ابتعد أوجست بمقدار ثلاثين ثانية فهبت هى واقفة وجذبت يدى.

فقلت ضاحكاً وهى تجذب ذراعى: "ماذا تفعلين؟".

"هيا لنرقص!".

"ماذا؟".

"إننى أحب هذه الأغنية!".

"كلا ــ أنا ــ"

لكن تَمَنُّعِى كان بلا جدوى، فقد كنت بالفعل قد نهضت على قدمىّ فشدتنى إلى ساحة الرقص وهى ترقص على أنغام السوينج وتطرقع أصابعها. وحين دلفنا بين الأزواج الراقصين، استدارت نحوى. فأخذت نفساً عميقاً وضممتها بين ذراعى. انتظرنا لثوان ثم انطلقنا فى الرقص، منسابين بين أركان ساحة الرقص بين بحر من الراقصين.

كانت خفيفة كالنسيم ــ لم تسئ تقدير خطوة واحدة، وهذا يعد إنجازاً إذا أخذنا فى الاعتبار مدى سوء أدائى. ليس هذا لأننى لا أجيد الرقص،

Amly نهضة العرب

فأنا أجيده. لكننى لا أدرى ما الذى حل بى. وأنا على يقين من أن ذلك ليس بسبب الشراب.

دارت خارجة من إطار ذراعىّ ثم ارتدت إلىّ مارةً تحت ذراعى فلامس جسدها جسدى. واستقر باطن يدى على يدها، ولامست بشرتى بشرتها. كان صدرها يعلو ويهبط تحت ذراعى. ورأسها كان تحت ذقنى. وكان شعرها عطراً وجسدها دافئاً من الإجهاد. ثم دارت ثانية، فانسابت كالماء.

وحين توقفت الموسيقى، صاح الراقصون بالتصفيق والصفير وأيديهم فوق رؤوسهم. ولم يكن بين الجمع من هو أكثر من مارلينا حماسة وابتهاجا. فرمقت طاولتنا ببصرى. وكان أوجست ينظر إلينا وذراعاه معقودتان، وهو يغلى غيظاً. فابتعدت خطوات عن مارلينا ذعراً من نظرته.

"غارة!".

ساد الصمت التام للحظة قبل أن تنطلق صيحة أخرى.

"غارة! فليخرج الجميع!".

انجرفت وسط كتلة الأجساد المتصادمة. كان الناس يصرخون، ويدفعون بعضهم بعضاً بغية الوصول إلى المخرج. كانت مارلينا أمام بضعة أشخاص يفصلونها عنى، وكانت تنظر للخلف عبر الرؤوس المضطربة والوجوه اليائسة.

صرخت: "جاكوب! جاكوب!".

جاهدت للوصول إليها، دافعاً بجسدى بين الآخرين.

فأمسكت بيد وسط بحر من اللحم البشرى فعرفت أنها يد مارلينا من نظرة وجهها. فقبضت على يدها بشدة، وأنا أجول بين الناس ببصرى بحثا عن أوجست؛ لكن كل الوجوه كانت غريبة.

انفصلت عن مارلينا عند الباب. وبعد ثوان دُفِعْتُ إلى منعطف. كان الناس يصرخون ويحتشدون فى السيارات، وتدور المحركات، وتدوى الأبواق، وتصرخ أطر السيارات.

Amly نهضة العرب

"هيا! هيا! اخرج من هنا بسرعة!".

"تحرك!".

ظهرت لى مارلينا من حيث لا أدرى وأمسكت بيدى. ثم عدونا وأبواق الإنذار والصافرات تدوى فى كل مكان. وحين انتهى صوت إطلاق النار، نواريت بمارلينا فى منعطف أصغر.

قالت لاهثة: "توقف"، كانت تحاول الوقوف وهى تتقافز مرتكزة على قدم واحدة تحاول خلع الحذاء من الأخرى. ثم أمسكت بذراعى لتنزع الآخر، وقالت وهى تمسك زوج الحذاء بيد واحدة: "حسناً".

عاودنا العدو حتى ابتعد صوت الصافرات، والناس، وصرير الإطارات عن مسامعنا، ونحن نشق طريقنا خلال المنعطفات والشوارع الخلفية. وأخيراً، توقفنا تحت سلم نجاة، نلتقط أنفاسنا.

قالت مارلينا: "أوه، يا إلهى، يا إلهى، لقد أغلق ذلك المكان. لا أدرى إن كان أوجست قد خرج أم لا".

فقلت وأنا أحاول جاهداً التقاط الأنفاس: "آمل ذلك". ثم ملت للأمام وأنا أضع يدىّ على فخذى.

بعد لحظة نظرت إلى مارلينا. كانت تنظر نحوى مباشرة وهى تلهث من خلال فمها. ثم بدأت فى الضحك على نحو هيستيرى.

فقلت: "ماذا هناك؟".

قالت: "أوه، لا شىء. لا شىء على الإطلاق"، واستمرت فى الضحك ولكنه كان بكاء أقرب منه إلى الضحك.

قلت لها: "ماذا هناك؟".

قالت وهى تتنهد وتضع إصبعاً على زاوية عينها: "أوه، إنها حياة جنونية لعينة تلك التى نحياها، هذا كل ما فى الأمر. هل معك منديل؟".

فتشت فى جيوبى بحثاً عن منديل، ووجدت واحداً فأخذته ومسحت جبهتها ثم مرت به برفق على بقية وجهها. ثم قالت صارخة وهى تشير إلى قدميها الحافيتين: "أوه، إننى فى وضع مؤسف، انظر إلى جواربى".

Amly نهضة العرب

كانت أصابع أقدامها تبرز من الجوارب التى تآكلت، ثم قالت بصوت عال وغير طبيعى: "لقد كانت جوارب *حريرية*".

فقلت بلطف: "مارلينا؟ هل أنت بخير؟".

وضعت يدها على فمها وبدأت فى البكاء. أمسكت ذراعها لكنها استدارت للحائط. توقعت أن تبقى متجهة للحائط بعض الوقت، لكنها بدلاً من ذلك استمرت فى الدوران كالدراويش. وفى ثالث لفة لها، ضممتها بين ذراعى. فتجمدت، ولهثت تلتقط الهواء. وبعد لحظة بدأت تلين وارتفعت بأطراف أصابعها إلى وجهى. نزعت نفسها سريعاً، وقد تراجعت بضع خطوات للوراء، وحدقت فىّ بعينين جريحتين.

قالت بصوت متهدج: "جاكوب. أوه، يا إلهى ـ جاكوب".

تقدمت نحوها ثم توقفت قائلاً: "مارلينا. إننى آسف للغاية. ما كان لى أن أفعل ذلك".

ظلت تحدق فىّ ويدها على فمها. وكانت عيناها مظلمتين وخاويتين. ثم استندت للحائط، وانتعلت حذاءها وهى تنظر إلى الأسفلت.

رفعت يدى باتجاهها فى يأس وقلت: "مارلينا، أرجوك".

عدلت وضع طرف حذائها الآخر وانطلقت منصرفة. كانت تتعثر وتترنح وهى تتقدم للأمام.

جريت لعدة خطوات وقلت: "مارلينا!".

فزادت فى سرعة سيرها وهى ترفع يدها أمام وجهها، متحاشية نظرى إليها.

توقفت.

واستمرت فى نقر الأرض بقدمها وهى تسير فى المنعطف.

"مارلينا، أرجوك".

وظللت أراقبها حتى دارت عند المنعطف، ويدها كما هى على وجهها تحسباً من أكون فى أثرها.

Amly نهضة العرب

استغرقت عدة ساعات كى أجد طريقى للساحة.

مررت بأناس يتلكئون عند أبواب البيوت، ولافتات طوابير خبز. ومررت بلافتات على النوافذ كتب عليها "مغلق". وبدا واضحاً أن الإغلاق ليس لهذا اليوم فحسب، ولافتات أخرى تقول لا حاجة لدينا لعمالة. ولافتات فى نوافذ أدوار علوية من البنايات تقول تدرب على صراع الطبقات.

ومررت بلافتة على محل بقالة تقول:

ليس لديك مال؟

لماذا لديك؟

إننا ناخذ أى شىء فى المقابل!

ومررت على صندوق صحف فقرأت الخبر الرئيسى بالجريدة، وكان يقول: **بريتى بوى فلويد يهاجم من جديد: سرق أربعة آلاف دولار وسط تشجيع من الجماهير.**

وعلى مسافة أقل من ميل من الساحة، مررت بمعسكر للمشردين الذين أشعلوا ناراً وانتشروا حولها. كان بعضهم مستيقظاً، وقد جلس يحدق فى النار أمامه. والبعض الآخر كان مستلقياً على ظهره وقد وضع تحت رأسه ملابس مطوية. وقد اقتربت بما يكفى حتى رأيت وجوههم وأدركت أن معظمهم من الشباب الصغار ـ بل هم أصغر منى. كان بينهم بعض الفتيات أيضاً، ورأيت زوجين منهم يتعانقان. لم يختفيا بين الشجيرات، بل اكتفيا بالابتعاد قليلاً عن النار وعن الناس الآخرين. كان غلام أو اثنان منهم ينظران بغير مبالاة. وكان أولئك النائمون منهم قد خلعوا أحذيتهم، إلا أنهم ربطوها إلى كاحل أقدامهم.

كان هناك رجل عجوز يجلس بجوار النار، كان فكه مغطى بالجذام أو بالجرب أو بكليهما. كان وجهه غائراً بما يشير لخلو فمه من الأسنان. تلاقت أبصارنا وثبتت لوقت طويل. وتساءلت عن السبب فى نظرته إلىّ بتلك العدائية الواضحة إلى أن تذكرت أننى كنت أرتدى حلة سهرة. لم يكن يعلم أن هذه الحلة هى الشىء الوحيد الذى يميزنا عن بعضنا. وكنت سأخوض فى جدال غير منطقى إن حاولت شرح الأمر؛ فتابعت طريقى.

Amly نهضة العرب

وحين عدت أخيراً إلى الساحة، توقفت وتأملت فى خيمة الحيوانات كانت ضخمة وبارزة فى السماء الحالكة. وبعد دقائق، وجدت نفسى واقفا أمام روزى. كنت أرى صورتها على هيئة كتلة سوداء، وحين اعتادت عينى على الضوء أدركت أنها نائمة. كان جسدها الضخم ساكناً تماما إلا من أنفاسها الهادئة. أردت أن ألمسها وأن أضع يدى على جلدها الخشن الدافئ؛ لكنى خشيت إيقاظها.

كان بوبو يرقد فى زاوية قفصه، وقد وضع إحدى يديه على رأسه والأخرى على صدره. كان يتنهد بعمق ويلامس شفتيه ببعضهما، ثم يدور على جنبه. إنه أقرب إلى إنسان نائم.

فى النهاية اتجهت عائداً إلى عربة الخيول واستقررت على فراشى وكان وولتر وكوينى نائمين فى لحظة وصولى.

ظللت مستلقياً دون نوم حتى بزوغ الفجر، أستمع إلى غطيط كوينى وأشعر ببؤس لا حد له. قبل أقل من شهر كنت على بعد أيام من أن أحصل على درجة جامعية من إحدى الجامعات العريقة وبداية العمل مع أبى، أما الآن فأنا على بعد خطوة من أن أصبح عاملاً ــ عامل سيرك ألحق بنفسه الخزى؛ ليس مرة واحدة بل مرتين فى يومين متتاليين.

بالأمس لم أكن أتصور أن ذروة مما يمكننى فعله هو التقيؤ فى وجه نيل، لكن ليلة أمس أدركت أنى لم أفعل سوى ذلك. ما تلك الحماقة التى كنت أفكر فيها؟

وتساءلت عما إذا كانت قد أخبرت أوجست. لدىّ الآن تصورات قد تكون قريبة الحدوث لخطاف فيل يهوى على رأس أحدهم، وتصورات أخرى أقرب بأن أنهض الآن، وفى هذه اللحظة، لأعود إلى معسكر المشردين. لكننى لم أفعل. فلا أتصور فكرة ابتعادى عن روزى وبوبو وغيرهما من الحيوانات.

Amly نهضة العرب

ساجمع شتات نفسى، وسأمتنع عن الشراب، وسأتحاشى الانفراد بمارلينا تماماً. وأذهب للصلاة فى دار العبادة.

اتخذت ركن وسادتى ممسحة لدموع عينى، ثم أغمضتهما بعنف واستحضرت أمامى صورة أمى، حاولت تثبيت الصورة بمخيلتى، لكن بعد قليل حلت صورة مارلينا محلها. فاستعدت صورة مارلينا وهى باردة تماماً، أثناء مشاهدتها للفرقة وهى تهز قدمها. وحين كانت متوهجة حين كنا ندور فى حلبة الرقص. ثم حين كانت فى حالة هيستيريا ــ ثم فى حالة الفزع ـ التى كانت فى المنعطف.

لكن أفكارى بعد ذلك نحوها تحولت لتكون حسية، تذكرت استقرار باطن ذراعى فوق ذراعها. تذكرت تلك اليد الناعمة وتلك الحركة الصغيرة التى لا أفهم لها تفسيراً ولا يمكننى استبيانها، تلك الحركة التى اندفعت بعدها إلى النوم: إنها حركة أطراف أصابعها وهى تتلمس ملامح وجهى.

أيقظنى كينكو ـ أقصد وولتر ـ بعد عدة ساعات.

قال وهو يهزنى: "مرحباً أيها الفتى الحالم، استيقظ فقد ارتفع العلم".

فقلت دون أن أتحرك: "حسناً، شكراً لك".

"لكنك لم تنهض بعد".

"إنك عبقرى بالفعل، كيف علمت ذلك؟".

ارتفع صوت وولتر مقدار درجة وهو يقول: "مرحى، كوينى ــ تعالى يا فتاتى! تعالى هنا! كوينى، هيا العقيه بلسانك، هيا!".

فقلت: "كفى، كفى الآن عن هذا"، ورفعت ذراعى مدافعاً به لأن كوينى بدأت تلعق أذنى بلسانها وترقص فوق وجهى.

لكن كوينى لم تكن لتكف، ولذا تحركت نحو الاعتدال جالساً فطارت كوينى إثر تحركى إلى الأرض؛ فنظر إلىّ وولتر وضحك. تكومت كوينى فى حجرى ثم وقفت على قدميها الخلفيتين، وبدأت تلعق ذقنى ورقبتى.

Amly نهضة العرب

فقال وولتر: "فتاة طيبة يا كوينى، أنت فتاة طيبة. حسناً يا جاكوب ـ يبدو أنك صادفت مساءً مثيراً... آخر".

فرددت عليه: "ليس بالضبط". وحيث إن كوينى كانت قد استقرت فى حجرى على أية حال، فقد بدأت أنا بالمسح عليها. كانت تلك أول مرة تسمح لى بلمسها، كان جسدها دافئاً وشعرها شبيهاً بالسلك.

"ربما تقيأت الآن. فقم لتناول إفطارك. فالطعام سيساعد على تهدئة معدتك".

"إننى لم أكن أشرب".

فنظر إلىّ للحظة ثم قال وهو يومئ فى دلالة فهم: "آه".

فقلت: "ما الذى يعنيه ذلك؟".

فقال: "متاعب نسائية".

فقلت: "ليس الأمر كذلك".

"بل هو كذلك".

"لا، ليس كذلك".

"إننى متعجب حقاً لأن باربرا قد سامحتك بالفعل، أليس كذلك؟"

وراقب واجهى لثوان ثم تابع إيماءه وهو يقول: "آه ـ ها. أظننى أدركت الأمر. إنك لم ترسل الزهور إلى باربرا، أليس كذلك؟ يجدر بك أن تبدا بالاهتمام بنصائحى".

فقلت بسرعة وأنا أضع كوينى على الأرض وأنهض: "لم لا تهتم بشئونك الخاصة؟".

"ششش، إنك عصبى لأقصى حد، هل تلاحظ ذلك؟ هيا بنا لنتناول الطعام".

بعد أن ملأنا أطباقنا، حاولت أن أتبعه إلى طاولته.

فقال وهو على وشك التوقف: "ماذا تظن نفسك فاعلاً؟".

"كنت أفكر فى الجلوس على طاولتك".

نهضة العرب Amly

"لا يمكنك ذلك؛ فلكل مكانه المحدد. فضلاً عن أنك بهذا تتدنى بوضعك".

فترددت.

فقال: "ما خطبك على أى حال؟"، ثم نظر إلى طاولتى المعتادة. كان أوجست ومارلينا يأكلان فى صمت، ويحدقان فى طبقيهما. فطرف وولتر بجفن عينه.

قال: "أوه، يا رجل ـ لا تقل إن الأمر على هذا النحو".

فقلت: "إننى لم أقل لك أى شيء".

"لست فى حاجة لإخبارى. اسمع يا فتى، هناك مكان لا تريد التوجه إليه على نحو محدد، هل تسمعنى؟ هذا من باب أمنياتك، أما من باب الواقع فعليك أن تتجه إلى الطاولة وتتصرف بالشكل المعتاد".

فنظرت ثانية نحو أوجست ومارلينا. كانا يتجاهلان بعضهما على نحو واضح.

قال وولتر: "اسمعنى يا جاكوب، إن هذا الرجل هو أحقر إنسان قابلته فى حياتى، لذا فمهما حدث ــ"

"لن يحدث شيء. بالقطع لن يحدث ــ"

" ــ يحسن بك التوقف الآن وإلا وقعت فيما لا تريد حدوثه. فإما أن تلقى من القطار مع مرور أول إشارة حمراء، إن كنت محظوظاً، لكن فى الغالب ستلقى من فوق جسر. إننى أعنى ما أقول. اذهب الآن واجلس على الطاولة".

فحملقت فيه بغضب.

فقال وهو ينقر بيده نحو الطاولة: "اللعنة".

نظر أوجست نحوى وأنا أقترب.

فصاح: "جاكوب، إننى سعيد لرؤيتك. لم أكن واثقاً من قدرتك على العودة ليلة أمس. وما كان المشهد ليبدو لطيفاً أبداً لو اضطررت لدفع كفالة لإخراجك من السجن. كان هذا سوف يعرضنى للإحراج من قبل الشرطة".

Amly نهضة العرب

فقلت وأنا أتخذ مجلسي: "لقد كنت أنا أيضاً قلقاً عليكما".

فقال باستغراب مبالغ فيه: "حقاً؟".

نظرت إليه فإذا عيناه متوهجتان، وقد ابتسم على نحو غريب.

ثم قال وهو يرمى مارلينا بنظراته: "أوه، لكننا وجدنا طريقنا للعودة فى نهاية المطاف، أليس كذلك يا حبيبتى؟ لكن أخبرنى يا جاكوب كيف أمكنكما بأى حال أن تنفصلا عن بعضكما، وقد كنتما *قريبين*... جداً على حلبة الرقص".

فنظرت إليه مارلينا، وقد بدت على وجنتها بقع حمراء متوهجة، وقالت: "لقد أخبرتك ليلة أمس بأننا دفعنا الزحام عن بعضنا البعض".

فقال أوجست وهو يحمل قطعة خبز محمص وقد ارتسمت على شفتيه المضمومتين ابتسامة عريضة متكلفة: "إننى أوجه سؤالى إلى جاكوب يا عزيزتى، لكن شكراً لك على أية حال".

فقلت وأنا ألتقط شوكتى وأدفع بها تحت البيض: "كان هناك صدام كبير، وحاولت ملاحقتها لكننى لم أستطع. بحثت عن كليكما فى الخلف لفترة، لكن بعد فترة وجدت أنه يجدر بى المغادرة".

"قرار حكيم يا فتى".

فسألته وأنا أرفع الشوكة إلى فمى محاولاً أن أكون طبيعياً: "هل تمكنتما من التلاقى إذن؟".

"لا، لقد وصلنا فى سيارتَىْ أجرة كلٌ على حدة. لقد كانت أجره مضاعفة، لكننى على استعداد لأدفع قدرها مائة مرة لأتأكد من سلامة زوجتى الحبيبة ـ أليس كذلك يا حبيبتى؟".

حدقت مارلينا فى طبقها.

"لقد قلت أليس كذلك يا حبيبتى؟".

فردت ببرود: "نعم بالطبع، ستفعل ذلك".

Amly نهضة العرب

"إننى لو ظننت أن أى خطر يحيط بها فلا أحد يعلم ما يمكننى فعله ساعتها".

نظرت لأعلى سريعاً، فإذا بأوجست ينظر نحوى تماماً.

الفصل الثانى عشر

تسللت إلى خيمة الحيوانات دون لفت الانتباه إلىّ قدر المستطاع.

بدلت كمادة عنق الزرافة، وقمت بوضع قدم جمل فى الماء البارد يشتبه بورم حافره، ونجوت بحياتي خلال أول تعامل لى مع الوحوش — فقد عالجت ريكس من مخلب انغرز في لحمه، بينما كان كليف يمسح على رأسه. ثم عمدت إلى اصطحاب بوبو معى أثناء فحصى بقية الحيوانات. وكانت مجموعة الحيوانات الوحيدة التى لم أمر عليها هى تلك التى بعربة الأمتعة، وهذا لأنها فى عمل دائم، وقد أوصيت أحدهم بأن يخبرنى حال ظهور أى شيء عليها.

وبانتهاء الصباح، وجدت نفسى لا أزيد عن كونى أحد عمال خيمة الحيوانات: أنظف الأقفاص، وأقطع الطعام، وأجرف الروث كبقية الرجال. كان قميصي مشبعاً بالعرق، وكان حلقى جافاً من الظمأ. وحين ارتفع العلم أخيراً، اندفعت أنا ودياموند جو وأوتس مجهدين نحو تلك الخيمة الضخمة متجهين إلى خيمة الطعام.

اندفع كليف بخطوات واسعة ليرافقنا.

ثم قال: "ابتعدوا عن أوجست قدر الاستطاعة؛ فهو فى قمة غضبه الآن".

فقال جو: "ولماذا؟ ماذا حدث؟".

Amly نهضة العرب

"إنه يغلي غضباً لأن العم آل يريد مشاركة الفيل في الاستعراض هذا اليوم، وهو الآن يصب جام غضبه على كل من يقابله؛ مثل ذلك الرجل المسكين هناك"، وأشار نحو ثلاثة رجال يعبرون الميدان.

كان ميل وجريدى يسحبان كاملاً عبر الساحة إلى الفلاينج سكوادرون وكان هو متعلقاً بهم، وساقاه تتجرجران خلفه.

فملت على كليف وقلت: "أيكون أوجست هو من فعل ذلك به؟".

فقال كليف: "لا، لكنه وجه إليه السب والتقريع. رغم أننا لم نتجاوز ظهر اليوم حتى الآن، إلا أن حالته المزاجية لا تطاق بالفعل، لكن ذلك الرجل الذى نظر إلى مارلينا ـ وووووىىى، لن يكرر خطأه هذا ثانية الآن"، وهز كليف رأسه.

قال أوتس: "إن تلك الفيلة اللعينة لن تصلح للعرض اليوم أبداً. إنه لا يستطيع حتى تسييرها في خط مستقيم من العربة إلى خيمة الحيوانات".

فقال كليف: "إننى أعلم ذلك، وأنت تعلمه، لكن يبدو أن العم آل هو من لا يعلم بذلك".

فسألت: "ولماذا يصر العم آل على تسييرها فى العرض؟".

قال كليف: "لأنه ظل طوال حياته يحلم بالقول "احجز الخيول! فها قد جاءت الفيلة!"".

فقال جو: "هذا القول محض هراء، فما من خيول يمكن حجزها هذه الأيام وما من فيلة لدينا؛ بل هى فيلة واحدة".

فسألت: "ولماذا يود ترديد هذه العبارة بشكل ملح هكذا؟".

فاستداروا يحدقون فيّ جميعاً.

ثم قال أوتس فى النهاية: "سؤال جيد". رغم أن ما بدا عليه أنه يظن ـ بسبب سؤالى هذا ـ مختلاً، ثم تابع: "هذا لأن رينجلنج يقول هذه العبارة؛ فهو بالطبع يملك أفيالاً".

نظرت من بعيد فوجدت أوجست يحاول تسوية روزى فى صف عربات الاستعراض، وكانت الخيول تقفز فى كل اتجاه وتتحرك

Amly نهضة العرب

مصبية فى إطار العربة المشدودة إليها. وكان سائقو العربات يشدون الجمتها بقوة، ويصيحون صيحات تحذير. وكانت النتيجة أن سرت عدوى الفزع بين بقية الحيوانات، فما هو إلا وقت قصير حتى كان الرجال يطودون الحمر الوحشية واللامات ويجاهدون هم أيضاً للسيطرة على تلك الحيوانات.

بعد عدة دقائق، اقترب العم آل وهو يومئ ويتلفظ بكلام عنيف تجاه روزى، كان يتحدث صاخباً دون أن يتوقف عندها. وحين توقف أخيراً عن سيل سخطه، بدأ أوجست ما انتهى عنده العم آل وهو يلوح نحوها بخطافه ويلكزها فى كتفها لكى تستقيم فى الصف. استدار العم آل نحو رفاقه فأسرع اثنان منهم بالعدو خلال الساحة.

وبعد وقت قصير، أصبحت عربة فرس النهر بجوار روزى، كان يجرها ستة خيول يشك المرء فى أنها من نوع البرشورن؛ ففتح أوجست الباب وظل يضرب روزى حتى دخلت.

وبعد قليل، نفخ أحدهم مزماراً، وبدأ الاستعراض.

عادوا بعد ساعة وفى أعقابهم جمهور ضخم. فقد تجمع أهل المدينة حول أطراف الساحة، وقد ازدادوا عدداً بشكل كبير.

تم اقتياد روزى إلى نهاية الحلبة الكبرى، التى كانت موصلة بخيمة الحيوانات، ثم اقتادها أوجست إلى داخل الخيمة نحو المنطقة المخصصة لها. وما هى إلا لحظات حتى كانت خلف سور الحبال وقد قُيِّدت من إحدى أرجلها إلى وتد وتم فتح خيمة الحيوانات أمام الجمهور. راقبتها فى وجل وقد ازداد حولها الأطفال والكبار على حد سواء. لقد نالت الجماهيرية الكبرى بسهولة. كانت أذناها الكبيرتان ترفان للأمام وللخلف وهى تتلقى من الجمهور المبتهج الحلوى والفشار وحتى اللبان. وقد تشجع أحدهم ومال للأمام وأفرغ كيساً كاملاً من الفشار فى فمها المفتوح. وقد كافأته بأن نزعت قبعته ووضعتها على رأسها. ثم اتخذت وضعا مظهرياً وقد رفعت فيه خرطومها منثنياً فى الهواء. فضج الجمهور بالصياح ثم

Amly نهضة العرب

أعطت الرجل المبتهج قبعته فى هدوء. وقد وقف أوجست بجوارها مبتسماً ابتسامة أب فخورٍ بولده.

لكن هناك أمراً ما. لقد اتضح أن روزى ليست حيواناً غبياً على الإطلاق.

وبينما كانت الدفعات الأخيرة من الجماهير تتدفق إلى الحلبة الكبرى والعارضون يصطفون فى تأهب للعرض الكبير، جذب العم آل أوجست جانباً. ورأيت من خلال خيمة الحيوانات فم أوجست ينفتح صدفة، ثم غضباً، ثم تذمراً صاخباً أثناء حديثهما معاً. امتقع وجه أوجست وهو يلوح بقبعته وخطافه. كان العم آل ينظر فى صمت تام. وفى النهاية رفع يده، وهز رأسه، ثم مضى وأوجست يحدق نحوه مصدوماً.

فقلت لـ بيت: "ماذا فى ظنك قد دار بينهما؟".

فقال بيت: "الله أعلم. لكننى أظن أننا سنعلم جميعاً ما دار بينهما".

لقد اتضح أن العم آل قد سُرَّ بالشعبية التى اكتسبتها روزى فى خيمة الحيوانات ما دفعه للإصرار ليس فقط على مشاركتها فى العرض بل تخصيص فاصل خاص بها فى الحلبة الكبرى بمجرد أن يبدأ العرض. وفى الوقت الذى كانت تنتشر فيه تلك الأخبار، أصبح الأمر محل مراهنات محتدمة بين الرجال فى المؤخرة.

لكن كان جل تفكيرى متعلقاً بمارلينا.

اتجهت مسرعاً إلى حيث اصطف العارضون وأدوات الحلبة خلف الحلبة الكبرى استعداداً للعرض. كانت روزى تتقدم طابورهم. وقد استقرت مارلين على رأسها مباعدة بين قديمها، كانت ترتدى لباسها الوردى، وأمسكت برباط عنق روزى الجلدى قبيح المنظر. ووقف أوجست بجانبها، مغتم الوجه، وهو يبادل بين أصابع يديه والتقاط ودفع الخطاف.

هدأت الفرقة الموسيقية وقام العارضون بتعديلات نهائية على أزيائهم، وقام سائسو الحيوانات بإلقاء نظرة أخيرة على ما فى عهدتهم من حيوانات. وبعد ذلك بدأت موسيقى العرض الكبير.

Amly نهضة العرب

مال أوجست للأمام وصرخ فى أذن روزى. فترددت قليلاً، وهو ما دفع أوجست لوخزها بخطافه. فاندفعت مسرعة عبر الفتحة الخلفية للحلبة الكبرى. فمالت مارلينا فى وضع مسطح لتفادى الاصطدام بالدعامة العرضية فى قمة الفتحة.

فتدافعت أنفاسى وعدت للأمام، ملتفاً مع أطراف الحائط الجانبى الحلبة.

توقفت روزى على بعد عشرين قدماً تقريباً من مضمار الخيل. وقد غيرت مارلينا وضعها بشكل لا يصدق؛ ففى دقيقة كانت تنام بشكل مسطح وهى فى وضع انحدار على رأس روزى، ثم جذبت نفسها لأعلى، واستدارت مبتسمة، وقد دفعت بإحدى ذراعيها فى الهواء، كان ظهرها مقوساً وأصابع قدمها ممتدة للأمام. جن جنون الحاضرين، ووقفوا على المدرج يصفقون ويصفرون ويرمون بحبات الفول عبر ساحة العرض.

ظهر أوجست على الحلبة. ورفع الخطاف عالياً ثم توقف. أدار رأسه ودار بعينيه بين الجمهور. تدلى شعره على جبهته، وابتسم وهو يخفض الخطاف، وينزع قبعته. ثم انحنى للجمهور عدة مرات وهو يقصد كل مرة قسماً مختلفاً من الجمهور. وحين عاد بوجهه إلى روزى، تصلب وجهه ثانية.

وعبر تعريض الخطاف حول إبطيها وسيقانها، استطاع إقناعها بأن تقوم بجولة حول مضمار الخيول. فساروا فى اضطراب بين الحركة والتوقف، ومع توقفهم الكثير، أجبر بقية العرض على الاستمرار فى الأداء وقد تباعدوا عنهم كالحجارة وسط الماء.

أعجب الجمهور بما يجرى. ففى كل مرة تعدو فيها روزى نحو أوجست ثم تقف، يضج الجمهور بالضحك، وكلما اقترب منها أوجست، محمر الوجه، ملوحاً بخطافه، زاد الجمهور فى طربه. وفى النهاية وبعد إتمام ثلاثة أرباع المسافة حول المضمار، عقفت روزى خرطومها وانطلقت تعدو نحو الفتحة الخلفية للحلبة مطلقة سيلاً من الغازات فى إثرها بصوت

Amly نهضة العرب

هائل. اندفعت إلى جوار المدرجات على يمين المدخل مباشرة. وكانت مارلينا تمسك بزمام رأس روزى بكلتا يديها، وحين اقتربا، حبست أنفاسى. فإذا لم تتحرر مارلينا فسوف تسقط.

وعلى بعد قدمين من المدخل، تركت مارلينا زمام روزى ومالت بشدة لليسار. اختفت روزى فى الخيمة، وتعلقت مارلين على عارضة المدخل سكت الجمهور تماماً وهم غير واثقين بأن ذلك جزء من العرض.

كانت مارلينا تتعلق بالعارضة فى ترنح، على بعد أقل من بضعة أقدام منى. كانت تلتقط أنفاسها بصعوبة وقد أغلقت عينيها وطأطأت رأسها لأسفل. وبينما كنت أهم بالتقدم لحملها وإنزالها أرضاً، فتحت عينيها ورفعت يدها اليسرى عن العارضة، وفى حركة رائعة تأرجحت على العارضة فواجهت الجمهور.

ابتهج وجهها ومدت أصابع قدميها. فأشار قائد الفرقة وهو يراقب المشهد من مكانه بدق الطبول. وبدأت مارلينا فى التأرجح على العارضة.

تصاعد صوت الطبول بينما كانت هى تكتسب بعض الوقت، وبعد قليل وسعت مدار أرجحتها حتى وازت الأرض بجسدها. وتساءلت فى نفسى إلى متى ستثبت على هذا الوضع وفى الوقت ذاته أفصحت هى عن خطتها حين تركت هى العارضة بشكل مفاجئ. سبحت عبر الهواء، وقد لفت جسدها مثل كرة ودارت للأمام مرتين. ثم بسطت جسدها وهى تدور دورة أخرى جانبية، وهبطت بثبات وسط ثوران لنشارة الخشب على أرضية الحلبة. نظرت تحت قدميها، ثم استقامت، وبسطت كلتا ذراعيها فى الهواء. فعزفت الفرقة لحن الانتصار وجن جنون الجمهور مما رأى. وبعد لحظات اندفع سيل العملات على أرضية المضمار.

بمجرد أن استدارت مارلينا، أدركتُ أنها قد أوذيت؛ فقد خرجت من الحلبة وهى تعرج بقدمها فاندفعت خلفها.

قلت: "مارلينا ــ"

Amly نهضة العرب

فاستدارت وانهارت نحوى. فالتقطتها من خصرها، محاولاً حفظ اتزانها.

واندفع أوجست خارجاً من الحلبة وهو يقول: "حبيبتى ـــ حبيبتى! لقد كنت رائعة!! إننى لم أر شيئاً كهذا من قبل ـــ"

ثم توقف فى جمود حين لاحظ ذراعى حولها.

ثم رفعت رأسها وبدأت تتأوه.

فتبادلت مع أوجست النظرات ثم التحم ذراعانا تحتها وخلفها ككرسى. كانت مارلينا تئن وقد مالت على كتف أوجست. ثم رفعت قدميها اللتين ارتدت عليهما خفاً خفيفاً وجعلت تمسك بعضلاتهما وهى تتألم.

ضم أوجست فمه إلى شعرها وهو يقول: "لا بأس عليك يا حبيبتى، لا بأس. أنا معك الآن. ششش... لا بأس أنا معك".

فسألته: "أين يجب أن نذهب الآن؟ هل نتجه إلى خيمة الملابس؟".

"ليس بها مكان لتستلقى فيه".

"إلى القطار إذن؟".

"إنه بعيد جداً. فلنذهب إلى خيمة المتعة".

"عند باربرا؟".

رمقنى أوجست بنظرة حادة من فوق رأس مارلينا.

دخلنا غرفة باربرا دون تنبيه. كانت تجلس على كرسى أمام طاولة زينتها وترتدى قميصاً داخلياً أزرق اللون وتدخن سيجارة. وقد تلاشى عنها شعور الملل حال رؤيتنا.

فقالت وهى تطفئ سيجارتها وتنهض نحونا: "أوه، يا إلهى. ما الأمر؟"، ثم قالت وهى تفسح الطريق أمامنا: "هنا، ضعوها هنا على السرير، نعم هنا تماماً".

وحين وضعنا مارلينا على الفراش، استدارت على جنبها ممسكة بقدميها.

Amly نهضة العرب

"قدمى ـ"

قالت باربرا: "لا بأس يا جميلتى؛ سيكون الأمر على ما يرام. كل شئ سيكون على ما يرام"، ثم انحنت تحل رباط نعل مارلينا.

"أوه، يا إلهى، إنها تؤلمنى..."

قالت وهى تنظر إلىّ: "أحضر المقص من الدرج العلوى".

وحين عدت بالمقص، قطعت به باربرا أربطة أصابعها وحلتها من حول ساقيها. ثم حملت قدميها ووضعتهما فى حجرها.

ثم قالت: "اذهب إلى المطبخ وأحضر بعض الثلج".

بعد ثانية، كانت هى وأوجست يحدقان نحوى.

فقلت: "سآتيكم فى لحظات".

اتجهت مهرولاً نحو المطبخ وبينما أنا فى طريقى سمعت العم آل يهتف من خلفى: "جاكوب! انتظر!".

ثم قال: "أين هما؟ أين ذهبا؟".

فقلت لاهثاً: "إنهما بخيمة باربرا".

"ماذا؟".

"خيمة المتعة".

"لماذا؟".

"لقد أصيبت مارلينا، وأنا ذاهب لإحضار الثلج".

فاستدار وصاح بأحد تابعيه: "اذهب أنت وأحضر الثلج. وخذه إلى خيمة المتعة. هيا اذهب"، ثم عاد بنظره نحوى وقال: "أما أنت، فاذهب وأعد ذلك الفيل اللعين قبل أن يتسبب فى طردنا من المدينة".

"وأين ذهبت؟".

"إنها تأكل الكرنب بحديقة خلفية لأحد الأشخاص. ويبدو أن الأمر لا يرضى سيدة المنزل. إن البيت فى غرب الساحة. اذهب وأخرجها من هناك قبل أن تأتى الشرطة".

Amly نهضة العرب

كانت روزى تقف وسط قطعة أرض مزروعة بالخضراوات وقد دهست إلى ما فيها، وكانت تمد خرطومها بين خطوط الأرض فى تكاسل. حين اقتربت منها، نظرت إلى عينى مباشرة واقتلعت ثمرة كرنب أرجوانية اللون وقذفت بها فى فمها، ثم أخذت تبحث عن الخيار.

فتحت السيدة صاحبة المنزل الباب بزاوية ضيقة وصاحت عبرها: "أخرج هذا الشيء من هنا، أخرجه فوراً".

فقلت لها: "نحن آسفون يا سيدتى، سأفعل ما بوسعى لإخراجها".

وقفت عند كتف روزى وقلت: "هيا يا روزى، هيا أرجوك".

لوحت بأذنها للأمام وتوقفت ثم بدأت فى البحث عن الطماطم.

فقلت: "لا. أنت فيل شرير!".

ألقت روزى بثمرة طماطم فى فمها، وابتسمت وهى تلوكها. كان من الواضح أنها تبتسم سخرية منى.

قلت وقد أسقط فى يدى: "أوه، يا إلهى".

لفت روزى خرطومها حول بعض اللفت الأخضر واقتلعته من الأرض. ثم ألقته فى فمها وبدأت تطحنه وهى لا تزال تنظر نحوى. فاستدرت وابتسمت فى يأس لصاحبة المنزل التى كانت تحدق فى المشهد بتعجب.

ثم اقترب رجلان من الساحة، كان أحدهما يرتدى حلة، وقبعة مستديرة، وعلى وجهه ابتسامة. وقد تنفست الصعداء حين أدركت أنه أحد أفراد فرق الصيانة. كان الرجل الآخر يرتدى ملابس قذرة ويحمل معه دلواً.

قال الرجل وهو ينتقى بعناية مكان خطواته خلال الحديقة المدمرة: "مساء الخير يا سيدتى". كانت الحديقة من حوله تبدو كأنها قد اجتاحتها دبابة. صعد الرجل درجات السلم الإسمنتية الخاصة بالباب الخلفى للمنزل وقال: "أرى أنك قد قابلت روزى، أضخم وأروع فيل فى العالم. إنك محظوظة بالفعل؛ فهى عادة لا تلبى الدعوات المنزلية".

كان وجه المرأة لا يزال فى فرجة الباب المفتوحة وقالت فى بلاهة: "ماذا؟".

Amly نهضة العرب

ابتسم الرجل ابتسامة مشرقة وقال: "أوه، نعم. إنه شرف بكل تأكيد أن تزورك روزى؛ فإننى على استعداد للمراهنة على أن كل من فى الجوار لديك ــ بل كل من فى المدينة لا يمكنهم القول بأنهم شاهدوا فى حدائقهم فيلاً. إن رجالنا سيقومون بصرفها عن المكان ــ وبالطبع سنقوم بإصلاح الحديقة وتعويضك عن خسائر المحصول التالف أيضاً. هل تودين أن نلتقط لك صورة مع روزى؟ حتى ترينها للأصدقاء والعائلة؟".

فتمتمت المرأة قائلة: "أنا... أنا... ماذا؟".

فقال الرجل بانحناءة خفيفة جداً: "إذا أذنت لى سيدتى، ربما كان من الأيسر لنا مناقشة الأمر برمته بالداخل".

وبعد وقفة تردد، فتح الباب واختفى الرجل داخل المنزل. واستدرت ثانية نحو روزى.

كان الرجل الآخر يقف أمامها مباشرة حاملاً دلوه.

وكانت روزى منتشية فى عالمها الخاص، فحامت حول فوهة الدلو، تشمشم فيه محاولة إيجاد طريق من خلال ذراعى الرجل إلى السائل بداخله.

فهشها الرجل بعيداً وقال: "*بريزيستان. ناى*".

فاتسعت حدقتا عينى حين سمعت عبارته.

فقال الرجل: "ماذا بك؟".

فقلت سريعاً: "لا، لا شىء، لكننى بولندى أيضاً".

فقال الرجل وهو يبعد الخرطوم الفضولى: "أوه، أنا آسف"، ثم مسح يده فى جنبه ومدها مصافحاً: "اسمى جريزجوريس جرابويسكى. ويمكنك مناداتى جريج".

فقلت له وأنا أصافحه: "جاكوب جانكوسكى"، ثم نزع يده سريعاً ليدافع عن محتويات دلوه وقال وهو يدفع الخرطوم العنيد: "*ناى! تيراز ناى!* جاكوب جانكوسكى، هه؟ لقد أخبرنى كامل عنك".

فسألته: "ماذا فى الدلو؟".

Amly نهضة العرب

فقال "شراب جين آند جنجر آل".

"إنك تمزح".

"إن الأفيال تحب الكحول. هل تفهم؟ لو ارتشفت من هذه رشفة واحدة فستنسى أمر الكرنب تماماً"، ثم أخذ يهش بالدلو خرطوم روزى ويقول: "بودزياتم برزستان! بو زنجى!".

"وكيف عرفت ذلك؟".

"إن آخر سيرك عملت فيه كان به درزينة من الفيلة. وكان أحدهم يتظاهر كل ليلة بإصابته بمغص فى بطنه لكى يحصل على جرعة من الخمر. يجدر بك أن تحضر خطاف الفيلة أليس كذلك؟ إنها فى الغالب ستتبعنا إلى الساحة لمجرد رغبتها فى الحصول على هذا الشراب ــ أليس كذلك؟ *موج مالوتكى باكزوشرك؟* ــ لكن من الأفضل أن تحضره فى حالة حاجتنا إليه".

فقلت "نعم بالطبع"، ثم نزعت قبعتى وحككت رأسى وقلت: "هل يعلم أوجست بذلك؟".

"يعلم ماذا؟".

"هل يعلم أنك تعرف الكثير عن الفيلة؟ لو علم، فإنه قطعاً سيوظفك لديه ــ"

فدفعنى جريج بيده وقال: "كلا، كلا مستحيل يا جاكوب، إننى لا أقصد إهانتك بشكل شخصى لكننى من المستحيل أن أعمل تحت إمرة هذا الرجل أبداً. بالإضافة إلى أننى كنت عامل أفيال، كل ما فى الأمر أننى أحب الحيوانات الضخمة. والآن هلا ذهبت وأحضرت ذلك الخطاف من فضلك؟".

حين عدت بالخطاف، وجدت جريج وروزى قد ذهبا؛ فعدت أبحث فى الساحة.

Amly نهضة العرب

ومن بعيد، رأيت جريج يسير باتجاه خيمة الحيوانات، وروزى تسير خلفه بخطوات، وكل بضع خطوات يتوقف ويدع خرطومها ينسل إلى داخل الدلو. ثم ينزعه بعيداً عن ذلك؛ فتتبعه هى كدمية مطيعة.

بعد عودة روزى آمنة إلى خيمة الحيوانات، عدت إلى خيمة باربرا، وكنت لا أزال ممسكاً بالخطاف.

توقفت خارج فتحة الخيمة المسدلة وناديت: "أوه، باربرا؟ هل يمكننى الدخول؟".

فقالت: "بالتأكيد".

كانت تجلس بمفردها فى مقعدها عارية القدمين.

فقالت وهى تسحب دخان سيجارتها: "لقد عادوا إلى القطار فى انتظار الطبيب؛ إن كان هذا ما قد أتى بك".

شعرت باحمرار وجهى، وبدأت أنظر إلى جدران الخيمة. ثم إلى السقف. ثم إلى قدمى.

فنفضت رماد سيجارتها على الأرض ثم سحبت منها نفساً عميقاً وقالت: "آه، كم أنت جميل. إنك محمر من شدة الخجل".

حدقت فىّ لفترة طويلة، وقد بدت مستمتعة.

ثم قالت أخيراً وهى تنفث دخان سيجارتها من جانب فمها: "آه، هيا اذهب. اخرج من هنا قبل أن أعطيك جولة أخرى".

اندفعت خارجاً من خيمة باربرا واتجهت صوب أوجست. كان وجهه مكفهراً كالرعد.

سألته: "كيف حالها؟".

فقال: "نحن بانتظار الطبيب، هل عدت بالفيل؟".

فقلت: "نعم لقد عادت إلى خيمة الحيوانات".

فقال: "حسناً"، ثم انتزع منى الخطاف.

"أوجست، انتظر! إلى أين أنت ذاهب؟".

Amly نهضة العرب

قال دون أن يتوقف: "إننى ذاهب لألقنها درساً".

صحت خلفه قائلاً: "لكن يا أوجست! انتظر! لقد أحسنت فى تعاونها! لقد عادت من تلقاء نفسها. فضلاً عن أنك لا تستطيع فعل شئ الأن. فالعرض لا يزال مستمراً".

فتوقف فجأة فغطت سحابة غبار قدميه لبرهة. وظل واقفاً فى سكون تام، وهو يحدق فى الأرض وبعد طول صمت قال: "حسناً. إن صوت الفرقة الموسيقية سيغطى ما يصدر من ضجيج".

حدقت فيه وهو سائر. وقد فغرت فمى رعباً مما ينوى.

عدت إلى عربة الخيول واستلقيت على فراشى. كنت أحمل همًّا يفوق الوصف مما قد يكون واقعاً الآن فى خيمة الحيوانات، وهمًّا أكبر من عدم قدرتى على منع ذلك الواقع.

بعد عدة دقائق، عاد وولتر وكويني. كان لا يزال فى ملابس العرض ـ التى كانت عبارة عن شيء أبيض منفوخ منقط بألوان متعددة، وعلى رأسه قبعة مثلثة الشكل، وطوق مكشكش. وكان يمسح وجهه بقطعة قماش.

وقف أمامى فكانت بؤرة بصرى تتركز على حذائه الضخم، ثم قال: "ما هذا الذى حدث؟".

فقلت: "ماذا تقصد؟".

"ذلك الذى حدث فى العرض. هل كان جزءاً من الأداء؟".

فقلت: "كلا".

فقال: "يا إلهى. يا إلهى. معنى هذا أن تلك الحركة كانت لتفادى الإصابة. لقد قامت مارلينا بعمل رائع حقاً. لكنك كنت تعلم ذلك بالفعل؛ أليس كذلك؟"، ثم نقر بلسانه وهو يميل نحوى ليلكزنى فى كتفى.

"هلا كففت عن هذا؟".

فقال وهو يبسط يديه مدعياً البراءة: "ماذا؟".

"ليس فى الأمر ما يدعو للفكاهة، فقد أصيبت بالفعل، هل تفهم؟".

Amly نهضة العرب

فتلاشت ابتسامته البلهاء وقال: "أوه، هاى، أنا آسف يا رجل. لم أكن أعلم. هل ستكون بخير؟".

"لست أدرى حتى الآن. فهم مازالوا ينتظرون الطبيب".

"اللعنة، أنا آسف يا جاكوب. أنا آسف فعلاً". ثم استدار نحو الباب ليلتقط نفساً عميقاً ثم قال: "لكن أسفى لا يبلغ نصف ما ينبغى أن تشعر به تلك الفيلة".

فقلت مقاطعاً: "إنها تشعر به الآن بالفعل يا وولتر. كن على ثقة من ذلك".

فحدق باتجاه الباب وقال: "آه يا إلهى"، ثم وضع يديه على فخذيه وهو ينظر إلى الساحة ويكرر: "يا إلهى. إننى أراهن على حدوث ذلك بالفعل".

مكثت فى العربة خلال العشاء، وخلال العرض المسائى. لقد خشيت إن قابلت أوجست أن أقتله.

إننى أكرهه. أكره قسوته الشديدة. أكره تبعيتى له. وأكره حبى لزوجته وشيئاً أقرب إلى الحب أيضاً مع تلك الفيلة. وأكره على نحو أكبر خذلانى لكليهما. لا أدرى إن كانت تلك الفيلة من الذكاء بحيث تدرك أننى شريك فى عقابها وأسأل نفسى لماذا لم أقم بشىء لمنع ذلك العقاب، إننى مشارك بالفعل.

قال وولتر وهو عائد للعربة: "كدمات بعقب القدم. هيا يا كوينى، هيا اصعدى".

فغمغمت قائلاً: "ماذا؟". لم أكن قد تحركت منذ تركنى.

"إن مارلينا مصابة فى كعب قدمها. وستبقى خارج إطار العرض لمده أسبوعين. حسبتك تود معرفة الأمر".

فقلت: "أوه، شكراً لك".

جلس على سريره ونظر نحوى طويلاً.

"ما قصتك مع أوجست إذن؟".

Amly نهضة العرب

"ماذا تعنى؟".

"هل بينكما ضغينة أو ما شابه؟".

فدفعت جسدى للجلوس وارتكزت إلى حائط العربة ثم قلت أخيراً: "إننى أكره ذلك الوغد".

قال وولتر "ها! حسناً، لقد فهمت إذن. فما الذى يدفعك لقضاء وقتك كله معهم إذن؟".

لم أحر جواباً.

"أوه، آسف. لقد نسيت".

فقلت وأنا أحمل نفسى على النهوض: "إنك تفهم الأمر على نحو خاطئ تماماً".

"حقاً؟".

"إنه رئيسى ولا خيار لدىّ فى مرافقته".

"هذا صحيح، لكن للأمر علاقة بالمرأة أيضاً".

فرفعت رأسى ورمقته بنظرى.

فقال هو يرفع يديه فى استسلام: "حسناً، حسناً. سأصمت؛ فلا زلت أدين لكم بواحدة". ثم استدار وبدأ يفتش فى صندوق كتبه وقال وهو يرمى نحوى بمجلته الإباحية: "إليك هذه. ليس بها مارلينا؛ لكنها أفضل من لا شىء".

بعد أن استدار، التقطت المجلة وتصفحتها. ورغم ما كان بها من رسومات فاضحة، إلا أننى لم أستطع جمع شتاتى للتركيز فى أى مما فى المجلة من النجمات الجميلات ذوات وشم الفرس.

Amly نهضة العرب

الفصل الثالث عشر

طرفت عيناى على نحو متسارع محاولاً إدراك اتجاهاتى ـــ كانت تلك المرضة النحيلة ذات وشم الفرس قد أسقطت صينية طعام فى نهاية الردهة، وذلك ما أيقظنى. لم أكن مدركاً أنى قد نمت، لكن هكذا تجرى الأمور معى هذه الأيام. يبدو أننى انزلقت على نحو ما خارج إطار الزمان والمكان. فإما أننى قد هرمت بالفعل فى نهاية الأمر، وإما أن هذه هى طريقة ذهنى التى لا تبارى فى التكيف مع الحاضر.

جثت المرضة لأسفل تجمع الطعام المنسكب على الأرض. إننى لا أحبها ـ فهى التى تحول دائماً بينى وبين السير على قدمىّ. أظن أن الأمر لا يعدو عن أنه يثير أعصابها، فحتى الدكتورة راسهيد قد اعترفت بأن المشى مفيد لى طالما أننى لا أتجاوز فيه أو أفقد حذرى أثناءه.

إننى موضوع فى الردهة، خارج باب غرفتى بالضبط، لكن لا يزال على موعد حضور أسرتى ساعات عديدة وأظن أننى أود إلقاء نظرة من النافذة.

بإمكانى أن أنادى المرضة للمساعدة فى الأمر. لكن أين الإثارة إذن إذا هى ساعدتنى؟

حولت مقعدتى إلى حافة كرسيًّ المتحرك، ومددت يدى لأمسك بمساعد المشى.

واحد، اثنان، ثلاثة ـ

اندفعت بوجهها الشاحب نحوى قائلة: "سيد جانكوسكى، هل لى أن أساعدك؟".

Amly نهضة العرب

هه. إن الأمر في غاية اليسر.

فقلت متظاهراً بالتعجب: "ولم المساعدة؟ إنني أريد إلقاء نظرة من النافذة فحسب".

فقالت وهي تمسك بذراع الكرسي بيديها في حزم: "ولم لا تجلس على كرسيك لكي أذهب بك إلى هناك؟".

فقلت: "أوه، حسناً إذن، نعم لم لا، هذا لطف منك بلا شك". ثم ملت ثانية للوراء عائداً للجلوس في الكرسي، ورفعت قدميّ إلى الدواسة، وطويت يديّ في حجري.

بدت الممرضة في حيرة من أمري. يا إلهي، كانت هذه لطمة قوية لها. اعتدلت ثم انتظرت، وأظن أن انتظارها كان لترى ما إذا كنت سأسير بالكرسي بمفردي أم لا. فابتسمت ثم وجهت بصري نحو النافذة في نهاية الردهة. وفي نهاية الأمر، تحركت خلفي وأمسكت بمقابض الكرسي.

"حسناً، عليّ أن أقول يا سيد جانكوسكي إنني مندهشة بعض الشيء، فأنت في العادة... آه... أكثر إصراراً على السير".

"أوه، يمكنني السير فعلاً، لكنني أردت منك دفعي لأنني لا أرى أي كراسي عند النافذة. بالمناسبة، ما السبب في هذا؟".

"لأنه ليس وراء النافذة ما يستحق المشاهدة يا سيد جانكوسكي". "هناك السيرك".

"حسناً، السيرك في عطلة نهاية الأسبوع فقط، لكن ما وراء النافذة هي مجرد ساحة انتظار للسيارات".

"ماذا لو كنت أريد مشاهدة ساحة انتظار السيارات هذه؟".

قالت وهي تدفعني نحو النافذة: "سوف تراها إن أردت يا سيد جانكوسكي".

فانعقد حاجباي لردها. كان من المفترض بها أن تجادلني. فلماذا لم تفعل؟ أوه، إنني أعلم سبب ذلك. فهي تظن أنني مجرد عجوز أخرق.

Amly نهضة العرب

وهى لا تريد إزعاج النزلاء ــ أوه، وخصوصاً ذلك العجوز جانكوسكى فقد يطيح بطبق الجيلى ثم يدعى أن الأمر كان مصادفة.

ثم اتجهت للانصراف.

فناديتها: "هاى! إننى لم أحضر مساعد السير معى!".

فقالت: "حين تكون مستعداً للعودة نادنى فقط وأنا سآخذك".

"لا، إننى أريد مساعد المشى الخاص بى، إنه معى دائماً، أحضريه لى الآن".

فقالت الفتاة وقد عقدت ذراعيها وتنهدت بعمق: "سيد جانكوسكى ـــ".

ثم ظهرت روزمارى من ردهة جانبية وكأنها ملاك نزل من السماء.

قالت وهى توزع نظراتها بينى وبين الفتاة ذات وشم الفرس: "هل من مشكلة؟".

فقلت: "إننى أريد مساعد المشى وهى لا تريد إحضاره لى".

"لم أقل إننى لن أحضره. كل ما قلته كان ـــ".

رفعت روزمارى يدها وقالت: "السيد جانكويسكى يحب وجود مساعد المشى بجواره. إنه كذلك دائماً. فإذا كان قد طلب إحضاره، فأحضريه من فضلك".

"لكن ـــ".

"ليس هناك لكن. أحضرى مساعد المشى".

أطل الغضب من وجهها، ثم استبدلته باستسلام مكره. ثم رمتنى بنظرة قاتلة وعادت لتأتى بالمساعد. حملته أمامها على نحو غير لائق، وهى مندفعة خلال الردهة. وحين وصلت، قامت بصفقه أمامى. ولو كان هذا المساعد دون أطراف مطاطية لكان الأمر أكثر إثارة حين يصطدم بالأرض محدثاً صريراً شديداً بدلاً من هذا الانفجار المكتوم.

فتكلفت التبسم. ولم أستطع منع نفسى من ذلك.

Amly نهضة العرب

ظلت واقفة، وقد وضعت ذراعيها على خصرها، محدقة فيّ. كانت بلا شك تنتظر عبارة شكر، لكنى أدرت رأسى ببطء، رافعاً ذقنى كفرعون مصرى، متوجهاً ببصرى نحو تلك الحلبة ذات الخطوط البيضاء والفوشيا.

كانت الخطوط ذات ألوان متنافرة — فى أيامنا كانت دعامات ممر الدخول فقط هى التى تخطط. وكانت الحلبة الكبرى ذات لون أبيض تماماً، أو أنها تكون كذلك فى البداية، لكن بنهاية الموسم كان يشوب بياضها الكثير من الوحل والعشب، لكنها على أية حال لم تكن مخططة أبداً. وليس هذا هو الفارق الوحيد بين هذا العرض وتلك العروض التى كانت فى زمانى — فهذا العرض لا يرقى لنصف ما كان لدينا، فهو مجرد حلبة رئيسية وبوابة لبيع التذاكر على المدخل وممر دخول وكشك عرض المبيعات. يبدو أنهم لا زالوا يبيعون نفس الأشياء القديمة — الفشار، والحلوى، والبالونات — لكن الأطفال يحملون أيضاً السيوف اللامعة، وألعاباً أخرى تتحرك وتومض، ولا يمكننى تمييزها من هذه المسافة. لكنى أكاد أجزم أن آباءهم قد اشتروا لهم أيضاً ذراعاً أو ساقاً. إن بعض الأمور لا تتغير أبداً فمهرجو السيرك كما هم، ولا أزال، حتى الآن، أستطيع التمييز بين العمال والعارضين أيضاً.

"سيد جانكوسكى؟".

كان ذلك نداء روزمارى إلىّ وهى تنظر إلى عينى مباشرة.

فقلت: "إيه؟".

قالت: "هل أنت مستعد لتناول الغداء يا سيد جانكوسكى؟".

"لا يعقل أن يكون وقت الغداء قد حل؛ فأنا لم أمكث هنا إلا قليلاً".

فنظرت فى ساعة يدها — وهى ساعة قيمة ذات سوارين. تلك الساعات الرقمية لا تحسن ضبط الوقت أبداً. متى يتعلم الناس أنه ليس معنى أنه إذا كان باستطاعتهم فعل شىء فعليهم القيام به حتماً؟

Amly نهضة العرب

قالت: "إنها الثانية عشرة إلا ثلاث دقائق".

"أوه، حسناً إذن. ما هذا اليوم على أية حال؟".

"لماذا، إنه يوم الأحد، سيد جانكوسكى، إنه يوم رائع. إنه اليوم الذى تأتيك فيه الأسرة".

"أعلم هذا. إننى أقصد ما هو غداء اليوم؟".

فقالت: "لا شيء مما تحبه بالتأكيد".

فرفعت رأسى تمهيداً لثورة الغضب.

فقالت ضاحكة: "أوه، هيا يا سيد جانكوسكى. إننى فقط أمزح معك".

فقلت: "أعلم هذا، أتظنين أننى لا أملك حس الدعابة؟".

لكننى عجوز شكاء، لأننى ربما لم أعد أملك حس الدعابة هذا. إننى لم أعد أعرف على وجه الدقة. فأنا رجل عنيف جداً حتى إننى أوبخ وأسب، وأوجه اللعان، وأعامل بشكل لا أظننى أستطيع معه التفاعل مع أى شخص يعاملنى كآدمى.

حاولت روزمارى دفعى نحو طاولتى المعتادة، لكننى رفضت تماماً فلن أقربها طالما ذلك العجوز الأحمق ماكجوينتى عليها. ها هو جالس وعلى رأسه قبعة المهرج مرة أخرى. لابد أنه طلب من المرضات وضعها على رأسه بمجرد استيقاظه فى الصباح، أو ربما نام بها ذلك الأحمق اللعين. إنه لا يزال أيضاً يحتفظ ببالونات الغاز مربوطة فى ظهر مقعده. إنها لم تكن خفاقة كما كانت. فقد بدأت فى التغضن، وهى تحوم فى تثاقل حول الخيط التى ربطت إليه.

حين استدارت روزمارى بمقعدى تجاهه، صرخت قائلاً: "أوه، لا لا، أذهب. هناك، اذهبى بى إلى هناك"، وأنا أشير إلى طاولة خالية فى زاوية الغرفة. إنها أبعد طاولة إلى طاولتى المعتادة، والتى آمل أن أبتعد فيها عن أصوات الآخرين فلا أسمع حديثهم.

Amly نهضة العرب

قالت روزمارى وهى توقف الكرسى وتتحرك لمواجهتى: "أوه، إليك عن هذا يا سيد جانكوسكى فلا يمكن أن تبقى هكذا أبد الدهر".

"ولماذا لا أبقى هكذا أبد الدهر؟ فقد يكون الأسبوع القادم هو أبد الدهر بالنسبة لى".

وضعت يدها على شفتيها وقالت: "هل تذكر أصلاً سبب غضبك منه؟".

"نعم أذكره؛ لأنه كان يكذب".

"هل تقصد مسألة الأفيال؟".

فزممت شفتى بما يعنى الإيجاب.

"إنه لم يقصد الكذب، وأنت تعلم ذلك".

"هذا هراء. إن الكذب هو الكذب".

فقالت: "إنه رجل عجوز".

فقلت وأنا أعتدل فى سخط: "إنه يصغرنى بعشر سنوات".

فتنهدت روزمارى وحدقت نحو السماء وكأنها تطلب العون: "أوه، سيد جانكوسكى"، ثم انحنت أمام مقعدى ووضعت يديها على يدى وقالت: "أظن أن لدى كلينا فهما لطبيعة الأمر".

فتجهمت. فليس هذا جزءاً اعتيادياً من مجادلات جاكوب وممرضاته.

قالت: "ربما كان مخطئاً فيما ذكره من تفاصيل، لكنه لم يكن يكذب. إنه يؤمن فعلاً بأنه حمل الماء لسقى الفيلة. إنه يصدق ذلك فعلاً".

ولم أحر جواباً.

فتابعت: "إنك حين تكبر فى السن ـ ولست أتحدث هنا عنك، إننى أتحدث بشكل عام، فكل منا يهرم على نحو مختلف ـ تبدأ الأشياء التى كنت تفكر فيها أو تتمناها تبدو كأنها حقيقية. ثم تبدأ فى تصديقها، وقبل أن تدرك ذلك تصبح جزءاً من تاريخك، وحين يأتى شخص ما ليتحدى صحة تصوراتك تلك، فإنك تشعر بالإهانة. لأنك لا تذكر الجزء الأول من الحديث. كل ما تذكره هو أن أحداً نعتك بالكاذب. هل يمكنك تفهم موقف السيد ماكجوينتى، حتى لو كنت محقاً فى التفاصيل الفنية للحديث؟".

Amly نهضة العرب

عبست بوجهي نحو حجري.

فتابعت حديثها برقة: "سيد جانكوسكي؟ دعني أذهب بك إلى الطاولة لتجلس مع أصدقائك. هيا بنا الآن. واعتبر ذلك معروفاً لي".

حسناً، إن هذا الأسلوب في غاية اللطف. إن هذه أول مرة منذ سنوات عديدة تطلب امرأة مني معروفاً. وأنا لا أستطيع تحمل ذلك.

"سيد جانكوسكي؟".

نظرت إليها. كان وجهها الناعم على بعد قدمين مني. كانت تنظر إلى عيني مباشرة، وتنتظر الإجابة.

فقلت ملوحاً في ازدراء: "أوه، حسناً، لكن لا تتوقعي مني أن أتبادل الحديث مع أحد".

وبالفعل لم أفعل. فقد جلست أستمع وهذا العجوز الكاذب ماكجويني يتحدث عن الأعاجيب التي رآها في السيرك وهو صبي صغير، بينما كلهن أراقب هؤلاء النسوة ذوات الشعر الأزرق وقد ملن نحوه منصتات. وقد لمعت أعينهن الانبهار بما يحكي. كان ذلك يدفعني للجنون بالفعل.

وحين فتحت فمي لأقول شيئاً، لاحظت روزماري في الناحية المقابلة من الغرفة تميل على إحدى السيدات لتضع منديل الطعام في ياقتها. لكن عينيها كانتا متجهتين نحوي.

أغلقت فمي ثانية. وتمنيت أن تقدر مدى جهدي في تحمل الحديث

وقد قدرت ذلك بالفعل؛ فحين أتت لتأخذني بعد أن وضعت أمام حلوى البودنج سوداء اللون التي صنعت بزيت أمكنني استساغته، وبعد أ تحركت ثانية مالت نحوي وقالت: "لقد أدركت أنك تستطيع القيام به يا سيد جانكوسكي. لقد أدركت ذلك فعلاً".

"نعم. حسناً، لكن ذلك لم يكن سهلاً".

Amly نهضة العرب

"لكنه أفضل من الجلوس على مائدة طعام منفرداً. أليس كذلك؟".

"ربما".

فعادت بنظرها إلى السماء ثانية.

قالت على مضض: "حسناً، حسناً. نعم إنه أفضل من الجلوس بمفردي".

Amly نهضة العرب

بتصريح من بفنيج أرشيف، كولومبوس، أوهايو

Amly نهضة العرب

الفصل الرابع عشر

مرت ستة أيام على حادثة مارلينا ولكنها لم تظهر بعد. ولم يعد أوجست يظهر في خيمة الطعام أثناء الوجبات، ولذا كنت أجلس على الطاولة وحيداً على نحو شائن. وحين قابلته أثناء جولة دعاية الحيوانات، كان مهذباً لكنه كان بارداً بعض الشيء.

أما بالنسبة لروزي، فقد كانت تُنقَل في كل مدينة تتجه إليها في عربة فرس النهر ثم تعرض في خيمة الحيوانات. وقد تعلمت أن تتبع أوجست من عربة الفيلة إلى خيمة عرض الحيوانات، وفي مقابل هذا توقف هو عن ضربها. فبدلاً من الوضع السابق، أصبحت تمشي إلى جواره في جهد، بينما هو يسير ومعه الخطاف معلقاً بحزم في لحمها خلف الساق الأمامية تماماً. وبمجرد وصولها لخيمة الحيوانات، تقف خلف حبل حيزها، وتبهج جمهورها في سعادة، وتتلقى منهم الحلوى. ولم يكن ذلك ما أراده العم آل، لكن لا يبدو أن هناك خططاً فورية لعمل عرض بديل لها.

وبينما كانت الأيام تمر، كان قلقي يزداد على مارلينا. وفي كل مرة أقترب فيها من خيمة الطعام، كنت أتمنى أن أجدها. وفي كل مرة لا أجدها قد ظهرت، كان يزداد قلبي اضطراباً.

كانت تلك نهاية يوم طويل آخر في مدينة لعينة أخرى ـ وكل المدن تبدو متشابهة من على سكة القطار، وها هو الفلاينج سكوادرون يتجهز

Amly نهضة العرب

للانطلاق. كنت ممدداً فى فراشى أقرأ مسرحية عطيل، بينما كان وولتر ممداً على سريره يقرأ شعر ووردسورث. وكانت كوينى منزرعة بجواره.

فرفعت رأسها وزمجرت. فتطلعت مع وولتر لنستوضح الأمر.

أطلت رأس إيرل الصلعاء من حافة إطار الباب وقال وهو ينظر نحوى:

"دكتور! مرحباً دكتور!".

"مرحباً إيرل. ما الأمر؟".

"أحتاج إلى مساعدتك".

فقلت له وأنا أضع الكتاب: "طوع أمرك، ما الأمر؟". ونظرت نحو وولتر فوجدته قد وضع كوينى الضجرة إلى جواره وهى لا تزال تزمجر.

قال إيرل فى صوت خافت: "إنه كامل، إن لديه مشكلة ما".

"أى نوع من المشاكل تحديداً".

"مشكلة فى قدميه. إن قدميه مرتخيتان تماماً. يبدو أنهما التوتا تحته. ويداه ليستا بحالة جيدة أيضاً".

"هل هو ثمل؟".

"ليس فى هذه اللحظة بالتحديد. لكن هذا لا يشكل فارقاً الآن".

فقلت: "اللعنة يا إيرل. يجب أن يراه طبيب".

فانعقد حاجبا إيرل وقال: "نعم، ولهذا أتيتك".

"إيرل، أنا لست طبيباً".

"أنت طبيب بيطرى".

"ليس هذا كذاك".

ونظرت نحو وولتر الذى كان يتظاهر بالقراءة.

وكان إيرل يطرف بعينيه منتظراً قرارى.

فقلت فى النهاية: "اسمع، إن كان فى حالة سيئة، فدعنى حتى أتحدث فى أمره مع أوجست أو العم آل لنرى إن كان بالإمكان إحضار الطبيب له ليراه حين نصل مدينة دوباك".

Amly نهضة العرب

"لن يحضروا له طبيباً".

"ولم لا؟".

فتمدد إيرل فى استياء واضح وقال: "اللعنة، ألا تعلم شيئاً على الإطلاق؟".

"لو كانت حالته خطرة، فبالتأكيد سوف ـــ"

فقال إيرل بحسم: "سوف يرمونه من القطار، هذا ما سيفعلونه. والآن لو كان هو أحد هذه الحيوانات..."

ففكرت فى قوله للحظة وأدركت أنه على صواب، فقلت "حسناً، سأتدبر أنا أمر الطبيب بنفسى".

"كيف؟ هل تملك مالاً؟".

فقلت فى حرج: "أوه، حسناً، كلا ليس معى. هل معه هو بعض المال؟".

"لو كان لديه مال، هل تعتقد أنه كان سيدمن شراب الكحوليات رخيصة الثمن؟ أوه، هيا، ألا يمكنك إلقاء نظرة على أقل تقدير؟ لقد هلك الرجل من أجل مساعدتك".

فرددت فى سرعة: "أعرف ذلك يا إيرل، أعرفه، لكننى لا أدرى ما الذى يمكننى فعله الآن؟".

"أنت الطبيب، تعال وألق نظرة عليه".

ومن بعيد سمعنا صوت صافرة القطار.

فقال إيرل: "هيا الآن. هذه صافرة الانطلاق بعد خمس دقائق. سوف يتحرك القطار".

تبعته إلى العربة التى تحمل خيمة الحلبة الأخرى. وكانت خيول جر العربات فى مكانها. وكان كل رجال فلاينج سكوادرون يرفعون العوارض ويصعدون إلى متن القطار ويغلقون الأبواب.

صاح إيرل وهو على باب العربة المفتوح: "مرحباً كامل؛ لقد أحضرت لك طبيباً".

Amly نهضة العرب

فصاح صوت خفيض من داخل العربة: "جاكوب؟".

قفزت داخل العربة. وأخذت بضع لحظات حتى أتواءم مع ظلمة العربة. وحين حدث ذلك، استطعت تحديد مكان كامل فى زاوية العربة، كان موضوعاً على كومة من أجولة الطعام. اتجهت نحوه وجثوت عنده وقلت له: "كامل، ما بك؟".

"لا أعلم على وجه اليقين يا جاكوب، لقد استيقظت منذ عدة أيام فوجدت قدمىّ مرتخيتين تماماً. لا أشعر أنهما بخير".

"هل تستطيع المشى؟".

قال بصوت يقترب من الهمس: "قليلاً. لكن حين أسير، علىّ أن أحمل ركبتىّ عالياً لأن قدمىّ مرتخيتان تماماً. ليس هذا كل ما فى الأمر، هناك شىء آخر".

"أى شىء آخر؟".

اتسعت حدقتا عينيه فى خوف وهو يقول: "إنه ذلك الذى يخص رجولة المرء. إننى لا أشعر... فى الأمام".

ارتج القطار للأمام، واهتز ببطء بينما روابط العربات تشد لبعضها.

قال إيرل وهو يربت على كتفى: "سوف ننطلق الآن. عليك بالانصراف"، ثم تحرك نحو الباب المفتوح وهو يلوح لى بالتقدم نحوه.

فقلت له: "سأظل معكم فى هذه المرحلة من الرحلة".

"لا يمكنك ذلك".

"ولم لا؟".

"لأن شخصاً ما قد يسمع بأنك كنت تخالط العمال فيطيح بك. والأغلب أن هؤلاء الرجال هنا قد يفعلون ذلك بأنفسهم".

"اللعنة يا إيرل، ألست من أفراد الأمن؟ ضللهم عن وجودى".

فقال وهو يلوح فى إلحاح أكثر: "إننى على متن القطار الرئيسى، هذا القطار مسئولية بلاكى، هيا!".

Amly نهضة العرب

نظرت فى عينى كامل. كانتا محمرتين وتمتلئان خوفاً. قلت لـه: "علـىّ الذهاب الآن. وسأوافيك حين نصل إلى مدينة دوباك. ستكون على ما يـرام؛ سوف نحضر لك طبيباً".

"لكننى لا أملك مالاً".

"لا بأس، سنتدبر الأمر".

صاح إيرل: "هيا!".

وضعت يدى على ذراع ذلك العجـوز وقلـت لـه: "سـوف نتـدبر الأمـر، اتفقنا؟".

فطرفت عينا كامل المريضتين.

"اتفقنا؟".

فأومأ برأسه إيجاباً مرة واحدة.

نهضت واقفاً وسرت باتجاه الباب. نظرت فى الأشـياء عـبر البـاب وقـد بـدأت تتـسارع وقلـت: "اللعنـة، لقـد اتخـذ القطـار سـرعته علـى نحـو لم أتوقعه".

فوضع إيرل يده فى منتصف ظهرى. ودفعنى خارج البـاب وهـو يقـول: "وهو لن يبطئ بعد ذلك".

فـصحت وأنـا أطـوِّح بـذراعى كطـواحين الهـواء: "مـا الـذى تفعلـه؟". اسطدمت بحصى الأرض ثم تدحرجت على جانبى. ثم كـان صـوت ارتطـام اخر بجانبى.

قال إيرل وهو ينهض وينظف ظهره: "أرأيت؟ لقد قلـت لـك إن حالتـه سيئة".

حدقت إليه فى ذهول.

فقال وهو فى شىء من الحيرة: "ماذا به؟".

فقلت: "لا شىء"، ثم نهضت ودفعت الغبار والحصى عن الملابس.

"هيا، يحسن بك العودة قبل أن يراك أحد هنا".

Amly نهضة العرب

"أخبرهم فقط أننى كنت أفحص ماشية سحب الأمتعة".

"أوه، فكرة طيبة بالفعل. إن هذا ما جعل منك طبيباً وجعلنى على ما أنا عليه".

فهززت رأسى، لكن تعبير وجهى كان خالياً من أى رياء. ثم توقفت وبدأت سيرى نحو القطار الرئيسى.

فنادانى إيرل: "ما الأمر؟ لماذا تهز رأسك يا دكتور؟".

قال وولتر وأنا أدلف إلى العربة: "ماذا كان كل هذا؟"

قلت: "لا شىء".

"نعم! لقد كنت هنا وسمعت معظم الحديث. هات ما عندك يا دكتور".

فترددت قليلاً ثم قلت: "إنه أحد العمال على فلاينج سكوادرون. إنه فى حال سيئة".

"حسناً، لقد كان ذلك واضحاً من حديثكما، كيف بدا لك أمره إذن؟".

"كان مذعوراً. وللحق أنا لا ألومه لذلك. إننى أريد طبيباً له؛ لكنى مفلس وكذلك هو".

"لن يدوم إفلاسك. فغداً هو موعد صرف الأجور. لكن ما الأعراض التى بدت عليه؟".

"فقدان فى شعوره بساقيه ويديه، و... حسناً؛ شىء آخر أيضاً".

"ما هو الشىء الآخر؟".

فنظرت لأسفل وقلت: "أنت تعلم..."

فقال وولتر وهو يعتدل جالساً: "أوه، اللعنة. هذا ما توقعته. إنه ليس بحاجة لطبيب إذن. إن لديه شلل شرب الكحوليات".

"لديه *ماذا*؟".

"شلل الكحوليات، شلل السير ـ عرج، سمه ما شئت فالأمر سواء".

"إننى لم أسمع بذلك من قبل".

Amly نهضة العرب

"لقد قام أحدهم بصنع كمية كبيرة من شراب الكحول السيئ ـــ وقد وضع فيها بعض اللدائن أو شيئاً من هذا القبيل. وقد انتشر ذلك المشروب فى طول البلاد وعرضها، وما عليك سوى أن تشرب زجاجة واحدة منه لترى ما سيصنعه بك".

"ماذا تعنى بقولك "يصنعه بى"؟".

"أعنى الشلل. ويمكن لذلك أن يحدث فى أى وقت من الأسبوعين التاليين لشرب ذلك المشروب اللعين".

أصابنى هلع شديد مما قاله. فقلت له: "كيف علمت هذا؟".

فقال وهو يهز كتفيه فى غير مبالاة: "قرأته فى الصحف. إن الصحف بينت أمره فقط. لكن هناك كثيرين ممن أصيبوا. ربما تصل أعدادهم لمئات الألوف، وهم عن الجنوب فى معظمهم. لقد مررنا بالجنوب أثناء توجهنا إلى كندا. وربما يكون قد حصل هناك على زجاجة من هذا المشروب".

صمت قليلاً قبل أن أسأل: "هل يمكنه التعافى؟".

"أبدا".

"ألا يمكن للأطباء عمل شيء له؟".

"لقد أخبرتك. لقد حدث ما يمكن حدوثه. لكن لو كنت تريد إضاعة مالك من أجل إحضار طبيب يخبرك بالشيء ذاته، فأنت وشأنك".

تلاعبت أمام ناظرىّ خيالات سوداء وبيضاء، تتحول، وتومض، موارية كل شيء أمام عينىّ خلفهما. فسقطت فى فراشى.

قال وولتر: "هاى. هل أنت بخير؟ ها أنت يا رجل، لقد امتقع وجهك، هل تريد التقيؤ أو ما شابه؟".

فقلت له: "كلا". كان قلبى يخفق بقوة ودمى يكاد يتفجر من آذانى. لقد تذكرت للتو تلك الزجاجة ذات الشراب المقيت التى عرض علىّ كامل الشراب منها فى أول يوم لى فى السيرك.

Amly نهضة العرب

"إننى بخير والحمد لله".

فى اليوم التالى وبعد الإفطار مباشرة، اصطففت أنا مع وولتر أمام عربة تذاكر حمراء مع بقية الناس. وفى التاسعة تماماً نظر الرجل الذى داخل العربة إلى وجه أول الناس أمامه وكان عاملاً. بعد دقائق انصرف العامل وهو يكيل بسيل من اللعنات ويبصق على الأرض. وكذلك فعل الرجل الذى تلاه ــ وكان عاملاً أيضاً ــ حيث غادر هو الآخر فى حالة من الغضب.

وبدا أن الناس داخل الصف ينظرون لبعضهم ويتمتمون بالحديث.

قال وولتر: "أوه".

"ما الذى يجرى؟".

"يبدو أن العم آل قد عاد لأسلوبه القديم".

"ماذا يعنى ذلك؟".

"معظم عروض السيرك تؤجل جزءاً من الأجور إلى نهاية الموسم. لكن العم آل حين ينفد منه المال يلجأ إلى تأجيله بالكامل لنهاية الموسم".

فقلت بينما كان رجل ثالث يخرج ساخطاً من الصف: "اللعنة، ولم هذه المعاناة إذن؟".

وغادر رجلان آخران من العمال ــ يحملان فى أيديهما لفافات الدخان وقد عبس وجهاهما ــ الصف.

فقال وولتر: "هذا ينطبق على العمال، أما العارضون والرؤساء فيحصلون على أجورهم بشكل دائم".

"إننى لست من هؤلاء ولا أولئك".

تأملنى وولتر لثانيتين ثم قال: "لست منهم. لست أدرى فى واقع الأمر إلى أى فئة تنتمى، لكن أى شخص يرافق رئيس قطاع الخيول على طاولة طعام واحدة لا يمكن أن يكون من العمال. هذا كل ما أستطيع قوله".

"هل يحدث ذلك كثيراً؟".

Amly نهضة العرب

قال فى ملل وهو يضرب الأرض بقدمه: "نعم".

"وهل يوفيهم أجورهم لاحقاً؟".

"لا أظن أن أحدهم قد حاول التأكد من نيته فى الدفع. فالحكمة العامة تقول إنك إذا داينته بأجر أربعة أسابيع، فالأفضل لك أن تتوقف عن الظهور فى صف الأجور بعد ذلك".

فقلت له: "لماذا؟" فى الوقت الذى كنت أرى رجلاً رث الهيئة يندفع خارج الصف وهو يكيل اللعنات. ثم قام ثلاثة رجال آخرين بمغادرة الصف وكانوا أمامنا مباشرة. واتجهوا نحو القطار وقد نكسوا رؤوسهم.

"السبب الرئيسى هو أنك لا تود أن يبدأ العم آل فى اعتبارك عبئاً مالياً عليه، لأنه لو اعتبرك كذلك ستختفى ذات ليلة من متن هذا القطار".

"ماذا؟ هل يرمى بك عند أول توقف للقطار؟".

"بالضبط".

"تبدو لى هذه مبالغة على نحو ما. أعنى، لماذا لا يتركهم وراءه فحسب؟".

"لأنه يدين لهم بمال، فكيف برأيك سيمر هذا؟".

فى تلك اللحظة أصبحت ثانى الواقفين فى الصف، كنت خلف لوتى. كان شعرها الأشقر يلمع تحت ضوء الشمس، وكان منساباً فى تموجات بحركة ماهرة من أصابع يديها، لوح لها الرجل الجالس فى العربة الحمراء التى تتقدم. تبادلا حديثاً ودياً وهو ينزع بضع ورقات مالية من رزمة المال التى معه. وحين أعطاها المال، بللت سبابتها وعدت المال. ثم لفته ودسته داخل ثيابها من من جهة الصدر.

"التالى!".

فخطوت للأمام.

فقال دون أن ينظر نحوى: "الاسم؟".

Amly نهضة العرب

كان الرجل ضئيلاً، أصلع الرأس، مع بعض الأهداب من الشعر الخفيف، ويرتدى نظارة محمولة بحبل من طرفيها. وكان ينظر فى السجل الذى بين يديه.

فقلت له وأنا أتطلع للعربة من خلفه: "جاكوب جانكوسكى". كانت حوائط العربة من الداخل قد صفت بحوامل منحنية وكان سقفها مدهوناً. وقد وضع بها مكتب، وخزانة من الخلف وحوض بموازاة الحائط. وعلى الحائط المقابل علقت خريطة للولايات المتحدة غرست بها دبابيس ملونة. كانت تشير إلى خط سيرنا على الأرجح.

سار الرجل بأصبعه على صفحة السجل. ثم توقف عند نقطة ما وتحرك منها إلى العمود الموازى فى آخر الصفحة، ثم قال: "آسف".

"ماذا تعنى بقولك هذا؟".

فتطلع نحوى، وقال مدعياً صدق القول: "إن العم آل لا يحب أن ينهى أى من العاملين لديه الموسم وهو فى حالة إفلاس. إنه عادة يؤجل أجر أربعة أسابيع. وستتقاضاها نهاية هذا الموسم. *التالى!* ".

"لكننى أريد المال الآن".

ثبت بصره نحوى وبدا وجهه قاسى الملامح ثم قال: "ستحصل عليه فى نهاية الموسم. *التالى!* ".

وبينما اقترب وولتر من شباك العربة، بدأت أنا الانصراف بعد برهة من التوقف حتى أبصق أنا أيضاً على الأرض.

لقد واتتنى الإجابة بينما كنت أقطع الفاكهة لإنسان الغاب. لقد ومضت على ذهنى فجأة. كانت فى صورة تلك اللافتة.

أليس لديك مال؟

فماذا لديك إذن؟

إننا نقبل أى شىء!

Amly نهضة العرب

قطعت المسافة التى أمام العربة رقم ٤٨ خمس مرات جيئة وذهاباً قبل أن أقرر الصعود فى نهاية الأمر إلى داخلها وأطرق باب الغرفة رقم ٣.

قال أوجست: "من بالباب؟".

"إننى جاكوب".

قال بعد وهلة من الصمت: "ادخل".

ففتحت الباب ودخلت إلى الغرفة.

كان أوجست يقف بجوار إحدى النوافذ. وكانت مارلينا تجلس على كرسى من نسيج البلش، بينما كانت قدماها العاريتان قد تمددتا على مسند للقدم.

قالت فى خجل: "مرحباً"، ثم شدت تنورتها على ركبتيها ثم أخذت تمشى بها على فخذيها.

فقلت لها: "مرحباً مارلينا، كيف حالك الآن؟".

"حالتى تتحسن. لقد بدأت أمشى قليلاً الآن. وسأعود للركوب قريباً كما كان الحال فى السابق".

قال أوجست مقاطعاً: "ما الذى أتى بك؟ لا أعنى بسؤالك أننا لسنا سعداء لرؤيتك، فقد افتقدناك. أليس كذلك يا حبيبتى؟".

فقالت مارلينا: "أوه... بلى"، ورفعت عينيها إلى عينىّ وقد احمر وجهى خجلاً.

قال أوجست: "أوه، لقد نسيت أصول الضيافة؟ هل ترغب فى شراب؟"، كانت عيناه أثناء حديثه قاسيتين على نحو غير طبيعى ومن تحتهما كان فمه متجهماً هو الآخر.

فقلت له وقد صدمتنى عدائيته الواضحة: "كلا، شكراً لك. لا يمكننى البقاء، أردت فقط أن أطلب منك شيئاً".

"وما هو؟".

"إننى فى حاجة لتدبير حضور طبيب من هذه المدينة".

Amly نهضة العرب

"ولماذا؟".

قلت متردداً: "أفضل عدم ذكر السبب".

فقال وهو يغمز لى بعينه: "آه، لقد فهمت".

فقلت مذعوراً: "ماذا فهمت؟ لا، ليس الأمر كما تظن". ثم نظرت نحو مارلينا التى نحت بصرها سريعاً نحو النافذة وتابعت: "إنه لأحد أصدقائى".

فقال أوجست مبتسماً: "نعم، هو كذلك بالطبع".

"لا. إن الأمر جاد. وليس مثلما..... اسمع؛ أنا فقط أتساءل إن كنت قد علمت بالأمر. لكن لا تشغل بالك. فأنا سأنزل إلى المدينة وأرى ما يمكننى فعله"، ثم استدرت مغادراً الفرقة فنادتنى مارلينا: "جاكوب!".

فتسمرت عند مدخل الباب محملقاً فى نافذة الصالة الضيقة أمام الغرفة. ثم التقطت نفساً عميقاً قبل أن أستدير نحوها.

قالت بهدوء: "هناك طبيب سيأتى لرؤيتى غداً فى دافنبورت، هل أرسله إليك بعد انتهائه من زيارتى؟".

"سيكون ذلك جميلاً لن أنساه"، ثم أملت قبعتى وانصرفت.

فى الصباح التالى، كان طابور الطعام فى خيمة المطبخ يضج بالحديث المتبادل بين الحضور.

قال الرجل الذى كان أمامى: "كل ذلك بسبب تلك الفيلة. إنها لا تستطيع أداء شىء على أية حال".

فقال صديقه: "مساكين أولئك الرجال، من العار أن يصبح الرجل أقل قيمة من الحيوان".

فقلت: "معذرة. ماذا تقصد بقولك إن كل ذلك بسبب الفيلة؟".

فحدق الرجل فىّ. كان عريض الكتفين، يرتدى حلة بنية قذرة. وكان وجهه متغضناً بشدة، ومتحللاً وبنياً كالزبيبة. ثم قال: "لأنها كلفت الكثير من المال. إضافة إلى عربة الفيل التى اشتروها أيضاً".

Amly نهضة العرب

"لا. أقصد ما الذى تسببت فيه؟".

"لقد تسببت فى فقدان بعض الرجال أثناء الليل. ستة على الأقل وربما أكثر".

"أألقى بهم من القطار؟".

"بلى".

تركت طبقى الذى ملأت نصفه على طاولة عرض الطعام واتجهت نحو فلاينج سكوادرون. وبعد خطوات قليلة من بدء سيرى اندفعت إليه عدواً.

فنادانى الرجل: "هاى، أنت يا رجل. إنك لم تأكل طعامك بعد!".

فقال صديقه: "دعه يا جوك. إنه غالباً يريد الاطمئنان على وجود شخص ما".

"كامل! كامل، هل أنت بالداخل؟". كنت أنادى وأنا أقف أمام العربة، محاولاً أن أنظر داخل جوفها العفن. تابعت النداء: "كامل! هل أنت بالداخل؟".

ولم يكن هناك من رد.

"كامل!".

لا شىء أيضاً.

استدرت مواجهاً ساحة السيرك وركلت حصا السكة وأنا أقول: "اللعنة!"، ثم أركله ثانية وأكرر: "اللعنة!".

وحينذاك سمعت من داخل العربة صوت نحيب.

"كامل، هل أنت بالداخل؟".

فأتانى صوت مكتوم من أحد زوايا العربة المظلمة. فقفزت داخل العربة. كان كامل مستلقياً بجوار أقصى جدران العربة.

كان فاقداً للوعى، ومعه زجاجة شراب فارغة، فملت عليه ونزعتها من يده. كانت زجاجة من منقوع الليمون.

Amly نهضة العرب

قال صوت آت من خلفي: "من أنت وماذا تظن نفسك فاعلاً هنا؟". فاستدرت فإذا به صوت جريدى. كان يقف على الأرض أمام باب العربة يدخن سيجارة جاهزة فقال: "أوه ــ مرحباً. أنا آسف يا جاكوب. لم أعرفك من ظهرك".

"مرحباً جريدى. كيف كانت حالته؟".

فقال: "سوء حالته يفوق الوصف. لقد كان ثملاً طوال الليلة".

نخر كامل، محاولاً الدوران على جنبه، فاندفع ذراعه الأيسر مرتطما على صدره. ثم قلب شفتيه وبدأ في النخير.

قلت له: "إنني سآتيه بطبيب اليوم. فهلا اهممت به حتى يأتي الطبيب؟".

قال جريدى وقد شعر بالإهانة: "بالطبع سأفعل. هل تظن أنني مثل بلاكي؟ ومن تظن أنه قد حافظ على سلامته ليلة أمس غير وجودي بجانبه؟".

"إننى بالطبع لم أفكر بأنك ــ أوه، انس الأمر. اسمعنى. إذا أفاق من سكره، حاول أن تبقيه واعياً. مفهوم؟ وسوف أوافيك لاحقاً ومعي الطبيب".

أمسك الطبيب ساعة جيب والدى وجعل يقلبها ويفحصها من خلال نظارته الأنفية ثم فتحها فاحصاً واجهتها.

ثم قال وهو يدسها فى جيب صديرية سترته: "نعم، ستفى هذه بالغرض، ما الأمر إذن؟".

كنا نقف أمام الردهة خارج غرفة أوجست ومارلينا. وكان الباب لا يزال مفتوحاً.

فقلت له خافضاً صوتى: "سنضطر للانتقال إلى مكان آخر".

قال الطبيب وهو يهز كتفه فى غير مبالاة: "حسناً، لنذهب إذن".

وحين خرجنا من القطار، التفت إلىّ الطبيب قائلاً: "أين سنجرى ذلك الفحص إذن؟".

Amly نهضة العرب

"إن الفحص لا يخصنى بل سيكون لأحد أصدقائى. إن لديه متاعب فى ساقيه ويديه ويشك فى أمر آخر. سيخبرك به حين تصل إليه".

فقال الطبيب: "آه. لقد أخبرنى السيد روزنبلوث بأنك أنت من يعانى من مشكلة فى الذكورة".

بدأت تعبيرات وجه الطبيب فى التغير وأنا أقوده عبر سكة القطار. وحين تركنا العربات اللامعة الطلاء فى القسم الأول من القطار، بدأ يشعر بالملل. وحين وصلنا إلى العربات البالية فى فلاينج سكوادرون، تغير تعبير وجهه إلى التقزز.

قلت له وأنا أقفز إلى العربة: "إنه هنا".

فقال: "وكيف لى، بالله عليك، أن أتمكن من دخول هذا المكان؟".

فظهر إيرل من ظلام العربة حاملاً عارضة خشبية، ثم هبط من العربة، ووضع العارضة على مدخل الباب، وهو يربت عليها بقوة. فحدق الطبيب لحظات فى العارضة ثم بدأ الصعود، وهو مثبت بحقيبة أدواته أمامه بشدة.

ثم قال وهو يدور ويمسح العربة بنظره: "أين المريض إذن؟".

فقال إيرل: "هناك". كان كامل مستلقياً فى ركن العربة وحوله جريدى وبيل.

فاتجه الطبيب نحوهم وقال: "بعض الخصوصية من فضلكم".

تفرق الرجال وهم يهمهمون فى عجب. واتجهوا نحو الناحية الأخرى من العربة وهم يمدون رقابهم محاولين رؤية ما يجرى.

اقترب الطبيب من كامل وجثم إلى جواره. لاحظت أنه يحافظ على ألا تلمس ركبتيه أرض العربة.

وبعد دقائق معدودة، اعتدل واقفاً وقال: "إنه مصاب بشلل شراب الكحول. لا شك فى ذلك".

زفرت أنفاسى خلال أسنانى المطبقة.

فصاح كامل بصوته الخفيض: "ماذا؟ ما هذا الذى تقوله؟".

Amly نهضة العرب

فكرر الطبيب وهو يضغط على الكلمات الثلاث الأخيرة: "لقد أصبت بشلل نتيجة إدمانك الكحوليات".

فقال كامل، وعيناه تتبعان وجه الطبيب في يأس: "لكن... كيف؟ لماذا؟ أنا لا أفهم. إننى أشربه منذ سنوات".

فقال الطبيب: "نعم. نعم. يبدو ذلك واضحاً".

ازدادت مرارة الغضب فى حلقى فقلت للطبيب بقدر ما أستطيع من الهدوء: "لا أدرى كيف تجيبه على سؤاله هذا؟".

التفت الطبيب نحوى وتفحصنى ملياً من خلال نظارته التى ترتكز على أرنبة أنفه. وبعد توقف دام عدة ثوان تابع كلامه: "إن سبب هذا التحول هو إضافة مركب الكريسول المستخدم من قبل أحد صناع هذا الشراب".

فقلت: "يا إلهى".

"حقاً".

"ولماذا أضافوا هذا المركب للشراب؟".

"من أجل التحايل على القواعد الموضوعة التى تقضى بأن مستخرج شراب الجنجر مستخلص لا يصلح للشرب"، ثم التفت إلى كامل ورفع صوته بالقول: *"لم يكن هذا الشراب يستخدم كمشروب فى السابق"*.

قال كامل بصوت مرتفع يملؤه الخوف: "وهل سيزول ذلك الشلل؟".

"كلا. أخشى أنه لن يزول".

حبس الرجال من خلفى أنفاسهم. وتقدم جريدى إلى جانبى وقال "انتظر لحظة ــ هل تعنى أنه ما من شىء يمكنه فعله؟".

اعتدل الطبيب وعلق إبهامه فى جيبه وقال: "أنا؟ كلا. بالقطع لا يمكننى فعل شىء". كان وجهه مضغوطاً كالكلب، كما لو كان يحاول إغلاقه فتحة أنفه من خلال عضلات وجهه فقط. ثم حمل حقيبته واتجه ناحية الباب.

فقال جريدى: "لحظة أخرى لو سمحت، إذا كنت لا تستطيع فعل أى شىء؛ فهل من أحد آخر يمكنه فعل شىء حيال هذا الوضع؟".

Amly نهضة العرب

فالتفت الطبيب لمخاطبتي أنا بشكل محدد، وأظن أنه فعل ذلك لأنني من دفع مقابل فحصه، ثم قال: "أوه، هناك كثيرون يمكنهم أخذ أموالكم وتقديم علاج ــ مثل التعميم في برك زيت، أو الصدمات الكهربية ــ لكن ليس بين هذه العلاجات ما يجدى. ربما تتعافى بعض وظائفه مع الوقت، لكنها ستكون في حدها الأدنى على أقصى تقدير. إن عليه في المقام الأول الامتناع عن شرب المسكرات. فشربها مخالف للقوانين الفيدرالية كما تعلمون".

كنت صامتاً تماماً، وكنت على وشك أن أفتح فمى للكلام.

قال الطبيب: "هل هذا كل شيء؟".

"معذرة؟".

فقال، وكأنني أحمق يحادثه: "هل... تريد... منى... شيئاً... آخر...؟".

فقلت: "كلا".

فقال وهو يميل قبعته: "أتمنى لك يوماً طيباً إذن"، ثم سار نحو العارضة في نشاط، وترجل من العربة. ثم سار مبتعداً مقدار ست ياردات، ثم وضع حقيبته على الأرض، وأخرج منديلاً من جيبه ومسح به يده بعناية، مخللاً إياه بين أصابعه. ثم تناول حقيبته، ثم ملأ صدره بالهواء الخارجي، وانطلق مرة ثانية، آخذاً معه آخر بارقة أمل لدى كامل وساعة ابى أيضاً.

وحين التفت للداخل ثانية، وجدت إيرل، جريدى، وبيل جاثمين حول كامل والدموع تنهمر على وجهه العجوز.

قلت وأنا أندفع داخل غرفة الماعز: "وولتر، أريد التحدث معك في أمر ما". رفعت كوينى رأسها، فوجدت أننى القادم، فعادت برأسها ثانية بين قدميها.

فوضع وولتر كتاباً كان يقرؤه وقال: "لماذا؟ ما الأمر؟".

Amly نهضة العرب

"أريدك أن تسدينى معروفاً".

"حسناً، هيا هات ما عندك، ما هو المعروف الذى تريده؟".

"إن أحد أصدقائى فى حالة سيئة".

"هل هو ذلك الشخص المصاب بشلل الإدمان؟".

توقفت برهة ثم قلت: "نعم هو".

اتجهت نحو فراشى، لكننى كنت متوتراً للغاية فلم أجلس.

قال وولتر بنفاد صبر: "حسناً، قل ما لديك إذن".

"أريد إحضاره هنا".

"ماذا تقول؟"

"إن الرجل سيلقى من القطار لو لم آت به إلى هنا. لقد اضطر أصدقاؤه لإخفائه تحت قماش الخيام ليلة أمس".

نظر إلىّ وولتر فى رعب وقال: "لابد أنك تمزح".

"أعلم أنك لم تكن متحمساً حين أتيت للإقامة هنا. وأعلم أنه من العمال، لكنه رجل عجوز وهو فى حالة سيئة ويحتاج إلى المساعدة".

"وما المطلوب لتفعله إزاءه بالضبط؟".

"أن نبقيه بعيداً عن بلاكى ليس إلا".

"إلى متى؟ للأبد؟".

تكومت على حافة فراشى. إنه محق بلا شك. فنحن لا نستطيع إخفاء كامل للأبد. بدأت أضرب جبهتى بمؤخرة كف يدى وأقول: "اللعنة، اللعنة، اللعنة".

فقال وولتر: "هاى، توقف عن ذلك، توقف"، ثم اعتدل جالساً وأغلق كتابه وقال: "إن هذه أسئلة مهمة ينبغى الإجابة عنها. ما الذى سنفعله بالرجل؟".

"لا أدرى".

"هل لديه عائلة؟".

Amly نهضة العرب

فتطلعت ببصرى نحوه بشكل مفاجئ وقلت: "لقد ذكر ذات مرة أن لديه ولداً".

"حسناً إذن. أصبح لدينا خيط نسير وراءه، هل تعلم أين هذا الابن؟".

"كلا. أظن أنهما على غير تواصل".

فنظر إلىّ وولتر وهو ينقر بأصابعه على ساقه. وبعد نصف دقيقة من الصمت، قال: "حسناً، أحضره. لكن لا تدع أحداً يراك وإلا كانت نهايتنا جميعاً".

تطلعت نحوه فى دهشة.

فقال وهو يهش ذبابة عن جبهته: "ماذا؟".

"لا. لا شىء. الحقيقة أننى أريد أن أشكرك شكراً جزيلاً".

فقال وهو يعود للاستلقاء ملتقطاً كتابه: "مرحى، إن لدىّ قلباً رحيماً. لست مثل بعض الناس الذين نعرفهم ومع ذلك تحبهم".

كنت مع وولتر مستلقيين فى استرخاء فيما بين عرضى الصباح والمساء حين سمعنا طرقاً على الباب.

فقفز على قدميه، فاصطدم بصندوق الكتب، فبدأ يكيل اللعنات وهو يحاول منع مصباح الكيروسين من الوقوع أرضاً. اقترب من الباب وتطلعت فى قلق نحو الصناديق التى صفت إلى بعضها بجوار الحائط الخلفى للغرفة.

عدل وولتر وضع المصباح وأصدر إيماءات قصيرة سريعة.

ففتحت الباب.

فقلت وأنا أفتح الباب بزاوية أوسع مما انتويت: "مارلينا! ما الذى تفعلينه؟ أعنى هل أنت على ما يرام؟ هل تودين الجلوس؟".

فقالت ووجهها يبعد عن وجهى بوصات قليلة: "كلا. إننى بخير. لكننى أريد التحدث إليك لبعض الوقت. هل أنت وحدك؟".

فنظرت خلفى نحو وولتر وهو يهز رأسه ويلوح بيده فى ثورة، فقلت: "أوه، كلا. لست وحدى".

Amly نهضة العرب

فقالت مارلينا: "هل يمكنك المجيء إلى غرفتي الخاصة في القطار بضع دقائق فقط. لن تزيد عن ذلك".

"نعم، بالطبع سآتي".

ثم استدارت واتجهت سريعاً نحو باب العربة. كانت ترتدي في قدميها خفاً، وليس حذاء. ثم جلست على حافة الباب حتى تتمكن من الهبوط إلى الأرض. راقبتها للحظة، وارتاحت نفسي حين رأيتها تتحرك في حذر، دون أن ألحظ في مشيتها عرجاً واضحاً.

أغلقت الباب.

قال وولتر وهو يهز رأسه: "يا رجل، يا رجل، كاد قلبي يتوقف. اللعنة. ما هذا الذي تفعله؟".

قلت: "مرحباً كامل، هل أنت بخير؟".

فأتي صوت من خلف الصناديق قائلاً: "بلى. أتظن أنها رأت شيئاً؟".

"كلا. أنت في أمان هنا؛ حتى الآن. لكن علينا أن نبقى على حذر شديد".

كانت مارلينا تجلس في مقعدها المكسو بنسيج البلش وقد عقدت ساقيها. وحين دخلت، كانت تميل للأمام في جلستها وتحك قدمها. وحين رأتني، توقفت عن ذلك ومالت للوراء ثانية".

"جاكوب. شكراً على قدومك".

فقلت: "كنت سآتي بلا شك"، خلعت قبعتي وضممتها إلى صدري.

"اجلس من فضلك".

فقلت وأنا أجلس على أقرب كرسي: "شكراً". ثم نظرت حولي وقلت: "أين أوجست؟".

"ذهب مع العم آل لمقابلة مسئولي السكك الحديدية".

فقلت: "أوه. هل هناك من خطب؟".

Amly نهضة العرب

"بعض الشائعات لا أكثر. ذكر أحد الأشخاص أن الرجال ترمى من القطار عند المرور بالإشارات الحمراء. سوف يعالجون هذا الأمر، فأنا على ثقة من ذلك".

فقلت: "شائعات. لاشك"، وضعت قبعتى فى حجرى وجعلت أنقرها بأصابعى منتظراً.

قالت: "إننى... أوم... كنت قلقة بشأنك".

"حقاً؟".

فقالت بهدوء: "هل أنت بخير الآن؟".

فقلت: "بالطبع أنا بخير"، ثم فهمت ما تريد السؤال عنه، فقلت: "أوه. يا إلهى ــ كلا، ليس الأمر كما تتصورين. إننى لم أستدع الطبيب من أجلى. لقد كنت أريده من أجل أحد أصدقائى، ولم يكن... لم يكن *لذلك* الشأن".

فقالت فى ضحكة عصبية: "أوه، إننى سعيدة لذلك جداً. آسفة يا جاكوب. لم أكن أقصد إحراجك".

"إننى بخير فعلاً".

"وماذا عن صديقك؟".

حبست أنفاسى للحظة ثم قلت: " ليس بخير".

"هل ستكون مناسبة لك؟".

فقلت وأنا أنظر لها مأخوذاً: "من هى؟".

فنظرت مارلينا لأسفل وجعلت تلف يديها فى حجرها ثم قالت: "أظنها باربرا".

فسعلت، ثم بدأت أشعر بالاختناق.

"أوه، جاكوب ــ أوه، يا إلهى. لقد ارتكبت خطأ فادحاً. أعلم أن هذا ليس من شأنى. سامحنى أرجوك".

كنت محمر الوجه بشدة، وكنت أشعر بوخز فى فروة رأسى، قلت لها: "لا، إننى لا أكاد أعرف باربرا أصلاً".

Amly
نهضة العرب

قالت مارلينا وهى تلوى أصابعها على نحو مضطرب ودون أن تستطيع إنهاء جملتها: "لا بأس. لقد علمت أنها... حسناً، هى ليست سيئة رغم ذلك؛ فإنها مهذبة فعلاً، رغم أنك يجب أن ـــ"

قلت بقوة جعلتها توقف كلامها: "مارلينا"، ثم تنحنحت وتابعت قائلاً: "إننى لست على علاقة مع باربرا. أنا لا أكاد أعرفها. إننا لم نتبادل أكثر من عشر كلمات فى حياتنا كلها".

فقالت: "أوه، كان أوجست قد قال..."

ثم جلسنا فى صمت مؤلم مدة نصف دقيقة حتى سألتها فى النهاية:

"إن قدميك قد تحسنت الآن إذن؟".

"نعم، شكراً لسؤالك". كانت يداها معقودتين لبعضهما بشدة حتى أن براجم يدها قد ابيضت. ابتلعت ريقها ونظرت فى حجرها وقالت: "هناك شىء آخر أريد الحديث معك فيه. إنه ذلك الذى حدث فى المنعطف، فى شيكاغو".

فقلت بسرعة: "لقد كان هذا خطأى بالكامل. لا أتصور ما الذى أصابنى حينها. هل كانت لحظة جنون أم ماذا؛ لا أدرى. إننى آسف بشدة وأعدك ألا يتكرر هذا ثانية".

قالت بهدوء: "أوه".

فتطلعت نحوها مذعوراً، إننى لم أكن مخطئاً، فمن الواضح أننى أهنتها لتوى بكلامى هذا فقلت: "إننى لا أقول... لا أعنى أنك لست... إننى فقط..."

"هل تريد القول إنك لا ترغب فى تقبيلى ثانية؟".

فوضعت قبعتى ورفعت يدى وقلت: "مارلينا، أرجوك ساعدينى. لا أعرف ما يجب علىّ قوله".

"الأسهل لك، لأنه سيكون من الهين عليك إذا لم تفعل ذلك ثانية".

"إذا لم أفعل ماذا؟".

قالت فى هدوء: "ألاّ ترغب فى تقبيلى ثانية؟".

نهضة العرب Amly

فتحت فمى للحديث قبل ثوان من أن أنطق بأى كلمة ثم قلت: "مارلينا، ما هذا الذى تقولينه؟".

قالت: "لا... لا أعرف بالضبط، لم أعد أعرف شيئاً بالمرة. إننى لم أعد قادرة على أن أتوقف عن التفكير فيك. أعلم أن ذلك خطأ عظيم، لكننى فقط..حسناً، إننى فقط أتساءل إن كنت..."

وحين نظرت إليها كان وجهها محمراً تماماً، وكانت تضم يديها وتفصلهما، وتحدق فى حجرها بشدة.

فقلت وأنا أنهض وأتقدم خطوة: "مارلينا".

فقالت: "أظن أن عليك الانصراف الآن".

فنظرت إليها لثوان قلائل.

فقالت دون أن تنظر إلىّ: "أرجوك".

غادرت الغرفة وكل خلجة من خلجات جسدى تأبى الانصراف.

نهضة العرب Amly

بتصريح من بتمن أرشيف . كونمبوس . زهير

Amly

نهضة العرب

الفصل الخامس عشر

كان كامل يقضى نهاره مختبئاً خلف الصناديق، وقد استلقى على بطاطين وضعتها مع وولتر لتكون حائلاً بينه وبين الأرض. كانت حالة الشلل التى أصابته سيئة للغاية ولم أكن أظن أن باستطاعته حتى الزحف لو أراد ذلك، لكنه كان فى رعب من أن يتم الإيقاع به، فلم يحاول فعل ذلك أبداً. وفى كل ليلة، وبعد بدء سير القطار، كنا نجذب الصناديق ونقوم بإسناده إلى ركن الغرفة أو حمله للاستلقاء على سرير وولتر وذلك حسب رغبته فى الجلوس أو الاستلقاء. كان وولتر هو الذى أصر على أن يترك سريره له، وعليه كان إصرارى أن ينام وولتر على فراشى. وهكذا عدت ثانية للنوم على بطانية الحصان كريهة الرائحة فى ركن الغرفة.

وبشق الأنفس، مر يومان على هذه العيشة المشتركة، وقد ازدادت رجفة جسد كامل على نحو سيئ؛ فلم يعد حتى يستطيع الكلام. وقد لاحظ وولتر ذلك حين عاد فى ظهر يوم إلى العربة ومعه بعض الطعام لكامل. كان كامل على حالته السيئة تلك. فقصدنى وولتر فى خيمة الحيوانات ليخبرنى بالأمر. لكن أوجست كان يراقبنا؛ فلم أستطع العودة إلى القطار.

وحين انتصف الليل تقريباً، كنت أجلس مع وولتر على السرير جنباً إلى جنب، ننتظر لحظة انطلاق القطار، وفى اللحظة التى تحرك فيها، نهضنا وسحبنا الصناديق.

ثم جاء وولتر ووضع يده تحت إبطى كامل ورفعه ليجلسه. ثم أخرج من جيبه قارورة.

Amly نهضة العرب

وحين وقعت عينا كامل على الزجاجة تحولت إلى وجه وولتر، ثم ماجت بالدموع.

فقلت بسرعة: "ما هذه؟".

فقال وولتر: "وما ظنك بها؟ إنها زجاجة شراب، شراب حقيقى. لكنه من مواد جيدة".

مد كامل يده المرتعشة نحو الزجاجة. كان وولتر لا يزال يمسك به فى وضع الجلوس، فنزع سدادة الزجاجة وحملها إلى شفتى العجوز.

مر أسبوع آخر، ولا تزال مارلينا عاكفة فى غرفتها. كنت أشعر برغبة شديدة فى إلقاء نظرة عليها حتى وجدت نفسى أفكر فى طريقة للتلصص عليها من النافذة دون أن يرانى أحد. ولحسن حظى، فقد منعنى حدسى الصادق من فعل ذلك.

وفى كل ليلة أستلقى على بطانية الحصان كريهة الرائحة فى ركن الغرفة، كنت أستعيد آخر حوار دار بيننا، وأستعيد كل كلمة من كلماته الغالية. كنت أتبع ذات المسار المؤلم لتصاعد الحوار بيننا بدءاً من اندفاعى إليها فى سعادة غير مقبولة وحتى انصرافى المؤلم. أعلم أن صرفها لى كان الشىء الوحيد الذى كانت تستطيع فعله، لكنى مع ذلك، لا أحتمله. إن مجرد التفكير فى الأمر كان يثيرنى؛ فأتلوى وأتقلب حتى يطلب منى وولتر الكف عن ذلك حتى يستطيع النوم.

ازداد النجاح مع كل مدينة ننتقل إليها. كنا فى الغالب نقيم يوما واحداً فى كل مدينة لكننا عموماً كنا نعرض يومين فى المدينة التى يتصادف وجودنا فيها يوم الأحد. وخلال رحلتنا من بيرلنجتون إلى كيوكوك، استطاع وولتر ـ باستخدام منحة ضخمة من الشراب ـ أن ينتزع من كامل اسم ولده وآخر مكان يعرف أنه كان يقيم فيه. وفى الوقفات التالية، كان وولتر يسير إلى المدينة بعد الإفطار مباشرة ولا يعود إلا قرب وقت بدء العرض. وبوصولنا إلى سبرنجفيلد، كان قد اكتسب بعض المعارف.

Amly نهضة العرب

فى البداية، أنكر ولد كامل علاقته به، لكن وولتر كـان لحوحـاً. ويومـاً بعد يوم وخلال ذهابه للمدينة، وبالتفاوض معه عبر التلغراف، وبحلول يوم الجمعة التالى، وافـق الولـد علـى ملاقاتنـا فـى مدينـة بروفيـدنس وعلـى أن يتحمل مسئولية رعاية والده. وكان هذا يعنـى أننـا سنـستمر فـى تـدبر أمـر إقامة كامل لدينا لعدة أسابيع قادمة، لكننا فـى النهايـة قـد أوجـدنا حـلاً. وأصبح لدينا اتفاق أفضل بكثير مما كنا نتوقعه.

فى مدينة تيرى هوتى، ماتت لافلى لوسيندا. وبعـد أن تعـافى العـم آل من ألم فقدها الذى كان قاسياً لكنه لم يدم لديه طويلاً، رتب وداعاً يليق بـ "رفيقتنا الغالية لافلى لوسيندا".

وبعد توقيع شهادة الوفاة بساعة، وضعت لوسيندا فى عربة فرس النهـر وجُرّت العربة بأربعة وعشرين فرساً من خيول البـيترون وقـد علقـت ريـشة على رأس كل واحد من هذه الخيول.

صعد العم آل ليجلس على المعقد بجوار سائق العربة، وهو فى حـال مـن الحزن الشديد كما يبدو، وبعد لحظة هز أصابعه إيـذاءنا ليبـدأ عمليـة وداع لوسيندا. حملت العربة لوسيندا وسارت بها ببطء فى شوارع المدينـة، بينمـا كان يسير خلفها كل أفراد سيرك بنزينى براذرز فى مناسبة ممتـازة للظهـور الجيد. كان العم آل مكتئباً، وكان يبكى وينوح فى منديلـه الأحمـر ويـسمح لنفسه بين حين وآخر بنظرة يقيس خلالها توزان سرعة المشهد مع إمكانيـة الاحتشاد الأكبر للناس.

كانت نساء العـرض تـسرن خلـف العربـة مباشـرة وقـد اتـشحن جميعـاً بالملابس السوداء وقد ضـغطن المناديـل ذات الحـواف الأنيقـة علـى أطـراف أعينهن. كنت بعيداً فى مؤخرة المشهد، محاطـاً مـن كـل جانـب بالرجـال الباكين، كانت وجـوههم تلمـع بـدموع أعيـنهم. لقـد وعـد العـم آل بثلاثـة دولارات وزجاجة شـراب لـمن يقـدم أفـضل أداء لـه. لا يمكنـك إذن تـصور مشهد حزن كهذا المشهد؛ حتى الكلاب أيضاً كانت تنوح.

Amly نهضة العرب

تبعنا من أهل المدينة إلى ساحة العرض ما يقارب الألف. وحين توقف العم آل على العربة صمتوا جميعاً.

نزع قبعته وضمها إلى صدره، ووضع المنديل بعنف على عينيه. ثم ألقى خطبة عاطفية فياضة، استطاع فيها بالكاد أن يتمالك نفسه. وفى نهاية الكلمة، قال إن الأمر لو كان بيده لألغى العرض هذه الليلة احتراماً لوفاة لوسيندا، لكنه لن يستطيع ذلك. فهذا أمر يخرج عن سيطرته. فهو رجل يحفظ شرف الكلمة، فلوسيندا وهى على فراش الموت أمسكت يده وجعلته يعدها ـ *بل يقسم* ـ أنه لن يكون موتها الوشيك سبباً فى وقف العرض أو إصابة آلاف الناس ممن انتظروه بخيبة الأمل.

قال العم آل: "لأنه فى نهاية الأمر..."، ثم توقف ووضع يده على قلبه وشهق بشكل يثير الشفقة. ونظر باتجاه السماء ودموعه تسيل على وجهه.

فبدأت النساء والأطفال يبكون بصوت عال. ووضعت إحدى النساء فى مقدمة الحشد يدها على جبهتها ثم انهارت أرضاً، فتجمع الرجال من حولها للإمساك بها قبل السقوط.

استجمع العم آل نفسه بجهد ملحوظ، رغم أنه لم يستطع منع شفته السفلى من الارتجاف؛ فأومأ ببطء ثم تابع جملته: "لأنه فى نهاية الأمر، كانت عزيزتنا لوسيندا تعلم تمام العلم أن.... *العرض لابد أن يستمر*".

كانت ليلة شديدة الازدحام ـ سمى العرض ليلتها "بيت القش" فبعد نفاد كل المقاعد، قام العمال بنشر قش على مضمار الخيل لتجلس عليه الأعداد المتزايدة من الجماهير.

بدأ العم آل عرض تلك الليلة بلحظة صمت. انحنى برأسه مستحضرا دموعه، وأهدى العرض لروح لوسيندا، التى كانت غيرتها المطلقة هى السبب الرئيسى فى استمرار العرض رغم ألم الفقد. وقال إننا سنقدم عرضا يجعلها تفخر بنا ـ نعم إن هذا هو دليل حبنا الوحيد لـ لوسيندا رغم الحزن الذى يهيمن علينا ويعتصر قلوبنا. إلا أننا سنستجمع قوتنا من أجل الوفاء بآخر رغبة لها ونجعل من العرض مصدر فخرها. إن

Amly نهضة العرب

هذه العجائب التى لم تروها أبداً، أيها السيدات والسادة، هذه المشاهد وهؤلاء العارضون جمعناهم لكم من أركان العالم الأربع من أجل إسعادكم وإمتاعكم، لدينا بهلوانات، ولاعبو سيرك، وبهلوانات أراجيح طائرة من أفضل طراز...

مر من العرض ما يقارب ربعه حين دخلت مع عرض الحيوانات، لقد شعرت بحضورها حتى قبل أن أسمع همهمات الإعجاب من حولى.

وضعت بوبو على أرضية قفصه. استدرت، وكان ظنى فى محله، لقد كانت هى، كانت تبدو رائعة فى ثيابها الوردية المطرزة وغطاء الرأس الرائع، كانت تنزع حبال خيولها وتسقطها أرضاً. كان بوز فقط هو الوحيد الذى ظل فى حبله ــ وهو جواد عربى أسود يبدو أنه قرين سيلفر ستار. وقد بدا بوز غير راض عن إبقائه فى حبله.

ملت على قفص بوبو، متسمراً فى مكانى.

تلك الخيول، التى أقضى معها ليلتى كلها متنقلين من مدينة إلى مدينة والتى تبدو لى كخيول عادية، انتابها الآن تغيير واضح، إنها تنفخ وتنخر، وأعناقها مقوسة، وذيولها مرفوعة، اصطفت فى مجموعتى رقص، مجموعة بيضاء والأخرى سوداء. ووقفت مارلينا أمامهم حاملة سوطين طويلين فى كلتا يديها. كانت ترفع أحدهما وتلوح به فوق رأسها وبدأت تسير إلى الخلف لتقودهم إلى خارج عرض الحيوانات، كانت الخيول حرة تماماً. لم يكن عليها حبال، أو أعنة، أو سرج، أو أى شىء. كانت فقط تتبعها بكل بساطة، وهى تهز رؤوسها وتندفع بأرجلها للأمام.

إننى لم أر عرضها أبداً قبل الآن ــ فأمثالنا ممن يعملون وراء الكواليس لا يجدون وقتاً لرفاهية مثل هذه ــ لكن لن يمنعنى شىء الآن من مشاهدة هذا العرض. أمنت باب قفص بوبو، وتسللت من ممر الاتصال؛ تلك الخيمة الطويلة غير المسقوفة التى تربط بين الحيوانات والحلبة الكبرى. نظر نحوى بائع التذاكر سريعاً، وحين أدرك أننى لست من الشرطة انخرط

Amly نهضة العرب

ثانية في عمله. كانت جيوبه تجلجل فقد امتلأت عن آخرها بالمال. وقفت بجواره أنظر عبر الحلقات الثلاث في نهاية الحلبة الكبرى.

أعلن العم آل عن عرضها، فدخلت إلى ساحة العرض. دارت وهي تحمل سوطيها عالياً وتضرب بهما الهواء. ومن خلفها اندفعت مجموعتا الخيول وهي تخطو بأرجلها عالياً، متبخترة بين الأبيض والأسود.

وحين وصلت إلى منتصف ساحة العرض، ضربت الهواء بسوطها بشكل خفيف بدأت الخيول تهرول حول دائرة العرض، الخمس البيض تتبعها الخمس السود. وبعد إتمام الدوران، كانت تهز سوطها، فتندفع الخيول السوداء حتى يبدأ كل واحد منها في الهرولة خلف واحد من المجموعة البيضاء. وبهزة سوط أخرى يستوى الصف ساكناً وقد أصبح متعاقب الألوان بين الأبيض والأسود.

تحركت حركة قصيرة فبرقت مطرزات ثيابها تحت الأضواء الباهرة للساحة، سارت في حدود دائرة صغيرة بمنتصف الحلبة، وهي تضرب بالسوطين في تشكيلات من الإشارات المختلفة.

استمرت الخيول في الدوران حول الحلبة بحيث تتخطى البيضاء السوداء ثم تعود السوداء فتتخطى البيضاء، فأصبحت الصورة النهائية للمشهد تبادلاً بديعاً في الألوان.

صاحت؛ فتوقفت الخيول. ثم قالت شيئاً آخر، فاستدارت الخيول وخطت لأعلى فأصبحت حوافرها الأمامية على حاجز الحلبة. بدأت الخيل في السير بشكل جانبي وذيولها باتجاه مارلينا وحوافرها الأمامية على الحاجز. دارت حول الحلبة دورة كاملة على هذه الهيئة قبل أن توقفها ثانية. فهبطت عن الحاجز واستدارت لتكون في مواجهتها. ثم استدعت ميدنايت للتقدم نحوها.

ميدنايت فرس رائع الحسن أسود اللون، كان فرساً عربياً خالصاً تخفي في جبهته غرة بيضاء رائعة المنظر. بدأت تحدثه، وقد أمسكت كلا

Amly نهضة العرب

السوطين في يد ومدت له الأخرى. فوضع فيها خطافه فتقوست رقبته وتموجت فتحتا أنفه.

تراجعت مارلينا خطوات وقد رفعت سوطها. كانت الخيول الأخرى تراقب وتتقافز في مكانها. ثم رفعت السوط الآخر وبدأت تضرب الهواء بطرفه للأمام وللخلف. فارتفع ميدنايت ـــ واقفاً على قدميه الخلفيتين، وقدميه الأماميتين معقوفتان أمامه. فصاحت نحوه بنداء ما ـــ كانت أول مرة ترفع صوتها في النداء ـ ثم تراجعت للخلف. وبدأ الحصان يتبعها، وهو سائر على خلفيتيه، مخترقاً الهواء بحافريه الأماميتين. جعلته على حالته تلك خلال دورة كاملة حول الحلبة، ثم جعلته يهبط بقدميه، وبلغة مشفرة أخرى من سوطها، انحنى ميدنايت فارتكز على ركبة إحدى قدميه الأماميتين وبسط الأخرى أمامه ثم انحنت مارلينا تحية للجمهور فانفجر الجمهور بالهتاف. ومع بقاء ميدنايت في حال انحناء، رفعت هي سوطيها وضربتهما. فبدأت بقية الخيول ترقص على قدم وهي تدور في دوائر في مكانها.

زاد ابتهاج الجمهور، وزاد ثناؤهم فبسطت مارلينا ذراعيها في الهواء، وهي تلتفت نحو كل قسم من الجمهور للسماح له بتحيتها. ثم استدارت نحو ميدنايت وانزلقت بخفة على ظهره المحني. فنهض، وعقف رقبته وانطلق حاملاً إياها إلى خارج الحلبة. وتبعته بقية الخيول متراصة حسب ألوانها يزاحم كل منها الآخر ليكون الأقرب لمليكته.

خفق قلبي بشدة؛ حتى أنني كنت أسمع حفيف الدم في أذني مع صخب الجمهور.لقد بلغ ميلي لها مداه، وانفجر حبي لها.

في تلك الليلة، وبعد أن غيب الشراب كامل عن العالم وعلا غطيط وولتر على فراشي، تركت الغرفة الصغيرة ووقفت أتطلع نحو مؤخرة مربط الخيل.

إنني أرعى هذه الخيول كل يوم، وأنظف روث مرابطها، وأملأ دلاء الماء والطعام لها وأفحص أسنانها وأساوي شعر رقابها. لقد تحولت تلك الليلة

Amly نهضة العرب

لتكون جزءاً اعتيادياً من مشاهدتى لها مثل كوينى تماماً، لكننى بعد مشاهدتى لعرض مارلينا الليلة لن أعود لأنظر لتلك الخيول ذات النظرة؛ فهذه الخيول امتداد لمارلينا ــ جزء لا يتجزأ منها، وقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ منى منذ تلك اللحظة.

مددت يدى نحو فاصل المربط فوضعتها على كفل أسود ناعم الملمس، إنه ميدنايت، وكان نائماً، فغمغم فى اندهاش واستدار برأسه. وحين رأى أننى الذى بجواره، عاد برأسه وتدلت أذناه، وأغمض عينيه، وغير من وضع نومه ليميل جسده على إحدى ساقيه الخلفيتين.

عدت إلى غرفة الماعز وتأكد من أن كامل لا يزال يتنفس. ثم استلقيت على فراش الحصان وانجرفت فى حلم ـ أرى فيه مارلينا ـ قد يكلفنى طهر روحى.

على طاولات تقديم الطعام فى الصباح التالى:

قال وولتر وهو يشدنى من مرفقى: "انظر إلى هذا الذى أراه".

"ماذا؟".

فأشار.

كان أوجست ومارلينا جالسين على طاولتنا المعتادة. هذه أول مرة يظهران فى موعد إحدى الوجبات منذ وقعت حادثة مارلينا.

دار وولتر بعينيه نحوى وقال: "هل ستكون على ما يرام؟".

فقلت فى توتر: "نعم، بالطبع".

فقال: "حسنا، إننى أتأكد فحسب". مررنا فى سيرنا بـ إزرا المترقب دائماً، ثم انصرف كل منا إلى طاولته.

قال أوجست وأنا أضع طبقى على الطاولة، وأتخذ مجلسى: "صباح الخيريا جاكوب".

فقلت وأنا أومئ لكليهما: "أوجست. مارلينا".

فتطلعت مارلينا ببصرها سريعاً ثم عادت لتنظر فى طبقها.

Amly نهضة العرب

قال أوجست: "وكيف حالك اليوم؟"، كان يغرس شوكته فى البيض المخفوق.

"أنا بخير. وماذا عنك؟".

فقال: "إننى بخير حال".

فسألت: "وكيف حالك يا مارلينا؟".

فقالت: "أفضل بكثير الآن. شكراً لك".

فقلت: "لقد رأيت عرضك ليلة أمس".

"حقا؟".

قلت "نعم"، وأنا أهز منديل المائدة وأبسطه فى حجرى وتابعت: "لقد كان عرضاً... إننى لا أجد من الكلمات ما يمكننى أن أصفه به. لقد كان مذهلاً حقاً. إننى لم أر شيئاً كهذا من قبل".

فقال أوجست رافعاً أحد حاجبيه: "أوه، أبداً؟".

"كلا. أبداً".

"حقاً".

فنظر لى فى جمود وقال: "حسبت أن عرض مارلينا هو أول الأسباب التى دفعتك للالتحاق بنا يا جاكوب. أم أننى مخطئ؟".

ارتجف قلبى فى صدرى. التقطت أدوات المائدة الخاصة بى: الشوكة بيدى اليسرى والسكين باليمنى ــ وهو أسلوب أمى الأوروبى.

ثم قلت: "كنت أكذب".

غرست الشوكة فى نهاية قطعة السجق وبدأت أقطعها وأنا أنتظر رده.

فقال: "عذراً؟".

فرميت بأدوات الطعام وقطعة السجق معلقة فى الشوكة ثم كررت: "*كنت أكذب، كنت أكذب*. حسناً! إننى بالطبع لم أسمع قط عن سيرك بنزينى براذرز قبل أن أقفز على القطار. فمن يسمع به أصلاً؟ إن السيرك الوحيد الذى شاهدته كان سيرك رينجلنج براذرز وكان عرضاً رائعاً. *رائعاً!* هل تسمعنى؟".

Amly نهضة العرب

ساد صمت مطبق. نظرت حولى مرعوباً. كان كل من بالخيمة يحدقون فىّ. وقد فُغِر فم وولتر، وكانت آذان كوينى ملتصقة برأسها. ومن بعيد كان أحد الجمال يخور بصوت عال.

وفى النهاية عدت ببصرى نحو أوجست. كان هو أيضاً محدقاً فىّ. وكان جانب فى شاربه يرف. رفعت منديلى ووضعته تحت طبقى، متحسباً إن كان سيقدم على مهاجمتى عبر الطاولة.

اتسعت حدقتا عين أوجست أكثر. فشددت مفاصل أصابعى تحت الطاولة. بعدها انفجر أوجست. لقد انفجر ضاحكاً حتى احمر وجهه، وهو يمسك وسطه محاولاً التقاط أنفاسه. ظل يضحك ويقهقه حتى سالت الدموع على وجهه وارتجت شفتاه من الإجهاد.

ثم قال وهو يمسح وجنتيه: "أوه، جاكوب. أوه، جاكوب. أظن أننى قد أسأت الحكم عليك. نعم بالطبع. لقد أسأت الحكم عليك". ثم ضحك وشهق بأنفه، ومسح وجهه بمنديله وتنهد قائلاً: "أوه يا عزيزى، أوه يا عزيزى"، ثم تنحنح والتقط أدواته ورفع بها بعض البيض ثم وضع الشوكة ثانية، ثم انفجر ضاحكاً مرة أخرى.

عاد الحضور على الموائد الأخرى لطعامهم، كارهين مقاطعة المشهد. مثل أولئك الذى احتشدوا ينظرون إلىّ وأنا أطرد أحد الأشخاص من الساحة فى أول يوم لى. لكنى لاحظت أن نظرة عيونهم وهم ينصرفون إلى طعامهم كانت نظرة ترقب.

• • •

تسبب موت لوسيندا بحدوث عجز خطير فى مجموعة الفلتات البشرية فى السيرك. ولابد لهذا النقص من تعويض. فكل عروض السيرك الضخمة تضم نساءً بدينات، ولابد أن تكون لدينا إحداهن.

بدأ العم آل وأوجست ينشران *الإعلانات*، وفى كل وقفة عرض كانوا يقومون باتصالات هاتفية ويرسلون التلغرافات فى سبيل تشغيل فتاة بدينة جديدة فى السيرك، لكن كل الفتيات المعروفات كن إما سعداء فى

Amly نهضة العرب

أوضاعهن الحالية أو مطلعات على حقيقة سمعة العم آل. وبعد أسبوعين وعشرة توقفات، اقترب العم آل الذى كان يائساً تماماً من إحدى النساء ذوات الأبعاد القياسية التى كانت بين الجمهور. وقد اتضح لسوء الحظ أنها زوجة مدير الشرطة. وقد لقى العم آل عيونا لامعة تتوهج بالشر بدلاً من أن يلقى امرأة بدينة، مع تعليمات بالمغادرة الفورية للمدينة.

كان أمامنا مهلة ساعتان للمغادرة، وسريعاً انعزل العارضون فى عربات قطارهم. ونهض العمال فى الحال يتسارعون فى كل اتجاه مثل دجاجات مذبوحة. كان العم آل محمر الوجه يكاد يلتقط أنفاسه بصعوبة، يلوح بعصاه ويضرب بها كل من يراه على غير السرعة التى يرجوها. بدأ إسقاط الخيام بسرعة شديدة حتى إن بعض الرجال كانوا يعلقون تحتها؛ فيأتى الرجال الذين يفكون خياماً أخرى لإخراج الرجال من تحت الخيمة قبل أن يختنقوا تحت هذه المساحات الضخمة من القماش ــ أو الأسوأ من ذلك، فى تقدير العم آل ــ أن يستخدموا سكاكينهم الخاصة فى عمل ثقوب للتنفس منها.

وبعد شحن كل الماشية، عدت إلى عربة خيول الحلبة. لم أكن معجباً بمنظر أهل المدينة وهم يحومون حول أطراف الساحة. كان كثير منهم مسلحين وساورنى شعور سيئ هيج علىّ معدتى.

لم أكن قد رأيت وولتر بعد. وقفت على باب العربة المفتوح أجول ببصرى جيئة وذهاباً باحثاً عنه فى أركان الساحة. كان الرجال السود قد اختبأوا بأنفسهم فى الفلاينج سكوادرون منذ وقت طويل، وربما اقتنع الغوغاء بمضايقة قزم أحمر الوجه بدلاً من مضايقة السود.

وبعد ساعة وخمس وخمسين دقيقة من أمر المغادرة الموجه لنا، ظهر وجهه مطلاً من فتحة الباب.

فصحت فيه: "اللعنة، أين كنت؟".

فصاح كامل بصوته المحشرج من خلف الصناديق: "هل أتى؟".

Amly نهضة العرب

فقلت ملوحاً له بالدخول: "هيا، اصعد، فالجماهير هنا تبدو عدائية جداً".

لم يتحرك من مكانه. كان محمر الوجه ولاهث الأنفاس ثم قال: "أين كوينى؟ هل رأيت كوينى؟".

"كلا، لماذا؟".

فاختفى.

فنهضت خلفه نحو الباب منادياً إياه: "وولتر! وولتر! إلى أين أنت ذاهب؟ لقد أُطلقت صافرة الدقائق الخمس!".

كان يعدو بموازاة القطار، ويحنى رأسه بسرعة لينظر بين عجلات القطار ثم يعتدل وينادى: "تعالى يا كوينى، هيا إلىّ الآن يا فتاتى"، ويتوقف أمام كل عربة ماشية، منادياً من خلال شرائحها الخشبية، ومنتظراً رداً من الداخل. كان ينادى: "هيا يا كوينى، إلىّ الآن".

وكان صوته فى كل مرة يزداد يأساً من العثور عليها.

أطلقت صافرة الانطلاق، تلاها صوت تحذير طويل هو صوت هسهسة وفرقعة محرك القطار.

تحشرج صوت وولتر وقد بح من الصياح وهو ينادى: "كوينى! أين أنت يا كوينى؟ تعالى!".

فى المقدمة كان آخر العمال يقفزون سريعاً على العربات المسطحة.

صحت به: "وولتر، هيا! لا تتسكع. عليك بالصعود الآن".

لكنه تجاهلنى وصعد على إحدى العربات المسطحة ينظر بين عجلات العربات المشحونة عليها ويصيح: "كوينى، تعالى!"، ثم توقف واعتدل فجأة وبدا تائهاً وهو ينادى فى المجهول: "كوينى؟".

قلت: "أوه، اللعنة".

فسأل كامل: "ألن يعود؟".

فقلت: "لا يبدو ذلك".

فصرخ قائلاً: "اذهب وائت به إذن".

Amly نهضة العرب

تقدم القطار، واهتزت العربات قبل أن يشد انطلاق المحرك ارتخاء عقد اتصالها.

قفزت علي حصا السكة وعدوت باتجاه العربات المسطحة. كان وولتر يقف مواجهاً المحرك.

لمست كتفه قائلاً: "وولتر، لقد حان أوان الرحيل".

فاستدار نحوى، وعيناه تذرفان الدمع وقال: "أين هى؟ هل رأيتها؟".

فقلت: "كلا، هيا يا وولتر. علينا أن نصعد القطار الآن".

بدأ القطار في حركته مصدراً صوت انفجاراته المتتالية القصيرة، وهو يستجمع بخار انطلاقه.

نظرت خلف القطار؛ فإذا بأهل المدينة، المسلحين بالبنادق، ومضارب البيسبول والعصى قد اندفعوا للأمام خلف القطار. فنظرت للقطار ثانية مستجمعاً سرعتى، وبدأت أعد، داعياً الله التوفيق: *واحد، اثنان، ثلاثة، اربعة.*

حملت وولتر لأعلى مثل سلة زهور قاذفاً به إلى داخل القطار. ثم انطلقت أعدو بجوار القطار وأمسكت القضيب المعدنى المجاور للباب. تركت القطار يجذبنى مقدار ثلاث خطوات، واستخدمت سرعته فى الوثب للداخل.

تدحرجت بوجهى على أرضية العربة. وحين أدركت أننى بأمان، رفعت وجهى نحو وولتر متأهباً للتعارك معه.

لكنه كان مكوماً فى ركن الغرفة وهو يبكى.

لم يكن من الممكن مواساة وولتر. لقد ظل فى مكانه وأنا أشد الصناديق وأخرج كامل من خلفها. وقمت بحلاقة ذقنه العجوز ــ وقد كان عملاً يتطلب اشتراك ثلاثتنا فيه ــ ثم سحبته للخارج فى منطقة الخيول.

قال كامل: "أوه، عليك تجاوز الأمر يا وولتر"، كنت أحمله من تحت إبطه، مدلياً إليته العارية، والتى يسميها وولتر دلو العسل. فتابع قوله:

Amly نهضة العرب

"لقد فعلت ما بوسعك"، ثم استدار نحوى من بين كفيه وقال: "هلا أخفضتنى قليلاً؟ فالنسيم يعصف بى هنا".

باعدت بين قدمى، محاولاً إحالة كامل بزاوية أكبر محافظاً فى الوقت ذاته على استقامة ظهرى. عادة ما يقوم وولتر بهذا الجزء لأنه يتطلب طوله لا أكثر.

قلت لـ وولتر وقد بدأت بعض التقلصات تنطلق من ظهرى: "هلا مددت لى يد المساعدة يا وولتر؟".

فقال: "اصمت".

فعاد كامل بنظرة ثانية مع حاجب مرفوع هذه المرة.

فقلت: "لا بأس. لا بأس".

فصاح وولتر من زاويته: "بل بالأمر صعب. إن كوينى كانت هى كل ما أملك، هل تفهم ما أقول؟"، ثم مال صوته إلى البكاء وهو يكرر: "كانت كل ما أملك".

لوح كامل إلىّ بيده مشيراً إلى أنه قد انتهى؛ فسحبته مسافة قدمين وألقيته على جنبه.

قال كامل وأنا أنظفه: "هذا ليس صحيحاً، فشاب مثلك لابد أن لديه أسرة فى مكان ما".

"أنت لا تعرف شيئاً".

فقال كامل فى إصرار: "أليس لديك أم فى مكان ما؟".

"ليس لى حاجة بها".

فقال كامل: "لا تتحدث بتلك الطريقة".

ثم نظر نحونا قائلاً: "ولم لا؟ وهى التى قد باعتنى لهذا العالم وأنا لم أتجاوز الرابعة عشرة"، ثم تابع بسرعة: "ولا تنظرا إلىّ هكذا وكأنكما تأسفان على حالى. لقد كانت عجوزاً شمطاء على أية حال. من الذى يحتاج إلى مثلها؟".

قال كامل: "ماذا تقصد بأنها *باعتك*؟".

Amly نهضة العرب

"حسناً، لأننى لا أصلح لعمل الحقول. هل فهمتما؟ اتركانى إذن لحالى لو تفضلتما".

أعدت سروال كامل لوضعه وسحبته من إبطيه، وعدت به إلى الغرفة. كانت ساقاه تنجران خلفه، وأعقاب قدميه تحك بأرضية الغرفة.

قال وأنا أضعه فى السرير: "يا رجل، يا رجل، أليس ذلك بشعاً؟".

فقلت محاولاً تغيير مجرى الحديث: "هل تريد بعض الطعام؟".

فهز رأسه فى حزن وقال: "كلا، ليس بعد. لكن بعض الشراب يكفينى. إننى لم أسمع بامرأة فى قسوة هذه المرأة".

فصاح وولتر: "ما زلت أستطيع سماع حديثكما. فضلاً عن أنك لا تملك حق الحديث فى هذا الأمر أيها العجوز. متى كانت آخر مرة رأيت فيها ولدك؟".

شحب وجه كامل.

فتابع وولتر حديثه من خارج الغرفة: "إه؟ لا يمكنك الإجابة، أليس كذلك؟ ليس هناك فارق كبير على ما يبدو بينك وبين أمى".

فصاح كامل: "بل هناك فارق؛ بل فارق ضخم جداً. كيف لك أن تعرف ما فعلته على أية حال؟".

فقلت بهدوء: "لقد ذكرت ولدك مرة واحدة أثناء حالة ضيق كنت بها".

نظر إلىّ كامل للحظة، ثم تغضن وجهه. ثم رفع يده العاجزة إلى جبهته وأشاح بوجهه عنى قائلاً: "أوه، اللعنة. اللعنة. لم أدر أبداً أنك كنت تعرف. ما كان علىّ إخبارك".

فقلت: "ظننت أنك قد تذكرت الآن. على أية حال، هو لم يقل الكثير. لم يقل سوى أنك رحلت".

فدار كامل نحوى برأسه وقال: " *قال؟ قال؟* ماذا يعنى هذا؟ هل أنت على اتصال به؟".

Amly نهضة العرب

هبطت إلى الأرض وأرحت رأسى بين ركبتىّ. ستكون هذه الليلة ليلة طويلة.

قال كامل وهو يرتج: "ماذا تعنى بأنه *قال*؟ إننى أسألك!".

فتنهدت قائلا: "نعم. نحن على اتصال به".

"منذ متى؟".

"منذ فترة".

فحدق فىّ مذهولاً: "لكن لماذا؟".

"سيقابلنا فى بروفيدنس ويأخذك معه".

فصاح كامل وهو يهز رأسه بعنف: "أوه، كلا. أوه، لن يفعل".

"كامل ـــ"

"ما الذى جعلكم تقدمون على هذا؟ ليس لديكم الحق فى ذلك".

صحت قائلاً: "ليس أمامنا خيار آخر!"، ثم توقفت. أغلقت عينىّ واستجمعت هدوئى وكررت: "لم يكن لدينا خيار آخر. كان علينا أن نفعل شيئاً".

"لا يمكننى العودة! أنت لا تدرى ما حدث. إنهم لم يعودوا يريدون عودتى ثانية".

بدأت شفتاه ترتجفان، ثم أغلق فمه ونأى بوجهه بعيداً. وبعد لحظة بدأ كتفاه يرتجان.

فصحت رافعاً صوتى لما وراء الباب المفتوح: "أوه اللعنة، شكراً لك يا وولتر؛ لقد أسديت لى الليلة صنيعاً أقدره لك بكل تأكيد".

فأجاب: "اذهب للجحيم!".

اطفأت المصباح وزحفت إلى فراش الحصان. استلقيت على سطحه الخشن ثم نهضت ثانية.

صحت قائلاً: "هاى، وولترا إن لم تكن تنوى القدوم، فإننى سأنام على فراشى".

ولم أتلق أية إجابة.

Amly نهضة العرب

"هل تسمعنى؟ سأستخدم الفراش".

انتظرت دقيقة أو اثنتين ثم زحفت عبر الأرضية.

قضى وولتر وكامل ليلهما فى إصدار الأصوات التى تصدر من الرجال حين يحاولون منع أنفسهم من البكاء، وقضيت أنا ليلتى واضعاً الوسادة على أذنيّ حتى لا أسمع ضجيجها.

• • •

استيقظت على صوت مارلينا.

"هل يمكننى الدخول؟".

فتحت عينى بسرعة. كان القطار متوقفاً، ويبدو أننى بقيت نائماً أثناء توقفه. وحال يقظتى كنت مذعوراً أيضاً لأننى كنت أحلم بمارلينا، وللحظة تخيلت أننى ما زلت فى نومى.

"مرحباً؟ هل من أحد بالداخل؟".

نهضت على مرفقى ونظرت نحو كامل. كان يرقد على سريره، وعيناه متسعتان ذعراً. كان باب الغرفة مفتوحاً طوال ليلة أمس. نهضت على الفور.

اندفعت لمقابلتها مغلقاً الباب خلفى وقلت: "أوه، لحظة واحدة وسأوافيك".

كانت بالفعل تصعد إلى العربة وقالت وهى تنظر نحو وولتر: "أوه، مرحباً. كنت فى الواقع أبحث عنك. هل هذه كلبتك؟".

فدار رأس وولتر سريعاً حوله وقال: "*كوينى!*".

مالت مارلينا لتطلقها، لكن كوينى تملصت حتى قبل ذلك، واصطدمت بالأرض فى صوت مكتوم. فضربت الأرض حين اصطدامها ثم قفزت نحو وولتر، وأخذت تلعق وجهه وهى تهتز للخلف على نحو متسارع.

أعطاها وولتر وجهه وهى تهتز وتتلوى فى سعادة وهو يقول لها: "أوه، كوينى! أين كنت أيتها الفتاة *الشريرة*؟".

استدرت نحو مارلينا وسألتها: "أين كانت؟".

Amly نهضة العرب

قالت وعيناها لا تزال باتجاه وولتر وكوينى: "كان تجرى بجوار القطار حين انطلقنا بالأمس. وقد رأيتها من خلال النافذة فأرسلت أوجى لالتقاطها. وقد استلقى على بطنه عند حافة العربة والتقطها".

فقلت: "أوجست فعل ذلك؟ حقاً؟".

"نعم، وقد عضته بعد ذلك جزاء ما فعله معها".

لف وولتر ذراعيه حول كلبته ووضع رأسه فى شعرها. راقبته مارلينا للحظات أخرى ثم استدارت نحو الباب.

فقلت وأنا أمد يدى نحو ذراعها: "مارلينا".

فتوقفت.

فقلت وأنا أنزل يدى: "شكراً لك. لا تتصورى ما كانت تعنى له هذه الكلبة؛ بل لكلينا فى حقيقة الأمر".

رمقتنى بنظرة سريعة ـ مع ابتسامة قصيرة ـ ثم أطلت نحو خيلها من الخلف وقالت: "نعم. نعم. أعتقد ذلك".

تندت عينى بدموعى وهى تهبط منصرفة من العربة.

قال كامل: "حسناً، من يدرى، لعل به بعض الإنسانية على أية حال".

قال وولتر: "من؟ أوجست؟"، ثم انحنى وأمسك مقبض الصندوق وجره عبر الغرفة. كنا نرتب الغرفة حسب الوضع النهارى لها، وقد كان وولتر يشارك بنصف الجهد لأنه كان مصراً على حمل كوينى تحت ذراعه قائلا: "لن أدعها ثانية أبداً".

قلت: "يمكنك تركها الآن؛ فالباب مغلق".

استطرد كامل فى حديثه قائلاً: "لقد أنقذ كلبتك".

فقال وولتر وهو يمد خطامها إلى وجهه: "ما كان لينقذها لو علم أنها كلبتى. وكوينى تعلم ذلك. ولهذا قامت بعَضِّه، أليس كذلك يا صغيرتى؟"، وبدأ يداعبها مداعبة الأطفال ويقول: "نعم، إن كوينى فتاة ذكية".

"ما الذى يجعلك تظن أنه لا يدرى. إن مارلينا تعرف أنها كلبتك".

Amly نهضة العرب

"لأننى أعرف وحسب. ليس لدى هذا اليهودى اللعين مثقال ذرة من إنسانية".

فصحت به: "انتبه لأسلوبك فى الحديث".

توقف وولتر ونظر نحوى: "ماذا؟ أوه، مرحى، هل أنت يهودى أيضاً؟ أنا آسف يا رجل لم أقصد الإهانة، قصدت ازدراءه فقط".

فقلت وأنا لا أزال أصيح: "نعم كان ذلك ازدراء. الكل يزدرى الكل هنا، وقد سئمت هذا الازدراء كله. فإن كنت عارضاً، فإنك تزدرى العمال، وإن كنت عاملاً، فإنك تزدرى البولنديين، وإن كنت بولندياً تزدرى اليهود. وإذا كنت قزماً ــ حسناً، قل لى يا وولتر، أتكره اليهود والعمال فقط، أم أنك تكره البولنديين أيضاً؟".

احمر وجه وولتر ونظر إلى الأرض قائلاً: "أنا لا أكرههم. أنا لا أكره أحداً على الإطلاق"، ثم أضاف بعد لحظات: "حسنا، إننى أكره أوجست حقاً. لكننى أكرهه لأنه رجل بغيض".

قال كامل بصوته المتحشرج: "ألا يمكننا التوقف عن مناقشة ذلك".

فأخذت أبدل نظرى بينهما ثم قلت: "كلا. بالفعل لا يمكن التوقف عن مناقشة ذلك".

فى هاملتون، تجاوزت درجة الحرارة حاجز التسعين، وكانت الشمس تلفح الساحة بحرارتها بلا رحمة، وفقدنا عصير الليمون.

فاندفع مسئول العصير غاضباً نحو العم آل، وكان قد ترك دلو الخلط الضخم لبضع دقائق، فاقتنع أن العمال هم المسئولون عن ذلك.

فنادى العم آل لجمعهم. فبدأوا يظهرون من خيمة الإسطبل وخيمة عرض الحيوانات، وعليهم آثار النوم وقد تعلق القش برؤوسهم. وقد لاحظت من بعيد أنه من الصعب التشكيك فى براءة هؤلاء الرجال من ضياع الليمون.

لكن من الواضح أن العم آل لم ير ذلك. فقد اندفع بينهم جيئة وذهاباً هائجاً وكأنه جنكيزخان فى تدقيق عسكرى، صرخ فى وجوههم مفصلاً

Amly نهضة العرب

تكاليف عصير الليمون المسروق من خلال عرض تكلفة التوريد، وصفقات العرض المفقودة. وأخبرهم أنه في حال تكرار هذه السرقة فستخصم من راتب كل منهم. ثم ضرب بعضهم على رأسه وهو يصرفهم. فتكوموا ثانية في أماكن راحتهم وهم يحكون رؤوسهم وكل منهم ينظر في تشكك نحو الآخر.

وخلال عشر دقائق فقط وقبل فتح البوابة، كان الرجال في ركن العصائر قد قاموا بإعداد كمية أخرى من عصير الليمون مستخدمين مياهاً من دلاء الحيوانات. قاموا بترشيح ما يعلوها من بقايا الشعير، والقش، والشعر باستخدام جورب أعطاهم إياه أحد المهرجين، وفي الوقت الذى بدأوا يضعون فيه "الطافيات" ـ فقد قطعت شرائح الليمون الضخمة على نحو يوحي بأنها تنتمي بشكل ما إلى أنواع الفاكهة ـ كانت جموع الجماهير قد وصلت إلى جناح الملاهى، ولا أدرى إن كان ذلك الجورب الذى رشحت به المياه نظيفاً أم لا، لكنى لم ألحظ أن أحداً ممن شرب الليمون في هذا اليوم قد استاء منه.

في دايتون ضاع الليمون مرة أخرى. ومرة أخرى صنعت جرة أخرى باستخدام ماء سقي الحيوانات وجهزت قبل لحظات من قدوم الجماهير.

هذه المرة، حين اجتمع العم آل بكل المشتبه فيهم، وبدلاً من أن يخصم من رواتبهم وهو تهديد لا معنى له ـ لأنهم لا يحصلون على أجورهم منذ ثمانية أسابيع ـ أرغمهم على أن يتخلصوا من فضلات الحيوانات شديدة الاهتياج ويحملونها بأنفسهم لمسافات بعيدة.

لقد آذى سارق العصير العمال بشدة، وقد دبروا لكشف الأمر. فحين وصلنا إلى كولومبس، اختبأ بعضهم خلف آنية العصير ليروا من يسرقه.

قبل موعد العرض بوقت قصير، استدعاني أوجست إلى خيمة ملابس مارلينا كي أرى إعلاناً رتب لنشره عن الحاجة إلى حصان سيرك أبيض. كانت مارلينا وجدت أنها في حاجة إلى واحد آخر لأن مجموعة من اثنى عشر حصان عرض أفضل من عشرة فقط. فضلاً عن أن مارلينا تظن أن بوز

Amly نهضة العرب

متأثر من تركه وحيداً في معرض الحيوانات في حين تكون الخيول الأخرى في العرض. هذا ما قاله أوجست، لكنني أعتقد أنه كان يعيد احتوائي بعد انفجاري الأخير في خيمة الطعام. إما أن يكون هذا هو السبب، أو أن يكون أوجست قد قرر أن يقرب منه أصدقاءه وأن يقرب أعداءه أكثر.

كنت جالساً على كرسي قابل للطي واضعاً *الإعلان* في حجري وعليه زجاجة في يدي. كانت مارلينا أمام المرآة تعدل رداءها استعداداً للعرض، وكنت أحاول منع نفسي من النظر إليها. وفي المرة التي التقت فيها عيوننا في المرآة، تسارعت أنفاسي، واحمر وجهها، ثم نأى كلانا ببصره.

لم يع أوجست هذه النظرة؛ فقد كان يضم أزرار معطفه ويتحدث في مودة حين اندفع العم آل مقتحماً الخيمة.

استدارت مارلينا وقد ثار غضبها: "هاي — ألم تسمع قط بآداب الاستئذان قبل الدخول لخيمة ملابس سيدة؟".

لم يعرها العم آل انتباهه. وسار مباشرة نحو أوجست وزرع أصبعه في صدره صارخاً: "إنها *فيلتك اللعينة*".

نظر أوجست للأصبع المضغوط في صدره، فتوقف لحظات، ثم أخذه بازدراء من إبهامه وسبابته. وأزاح يد العم آل بعيداً، ثم أخرج منديلاً من جيبه ومسح به رذاذه من على وجهه.

وفي نهاية تلك الإجراءات قال: "معذرة؟".

فأعاد العم آل صارخاً وهو يرش وجه أوجست برذاذ فمه: *"إن سارق الليمون هي فيلتك اللعينة*. لقد كانت تنزع وتدها، وتأخذه معها، وتذهب لتشرب عصير الليمون، ثم تعود فتثبت الوتد في الأرض كما كان!".

صفقت مارلينا بيدها على فمها، لكن في الوقت غير المناسب.

فدار نحوها العم آل، وهو يشتعل غضباً: "هل ترين ذلك مضحكاً؟ *هل ترين ذلك مضحكاً؟*".

فامتقع وجهها.

Amly نهضة العرب

نهضت من مقعدى وتقدمت قائلاً: "حسناً، عليك إذن أن تعترف بأن ثمة ـــ"

استدار العم آل، ووضع كلتا يديه فى صدرى ودفعنى بكل قوة فسقطت فى آخر الخيمة على أحد الصناديق.

ثم استدار إلى أوجست وقال: "هذه الفيلة اللعينة تكلفنى الكثير! إنها السبب فى عدم قدرتى على دفع أجور العمال والاهتمام بالعمل ومضايقة رجال السكك الحديدية لنا! مقابل ماذا؟ إنها حيوان لعين لا يقدم عروضا، لكنه يسرق عصير الليمون!".

قال أوجست بحدة: " آل، انتبه لألفاظك. أذكرك بأنك تتحدث فى حضور سيدة".

دار رأس العم آل ونظر نحو مارلينا دون أسف ثم التفت ثانية إلى أوجست.

قال: "وودى سيخبرك بتكلفة الخسائر. وسأخصمها من راتبك".

فقالت مارلينا بهدوء: "لقد خصمتها من رواتب العمال بالفعل. هل ستعيد إليهم ما خصمته إذن؟".

رمقها العم آل بنظرة، وقد أعجبنى تعبير وجهه قليلاً فتقدمت للأمام حتى أصبحت بينهما تقريباً، فعاد إلىّ ببصره وأسنانه تصطك غضباً. ثم استدار وانصرف.

قالت مارلينا وهى تعود لطاولة زينتها: "يا له من أحمق. لم أتمكن من إتمام زينتى".

كان أوجست يقف صامتاً تماماً. ثم تناول قبعته العالية والخطاف.

لاحظت مارلينا ذلك من مرآتها، فقالت بهدوء: "إلى أين أنت ذاهب؟ أوجست، أين تذهب؟".

اتجه نحو الباب.

جذبته من ذراعه وهي تقول: "أوجى! أين أنت ذاهب؟".

فقال وهو يهز يدها مبعداً إياها: "لن أكون أنا من يدفع ثمن العصير وحده".

Amly نهضة العرب

تعلقت بذراعه ثانية وقالت: "أوجست، كلا!"، وفى هذه المرة دفعت بثقلها عليه، مانعة إياه من المغادرة وهى تقول: "أوجست، انتظر. بالله عليك انتظر. إنها لم تكن تعلم، سنعمل على تأمينها بشكل أفضل فى المرة القادمة ـــ"

تحرر أوجست فسقطت مارلينا على الأرض. نظر نحوها باشمئزاز تام. ثم ثبت قبعته على رأسه واستدار منصرفاً.

فقالت صارخة: "أوجست! توقف!".

دفع فتحة الخيمة ليفتحها وانصرف. جلست مارلينا، مذهولة فى نفس المكان الذى سقطت فيه. تابعت نظراتى بين فتحة الخيمة وبينها.

ثم قلت وأنا أقصد باب الخيمة: "سأذهب خلفه".

"كلا؛ انتظر".

فتجمدت فى مكانى.

ثم قالت بصوت خفيض وخاو: "لا فائدة. لا يمكنك إيقافه".

"يمكننى المحاولة. إننى لم أفعل شيئاً فى المرة السابقة ولن أغفر لنفسى السكوت هذه المرة".

"أنت لا تفهم! ستزيد الأمر سوءاً! جاكوب، أرجوك. فأنت لا تفهم".

استدرت لأواجهها وقلت: "بالفعل! أنا لا أفهم! لا أفهم أى شىء على الإطلاق؛ هلا أوضحت لى ما أجهل لو سمحت؟".

فاتسعت حدقتا عينيها، واستدار فمها. ثم دست وجهها بين يديها وانفجرت باكية.

نظرت نحوها، مروعاً ثم هبطت على ركبتى وضممتها بين ذراعى قائلاً: "أوه، مارلينا، مارلينا ـــ"

فهمست فى صدرى: "جاكوب"، ثم تشبثت بى بقوة وكأنى أحول بينها وبين الغرق.

Amly نهضة العرب

الفصل السادس عشر

"سيد جانكوسكى اسمى *روزمارى*، وليس روزى!".

فزعت وأنا أعود لوعيى، وطرفت عينى بفعل ضوء المصباح الفلورسنت الذى أعرفه جيداً.

ارتفع صوتى نحيلاً، منكسراً: "إيه؟ ماذا؟". كانت امرأة سوداء تميل نحوى وتضع شيئاً حول ساقى. كان شعرها ناعماً ومعطراً.

قالت وهى تعتدل: "لقد دعوتنى روزى منذ دقيقة. إن اسمى *روزمارى*، أليس أفضل من روزى؟".

حدقت فيها. أوه، يا إلهى. إن هذا واقع. إننى عجوز ومستلق فى سرير. انتظر لحظة ـ لقد دعوتها روزى؟

"هل كنت أتحدث؟ *بصوت عال؟*".

فضحكت وقالت: "أوه يا عزيزى، نعم، نعم سيد جانكوسكى؛ لقد كنت تتحدث بسرعة وتواصل منذ أن تركنا غرفة الطعام فى وجبة الغداء. لقد أتعبت أذنى".

احمر وجهى. وحدقت فى الأصابع المعقوفة فى حجرى. الله وحده يعلم ما قد قلته. كل ما أعرفه هو أننى كنت أفكر، وكان هذا التفكير يشير للماضى ـ حتى وجدت نفسى هنا فجأة، والآن، ظننت أنى كنت *هناك*.

قالت روزمارى: "لماذا، ما الأمر؟".

"هل أنا... هل قلت أى شىء... أنت تعرفين، *شىء محرج*؟".

Amly نهضة العرب

"يا إلهى، بالقطع لا! أنا لا أفهم لماذا لم تخبر الآخرين؛ كل الذاهبين إلى السيرك والجميع. إننى على ثقة من أنك لم تحدث أحداً بذلك الأمر؛ أليس كذلك؟".

نظرت إلىّ روزمارى فى ترقب ثم انعقد حاجباها. فجذبت كرسياً وجلست بجوارى وقالت فى لطف: "ألا تذكر أنك قد حدثتنى فى أمر السيرك؟".

فهززت رأسى.

فأخذت يدى بين يديها. وكانت يداها دافئتين وبضتين. ثم قالت: "إنك لم تقل ما يخجل يا سيد جانكوسكى. أنت رجل طيب وأنا فخورة بمعرفتك".

امتلأت عينى بالدموع، وطأطأت رأسى حتى لا ترى.

"سيد جانكوسكى ــــ"

"إننى لا أريد الحديث فى الأمر".

"أمر السيرك؟".

"كلا. بل... أوه اللعنة، ألا تفهميننى؟ *إننى لم أدرك أننى كنت أتحدث.* هذه بداية النهاية. هذه بداية المخدر ولم يعد أمامى الكثير. لكنى آمل بأن أظل على عقلى للنهاية".

"لا تزال فى كامل عقلك سيد جانكوسكى. إنك لا تزال يقظ العقل كأنك شراع قارب".

ثم ساد بيننا الصمت لدقيقة.

"إننى خائف يا روزمارى".

فسألتنى: "هل تريد منى أن أتحدث مع الدكتورة راسهيد؟".

فأومأت بالإيجاب. فنسلت دمعة من عينى واستقرت فى حجرى. فتحت عينى بشدة أملاً أن تكبح دموعها.

"بقيت ساعة قبل أن تستعد للذهاب. هل تريد الاستراحة قليلاً؟".

Amly نهضة العرب

أومأت ثانية فربتت علي يدى مرة أخرى، وأنزلت رأسى وغادرت. استلقيت على ظهرى منصتاً لطنين المصباح ومتأملاً البلاطات المربعة للسقف المعلق. كان يشبه مقداراً ضخماً من الفشار المضغوط، أو كعك الأرز الذى لا طعم له.

لو أنى صادق مع نفسى بما يكفى، فإن علىّ الإقرار بأن هذه هى علامات الانزلاق الأخير.

فى الأسبوع الماضى، حين أتت أسرتى لزيارتى، لم أكن أعرفهم. بل ادعيت ذلك ـــ فحين اتجهوا نحوى أدركت أنهم آتون لرؤيتى أنا، فابتسمت وكررت عبارات الاطراء المعتادة من قبيل: "أوه، نعم. نعم."، "يا كرم الله." وهى عبارات أنهى بها معظم حواراتى هذه الأيام. ظننت أن حديثى كان على ما يرام حتى اعتلت وجه الأم نظرة غريبة. كانت نظرة ارتياح، وقد تغضنت جبهتها وتدلى فكها قليلاً. فاسترجعت كلامى فى الدقائق الأخيرة للحديث وأدركت أننى أخطئ فيما أقول، وأن ما قلته على النقيض تماماً مما كان علىّ قوله. بعد ذلك شعرت بالخزى الشديد، فأنا لا أكره إيزابيلا. أنا فقط لا أعرفها، كذلك كان من الصعب علىّ متابعة تفاصيل غنائها الراقص البشع الذى كانت تؤديه.

حين عرفت إيزابيلا إذن فإنى قد استدرت نحوها وضحكت، وفى تلك اللحظة تحديداً رأيت وجه زوجتى؛ الأمر الذى جعلنى أبكى وجعل هؤلاء الناس الذى يحيطون بى، ولم أكن أعرفهم، يتبادلون النظرات خلسة. وبعد قليل قرروا أنه قد حان وقت الرحيل لأن الجد يحتاج لبعض الراحة. ربتوا على يدى ولملموا غطائى حول ركبتى، وغادروا. خرجوا إلى الطعام، وتركونى هنا. وحتى ذلك اليوم وأنا لا أدرى من كانوا.

لا تسيئوا فهمى، فأنا لا أزال أعرف أولادى ـــ لكن هؤلاء ليسوا أولادى، وأولادهم أيضاً، وربما أولاد أحفادهم. فهل داعبت وجوههم الطفولية؟ هل تناولت أحدهم وأجلسته على ركبتى؟ لقد كان لدىّ ثلاثة أولاد وبنتان، بيت كبير بلا شك، وقد تضاعف عددهم جميعاً. فلك أن

Amly نهضة العرب

تنـرب خمسة فى أربعة ثم تعيد ضرب الناتج فـى خمـسة، ولا عجـب مـن أننى لا أعرف من منهم ابن من. ولا يجدى فى ذلـك تنـاوبهم علـى القـدوم إلىّ، لأنه حتى لو استطعت الاحتفـاظ بفـوج مـنهم فـى ذاكرتـى، فقـد تمـر ثمانية أشهر أو تسعة لا يأتون فيها. وفى خلال تلك المدة أكون قـد نـسيت كل ما وعيته.

لكن ما حدث اليوم كان مختلفاً تماماً وأكثر إثارة للفزع.

فماذا يا ترى قلت فيٍ غفوتى هذه؟

أغلقت عينى محاولاً الوصـول للأركـان البعيـدة مـن عقلـى. إنـه لم يعـد محدداً على نحو واضح. إن عقلى أصبح مثل كوكب ترق طبقات غـازه أكثـر وأكثر. لكن هذه الغازات لا تصير إلى العدم. فإن بإمكانى الـشعور بـشىء مـا هناك، لكنه بعيد عن تناولى، وهو يحـوم وينتظـر ـــ وليـساعدنى الله إن لم أكن أنحدر نحوه ثانية، ففمى يتسع على مصراعيه.

Amly نهضة العرب

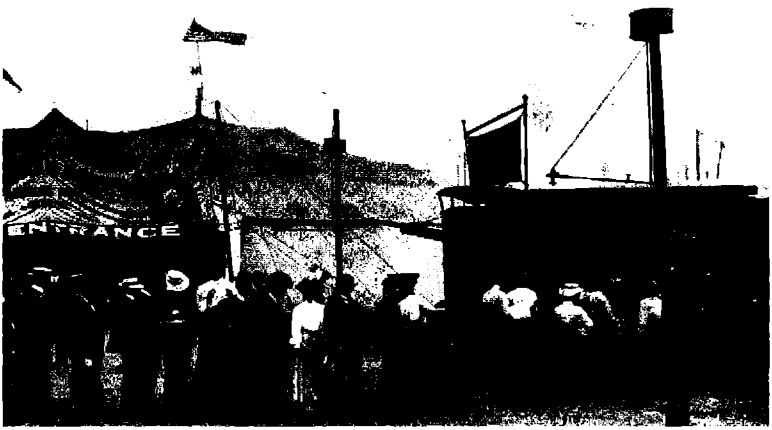

Amly نهضة العرب

الفصل السابع عشر

بينما كان أوجست يفعل بروزى ما الله أعلم به، تكومت أنا وماركلينا على عشب أرضية الخيمة، والتصق أحدنا بالآخر كما تفعل القردة العنكبوتية، لم أقل شيئاً تقريباً؛ فقد كنت أحمل رأسها على صدرى وهى تسرد تاريخها فى همسات متلاحقة.

حكت لى عن لقائها الأول بأوجست حين كانت فى السابعة عشرة من عمرها، كان ذلك حين بدأت تدرك أن سيل زائرى أسرتها من الرجال فى مناسبات العشاء ـ ما هو سوى قائمة مرشحين للزواج منها. وحين تكرر ظهور أحدهم على مائدة العشاء وكان مصرفياً فى منتصف عمره، ذقنه دقيقة، وشعره حليق، وأصابعه هزيلة ـ أدركت أن أبواب مستقبلها توصد من حولها.

وفى الوقت الذى كانت مارلينا تدس وجهها فى طبق حساء السمك مع البصل والبطاطس مفزوعة من الحديث البشع لذلك المصرفى، كانت ملصقات إعلانية قد بدأت تغطى جدران المدينة بكاملها. فقد تحركت عجلات قطار قدرها المحتوم. إن قطار سيرك بنزينى براذرز بدأ يشق طريقه نحو مدينتهم فى ذات اللحظة، آتياً معه بالحلم الذى صار حقيقة لمارلينا، وبالمهرب الذى كان مفزعاً بقدر ما كان رومانسياً.

وبعد يومين، وفى صباح يوم مشمس، ذهبت عائلة لارش إلى السيرك. وكانت مارلينا تقف فى معرض الحيوانات تحدق بذهول فى الخيول العربية السوداء والبيضاء اللون، وفى تلك الوقفة اقترب منها أوجست لأول

Amly نهضة العرب

مرة. كان والداها فى تلك اللحظة قد اتجها لمشاهدة الوحوش، وقد غفلا عن القوة التى اقتربت من اختراق حياتهم.

كان أوجست هو تلك القوة. كان ساحراً، رائعاً، وسيما لأبعد حد. وعلى نحو مرتب تماماً، ارتدى سروال ركوب أبيض اللون، وسترة خطافية، وقبعة عالية، وكانت تشع من وجهه أمارات السلطة والجاذبية التى لا تقاوم. وخلال دقائق كان قد حصل منها على وعد بلقاء معها فى السر، ثم اختفى قبل عودة الأبوين لابنتهما ثانية.

وحين قابلها مرة أخرى، فى متحف فنون، بدأ يخطب ودها فى إلحاح. كان يكبرها بإحدى عشرة سنة وكان جذاباً على نحو يليق حقاً بمدير فروسية. وقبل نهاية اللقاء عرض عرضه.

لقد كان ساحراً، وعنيداً لا يلين، ورفض أن يتزحزح حتى تزوجته. بدأ يبهجها بحكاياته عن تهور العم آل، وبدأ العم آل نفسه يتحدث نيابة عن أوجست. كانوا قد فوتوا محطتين فى جولتهم. والسيرك ينهار إذا تخبط خط سير جولته. وكان القرار حيوياً، نعم، لكن هل أدركت مدى تأثيره *عليهم*؟ أولئك الذين لا يحصى عددهم ممن يعولون على قرارها المناسب؟

نظرت مارلينا بنت السابعة عشرة إلى مستقبلها من بوسطن على مدى الليالى الثلاثة التالية، ثم قررت حزم أمتعتها.

فى هذه المحطة من سردها، انهارت باكية، كنت لا أزال أضمها إلىّ وأمسح على ظهرها بيدى. توقفت فى النهاية عن بكائها ومسحت دموعها بظاهر يدها.

قالت: "يجب أن تذهب الآن".

"لا أريد الذهاب".

تذمرت، وهى تمد يدها لتمسح وجنتى بظاهر يدها.

قلت لها: "أريد أن أراك ثانية".

"أنت ترانى كل يوم".

"أنت تفهمين ما أعنيه".

Amly نهضة العرب

فساد صمت طويل، وتحولت ببصرها نحـو الأرض. وتحـرك فمهـا عـدة مرات قبل أن تقول: "لا أستطيع".

"مارلينا، بالله عليك ـــ"

"إننى بالفعل لا أستطيع، إننى امرأة متزوجة. أنـا مـن اتخـذت قـرارى وعلىّ تحمل عواقبه".

ركعت أمامها، لأرى وجهها متطلعاً فيه لإشارة رغبة فى بقـائى، وبعـد انتظار مميت، أدركت أنه لا إشارة لذلك مطلقاً.

فقبلت جبينها وغادرت.

• • •

قبل أن أسير مسافة أربعين ياردة فى الساحة، سمعت ما لم أرغب فى سماعه قط عن الثمن الذى دفعته روزى لشرب عصير الليمون.

فمن الواضح أن أوجـست انـدفع هائجـاً إلى داخـل معـرض الحيوانـات وطرد كل من بداخلها. فتوقـف عمـال المعـرض الحـائرون وثلـة مـن رجـال آخرين بالخارج ووضعوا آذانهم على فتحـات الخيمـة الـضخمة فـى الوقـت الذى انفجر فيه الغضب داخلها. وقد دفع هذا بقية الحيوانـات بحالـة مـن الذعر الـشديد ـــ فـصرخت قـرود الـشمبانزى، وزأرت الوحـوش، ونهقـت الحمر الوحشية. ومع ذلك ظل المراقبـون المـذهولون يـستمعون إلى الـضربات المكتومة بخطاف الفيل الذى يغز اللحم مرة بعد مرة.

فى البداية كانت روزى تخـور وتـئن. وحـين بـدأت فـى الـصراخ والزعيـق، ابتعد كثير من الرجال، غير قادرين على مواصلة مشاهدة ذلـك. وانطلـق أحـدهم باتجاه إيرل، الذى دخل الخيمة وجر أوجست مـن تحـت إبطيـه. فبـدأ يركـل بقدميه ويتملص كرجل مجنون يسحبه عبر الساحة ومنها إلى عربة الامتياز.

وجد بقية الرجال روزى ملقاة على جانبها، وجسدها يرتعد، ولا زالـت مقيدة فى وتدها.

Amly نهضة العرب

قال وولتر وهو يصعد إلى عربة الخيول: "إنني أكره هذا الرجل"، ثم جلس على السرير وأخذ يمسح بيده أذن كويني ثم قال: "إنني حقاً أكرهه".

فقال كامل من خلف الصناديق المتراصة: "ألا يخبرني أحدكم بما يجرى؟ إننى أعلم أن شيئاً ما يجرى. جاكوب؟ هلا أخبرتنى؟ وولتر لا يريد الحديث".

فلم أقل شيئاً.

تابع وولتر حديثه قائلاً: "لم تكن هناك مدعاة لكل هذه القسوة. لم يكن من داع لها أبداً. لقد أوشكت الحيوانات بفعله أن تفر ذعراً. كان من الممكن أن يقتل الكثير منا بسبب فعله هذا. هل كنت هناك؟ هل سمعت بما فعل؟".

وتلاقت عينانا.

فقلت: "كلا".

فقال كامل: "حسناً، أنا لن أمانع فى معرفة ما تتحدثون عنه، لكننى لست كماً مهملاً هنا، فأخبرونى، ألم يحن وقت العشاء بعد؟".

فقلت: "لست جائعا".

قال وولتر: "أنا أيضاً لست جوعاناً".

فقال كامل فى غير رضا: "لكننى جوعان. لكننى أجزم أن أحداً منكم لم يفكر فى ذلك، وأن أياً منكم لم يفكر فى التقاط كسرة خبز للرجل العجوز".

تبادلت النظرات مع وولتر. ثم قال وعيناه مليئتان بالاتهام: "حسناً، لقد كنت هناك. هل تريد أن أحكى لك ما سمعته؟".

كنت محدقاً فى كوينى التى لاقت نظرتى وأخذت تضرب البطانية بذيلها القصير عدة مرات ثم قلت: "لا".

"هل أنت على يقين من هذا؟".

"نعم، على يقين".

"حسبتك تهتم لسماع ما جرى. فأنت البيطرى هنا على أية حال".

"نعم أنا مهتم، لكننى أخشى مما يمكن أن أقوم به إذا استمعت".

Amly نهضة العرب

نظر وولتر إلىّ طويلاً ثم قال: "من إذن سيقوم بإحضار بعض الطعام لذلك الهالك العجوز؟".

فقال الهالك العجوز: "هاى، تهذب فى ألفاظك".

فقلت: "أنا من سيذهب"، واستدرت مغادراً العربة.

وبعد منتصف المسافة إلى خيمة الطعام، لاحظت أننى أصر بأسنانى.

حين عدت بطعام كامل، لم يكن وولتر موجوداً، وبعد دقائق عاد يحمل فى كلتا يديه زجاجتى شراب كبيرتين.

فقال كامل بصوته المتحشرج وقد أطل من عند الزاوية: "بارك الله فيك. من أين أتيت بهذا؟".

"لى صديق فى عربة الفطائر يدين لى بمعروف. وقد رأيت أن نحاول أن نتناسى جميعاً كل شيء هذه الليلة بهاتين الزجاجتين".

فقال كامل: "حسناً، لنبدأ إذن. لتكف عن الثرثرة وأعطنى مما معك".

وفى تناسق تبادلت النظرات مع وولتر.

فتعمقت خطوط وجه كامل المتغضن وقال: "يا إلهى. ما لكما متجهمان هكذا؟ ما الخطب؟ هل بصق أحد فى حسائكما؟".

قال وولتر وهو يدفع بزجاجة الشراب نحو صدرى: "خذ هذه، دعك منه".

"ماذا تعنى بقولك هذا؟ فى أيامنا كان يتوجب على الصغار احترام من يكبرونهم".

وبدلاً من أن يرد، حمل وولتر الزجاجة الأخرى وسار نحوه ثم تكوم بجواره. وحين مد كامل يده نحوها، أبعد وولتر يده بعيداً.

"كلا أيها العجوز. ستشرب معى من هذه، ليصير ثلاثتنا فى تجهم".

ثم رفع الزجاجة إلى شفتى كامل وأمسك بها حتى غبّ منها ما يقترب من اثنتى عشرة مرة. كان يبدو كطفل يمسك زجاجة. ثم استدار وولتر على أعقاب قدميه واستند إلى الحائط. ثم أخذ أيضاً جرعة ضخمة من الزجاجة.

قال وهو يمسح فمه، ويشير إلى الزجاجة المقفلة بيدى: "ما الأمر — ألا تحب الشراب؟".

Amly نهضة العرب

"كلا، إننى أحبه. لكن اسمع، أنا لا أملك مالاً ولا أعلم متى أستطيع أو إن كنت سأستطيع دفع مقابلها لك. لكن هل لك أن تعطينى إياها؟".

"لقد أعطيتك إياها بالفعل".

"كلا أنا أعنى... هل يمكننى أن آخذها لشخص آخر؟".

فنظر إلىّ وولتر لحظة، وتغضنت جفون عينيه وهو يقول: "إنها امرأة، أليس كذلك؟".

"كلا".

"أنت تكذب".

"كلا، أنا لا أكذب".

فقال وهو يرتشف جرعة أخرى: "أراهنك بخمسة دولارات على أنها امرأة". كان حلقه يصعد ويهبط مقدار بوصة وذلك السائل البنى يهبط إليه. لقد أذهلتنى سرعة وولتر وكامل فى الغبّ من هذه السوائل القوية إلى مريئهما.

فقلت له: "إنها أنثى".

فقال وهو ينخر بفمه: "ها! يجدر بك ألا تدعها تسمع ما قلته هذا. فأياً ما كانت وأياً من كانت فإنها أجدر مما ذهب إليه عقلك".

فقلت: "علىّ القيام بمصالحتها فقد خذلتها اليوم".

فتطلع وولتر نحوى فى فهم مفاجئ.

قال كامل فى انزعاج: "ما رأيك فى أن تعطنى المزيد؟ ربما كان هو لا يريد الشراب، لكننى أريد ولا ألومه لكونه يريد القيام بعمل ما. فالمرء يعيش شبابه مرة واحدة. وعليه التمتع به قدر الإمكان، نعم، عليك التمتع به قدر المستطاع، حتى لو كلفك هذا زجاجة شراب".

ابتسم وولتر، وحمل الزجاجة إلى شفتى كامل وتركه يزدرد منها بضع جرعات طويلة. ثم أغلقها، وهو لا زال جالساً على إليتيه، ثم أعطاها لى.

"أعطها هذه أيضاً. وأخبرها أننى أيضاً أشعر بأسف تجاهها؛ أسف حقيقى بالفعل".

Amly نهضة العرب

صاح كامل: "هاى! ليست هناك امرأة فى العالم تستحق زجاجتى شراب! إلىّ بالزجاجة الآن!".

فنهضت على قدمىّ ووضعت كل زجاجة فى أحد جيوب سترتى.

فقال كامل فى استعطاف: "أوه، دعك من هذا. أوه، هذا ليس عدلاً".

وظل إلحاحه وشكواه يتبعانى حتى ابتعدت.

حل الظلام، وكانت بعض الحفلات قد بدأت فى عربات العارضين بنهاية القطار، بما فيها عربة أوجست ومارلينا ــ فلم أستطع تجاهل الالتفات نحوها. لم أكن لأذهب إلى هناك، لكن من المثير للاهتمام، أننى لم أدع للذهاب، أظن أننى وأوجست عدنا لتنافرنا السابق، أو ربما لأننى أصبحت أكرهه أكثر من أى شىء آخر فى حياتى، فقد أصبحت أنا الذى على تنافر معه.

كانت روزى فى آخر خيمة العرض، وبعد أن تواءمت عينى مع ضوء الخيمة، ميزت وجود شخص يقف بجوارها. إنه جريج؛ الرجل الذى قابلته فى مزرعة الكرنب.

فقلت وأنا أقترب منهما: "مرحباً".

فالتفت برأسه. كان يحمل أنبوباً من مرهم الزنك بإحدى يديه ويدهن به جلدها الذى حلت به ثقوب. كان فى جانب واحد منها فقط ما يقرب من عشرات البقع المدهونة.

قلت وأنا أفحصها ببصرى: "يا إلهى"، كان هناك كثير من قطرات الدم ورشح الهيستامين من تحت بساط المرهم المدهون.

اتجهت نحوى بعينيها البنيتين. وطرفت بجفونها الطويلة فى عصبية، ثم تنهدت مطلقة زفرة قوية قعقعت خلال خرطومها كله.

وعمنى الشعور الكامل بالذنب.

فغمغم جريج قائلاً وهو يواصل ما يقوم به: "ماذا تريد؟".

"أردت فقط الاطمئنان علي حالتها".

فقال صارفاً إياى: "حسناً، ها أنت ترى ما حل بها، فهلا أذنت لى؟".

Amly نهضة العرب

ثم عاد إليها قائلاً: *"نوجى، نو، داج نوجى"*.

وبعد لحظة، رفعت الفيلة قدمها وحملتها أمامها، فانحنى جريج لينسع بعضاً من الدهان فى إبطها، بجوار ثديها الغريب الشكل الرمادى اللون الذى تدلى كثدى امرأة.

ثم قال وهو يعتدل ويغلق علبة الدهان: *"جيستى دوبرا ذرويزينكا، بوتى نوجى"*.

فوضعت روزى قدمها ثانية على الأرض، فقال وهو يضع يده فى جيبه: *"ماسز، موجا بيكانا"*، فدار خرطومها متفحصاً ما سيخرجه من جيبه وهو حلوى النعناع وأزال عنها غطاءها ثم أعطاها إياها، فالتقطتها منه فى خفة وألقت بها نحو فمها.

حدقت فى المشهد وأنا فى ذهول ـ وربما كان فمى مفتوحاً من شدة الذهول. وفى خلال ثانيتين بدأ عقلى يستدعى عدم رغبتها فى تأدية العروض، ثم صعوبة شحنها فى العربة، ثم سرقتها لعصير الليمون، ومرة أخرى إلى مزرعة الكرنب.

فقلت: "يا إلهى".

فقال جريج وهو يلاطف خرطومها: "ما الأمر؟".

"إنها تفهم حديثك".

"نعم، وماذا فى ذلك؟".

"ألا ترى فى ذلك شيئاً؟ يا إلهى أليست لديك فكرة عما يعنيه هذا؟".

ثم اقتربت منها. فقال وهو يحول بينى وبينها بكتفه، وقد تجهم وجهه: "انتظر من فضلك".

فقلت له: "كن لطيفاً أرجوك. إن آخر ما يمكنك تصوره هو أن أقدم على إيذائها".

فاستمر فى النظر إلىّ. لم أكن على ثقة من أنه لن يقدم على ضربى من الخلف لكننى التفت نحو روزى، على أية حال، فطرفت بعينها.

فقلت: *"روزى، نوجى"*.

فطرفت ثانية وفتحت فمها مبتسمة.

Amly نهضة العرب

"نوجى، روزى!".

فرفرت بأذنيها وتنهدت.

فقلت: *"بروسزى؟"*.

فتنهدت ثانية. ثم غيرت وضع ثقلها ورفعت قدمها.

فسمعتنى أقول وكأن النداء جاء من خارج جسدى: "يا إلهى". كان قلبى ينتفض، وعقلي يدور. فقلت وأنا أضع يدى على كتفها وأنظر نحو عينيها مباشرة راجياً استجابتها: "روزى، هناك شىء واحد أخير"، ولا شك أنها كانت تدرك ما سأطلبه منها. فلتساعدنى يا إلهى، أرجوك ـــ *"دو تايتو، روزى! دو تايتو"*.

فتنهدت مرة أخرى وعدلت بذكاء وضع ثقلها ثانية، ثم أخذت خطوتين للخلف. صحت فى فرح والتفت إلى جريج الذى وقف مندهشاً. قفزت لأعلى، وجذبته من كتفيه وقبلته من فمه.

"اللعنة، ما الذى تفعله؟".

عدوت باتجاه مخرج الخيمة. وبعد ما سرت خمسة عشر قدماً تقريباً توقفت والتفت، وكان جريج لا يزال يبصق، ويمسح شفتيه فى تقزز.

فأخرجت الزجاجتين من جيبى، فتغيرت ملامح وجهه نحو الترقب، وظاهر يده لا يزال على فمه.

فقلت وأنا أقذف بالزجاجة فى الهواء نحوه: "خذ هذه، التقطها!"، فهم إليها فالتقطها ونظر إلى البطاقة الملصقة على الزجاجة، ثم تتطلع إلىّ ثانية آملاً فى أن أقذف له بالأخرى، فقذفت بها نحوه.

"هذا لنجمتنا الجديدة، فهلا أعطيته لها؟".

مال جريج برأسه مفكراً ثم التفت إلى روزى التى كانت تبتسم بالفعل وتمد خرطومها نحو الزجاجتين.

على مدار الأيام العشرة التالية، قمت بتدريب أوجست على اللغة البولندية. وفى كل مدينة كانت تقام له حلبة تدريب فى آخر ساحة العرض، ويوماً بعد يوم، أصبحنا نحن الأربعة ـــ أوجست مارلينا،

Amly نهضة العرب

روزى، وأنا ــ نقضى ساعات ما بعد الوصول وحتى بدء العرض النهارى في العمل على تجهيز عرض روزى الخاص. ورغم أنها بدأت تشارك فعلاً في الاستعراض والعرض الكبير إلا أنه كان لا يزال أمامها وقت للمشاركة في عرض السيرك الرئيسى. ورغم أن الانتظار كان يقتل العم آل، فإن أوجست أراد أن تكون بدايتها رائعة.

كنت أقضى ساعات النهار على كرسى خلال حلبة التدريب، وبيدى سكينى وبين قدمى دلو أقطع فيه الخضر والفاكهة من أجل روزى وأهتف بالعبارات المطلوبة باللغة البولندية. كان نطق أوجست للعبارات مروعاً، لكن روزى ــ ربما لأن أوجست كان يردد ما أقوله أنا ــ كانت تفهم وتطيع. ولم يعد يلمسها بخطافه منذ اكتشفنا سر اللغة. كان فقط يسير بجوارها، ملوحا به تحت بطنها وخلف ساقيها، لكنه أبداً ــ لم يمسها به.

كان من الصعب المواءمة بين أوجست الحالى، وذاك الذى كان فى الماضى،وفى الحقيقة فإننى لم أجتهد لصنع هذه المواءمة. لقد رأيت لمحات من أوجست الطيب من قبل ــ ذلك الإشراق، تلك البهجة، وهذا التدفق الروحى ــ لكننى أعرف ما يمكن أن يفعله، ولا أنساه. وليظن الآخرون ما شاءوا، فإني لن أومن ولو للحظة أن هذا هو أوجست الحقيقى، وأن خلاف ذلك كان شذوذاً عن الأصل. وربما أستطيع إدراك مدى حمق حكمهم عليه ــ

كان مرحاً، وكان جذاباً. كان يشرق كالشمس. كان يخطف الانتباه مع ذلك الوحش الرمادى وتلك الراكبة الضئيلة الحجم على ظهره منذ أن نتقابل فى الصباح وحتى يذهبوا للمشاركة فى الاستعراض. كان لطيفاً ولينا مع مارلينا، وعطوفاً ورحيماً تجاه روزى.

بدا غير مدرك لضغينتى تجاهه، ورغم تحفظى نحوه كان يطلق العنان لابتسامته، ويربت على ظهرى، وقد لاحظ أن ملابسى أصبحت رثة فعاد بأخرى نظيفة فى ظهيرة يوم الغسيل. وقد أخذنى لأغتسل فى غرفته الخاصة مصرحاً بأن الطبيب البيطرى للسيرك لا ينبغى أن يغتسل بالمياه الباردة كباقى العامة. وحين أدرك أن روزى تحب شرب الكحول أكثر من

Amly نهضة العرب

أى شىء آخر، عدا حبها للبطيخ، صمم على الحصول لها على كليهما، وذلك فى كل يوم. لقد أصبح حنوناً معها، كان يهمس فى أذنها، وتسعد هى بهذا الاهتمام، فتظهر ذلك بخرطومها فى سعادة أمامه.

ألا تتذكر ما فعله بها؟

بدأت أمعن النظر فى تأمله، باحثاً فى تصرفاته عن خلل، لكن شخصيته الجديدة بدت ثابتة وراسخة. بعد قليل بدأ تفاؤله يعم الساحة كلها، حتى إنه طال العم آل أيضاً ـ الذى وقف يوماً يراقب ما جرى من تقدم وخلال يومين أمر بإصدار إعلانات جديدة تصور روزى وعلى رأسها جلست مارلينا فاتحة ما بين ساقيها. توقف العم آل عن ضرب العمال بعصاه، وبدأوا هم أيضاً يتوقفون عن تفاديه، وأصبح بشوشاً على نحو إيجابى. ودارت شائعات ترجح صرف الأجور فى نهاية الأسبوع، وحتى العمال بدأت تظهر على وجوههم علامات الرضا.

وقد بدأ شعورى تجاهه بالكراهية يزول عندما وجدت روزى تتعامل معه بمرح شديد. فقد كان شعورى تجاهه فى السابق أمراً مروعاً.

ربما كان ذلك شعوراً داخلياً عندى. ربما أردت كراهيته لأننى أحب زوجته، وإن كان الأمر كذلك، فأى رجل أكون؟

فى بيتسبرج، ذهبت أخيراً للصلاة فى دار العبادة، وقد انهرت أثناء صلاتى وبكيت كطفل، مخبراً رجل الدين بما كان من شأن والدى، وعن ليلة الغواية، وعن أفكار الخطيئة التى تدور فى ذهنى. فتمتم رجل الدين، الذى كان مصدوماً نوعاً ما، ببعض الكلمات، وأخبرنى بأن علىّ التوبة ونسيان كل ما يتعلق بشأن مارلينا. شعرت بخجل شديد وأنا أعترف بأننى لم أكن مواظباً على الصلاة، ولذا حين عدت إلى عربة الخيول حرصت على التوبة. فنظر وولتر نحوى باستغراب، أما كامل فعرض علىّ المساعدة.

كنت على ثقة من رأى وولتر، فهو لا يزال كارهاً لأوجست كراهية تفوق الوصف، ورغم أنه لم يتحدث بشىء لكننى كنت أعلم ما يدور برأسه حول إمكانية تغيير رأيى نحوه. ظللنا على حالنا من العناية بكامل

Amly نهضة العرب

وإطعامه، لكننا لم نعد نتبادل الحكايات في الليالى الطويلة التى نقضيها ترحالاً على قضبان السكة الحديدية. وبدلاً من ذلك، كان وولتر يقرأ فى مسرحيات شكسبير، وكامل يثمل ويغيب عن وعيه، ويكثر من المطالب.

فى مدينة ميدفيل، قرر أوجست أن تكون هذه هى الليلة الكبرى.

وحين تلقى العم آل هذا الخبر السار، عجز عن الحديث. فأطبق يديه إلى صدره ونظر إلى السماء بعينين ملأتهما الدموع. وحين انحنى أتباعه لتغطيته، ضرب على كتفى أوجست. ثم صافحه بقوة الرجال، ولأنه كان سعيداً للغاية ولم يجد ما يقوله قط، صافحه مرة أخرى.

كنت أفحص حافراً متصدعاً فى خيمة الحداد حين أرسل أوجست فى طلبى.

اقتربت بوجهى من فتحة خيمة مارلينا والتى كانت تترجرج قليلاً بفعل الريح وقلت: "أوجست؟ هل أردت مقابلتى؟".

فنادانى بصوت هادر: "جاكوب! إننى سعيد بقدومك! ادخل، أرجوك ادخل يا فتى!".

كانت مارلينا فى ثياب العرض. وكانت تجلس أمام طاولة الزينة وقد وضعت إحدى قدميها على حافتها، ولفت برباط خفها الوردى الطويل رسغ قدمها. وجلس أوجست بالقرب معتمراً قبعته وسترته الخطافية. ويبرم بيده عصا فضية الطرف. كان مقبضها معقوفاً كخطاف الفيل. نهض من كرسيه وربت علىّ وهو يقول: "اجلس من فضلك."

ترددت لجزء من الثانية ثم سرت نحوه عبر الخيمة. وحين جلست. وقف أوجست أمامنا، فتطلعت بنظرى نحو مارلينا.

قال أوجست بعد أن خلع قبعته وحدق نحونا بعينين مغرورقتين بالدموع: "مارلينا، جاكوب ـ يا أعز الأعزاء، ويا أقرب الأصدقاء، لقد كان الأسبوع الماضى مذهلاً من كل النواحى. ولا أظننى أبالغ إن أسميته أسبوع عودة الروح؛ فمنذ أسبوعين، كان هذا السيرك على شفا الانهيار.

Amly نهضة العرب

أرزاقنا وأرواحنا جميعاً ـ فى هذا الوضع المالى المتدهور ــ كانت على المحك. هل تعلمون السبب فى هذا؟".

تنقلت عيناه البراقتان بينى وبين مارلينا.

فقالت مارلينا مأخوذة بالحديث، وهى تلف الرباط الساتانى على رسغ قدمها الأخرى: "ما السبب؟".

"لأننا سعينا فى طلب حيوان افترضنا أنه بمثابة إنقاذ لهذا السيرك. ولأننا اضطررنا أيضاً لشراء عربة فيل لشحن الفيل بها. ولأننا اكتشفنا أن هذا الحيوان لا يعرف شيئاً سوى التهام أى شيء. ولأن مواصلة إطعام هذه الفيلة قد لا يمكننا من القدرة على إطعام عمالنا ومن ثم الاضطرار إلى تسريحهم".

ارتفع رأسى على نحو خاطف إزاء تلك الإشارة المحرفة لرمى العمال من القطار، لكن أوجست نظر خلفه نحو جانب الخيمة. ثم صمت طويلاً على نحو غير مريح، وكأنه نسى أننا أمامه، ثم تذكر نفسه وتابع.

نظر نحوى بعينين يظهر فيهما الحب وقال: "لكننا قد نجونا. والسبب فى نجاتنا أن البركة عمتنا بشكل مزدوج. لقد كان القدر يبتسم لنا فى ذلك اليوم من شهر يونيو حين قاد إلينا جاكوب. لم يكن بيطرياً فى إحدى الجامعات العريقة وحسب ـ وهى مرتبة تليق بنا ــ لكنه أيضاً بيطرى متفان إلى أبعد حد فى واجباته مما قاده هذا إلى ذلك الاكتشاف المذهل؛ الاكتشاف الذى أنقذ السيرك".

"كلا، فى الحقيقة، كان كل ــ"

"كلا يا جاكوب. لن أسمح لك بإنكار ذاتك. لقد تملكنى إحساس نحوك منذ أن وقعت عينى عليك لأول مرة. أليس كذلك يا حبيبتى؟"، واستدار نحو مارلينا وهز أصبعه باتجاهها.

فأومأت برأسها إيجاباً. ومع تثبيت خفها فى القدم الأخرى، رفعت قدمها عن حافة طاولة الزينة وعقدت ساقيها. وبدأت أصابع قدمها فى التحرك فى الحال.

Amly نهضة العرب

نظر إليها أوجست قائلاً: "لكن جاكوب لم يكن يعمل بمفرده، فأنت أيتها الجميلة الموهوبة، كنت أيضاً فى غاية الروعة. وروزى، فلا ينبغى نسيان روزى فى هذه المعادلة. لقد كانت صبورة وراغبة فى التقدم بشدة وـــ" توقف عن الكلام والتقط نفساً عميقاً حتى تموج أنفه وحين تابع حديثه بدا صوته متهدجاً: "لأن روزى كانت جميلة ورائعة ولأنها تمتلك قلباً يمتلىء غفراناً وقدرة على استيعاب سوء التفاهم. إنه بفضل ثلاثتكم، سينتقل سيرك بنزينى براذرز إلى مرتبة جديدة فى العظمة. إننا بحق ننضم إلى مرتبة العروض الكبرى، ولم يكن ذلك ليتم دونكم".

نظر إلينا، وكانت وجنتاه محمرتين تماماً حتى إننى خشيت أن ينفجر فى البكاء.

ثم عقد يديه أمامه، وصاح: "لقد كدت أن أنسى"، واندفع نحو صندوق وفتش فيه. ثم أخرج منه علبتين صغيرتين؛ إحداهما مربعة الشكل، والأخرى مستطيلة ومفلطحة، وكلتاهما غُلفت بورق الهدايا.

مد يده بالعلبة المفلطحة إلى مارلينا وقال: "هذه لك يا عزيزتى".

"أوه، أوجى! ما كان عليك ذلك!".

فقال باسماً: "ما أدراك أنه شيء ذو قيمة، ربما كان مجموعة أقلام".

مزقت مارلينا غطاء العلبة، فظهرت العلبة مخملية زرقاء اللون. فنظرت إليها فى تشكك، ثم رفعت غطاء العلبة. فظهر عقد ماسى يسطع على ساتان أحمر فى أرضية العلبة.

فقالت: "أوه، أوجى"، ثم تبادلت النظرات بين أوجست والعقد، وقد انعقد حاجبها قلقاً وقالت: "أوجى، إنه رائع، لكننا لا نستطيع تحمل ـــ"

فقال وهو يميل إليها ليسحب يدها إليه: "هش"، ثم طبع قبلة على كفها وتابع: "إننا فى هذه الليلة نعلن عن بداية مرحلة جديدة .لا شيء يضاهى حدث الليلة".

التقطت العقد فى يدها، تاركة إياه يتدلى من بين أصابعها، وكانت مذهلة بشكل حقيقى.

Amly نهضة العرب

ثم استدار أوجست وأعطانى العلبة المستطيلة.

فككت رباطها ونزعت الورق. كانت العلبة أيضاً بكسوة زرقاء مخملية. ازدردت ريقى بصعوبة. قال أوجست بنفاد صبر: "هيا الآن. افتح العلبة! لا تكن خجولاً".

فتحت غطاء العلبة الذى اندفع بصوت، فظهرت أمامى ساعة جيب ذهبية.

فقلت: "أوجست ـــ"

"هل أعجبتك؟".

"إنها جميلة؛ لكننى لا أستطيع قبولها".

"يمكنك قبولها بلا شك. وسوف تقبلها!"، ثم سحب مارلينا من يدها فقامت واقفة على قدميها، ونزع العقد من يدها.

قلت: "كلا، لا أستطيع قبولها. إنها لفتة رائعة منك، لكن هذا كثير جداً".

فقال بحزم: "بل يمكنك قبولها، وستقبلها. إننى رئيسك وهذا أمر مباشر. ما الذى يمنعك من قبولها على أية حال؟ أعلم أنك منذ وقت قصير قد تخليت عن ساعة من أجل صديق".

أغلقت عينىّ بشدة، وحين فتحتها، كانت مارلينا تقف وهى توجه ظهرها نحو أوجست، رافعة شعرها وهو يثبت العقد حول رقبتها.

ثم قال: "انظرى الآن".

دارت حول نفسها ومالت نحو المرآة ويداها تتحسس العقد حول رقبتها فى تردد.

قال أوجست: "أعتقد أنه أعجبك؟".

"إننى لا أستطيع الوصف. إنه جميل جداً ـ أوه!"، ثم صرخت قائلة: "لدىّ أنا أيضاً مفاجأة".

وسحبت الدرج الثالث فى طاولة الزينة، وبحثت فيه مجنبة قطع ملابس العرض الشفافة. ثم أخرجت من الدرج قطعة ضخمة من قماش براق وردى اللون.

Amly نهضة العرب

حملتها من أطرافها، ثم هزتها هزة خفيفة، فماجت مطرزاتها اللامعة فى الضوء.

فقالت وهى تنظر لها: "ما رأيك إذن؟ ما رأيك فيها؟".

فقال أوجست: "إنها... إنها... ما هى أصلاً؟".

"إنها غطاء رأسى لروزى، ثم ثبتتها على صدرها بذقنها وبسطت القطعة على جسدها. وقالت: "انظر! هذا الجانب سيربط إلى رسغها، وهذه الأجزاء ستتجه إلى الجوانب، أما هذا الجزء فسينزل إلى جبهتها. لقد صنعته بنفسي. لقد كنت أعمل عليه على مدار أسبوعين وهو يوافق رداء العرض الذى ألبسه". ثم تطلعت لأعلى فبدت على وجنتيها بقعتان حمراوان.

فنظر إليها أوجست. وفكه السفلى متدل على نحو ما، لكنه لم ينبس ببنت شفة، ثم تقدم نحوها وضمها بين ذراعيه.

فكان علىّ لحظتها أن أبتعد ببصرى.

بفضل الآليات التسويقية الرائعة للعم آل، امتلأت الحلبة الكبرى عن آخرها. لقد بيعت الكثير من التذاكر، حتى إن العم آل طلب من الجمهور للمرة الرابعة أن يلتحموا إلى بعضهم أكثر، لكن وضح أن هذا لن يكفى.

فأرسل العمال لبسط القش على مضمار الخيول. ولإشغال الجمهور حتى يتم ذلك، بدأت الفرقة فى العزف، وبدأ المهرجون ــ ومن بينهم وولتر ــ فى التجول بين الصفوف وتوزيع الحلوى ومداعبة الصغار.

واصطف العارضون والحيوانات استعداداً لبدء العرض العام. كانوا فى انتظارهم هذا منذ عشرين دقيقة وقد بدأوا فى التململ.

اندفع العم آل من ظهر الحلبة الكبرى وصاح قائلاً: "حسنا، استمعوا إلىّ: الحلبة الليلة ستكون مزدحمة عن آخرها، ولذا عليكم أن تظلوا داخل إطار الحلبة وتتأكدوا من أن بين الجمهور والحيوانات خمس أقدام على الأقل. وإذا ما تم دهس طفل ما، فإننى سأسلخ جلد العارض الذى تسبب حيوانه فى ذلك. هل تفهمون؟".

صدرت الإيماءات، والهمهمات، والاستدعاءات بينهم.

Amly نهضة العرب

ثم أطل العم آل برأسه من الحلبة ثانية، ورفع يده لقائد الفرقة الموسيقية ثم قال: "حسناً، لننطلق، أريد منكم إذهال الناس".

ولم يدهس أى طفل. فقد كان الجميع فى براعة تامة، لكن لم يكن أحد فى براعة روزى تلك الليلة. لقد دخلت إلى العرض العام حاملة مارلينا على رأسها الذى زين بالرداء الوردى المطرز، ثم عقفت خرطومها محيية الجمهور. كان أمامها أحد المهرجين، وكان رجلاً طويلاً نحيلاً، يقوم بعمل قفزات خلفية بالتعاقب مع قفزات دائرية. وفى مرحلة ما من قفزه، مدت مارلينا خرطومها للأمام وأوقفته بجذب سرواله. ثم جذبته بقوة حتى فارقت قدمه الأرض فاستدار غاضباً ليواجهها وقد ابتسمت. فضج الجمهور بالصفير والتصفيق، لكن بعد ذلك ابتعد المهرج عنها.

وحين اقترب موعد عرض روزى الخاص، تسللت إلى داخل الخيمة الكبرى ووقفت مساوياً لأحد أقسام مقاعد الجماهير. وبينما كان لاعبو الأكروبات يتلقون التصفيق، اندفع العمال إلى الحلبة المركزية، ودحرجوا فيها كرتين: إحداهما صغيرة، والأخرى كبيرة، وكلتاهما مزينة بنجمات حمراء وخطوط زرقاء. فرفع العم آل ذراعيه ونظر نحو مؤخرة الحلبة. كان ينظر خلفى تماماً، وتلاقى بصره مع أوجست ثم أعطى إيماءة خفيفة ونقر بأصبعه نحو قائد الفرقة الموسيقية، فبدأ عزف لحن جونود الراقص.

دخلت روزى الخيمة الكبرى، وهى تسير فى وضع راقص بجوار أوجست وتحمل مارلينا على رأسها، ثم عقفت خرطومها للتحية وفتحت فمها فى ابتسامة. وحين دخلت إلى الحلبة المركزية حملت روزى مارلينا ووضعتها على الأرض.

قفزت مارلينا على نحو مسرحى حول حاجز الحلبة، ودارت فى سرعة أبرزت بريق ردائها الوردى، ثم ابتسمت وجعلت تلوح بذراعيها ملقية القبلات نحو الجماهير. ثم تبعتها روزى بحركة سريعة وقد عقفت خرطومها عالياً، وبجوارها أوجست وقد أمسك بيده عصاه ذات الطرف

Amly نهضة العرب

الفضى بدلاً من خطاف الفيل. وشاهدته يتلو العبارات البولندية التى حفظها عن ظهر قلب.

رقصت مارلينا فى محيط الحلبة ثم توقفت بجوار الكرة الصغيرة. فقاد أوجست روزى إلى منتصف الحلبة. وراقبت مارلينا ذلك ثم التفتت للجمهور. ثم زفرت هواء صدرها ومسحت جبينها فى حركة تمثيلية تعنى أنها فى حالة إنهاك. ثم جلست على الكرة. ثم عقدت ساقيها ووضعت مرفقيها على ساقيها، وذقنها بين يديها. وجعلت تضرب الأرض بقدمها وهى تتطلع إلى السماء بعينيها. لاحظت روزى ذلك، باسمة، وهى ترفع خرطومها عالياً. وبعد لحظة استدارت ببطء وانخفضت بمؤخرتها الرمادية الهائلة نحو الكرة الكبيرة؛ فضج الجمهور بالضحك.

نهضت مارلينا عن الكرة بعد أن تجاوبت فى تصنع لما قامت به روزى، فقد كان فكها السفلى متدلياً فى غضب عابث. وعادت بظهرها إلى روزى؛ فوقفت روزى هى الأخرى وتراجعت فى تثاقل كى تحضر مارلينا بذيلها، فصاح الجمهور مبتهجاً.

التفتت مارلينا للخلف وقطبت جبينها. وبنزعة تمثيلية لديها؛ رفعت إحدى قدميها ووضعتها على كرتها. ثم عقدت ذراعيها على صدرها وأمالت رأسها مرة واحدة، وفى عمق، كما لو أنها تقول خذيها *، خذى الكرة أيها الفيلة*.

فعقفت روزى خرطومها، ورفعت قدمها اليمنى الأمامية، ثم وضعتها بلطف على الكرة. فحدقت مارلينا فيها غاضبة. ثم طرحت ذراعيها جانباً حاملة قدمها الأخرى عالياً عن الأرض، ثم اعتدلت بركبتها ببطء، وهى تشير بساقها الأخرى جانباً، وأصابع قدمها ممدودة كلاعبة بالية. وبمجرد أن اعتدلت ساقها أنزلت ساقها الأخرى لتقف بجوار الأولى على الكرة. ثم ابتسمت ابتسامة واسعة على اعتبار أنها تفوقت على روزى أخيراً. صفق الجمهور وأصدر صيحات الابتهاج. ثم استدارت مارلينا جاعلة ظهرها نحو روزى ورافعة يديها فى انتصار.

Amly نهضة العرب

انتظرت روزى لحظة، ثم وضعت ساقيها الأماميتين على كرتها فانفجرت الجماهير مبتهجة. امتعضت مارلينا ثانية ودارت ثانية لتواجه روزى ووضعت يديها على فخذيها. ثم عبست بشدة وهزت رأسها فى إحباط. ثم تجمدت للحظة. ثم أشرق وجهها؛ فقد واتتها فكرة! رفعت أصبعها عالياً فى الهواء، ودارت حتى يستوعب جميع الحاضرين أنها على وشك القيام بحركة تهزم روزى للأبد.

ركزت للحظة، وهى تحدق لأسفل فى خفها الساتانى، ومع تصاعد ضربات الطبول، بدأت بتحريك قدميها، مدحرجة الكرة حول الحلبة والجمهور يصفق ويصفر. ثم زاد ابتهاج الجمهور على نحو حاد ـــ

توقفت مارلينا لتتبين الأمر. لقد كانت مشغولة بالتركيز على دحرجة كرتها، لكنها لم تلحظ المشهد الساخر الجارى من خلفها. كانت الفيلة قد اعتلت الكرة الكبيرة، وقد رصت أرجلها الأربعة عليها وتقوس ظهرها. وبدأت الطبول فى الدق. لم يحدث شىء فى أول وهلة، ثم بدأت الكرة تتدحرج ببطء تحت قدمى روزى.

أشار قائد الفرقة لعازفيه بالتسارع، فسارت روزى بالكرة اثنى عشر قدماً. فابتسمت مارلينا فى سعادة، وهى تصفق وتمد يدها باتجاه روزى داعية الجمهور لتحيتها. بعد ذلك قفزت عن الكرة، قافزة نحو روزى، التى نزلت بحرص أكبر عن كرتها. ثم نزلت بخرطومها على الأرض فجلست مارلينا عند منحناه، ولفت ذراعها حوله ومدت أصابع قدمها بأناقة، فرفعت روزى خرطومها، فحملت مارلينا عالياً. ثم وضعت مارلينا على رأسها وغادرتا الحلبة وسط تحيات الجمهور المتيم بما رأى.

بعد ذلك بدأ المال ينهمر من الجمهور؛ ذلك الانهمار اللذيذ المبهج. كان العم آل يقف وسط مضمار الخيل منفعلاً بشدة وقد رفع ذراعيه ورأسه عالياً، وهو ينعم بهذا السيل من العملات التى تنهمر من فوقه انهماراً. أبقى وجهه عالياً حتى سقطت بعض العملات على وجنتيه وأنفه وجبهته. أظنه أيضاً كان يصرخ.

Amly نهضة العرب

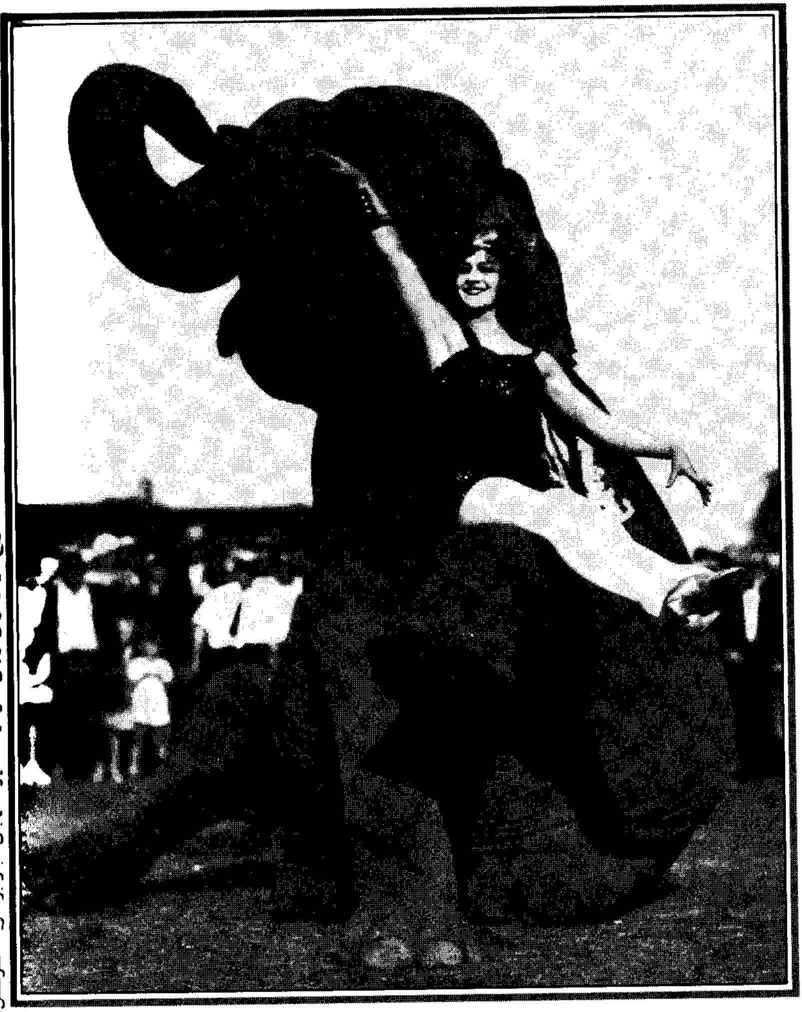

بتصريح من تيموثي تيجي . أرشيف سيرك تيجي . بربو . ويسكونسن

Amly نهضة العرب

الفصل الثامن عشر

تبعتهم حين هبطت مارلينا عن رأس روزى.

قال أوجست وهو يقبلها على وجنتها: "لقد كنت رائعة، رائعة للغاية. هل شاهدت ذلك يا جاكوب؟ هل رأيت كم كانتا رائعتين؟".

"بالطبع شاهدت ذلك".

أعطانى عصاه فضية الطرف وقال: "هلا أخذت روزى وعدت بها؟"، ثم نظر نحو مارلينا بعمق وعقد يديه على صدره وقال: "رائع، كان ذلك رائعاً"، ثم قال وهو يسير عدة خطوات للخلف: "لا تنسى عرض الخيول؛ سيكون بعد عرض لوتى مباشرة".

فقالت: "سأذهب لإحضارهم حالاً".

ثم اتجه أوجست إلى الحلبة الكبرى.

قلت لها: "لقد كنت رائعة".

فمالت على روزى وطبعت قبلة علي كتفها وقالت: "نعم، لقد كانت رائعة بلا شك". تركت قبلتها أثراً تاماً على بشرة روزى الرمادية، فمدت يدها ومسحتها بإبهامها.

فقلت لها: "إننى أعنيك بكلامى".

احمر وجهها من الخجل وإبهامها لا يزال على كتف روزى.

ندمت على قولى على الفور؛ ليس لأنها لم تكن رائعة — فقد كانت، لكننى لم أكن أعنى ذلك فقط وهي تعلم ذلك وقد جعلها ذلك تبدو فى غير ارتياح؛ فقررت الانسحاب سريعاً.

Amly نهضة العرب

فقلت محركاً روزى للأمام: "*تشوديز، روزى. تشوديز، موج ماتوسى بسازوسيزك*".

فقالت مارلينا: "جاكوب، انتظر"، وكانت تضع أصابعها على باطن مرفق ذراعى.

ومن بعيد، وعلى مدخل الحلبة الكبرى تماماً، وقف أوجست متصلباً في مكانه. كان كما لو أنه قد شعر بملامستها لى. ثم تحرك ببطء ووجهه مكتئب وقد تلاقت أبصارنا.

قالت مارلينا: "هل لك أن تسدينى خدمة؟".

فقلت وأنا ألمح أوجست فى توتر: "نعم، بالطبع". لم تكن مارلينا تلاحظ أنه يراقبنا، وضعت يدى على فخذى لأسقط أصابعها عن مرفقى.

"هلاّ أحضرت روزى إلى خيمة ملابسى؟ فلدىّ مفاجأة أعدها لها".

فقلت: "أوه، بالطبع، متى تريدينها هناك؟".

"خذها إلى هناك الآن. وسألحق بك بعد قليل. أوه، ولترتد زياً لطيفاً، فأنا أريدها حفلة مناسبة".

"أنا؟".

"بالطبع أنت. علىّ أن أتوجه الآن للعرض. لكننى لن أتأخر. وإذا قابلت أوجست، فلا تخبره بشىء. أتفهم؟".

فأومأت برأسى. وحين عدت ببصرى نحو الحلبة، كان أوجست قد اختفى داخلها.

استجابت روزى بشكل كامل لهذه الإجراءات غير العادية. فقد تهادت بجانبى بجوار خيمة مارلينا. ثم وقفت تنتظر فى صبر حين بدأ جريدى وبيل يفكان الأربطة السفلية لأحد جوانب الخيمة من أوتادها.

فسألنى جريدى وهو جاثم أرضاً يحاول حل حبل الخيمة: "وكيف حال كامل الآن؟".

"كما هو تقريباً. يظن أنه سيتحسن، لكننى لا أظن ذلك. أظنه لا يلاحظ عدم تحسنه لأنه لا يضطر للقيام بأى شىء. فهو عادة فى حالة سكر".

Amly نهضة العرب

قال بيل: "هذا هو كامل بلا شك. من أين أتى بالكحوليات؟ أليست الكحوليات هى ما يتناولونه؟ لا تقل لى إنه لا يزال يشرب ذلك الشراب اللعين".

"كلا، كلا. إنه يشرب شراباً مقطراً يوفره لى رفيقى فى الغرفة".

فقال جريدى: "من؟ ذلك المدعو كينكو؟".

"بلى، هو".

"كنت أظنه يكره العمال".

مدت روزى خرطومها وتناولت قبعة جريدى، فاستدار نحوها وضربها بعنف لكنها رفعت القبعة عالياً، فقال: "هلا سيطرت على فيلتك هذه؟".

نظرت إلى عينيها، التى تهللت لى، فقلت بصرامة: *"بوتوزى!"*، هذا رغم أننى لم أستطع مقاومة الضحك. فرفت بأذنيها الضخمتين ثم أسقطت القبعة فملت لالتقاطها.

قلت وأنا أعيد القبعة لجريدى: "وولتر ـ كينكو ـ ربما يكون فظاً إلى حد ما، لكنه مهذب تماماً مع كامل. وقد أعطاه سريره. وبحث عن ولده إلى أن وجده. وتحدث إليه واتفق معه على ملاقاتنا فى بروفيدنس كى يتسلم كامل".

فتوقف جريدى عما يفعله ونظر إلىّ فى دهشة قائلاً: "حقاً؟ وهل يعلم كامل بهذا؟".

"نعم... يعلم".

"وكيف تقبل هذا الأمر؟".

فتجهمت وسحبت الهواء من بين أسنانى.

"هكذا إذن؟".

"لم يكن لدينا حلول أخرى".

فقال جريدى: "لا، لم يكن لديكم حلول أخرى بالفعل". ثم توقف لحظة وتابع: "لم يكن ما حدث له خطأ شخصياً منه. والغالب أن أسرته

Amly نهضة العرب

تعلم ذلك الآن. لقد سارت الحرب بالكثير من الناس إلى حافة الجنون. هل تعلم أنه كان جندى مدفعية؟".

"كلا، إنه لم يتحدث معى عن ذلك".

"لكن أخبرنى، هل ترى أن باستطاعته الاستقامة فى الصف؟".

"أشك فى ذلك، لكن لماذا؟".

"تسرى شائعات بأن الرواتب ستصرف، وربما حتى للعمال. ليس لهذه الأقاويل ما يؤكدها حتى الآن، لكن بعد ما حدث فى الحلبة الكبرى، بدأت أرى أن هناك احتمالاً لحدوث ذلك".

تم الآن تحرير جانب الخيمة من أوتاده. ورفعه بيل وجريدى كاشفين عن جوف خيمة مارلينا التى أعيد ترتيبها. فهناك الطاولة فى نهايتها، وعليها فرش المائدة الكتانية الثقيلة. وقد أعدت لثلاثة أشخاص. أما الجهة الأخرى من الخيمة، فكانت خالية تماماً.

قال جريدى وهو ينظر فى المساحة الخالية: "أين تريد دق الوتد؟ هناك؟".

فقلت: "نعم، أظن ذلك".

فقال وهو ينصرف: "سأعود فى لحظات"، ثم عاد بعد دقائق حاملاً مرزبتين فى كلتا يديه تزن كل واحدة ستين رطلاً. ألقى بواحدة فى الهواء نحو بيل، والذى لم يعرها أى اهتمام. فقط، التقطها من مقبضها وتبع جريدى إلى داخل الخيمة. وبدءا يضربان الوتد ليغرساه فى الأرض بضربات متزامنة على نحو كامل الدقة.

قدت روزى للداخل وانحنيت على ركبتى لأوثق قيدها فى الوتد. كانت تضع ساقها التى أوثقها على الأرض فى ثبات، لكنها كانت ترتكن بشدة على الثلاث الأخريات وحين نهضت وجدتها قد مالت نحو كومة ضخمة من البطيخ فى ركن الخيمة.

فقال جريدى مشيراً إلى جانب الخيمة المفتوح: "هل تريد إعادة تثبيت هذا الجانب بأوتاده؟".

Amly نهضة العرب

"نعم، إذا سمحتما. فلا أظن أن مارلينا تريد أن يعلم أوجست بوجود روزى حتى يدخل".

فهز جريدى كتفه قائلاً: "لا ضير فى ذلك".

"جريدى؟ هل بإمكانك مراقبة روزى لثوان فقط؟ فأنا أريد الذهاب من أجل تبديل ملابسى؟".

فقال جريدى وهو ينظر نحو روزى بعينين ضيقتين: "لا أعلم إن هى أقدمت على خلع وتدها أو أى شىء من هذا القبيل".

قلت له وأنا أتجه نحو كومة البطيخ: "أشك فى أن تفعل ذلك". لوت روزى خرطومها لتفتح فمها فى ابتسامة واسعة. فحملت واحدة من البطيخات وضربتها بالأرض أمامها، فانفجرت البطيخة، فبدأ خرطومها يغوص فى شحم البطيخة الأحمر. وبدأت تقذف إلى فمها قطعاً كبيرة بما فيها من القشر. قلت لجريدى: "هكذا يمكنك الاطمئنان".

خرجت من تحت جانب الخيمة وتوجهت لتغيير ملابسى.

حين عدت، وجدت مارلينا فى الخيمة، وقد ارتدت ثوبها الحريرى المطرز الذى أعطاه أوجست إياها فى تلك الليلة حين تناولنا العشاء فى غرفتهما بالقطار، وكان العقد الماسى يلمع براقاً حول عنقها.

كانت روزى تلتهم فى سعادة بطيخة أخرى ـ كانت هذه ثانى بطيخة على الأقل؛ لكن فى الركن كان هناك ما يقرب من نصف دستة من البطيخ. كانت مارلينا قد نزعت رداء الرأس عن روزى، وعلقته على كرسى طاولة الزينة. لاحظت أيضاً وجود طاولة طعام محملة بأطباق غطيت بالقباب الفضية ومعها زجاجات الشراب. شممت رائحة اللحم البقرى فهاجت معدتى من الجوع.

كانت مارلينا محمرة الوجه وهى تبحث فى أحد أدراج طاولة الزينة وقالت: "أوه، جاكوب لقد بدأت أقلق. سيكون هنا فى أية لحظة. أوه يا إلهى، إننى لا أجده". ثم اعتدلت فجأة تاركة الدرج مفتوحاً وقد تدلت منه وشاحات حريرية. ثم سألت: "هل لى أن أطلب منك خدمة؟".

Amly نهضة العرب

فقلت: "بالطبع".

أخرجت زجاجة شراب من مبرد فضى ذى ثلاث أرجل. فتحركت بداخله مكعبات الثلج واضطربت. وكان الماء يقطر من الزجاجة وهى تعطيها لى. قالت: "هل يمكنك أن تنزع السدادة عند حضوره بالضبط ولتصرخ قائلاً "مفاجأة!"".

أخذت منها الزجاجة قائلاً: "بالطبع"، فنزعت رباط السدادة ووضعت إبهامى عليها منتظراً. مدت روزى خرطومها محاولة إيجاد طريق لها بين أصابعى والزجاجة. وكانت مارلينا لا تزال تبحث فى درجها.

"ما هذا؟".

تطلعت ببصرى، فإذا بأوجست أمامنا مباشرة.

فصاحت مارلينا وهى تدور: "أوه، مفاجأة".

فصحت أنا أيضاً وأنا أتملص من روزى وأفلت سدادة الزجاجة: "مفاجأة".

فطارت السدادة لترتطم بقماش الخيمة وتعود لتستقر على العشب واندفعت فقاقيع الشراب من بين أصابعى، فضحكت. وحاولت مارلينا بإصرار ومعها كأسان أن تملأهما من الشراب المندفع.

نظرت فإذا بثوب مارلينا الحريرى قد اسود لونه من آثار الشراب، فقلت: "أوه، أنا آسف"، وأنا أواصل ضحكى.

فقالت: "لا تأسف، لدينا زجاجة أخرى".

"لقد سألت *ما هذا؟*".

تجمدت فى مكانى أنا ومارلينا ويدانا لا تزالان متشابكتين. أطلت إليه ببصرها، فبدأ القلق فى عينيها فجأة. كانت تحمل فى كل يد كأساً فارغاً تقريباً، ثم قالت: "إنها مفاجأة. احتفال".

حدق أوجست ببصره، كانت رابطة عنقه محلولة، وسترته مفتوحة ووجهه شاحباً تماماً.

Amly نهضة العرب

قال "مفاجأة، نعم مفاجأة"، ثم نزع قبعته وأخذ يقلبها ويفحصها. كان شعره مرتفعاً فى موجة تدلت على جبهته. ثم نظر نحونا فجأة وقال وقد رفع أحد حاجبيه: "أوه، هكذا تظنان".

فقالت مارلينا فى صوت جاف: "معذرة؟".

فقام بحل سوار قميصه ونزع قبعته وقذف بها إلى ركن الخيمة. ثم نزع سترته ببطء وبطريقة نظامية تماماً. ثم سار نحو طاولة الزينة وطوح سترته كما لو كان سيضعها على ظهر كرسى الطاولة. وحين رأى رداء رأس روزى، توقف. وبدلاً من ذلك قام بلملمة سترته ووضعها بعناية على الكرسى. ووقعت عينه على الدرج المفتوح والوشاحات الحريرية المتدلية من حوافه.

فقال وهو يتجه بنظره نحونا: "هل وصلت فى وقت غير مناسب؟"، بدا صوته وكأنه يطلب من أحدهم تمرير الملح له على مائدة الطعام.

فقالت مارلينا بنعومة: "حبيبى، لا أدرى عم تتحدث".

مال أوجست وانتزع من الدرجة وشاحاً برتقالياً طويلاً يكاد يكون شفافاً. وتلاعب به بين أصابعه ثم قال وهو ينزع طرف الوشاح ثم يتركه لينسل ثانية من بين أصابعه: "هل كنتما تمرحان قليلاً بهذه الأوشحة؟ أوه، إنك شخص فاحش حقاً. لكننى كنت أعلم ذلك".

حدقت إليه مارلينا فى صمت تام.

ثم قال: "إذن، هل كان هذا احتفالاً لاحقاً لمرحلة اللعب؟ هل منحتكما ما يكفى من الوقت؟ أم هل كان ينبغى علىّ الابتعاد قليلاً ثم العودة فى وقت لاحق؟ إن علىّ الاعتراف بأن الفيلة كانت مرحلة جديدة، كان ينبغى أن أعرف ذلك".

قالت مارلينا: "ما هذا الذى تتحدث عنه بالله عليك؟".

فقال وهو يشير إلى الكأسين فى يدها وقد لاحظهما: "كأسين فقط؟".

فرفعت الكأسين سريعاً وقد انزلقت محتوياتهما على العشب وقالت: "هل تفكر فى هذا؟ إن الكأس الثالثة ــــ"

Amly نهضة العرب

"هل تظنانى أحمق؟".

فقلت: "أوجست ـــ"

"اخرس! اخرس أنت ولا تنطق!".

تحول وجهه ليصبح أرجوانى اللون. وبرزت عيناه، وبدأ يغلى من الغضب.

وقفت أنا ومارلينا ساكنين تماماً، مذهولين فى صمت. ثم اعترى وجه أوجست تغير انفعالى آخر، مظهراً شيئاً أقرب إلى الرضا. ثم تابع عبثه بالوشاح، بل وكان يبتسم وهو ينظر إليه. ثم طواه بعناية وأعاده ثانية إلى الدرج. وحين اعتدل، هز رأسه ببطء.

رفع يده، وقلب الهواء بأصابعه وهو يقول: "أنتما... أنتما... أنتما..." لكنه أنزلها بعد ذلك، ثم التفت إلى عصاه ذات الطرف الفضى. كانت تميل على جانب الطاولة، حيث تركتها، فمشى على مهل إليها ثم التقطها.

سمعت صوت ارتطام سائل بالأرض خلفى، فاستدرت سريعاً، فوجدت روزى تبول على العشب، وكانت أذناها مسطحتين على رأسها وخرطومها معقوفاً أمام وجهها.

حمل أوجست عصاه وأخذ ينقر راحة يده بطرفها على نحو متصل ثم قال: "إلى متى كنت تظن أن بإمكانك إخفاء الأمر عنى؟"، ثم توقف لثانية ونظر إلى عينى على نحو مباشر وتابع: "إيه؟".

فقلت: "أوجست، ليست لدىّ أدنى فكرة عن ـــ"

"قلت لك اخرس". ثم استدار وضرب طاولة الطعام فأسقط الأطباق والسكاكين والزجاجات على الأرض. ثم رفع قدمه وركل الطاولة فسقطت على جانبها مبعثرة أطباق الخزف والزجاج والطعام على الأرض.

ثم نظر أوجست لما أحدثه فى فوضى لثوان، ثم قال: "لقد ظننت أننى لن أفهم ما يجرى؟"، اتجهت عينه مباشرة نحو مارلينا، وقد بدأ شريان فى جانب رأسه ينتفض بشدة، ثم قال: "أنت ماهرة جداً يا عزيزتى". ثم هز أصبعه وابتسم وتابع: "علىّ الاعتراف بهذا؛ أنت ماهرة جداً".

Amly نهضة العرب

عاد ثانية إلى طاولة الزينة وأمال عصاه عليها ثم مال هو نحوها، وحدق في المرآة ورفع الشعر الذى تدلى على جبهته إلى مكانه ثم مسحه بكف يده. ثم تجمد فى وضعه هذا، بينما لا تزال يده على جبهته. ثم قال وهو ينظر لصورتنا فى المرآة: "استغماية، رأيتكما!".

نظرت مارلينا بوجهها المذعور نحوى فى المرآة.

استدار أوجست والتقط رداء روزى الوردى المطرز وقال: "وهذه هى المشكلة، أليس كذلك؟ لقد رأيتكما. لقد ظننتما أننى لم أكن أرى، لكننى كنت أرى"، ثم قال وهو يلف الغطاء البراق بيده: "لقد كانت هذه لمسة لطيفة، علىّ الاعتراف بهذا. فالزوجة الوفية، مختبئة بعيداً فى حجرة صغيرة تفعل فعلتها. هل كان ذلك فى حجرة حقاً؟ ربما كان هنا؟ أو ربما ذهبت إلى خيمة المتعة. فهن يعتنين ببعضهن على نحو طيب؛ أليس كذلك؟"، ثم نظر نحوى وقال: "أين فعلت ذلك يا جاكوب؟ أين قمت بخيانتى مع زوجتى على وجه الدقة؟".

فأخذت مارلينا من مرفقها وقلت: "هيا، لنذهب من هنا".

صاح صارخاً: *آها!* أنت لا تنكر الأمر إذن!"، ثم شد على الرداء بقبضة يده التى اعتصرها حتى ابيضت وجعل يصرخ وأسنانه قد صكت إلى بعضها، حتى انفصلت عن بعضها على نحو متعرج.

صرخت مارلينا، وسقط الكأسان من يدها، ووضعت يدها على فمها.

صرخ أوجست: *"أنت عاهرة! فاسقة. أنت سافلة"*. ومع كل صفة يطلقها، كان يشق الرداء أكثر وأكثر.

صاحت مارلينا وهى تتقدم خطوات: "توقف! *توقف عن ذلك!"*.

بدا كأن صراخها قد صدمه، فتوقف. ونظر نحوها وطرف بعينه. ثم نظر إلى الرداء الذى بيده ثم عاد بنظره إليها فى حيرة.

وبعد سكون دام لثوان، تقدمت مارلينا نحوه وقالت فى تردد: "أوجى؟". ثم تطلعت ببصرها نحوه وقالت بعينين متوسلتين: "هل أنت على ما يرام الآن؟".

Amly نهضة العرب

فحدق فيها أوجست مرتبكاً، وكأنه استيقظ من نومه فوجد نفسه هنا فاقتربت مارلينا ببطه وقالت: "حبيبى؟".

فتدلى فكه السفلى، وتجعدت جبهته، وأسقط الرداء أرضاً.

ظننت للحظة أن أنفاسى قد حُبست.

خطت مارلينا نحوه وقالت: "أوجى؟".

فنظر نحوها وأنفه ينتفض بقوة. ثم دفعها بكل قوته، فسقطت على الأطباق المبعثرة والطعام. ثم تقدم فى خطوة واسعة ومال نحوها، محاولا نزع العقد من عنقها. أمسك العقد بيده وشده، فجعلها ذلك تتجرجر من رقبتها وتصرخ.

فاندفعت فيما بينهما وأعقته. جأرت روزى من خلفى حين سقطت أنا وأوجست أرضاً على الأطباق المكسورة والشراب المسكوب. فى البداية كنت أنا فوقه ألكمه فى وجهه. ثم عاد هو ليعلونى ويضربنى فى عينى. فأبعدته عنى وجذبته من قدميه.

صرخت مارلينا: "أوجى! جاكوب! توقفا!".

دفعته للخلف، لكنه جذبنى من فتحة سترتى فسقط كلانا على طاولة الزينة. أدركت بالكاد رنين تهشم المرآة من حولنا. دفعنى أوجست بعيداً، واشتبكنا فى وسط الخيمة.

تدحرجنا معاً، ونحن نلهث كالكلاب، وقد اقترب كل منا من الآخر، حتى أننى كنت أشعر بأنفاسه فى وجهى. أصبحت أعلوه الآن، وألكمه فى وجهه. ثم اعتلانى وأخذ يضرب رأسى بالأرض. كانت مارلينا تحوم حولنا صارخة فينا بأن نتوقف، لكننا لم نستطع. أنا على الأقل لم أستطع - فغضب وألم وإحباط الشهور الماضية القليلة قد سرى الآن فى قبضة يدى.

واجهت الطاولة المقلوبة، ثم واجهت روزى التى كانت تجذب ساقها المقيدة وتخور بصوت عال. بعد ذلك وقفنا معاً ثانية وكل منا يمسك بالآخر من الياقة وأطراف السترة، وكل منا يتقى ضربات ويسدد الأخرى. وفى النهاية سقطنا عند مدخل الخيمة وسط الجمع الذى احتشد خارج الخيمه

Amly نهضة العرب

وخلال ثوان تم حملى وتكبيلى من قبل بيل وجريدى. وللحظة بدا أوجست كأنه سيطاردنى، لكن التعبير الذى بدا على وجهه المحطم تغير فجأة. فنهض على قدميه ونفض الغبار عن ملابسه بهدوء.

فصرخت فيه: "إنك مجنون. *مجنون!*".

رمقنى ببرود، وعدل من أكمامه، ثم عاد إلى الخيمة.

صرخت متوسلاً، وأنا أقلب نظرى بين بيل وجريدى: "اتركانى، بالله عليكما؛ اتركانى. إنه رجل مجنون! سيقوم بقتلها!"، فجاهدت بقوة فجذبتهما معى بضع أقدام. ومن الداخل سمعت صوت تحطم أطباق ثم سمعت صراخ مارلينا.

زمجر كل من بيل وجريدى وشبكا ساقيهما حتى لا أتملص منهما؛ فقال جريدى: "كلا لن يقتلها. لا تقلق بهذا الشأن".

اندفع إيرل من بين الزحام ودخل الخيمة فتوقف التحطيم. وسمعت صوت ضربتين مكتومتين ثم أخرى بصوت أعلى، وبعد ذلك ساد صمت مطبق.

تجمدت فى مكانى أنظر إلى قماش الخيمة الممتد أمامى.

قال جريدى وهو ما يزال يشد على ذراعى بقوة: "أرأيت؟ هل أنت بخير؟ هل نذهب بك الآن؟".

أومأت برأسي وأنا لا أزال محدقاً.

فقام بيل وجريدى بإطلاقى، لكن على مراحل، فخففا أولاً من قبضتهما على ذراعى، ثم تركانى، لكن ظلا قريبين منى يراقبانى.

امتدت يد حول خصرى. كانت يد وولتر وقد وقف بجوارى.

قال: "هيا يا جاكوب. لنذهب من هنا".

فقلت: "لا أستطيع".

"بل تستطيع. هيا لنبتعد الآن".

حدقت نحو الخيمة الصامتة لثوان أخرى. ثم انصرفت ببصرى وكانت فتحتها تهتز من تدافع الريح.

Amly نهضة العرب

صعدت مع وولتر إلى عربة الخيول. ظهرت كوينى من خلف الصناديق؛ حيث يتصاعد غطيط كامل. فهزت ذيلها المجذوذ، ثم جعلت تشمشم الهواء.

قال وولتر مشيراً إلى السرير: "اجلس".

جلست كوينى فى منتصف الأرضية، بينما جلست أنا على حافة الفراش، وحينها بدأت مادة الأدرينالين فى دمى تنحسر، وبدأت أشعر بمدى خطورة إصابتى؛ فيداى كانتا ممزقتين وكنت أتنفس كأننى أتنفس من خلال كمامة تنفس اصطناعى، وأنظر من خلال فتحة صغيرة فى عينى اليمنى التى تورمت. وحين لامست وجهى بيدى، عادت إلىّ مخضبة بالدماء.

مال وولتر على صندوق مفتوح. وحين استدار، كان بحوزته زجاجة من الشراب ومنديل. ثم توقف أمامى ونزع سدادة الزجاجة.

فنادى كامل من خلف الصناديق قائلاً: "إيه؟ هل أتيت يا وولتر؟". لقد أيقظه صوت نزع سدادة الزجاجة.

قال وولتر وقد تجاهل كامل كلياً: "إنك تنزف بشدة". كان يضع المنديل على فوهة الزجاجة ويقلبها. ثم أقبل بالمنديل المبلل بالشراب نحو وجهى وقال: "ابق هادئاً؛ فهذا سيؤلمك".

وكان تعبيره هذا أقل عبارة تهوين سمعتها؛ فحين لامس الكحول وجهى المصاب انتفضت للخلف صارخاً بشدة.

فانتظر وولتر وحافظ على المنديل فى يده ثم قال وهو يستعيد سدادة الزجاجة: "ستحتاج إلى شىء تعضه بأسنانك، خذ هذه".

فقلت وأنا أطبق أسنانى وأضم صدره وأهزه يمنة ويسرة: "لا، امنحنى مجرد ثانية فقط".

فقال وولتر وهو يعطينى الزجاجة: "لدىّ فكرة أفضل، اشرب، فسينزل فى جوفك كالنار المستعرة لكن بعد بضع جرعات لن تشعر بشىء بعدها. ثم أخبرنى الآن، ما الذى جرى بينكما؟".

Amly نهضة العرب

أخذت الزجاجة واستخدمت كلتا يدىّ المصابتين بشدة لأرفع الزجاجة نحو فمى. كنت أشعر بانتفاخ يدى وكأننى أرتدى قفازات ملاكمة. ثبت وولتر الزجاجة على فمى. سال الكحول على شفتىّ المجروحتين مشعلاً فيها ناراً، ثم اخترق طريقه نحو حلقى لينفجر داخل معدتى بجحيمه. شهقت وأبعدت الزجاجة عنى فارتج سائلها بعنف حتى وصل إلى عنقها.

قال وولتر: "نعم. إنه ليس بالأمر الهين".

فصاح كامل: "هلا أخرجتمانى من هنا وأشركتمانى فيما يجرى؟".

قال وولتر: "اصمت يا كامل".

"هاى، ليست هذه طريقة تعامل بها عجوزاً مريضاً ـــ"

فقال وهو يدفع الزجاجة نحوى ثانية: "قلت لك اصمت يا كامل. إنى أعالج موقفاً هنا. تابع. تناول بضع جرعات أخرى".

قال كامل: "أى موقف هذا؟".

"لقد أصيب جاكوب بجروح".

"ماذا؟ كيف؟ هل حدثت ثورة قش؟".

فقال وولتر فى كآبة "كلا، بل حدث ما هو أسوأ".

فهمهمت عبر شفتى المتورمتين: "ماذا تعنى ثورة القش؟".

فقال وهو يدفع الزجاجة نحوى ثانية: "اشرب. إنها تعنى حدوث شجار بيننا وبينهم، بين أعضاء السيرك وبين الجماهير. هل أنت مستعد؟".

أخذت جرعة أخرى من الشراب، ورغم طمأنة وولتر، نزل إلى جوفى وكأنه غاز الخردل. فوضعت الزجاجة على الأرض وأغلقت عينىّ وقلت: "نعم، مستعد".

رفع وولتر ذقنى بإحدى يديه وأدار رأسى يمنة ويسرة متفحصاً ما فيه من إصابة، وقال وهو يجول فى شعر مؤخرة رأسى: "أوه، اللعنة يا جاكوب. ما الذى حدث بالضبط؟". كان من الواضح أنه اكتشف فى رأسى إصابة أخرى.

Amly نهضة العرب

"لقد دفع مارلينا".

"هل تعنى جسدياً؟".

"نعم".

"ولماذا؟".

"لا ريب أنه قد جن، لا أجد توصيفاً لما فعله سوى هذا".

"إن شعر رأسك يمتلأ بقطع الزجاج؛ فابق ساكناً". وبدأ يفحص بأصابعه فروة رأسى وهو يرفع شعرى عنها ويفرقه. ثم قال: "وما الذى دفعه لهذا الجنون؟".

"لست أدرى".

"هل اقتربت منها؟".

"كلا، مطلقاً، لم أفعل". وأنا على ثقة من أن وجهى كان سوف يحمر من كذبى لولا أنه كان بالفعل كقطعة لحم مفرومة.

فقال وولتر: "آمل ألا تكون قد فعلت، فهذا لمصلحتك".

ومن يمينى، سمعت صوت زحف وضرب، أردت أن أنظر، فشد وولتر على ذقنى وصرخ قائلاً: "ما الذى تفعله يا كامل؟"، كانت أنفاسه الحارة تلامس وجهى وهو يصيح.

"أريد أن أرى إن كان جاكوب بخير أم لا؟".

قال وولتر: "بالله عليك. ابق حيث أنت. فلن أعجب أبداً إذا هبط علينا الآن بعضهم، سيكونون فى إثر جاكوب غالباً. لكنهم لن يتركوك إن وجدوك أنت أيضاً".

بعد أن أنهى وولتر تنظيف جروحى وتنظيف رأسى مما فيه من زجاج، زحفت نحو فراشى محاولاً إيجاد مكان مريح أضع عليه رأسى الذى كان مصاباً من الأمام والخلف. انتفخت عينى اليمنى حتى أغلقت تماماً. اتجهت كوينى نحوى لتتبين الأمر، وشمشمت فى تردد ثم عادت بضع خطوات واستلقت وعينها علىّ.

Amly نهضة العرب

أعاد وولتر الزجاجة إلى الصندوق وظل منكفئاً عليه، يبحث عن شيء في قعره. وحين اعتدل واستدار، كان بيده سكين صخم.

أغلق الباب الداخلي بقطعة خشب. ثم جلس وأسند ظهره للحائط والسكين في جانبه.

بعد فترة سمعنا صوت حوافر الخيل تصعد العارضة. وكان أوتس، وبيت، ودياموند جو يتهامسون في الناحية الأخرى من العربة. لكن أحداً منهم لم يطرق الباب أو يحاول فتحه. وبعد فترة سمعناهم يرفعون العارضة ويغلقون الباب.

وحين بدأ القطار أخيراً يصدر طلقات اندفاعه المتلاحقة، تنهد وولتر بصوت مسموع. نظرت نحوه فوجدته قد وضع رأسه بين ركبتيه وظل فى مكانه للحظة ثم نهض وأعاد السكين الضخم خلف الصندوق.

فقال وهو يحرر الباب من قطعة الخشب: "إنك محظوظ". ثم أعاد فتح الباب واتجه نحو الصناديق المتراصة التى تخفى كامل.

فقلت له وقد بدأ الشراب يذهب بعقلى: "أنا؟".

"نعم أنت، محظوظ حتى هذه اللحظة".

جر وولتر الصناديق بعيداً عن الحائط ليخرج كامل. ثم سحب العجوز إلى الجزء الآخر من العربة ليهتم بإجراءات تطهيره المسائية.

كان عقلى قد بدأ يغيب ويهذى بفعل الجروح فى رأسى وبفعل الشراب اللعين الذى تجرعته. بالكاد وعيت لـ وولتر وهو يساعد كامل على تناول عشائه. أذكر أيضاً أننى رفعت رأسى كى أشرب الماء من يد وولتر ثم انهرت ثانية على فراشي. وفى المرة التالية التى وعيت فيها لنفسى، وجدت كامل مستلقياً على السرير يغط فى نومه، وكان وولتر جالساً على فراش الحصان فى الزاوية وبجانبه المصباح وفى حجره كتاب. سمعت صوت أقدام على سطح العربة، وبعد لحظة سمعت صوتاً مكتوماً خارج باب الغرفة، فسرى الانتباه فى جسدى كله.

Amly نهضة العرب

زحف وولتر سريعاً عبر الغرفة، كالسرطان، واستل السكين من خلف الصندوق. ثم تحرك إلى جوار الباب وهو يشد على مقبض السكين بقوة. أشار إلىّ وولتر ملوحاً باتجاه المصباح. فزحفت عبر الغرفة، ولكن كانت إحدى عينىّ مغلقة وينتابنى إحساس بالتحفز.

فتح الباب للداخل مصدراً صريراً. وبدأت أصابع وولتر تنقبض وتنبسط على مقبض السكين.

"جاكوب؟".

فصحت: "مارلينا!".

فصاح وولتر مسقطاً السكين من يده: "اللعنة، لقد كدت أقتلك"، ثم سحب الباب لحافته متطلعاً لمن قد يكون خلفها وقال: "هل أنت بمفردك؟".

فقالت "نعم. أنا آسفة. أردت أن أتحدث إلى جاكوب".

فتح وولتر الباب بقدر أوسع. ثم أخفض رأسه وقال: "أوه، يا إلهى. يجدر بك الدخول".

حين دخلت، حملت مصباح الكيروسين. كانت عينها اليسرى منتفخة وقرمزية اللون.

فقلت: "يا إلهى. هل فعل بك هذا؟".

قالت وهى تمد يدها وتحوم بأطراف أصابعها حول وجهى: "أوه، يا إلهى، انظر إلى نفسك. إنك فى حاجة إلى طبيب".

فقلت: "إننى بخير".

قال كامل: "من هنا؟ هل أسمع صوت امرأة؟ إننى لا أرى شيئاً. ليساعدنى أحد على الاستدارة".

فقالت مارلينا وقد أذهلها وجود ذلك الجسد المتهالك على السرير: "أوه، المعذرة. ظننت أنه ليس بالغرفة سواكما... أوه، أنا آسفة، سأعود".

فقلت: "لا، لن تعودى".

"لم أقصد... إزعاجه".

Amly نهضة العرب

"لا أحب أن تسيرى على ظهر القطار أثناء سيره، فضلاً عن القفز بين العربات".

قال وولتر: "أتفق مع جاكوب فيما يقول. سوف ننتقل نحن إلى مكان الخيول، ونمنحكما بعض الخصوصية".

قالت مارلينا: "كلا، لا يمكن ذلك".

فقلت: "إذن سأضع لك الفراش فى الخارج".

فقالت وهى تهز رأسها: "لا لم أقصد أن... أوه، يا إلهى ما كان ينبغى أن آتى إلى هنا".

وغطت وجهها بيديها. وبعد لحظة بدأت فى البكاء.

أعطيت المصباح لـ وولتر وجذبتها إلىّ. فاندفعت بين ذراعى باكية ووجهها فى قميصى.

قال والتر "أوه، يا إلهى. هذا يجعلنى مشاركاً فيما يحدث".

فقالت مارلينا: "لنخرج للحديث قليلاً".

تنهدت وابتعدت عن صدرى. ثم سارت إلى منطقة الخيول وتبعتها مغلقاً الباب من خلفى. سرى بعض الصهيل الناعم المميز لوجودها. فسارت مارلينا ومسحت بيدها على خاصرة ميدنايت. جلست أنا بجوار جدار العربة، منتظراً إياها. وبعد فترة لحقت بى. وبينما كان القطار يعبر أحد المنحنيات اهتزت الأرض تحتنا فدفع كل منا للآخر فتلامست أكتافنا.

بدأت الحديث قائلاً: "هل ضربك قط قبل هذا اليوم؟".

"كلا".

"أقسم بالله إنه لو فعلها ثانية سأقتله".

فقالت بهدوء: "لن تضطر لذلك أبداً".

تطلعت نحوها. كان ضوء القمر يطل من بين شرائح جدار العربة، كان ظل وجهها معتماً ولا تظهر ملامحه.

فقالت وهى تخفض وجهها: "سأتركه".

مددت يدى نحو يدها على نحو غريزى. فلم أجد خاتمها.

Amly نهضة العرب

فسألتها: "هل أخبرته بذلك؟".

"بشكل حاسم".

"وكيف تقبل القرار؟".

فقالت: "ها أنت قد رأيت رده".

جلسنا منصتين إلى طقطقة عقد السكة الحديدية من تحتنا. وقد حدقت في ظهور الخيول النائمة أمامنا وقطع الليل التى تتوالى من بين فتحات الجدران.

سألتها: "وماذا ستفعلين؟".

"سأتحدث مع العم آل حين نصل إلى إيرى لأرى إن كان يمكنه تدبير سرير لى فى جناح نوم الفتيات".

"وفى الوقت الحالى؟".

"فى الوقت الحالى، سأقيم فى أحد الفنادق".

"ألا تريدين العودة إلى أسرتك؟".

صمتت قليلاً ثم قالت: "لا أظنهم يرغبون فىّ على أية حال".

استندنا إلى الحائط فى صمت.

وبعد ساعة تقريباً، نامت. وظلت تنزلق حتى استقر رأسها على كتفى. أما أنا فبقيت مستيقظاً، كانت كل خلية من جسدى تستشعر قربها منى.

نهضة العرب Amly

الفصل التاسع عشر

"سيد جانكوسكى؟ حان وقت الاستعداد".

فتحت عينى بسرعة على الصوت القريب. فوجدت روزمارى تحوم حولى ومن خلفها بلاطات أرضية الغرفة.

فقلت وأنا أحاول النهوض على مرفقى: "إيه؟ أوه، هذا صحيح"، وقد انسل السرور إلى نفسى عندما وجدتنى مدركاً، للمكان الذى أنا فيه، ومدركاً لروزمارى، فضلاً عن إدراكى أن هذا هو يوم ذهابى إلى السيرك، فربما ما حدث سابقاً كان مجرد تجشؤ عقلى طارئ.

قالت: "ابق حيث أنت. فأنا سأرفع مقدمة سريرك. هل تريد الاستحمام؟".

"كلا، ولكنى أريد أفضل قميص لدى. وربطة العنق الفراشية".

فصاحت ساخرة وهى تميل برأسها للخلف ضاحكة: "الرابطة الفراشية!".

"نعم، أريد رابطة عنقى الفراشية".

فقالت وهى تتجه نحو خزانة الملابس: "أوه يا عزيزى، أنت رجل غريب الأطوار".

وحين عادت، كنت قد تمكنت من فك ثلاثة أزرار من القميص الذى ارتديته. وليس هذا سيئاً بالنسبة لأصابع معقودة مثل أصابعى. لقد ازددت سعادة بحالى. فعقلى وجسدى يعملان على نحو جيد اليوم.

Amly نهضة العرب

وبينما بدأت روزمارى فى مساعدتى لخلع قميصى تأملت جسدى النحيل، فضلوع صدرى بارزة، والشعرات القليلة التى بقيت فى صدرى قد ابيض لونها. إن شكلى يذكرنى بالكلب الهزيل، فكل الأوتار والأضلاع بارزة. ساعدت روزمارى ذراعىّ على دخول القميص الجديد، وبعد دقائق قليلة مالت نحوى لتثبت الرابطة الفراشية. ثم ارتدت للخلف، وأمالت رأسها، وقامت بتعديل أخير.

قالت وهى تومئ برأسها فى استحسان: "حسناً، أرى الآن أن ارتداءك للرابطة الفراشية كان خياراً صائباً منك". كان صوتها عميقاً وعذباً، كان أشبه بالغناء. وودت لو أننى جلست اليوم كله أستمع لصوتها. ثم سألتنى: "هل تريد إلقاء نظرة فى المرآة؟".

فقلت: "هل ضبطت الملابس علىّ بشكل جيد؟".

"بالطبع، فعلت ذلك".

فغمغمت قائلاً: "إذن لا حاجة لى بالنظر فى المرآة. فلم أعد أحب المرايا هذه الأيام".

فقالت وهى تضع يدها على خاصرتها وتفحصنى: "حسناً، أرى أنك وسيم جداً".

فلوحت لها بيدى البارزة العظم: "أوه، شششش".

فضحكت ثانية، دوى صوت ضحكها كأنه خمر، سرى دافئاً فى عروقى: "إذن، هل تريد انتظار عائلتك هنا، أم آخذك إلى الصالة؟".

"متى سيبدأ العرض؟".

فقالت: "سيبدأ فى الساعة الثالثة، وهى الآن الثانية".

"سأنتظر إذن فى الصالة؛ فأنا أريد المغادرة مباشرة بمجرد وصولهم"

وقفت روزمارى منتظرة فى صبر حتى وضعت نفسى على الكرسى المتحرك. وبينما كانت تقودنى نحو الصالة، شبكت يدى ووضعتها فى حجرى، وجعلت أحركهما على نحو عصبى.

Amly نهضة العرب

كانت الصالة تعج بأناس آخرين جلسوا على مقاعدهم المتحركة. وقد اصطفوا أمام المقاعد القابلة للطى وهى مقاعد الزوار. أوقفتنى روزمارى فى نهاية الصف بجوار إيفى بايلى.

كانت مائلة للأمام، فحدبة ظهرها كانت ترغم وجهها على أن يكون فى حجرها دائماً. كان شعرها هشاً، وأبيض اللون، ويبدو أن شخصاً ما ـ غير إيفى بالتأكيد ـ قد قام بتصفيف شعرها بعناية وفرده خلال المناطق التى زال منها الشعر. استدارت نحوى بشكل مفاجئ، وأشرق وجهها لرؤيتى.

ثم صاحت وهى تمد يدها العظمية وتمسك بها رسغى: "مورتى! أوه، مورتى. ها قد عدت من جديد".

جذبت ذراعى بعيداً، لكن يدها ظلت معلقة به. وجعلت تشدنى وأنا أتراجع.

فصحت وأنا أحاول التملص: "أيتها المرضة! أيتها المرضة!".

بعد ثوان، خلصنى أحدهم من إيفى، التى كانت مقتنعة بأننى زوجها الراحل. وفوق ذلك، كانت مقتنعة بأننى لم أعد أحبها. مالت نحو ذراع الكرسى باكية وملوحة بذراعيها فى محاولة يائسة للوصول إلىّ. كانت الممرضة، التى لها وجه يشبه وجه الحصان، قد أتت من خلفى وسارت بى بعيداً عنها بمسافة معقولة. ووضعت مساعد المشى بيننا.

ظلت إيفى تنوح: "أوه، مورتى، مورتى! لا تعاملنى هكذا. أنت تعلم أن الأمر لم يكن يعنى شيئاً. لقد كان شيئاً تافهاً ـ كان خطأ فاحشاً. أوه، مورتى ألم تعد تحبنى؟".

جلست أحك معصمى وأنا أشعر بالسخط الشديد. فلماذا لا يكون لديهم جناح منفصل لأمثال هذه العجوز؟ من الواضح أنها فقدت عقلها تماماً. كان من الممكن أن تؤذينى. بالطبع، لو كان لديهم جناح منفصل لمثل هذه الحالة، لانتهى بى الأمر إليه بعدما حدث هذا الصباح. ثم جلست فى اعتدال وفكرت فى أن الدواء الجديد ربما هو ما سبب لى تلك اللوثة الطارئة ـ أوه، ينبغى أن أحدث روزمارى بهذا الشأن. أو ربما لا ينبغى

Amly نهضة العرب

ذلك. لكن الفكرة أسعدتنى، وأردت التعلق بها. فعلىّ أن أحمى المقدار الضئيل من السعادة الذى مازلت أملكه.

مرت الدقائق وبدأ الناس يختفون واحداً تلو الآخر، وبدا صف الكراسى المتحركة مثل فم رجل مبتسم فقد معظم أسنانه. بدأت الأسر تتوالى فى الوصول وكل منها يبادر بتحية صاخبة نحو سلفهم العجوز المنتظر. فتميل الأجساد القوية نحو الضعيفة؛ ويطبعون القبل على وجناتهم، وواحداً وراء آخر بدأ العجائز فى مغادرة المكان محاطين بأقاربهم.

حين وصلت أسرة إيفى، تظاهروا بسعادة كبيرة لرؤيتها. وحدقت هى فى وجوههم، بعينين وفم مفتوحين، فى حيرة، ولكن فى سعادة أيضاً.

بقى ستة فى القائمة الآن، وبدأ كل منا ينظر للآخر فى ريبة. وفى كل مرة تفتح الأبواب الزجاجية تتجة وجوهنا جميعاً نحوها. ثم يعلو الإشراق أحد الوجوه. وهكذا استمر الحال حتى بقيت وحدى فى الصالة.

نظرت إلى ساعة الحائط. كانت الثانية وخمساً وأربعين دقيقة. اللعنة! إنهم إن لم يحضروا حالاً، فإننى سأفقد مشاهدة العرض العام. تململت فى مقعدى وأنا أشعر بأنى عجوز متبرم. اللعنة، إننى كذلك بالفعل، لكن علىّ ألا أفقد أعصابى حين يصلوا. بل يجب أن أستعجل قدومهم على الباب معلناً أنه لا يوجد وقت الآن للترحيب والمجاملات. وبإماكنهم إخبارى بأية ترقية أو إجازة يريدون الحديث عنها بعد انتهاء العرض.

ظهر رأس روزمارى عند مدخل الباب. نظرت فى كل اتجاه، لتتيقن من أنه لم يبق هناك غيرى فى الصالة، فاتجهت نحو مركز المرضات ووضعت جدولها على الطاولة. ثم أتت وجلست بجوارى.

"ألم يظهر منهم أحد حتى الآن يا سيد جانكوسكى؟".

فصحت قائلاً: "كلا! وإذا لم يصلوا حالاً فلن تكون هناك جدوى من الحضور على أية حال. فأنا على ثقة من أن المقاعد المميزة قد امتلأت وأننى سأفوت مشاهدة العرض العام". ثم عدت بنظرى إلى الساعة فى يأس وقلت

Amly نهضة العرب

فيما يشبه الأنين: "ما الذى أعاقهم إلى الآن؟ إنهم يحضرون فى مثل هذا الوقت دائماً".

نظرت روزمارى إلى ساعتها. كانت ذات إطارات ذهبية ضاغطة على لحم يدها. إننى اعتدت ارتداء ساعتى دون إحكامها حول معصمى. وهذا عندما كان لدىّ ساعة.

سألتنى: "هل تعلم من منهم سيحضر اليوم؟".

"لا. ولم أكن أعرف فى يوم من الأيام من الذى يأتى منهم، ولا يعنينى هذا. المهم أنهم كانوا يأتون فى الموعد المحدد".

"حسناً، دعنى أبحث فى الأمر".

ثم نهضت واتجهت نحو مكتب فى غرفة المرضات.

كنت أفحص وجه كل مار عبر الممشى الجانبى متجهاً إلى الأبواب الزجاجية للصالة، باحثاً فيما بينهم عن وجه مألوف لى، لكنهم كانوا يمرون دون أن أستوضح وجوههم واحداً بعد آخر. نظرت إلى روزمارى، التى كانت تقف خلف المكتب تتحدث فى الهاتف. نظرت نحوى. وأغلقت الهاتف ثم بدأت اتصالاً آخر.

أعلنت الساعة الثالثة إلا سبع دقائق ـ لم يبق سوى سبع دقائق فقط على بدء العرض. ارتفع ضغط دمى، وبدأ جسدى كله ينتفض مثل مصباح الفلورسنت الذى يعلونى.

تجاوزت تماماً فكرة عدم فقدانى لأعصابى. فأياً كان من سيظهر منهم فسيناله غضبى بلا شك. فكل عجوز وكل مجنون هنا سيشاهد العرض كاملاً، بما فيه العرض العام، فأين العدل فى موقف كهذا؟ فأنا الأحق بمشاهدة العرض من غيرى. أوه، فلأنتظر حتى أرى من القادم منهم. فإن كان أحد أبنائى، فسأميل عليه مباشرة. أما إن كان من الآخرين، فسأنتظر حتى ـــ

"أنا آسفة يا سيد جانكوسكى".

نظرت لأعلى بسرعة قائلاً: "إيه؟". كانت روزمارى قد عادت وجلست على الكرسى المجاور لى.

Amly نهضة العرب

ولفزعى لم أشعر بوصولها.

"لقد فشلوا فى تحديد من ينبغى عليه القدوم هذه المرة".

"حسناً، ومن تقرر حضوره فى النهاية، وكم يستغرق حتى يصل إلى هنا؟".

صمتت روزمارى. ضغطت شفتيها على بعضهما وتناولت يدى من بين يديها. وهو ما يفعله الناس حتى يتأهبون لإخبار الآخرين بأخبار سيئة، وارتفع لدىّ الأدرينالين فى توقع ما ستدلى به. قالت: "إنهم لم يتمكنوا من الحضور. كان من المفترض حضور ولدك سايمون. وحين اتصلت به تذكر الموعد، لكنه كان بالفعل قد خطط لموعد آخر. أما الأرقام الأخرى التى اتصلت بها، فلم تجب".

قلت بصوت منخفض: "موعد آخر؟".

"بلى سيدى".

"هل أخبرته بشأن عرض السيرك".

"أخبرته. وقد حزن كثيراً لذلك. لكنه لا يستطيع التخلص مما هو فيه الآن".

التوت ملامح وجهى، وقبل أن أدرك، بدأ أنفى يسيل وأنا أبكى كالطفل.

"أنا جد آسفة سيد جانكوسكى؛ فأنا أعلم أهمية ذلك بالنسبة لك. ولولا أن لدىّ وردية عمل لاثنتى عشرة ساعة لذهبت أنا بك إلى العرض".

وضعت يدى على وجهى محاولاً إخفاء دموعى. وبعد ثوان مدت يدها بمنديل ورقى، فأخذته وقلت لها وأنا أمسح أنفى التى رشحت: "أنت فتاة طيبة يا روزمارى. هل تعلمين ذلك؟ لا أدرى ماذا كنت فاعلاً من دونك".

نظرت إلىّ طويلاً، طويلاً جداً. ثم قالت أخيراً: "سيد جانكوسكى؛ هل تعلم أننى سأترك العمل هنا غداً؟".

فرفعت رأسى نحوها بسرعة قائلاً: "إيه؟ حتى متى؟". أوه، اللعنة. هذا ما لم أكن أحتاج إليه. فإنها إذا انقطعت لإجازة، فإننى فى الغالب سأنسى اسمها مرة أخرى حين تعود.

"سننتقل إلى ريتشموند؛ لنكون قريبين من والدة زوجى؛ فهى ليست على ما يرام".

Amly نهضة العرب

ذهلت وفتحت فمى قليلاً قبل أن أجد الكلمات: "هل أنت متزوجة؟".

"إننى متزوجة منذ ستة وعشرين عاماً يا سيد جانكوسكى".

"ستة وعشرون عاماً؟ أنا لا أصدق ذلك. مازلت فتاة صغيرة".

ضحكت وقالت: "إننى جدة يا سيد جانكوسكى. أبلغ من العمر سبعة وأربعين عاماً".

جلسنا صامتين للحظة. ثم وضعت يدها فى جيبها الوردى الباهت واستبدلت منديلى المبلل بآخر جديد؛ فجعلت أمسح به على عينى.

ثم قلت وأنا أتنهد: "زوجك رجل محظوظ".

"كلانا محظوظ، وكلانا سعيد بلا شك".

"وكذلك والدة زوجك. هل تعلمين أن أحداً من أبنائى لم يقبل بأن أعيش معه؟".

"حسناً... هذا أمر لا يكون هيناً فى العادة، أنت تعرف".

"لم أقل إنه كذلك".

أخذت يدى وقالت: "أعلم ذلك يا سيد جانكوسكى، أعلمه".

عمنى إحساس تام بالظلم. أغلقت عينىّ وتخيلت منظر إيفى بايلى العجوز المخبولة وهى فى خيمة الحلبة الكبرى. إنها لن تدرك وجودها هناك، ولن تتذكر أى شىء مما رأته.

بعد دقيقة أو دقيقتين، قالت روزمارى: "هل من شىء يمكن أن أقوم به من أجلك؟".

فقلت: "لا"، ولم يكن هناك من شىء بالفعل ـــ إلا إذا ذهبت بى إلى السيرك أو جاءت بالسيرك إلىّ أو أخذتنى معها إلى ريتشموند. أضفت قائلاً: "أفضل الآن البقاء بمفردى".

فقالت بلطف: "أتَفهَّم ذلك. هل أذهب بك إلى غرفتك؟".

"كلا، بل سأبقى هنا".

توقفت ثم مالت لتطبع قبلة على جبينى. واختفت فى الردهة، وصوت نعلها المطاطى يصدر صوتاً على بلاطات الأرضية.

Amly نهضة العرب

من مجموعة [illegible]

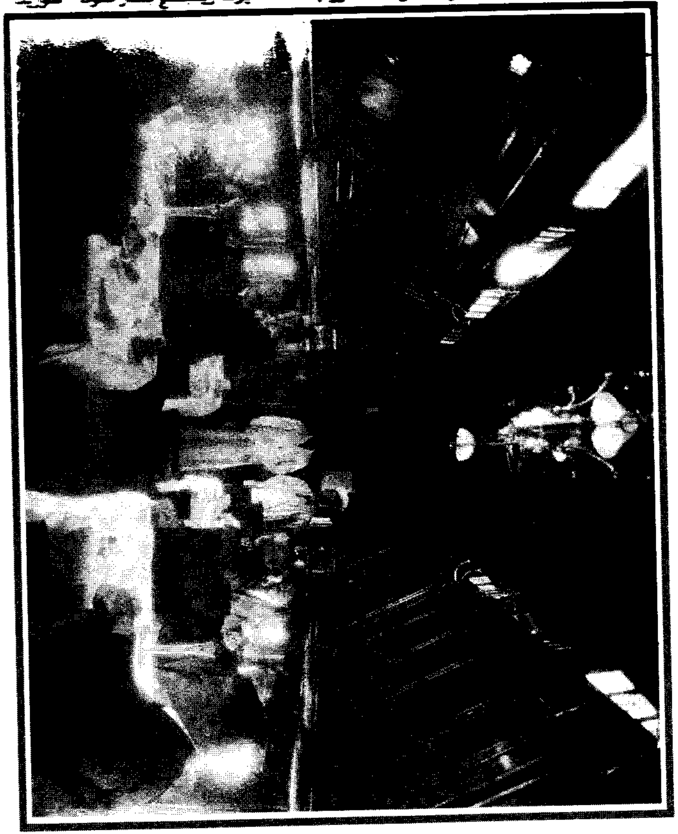

Amly

نهضة العرب

الفصل العشرون

حين استيقظت كانت مارلينا قد اختفت، فذهبت في الحال للبحث عنها فوجدتها خارجة من عربة العم آل ومعها إيرل. رافقها إلى العربة رقم ٤٨ وأخرج منها أوجست حتى تدخل هي.

سررت برؤية أوجست وقد أصيب على نحو أبشع مما أنا عليه؛ فكان مثل حبة طماطم معطوبة. وحين صعدت مارلينا إلى العربة ناداها وأراد أن يتبعها، لكن إيرل منعه. كان أوجست هائجاً ويائساً، يتحرك من نافذة إلى التي تليها، قافزاً لأعلى بأطراف أصابعه، وهو يبكي وينوح ندماً وحسرة.

لن يحدث ذلك مرة أخرى أبداً. فهو يحبها أكثر من حبه لحياته ـــ وهي تعلم ذلك لا ريب. إنه لا يدري ما الذي أصابه. إنه على استعداد لفعل أي شيء ـ أي شيء! ـ كي ترضى عنه. إنها مليكته، وهو ليس أكثر من خليط بائس من الندم. ألا ترى مدى أسفه؟ هل تريد تأديبه؟ أليس لديها قلب؟

حين ظهرت مارلينا مع حقيبتها، مرت به دون حتى التفاتة. كانت تعتمر على رأسها قبعة من الخوص بحاشية عريضة أخفت عينيها.

صاح وهو يمسك بذراعها ويشده: "مارلينا".

قال إيرل: "دعها تذهب".

فقال أوجست: "أرجوك. أتوسل إليك". ونزل على ركبتيه على التراب. وانزلقت يده عن ذراعها فأمسك بيدها اليسرى ووضعها على وجهه، وجعل يمطرها بوابل من البكاء والقبلات وهي تحدق في جمود إلى الأمام.

Amly نهضة العرب

"مارلينا. حبيبتى. انظرى إلىّ. إننى جاثٍ على ركبتىّ. إننى أتوسل إليك. ماذ أفعل فوق هذا؟ حبيبتى ـ جميلتى ـ أرجوك عودى معى سنتحدث فى الأمر. سنعالجه". ثم وضع يده فى جيبه وأخرج خاتما، حاول أن يضعه فى بنصرها. فهزت يدها متحررة منه وتابعت سيرها.

بدأ يصرخ، وقد تغير لون حتى الأماكن التى لم تصب من وجهه، وتدلى شعره على جبهته: "مارلينا! مارلينا! لا يمكنك فعل هذا! هذه ليست النهاية! هل تسمعيننى؟ أنت زوجتى يا مارلينا حتى يفرق بيننا الموت، أتذكرين؟". نهض على قدميه وتوقف وقبضتاه مطبقتان وهو يصرخ: "حتى يفرق بيننا الموت!".

دفعت مارلينا بحقيبتها نحوى دون أن تتوقف، فالتفت وتبعتها، محدقاً فى خصرها الدقيق وهى تسير عبر الحشائش البنية اللون. فقط عند أطراف الساحة، بدأت تبطئ من سيرها حتى لحقت بها وسرت بجوارها.

قال موظف الفندق، وهو يتطلع نحو رنين الجرس الذى أعلن عن قدومنا خلف الباب: "هل من خدمة؟". وسرعان ما استبدل تعبيره الأول بالترحيب المفرط بقلق ثم ازدراء. وكان هذا ما وجدناه من كل من قابلناهم ونحن فى الطريق إلى هنا. وعلى مقعد بجوار باب الفندق جلس عجوزان يحدقان فى بلاهة بلا خجل.

نحن أيضاً كنا نشكل زوجاً تام الاتفاق. فبشرة مارلينا التى تجاور عينيها أصبح لونها شديد الزرقة. لكن وجهها كان محتفظاً بشكله تقريبا ـ أما أنا فكان وجهى منتفخاً مهروساً، وقد تورمت كدماته بجروح تنز بما فيها.

قالت مارلينا: "أريد غرفة".

رمق الموظف مارلينا بنظرة ازدراء وأجاب وهو يدفع نظارته بأصبع واحد: "ليس لدينا غرف"، ثم عاد لينظر فى دفتر أمامه.

وضعت الحقيبة ووقفت إلى جوارها وقلت: "اللافتة فى الخارج تقول إن لديك غرفاً شاغرة".

Amly نهضة العرب

ضم شفتيه فى عجرفة وقال: "فهى إذن لافتة غير دقيقة".

لست مارلينا مرفقى وقالت: "هيا يا جاكوب".

فقلت: "كلا، لن نذهب"، والتفت للموظف قائلاً: "السيدة فى حاجة إلى غرفة. وأنت لديك غرف شاغرة".

نظر فى توجس إلى يدها اليسرى ورفع حاجبه وقال: "إننا لا ننزل بالفندق غير المتزوجين".

"الغرفة ليست لى؛ بل لها هى وحدها".

فقال: "آه ــ ها".

فقلت: "لا تذهب بأفكارك بعيداً يا رجل؛ فلست ممن تظن".

قالت مارلينا مرة أخرى: "هيا يا جاكوب". وكان وجهها أكثر شحوباً مما سبق، وهى تنظر إلى الأرض.

قال الموظف: "أنا لا *أظن* بك شيئاً على الإطلاق".

قالت مارلينا: "جاكوب، هيا، أرجوك. لنبحث فى مكان آخر".

رمقت الموظف بنظرة قاسية أخيرة لإفهامه أننى كنت سأبطش به لولا وجود مارلينا. ثم التقطت الحقيبة. وسارت هى نحو الباب.

قالت المرأة من الزوج الذى كان بجوار الباب: "أوه، إننى أعرفك. أنت الفتاة التى تظهر فى الملصقات الإعلانية! نعم أنا على ثقة من ذلك". ثم استدارت إلى الرجل العجوز الذى بجوارها وقالت: "نوربرت، هذه فتاة الملصق الإعلانى! أليس كذلك؟ هل أنت نجمة السيرك يا آنسة؟".

فتحت مارلينا الباب، وعدلت حاشية قبعتها وخرجت، وتبعتها.

نادى الموظف: "انتظرا. أظن أن لدينا ـــ"

فصفقت الباب خلفى مغلقاً إياه.

لم تكن بالفندق التالى ـ والذى كان على بعد ثلاث بنايات ـ تلك الريبة نحونا، رغم أننى كرهت الموظف بالفندق تماماً ككرهى للموظف السابق. كان يتوق لمعرفة ما جرى. وكانت عيناه تتفحصان ببريق، وفضول، وبذاءة. وأعلم ما كان سيظنه لو أن عينى مارلينا كانت هى المصاب الوحيد

Amly نهضة العرب

بيننا، لكن الآن كانت إصابتى أسوأ بكثير؛ لذلك أصبحت الصورة غير واضحة تماماً لديه.

قال وهو يدلى مفتاحاً إلينا: "الغرفة ٢ ب"، وظل يشرب ويحدق باتجاهنا وتابع قائلاً: "اصعدا السلم واتجها يميناً، الغرفة فى نهاية الردهة".

تبعت مارلينا، مراقباً ساقيها المنحوتتين وهى تصعد السلم.

أثارت بعض الضوضاء وهى تستخدم المفتاح لدقيقة، ثم تنحت جانباً، وقالت: "لا أستطيع فتح الباب. هلا حاولت فتحه؟".

هززت المفتاح قليلاً فى فتحة القفل، وبعد ثوان قليلة، سحب مزلاج الباب. دفعته فاتحاً إياه ووقفت جانباً لأسمح لها بالدخول. ألقت بقبعتها على السرير. وسارت نحو النافذة التى كانت مفتوحة. سرت هبة ريح فامتلأت ستائر النافذة بالهواء، رفعتها أولاً إلى الداخل ثم سحبتها بعد ذلك إلى فتحة الشباك ثانية.

كانت الغرفة بسيطة لكنها كانت مناسبة؛ فالزهور تعلو ورق الحائط والستائر. والسرير مغطى بالشانيل، وباب الحمام مفتوح، والحمام ذاته واسع والحوض الذى بداخله ذو سيقان كلابية الشكل.

وضعت الحقيبة ووقفت على نحو مربك. كانت مارلينا معطية ظهرها لى، ورأيت جرحاً فى عنقها إثر جذب العقد منه.

سألتها وأنا أدير القبعة بين يدى: "هل تحتاجين شيئاً آخر؟".

فقالت: "كلا، شكراً".

نظرت إليها بضع لحظات أخرى. كنت أريد أن أعبر الغرفة وأضمها بين ذراعى، لكننى بدلاً من ذلك غادرت الغرفة وأغلقت الباب خلفى فى هدوء.

لأنه لم يكن لدى ما أفعله أو أفكر فيه، فقد اتجهت نحو خيمة معرض الحيوانات لكى أقوم بعملى المعتاد. فقمت بتقطيع وخلط ومعايرة الطعام

Amly نهضة العرب

وفحصت أسنان أحد ثيران التبت وكان بها خراجاً. ومددت يدى لـ بوبو لأسطحبه فى كل أنحاء الخيمة وأنا أفحص بقية الحيوانات.

كنت قد بدأت فى إزالة الروث حين أتى دياموند جو من خلفى وقال: "العم آل يريد رؤيتك".

نظرت إليه لحظة، ثم وضعت المجراف على القش.

كان العم آل فى عربة الفطائر يجلس خلف طبق به شريحة لحم ومقليات. كان يحمل فى يده سيجاراً ينفث دخانه فى حلقات. وكانت بطانته تقف خلفه فى هدوء.

نزعت قبعتى وقلت: "لقد أردت مقابلتى؟".

فقال وهو يميل للأمام: "آه، جاكوب. إننى سعيد برؤيتك. هل رافقت مارلينا؟".

"إنها فى غرفة بفندق الآن، إن كان هذا ما تعنيه".

"هذا جزء مما أعنيه بالفعل".

"لست أعلم ما الذى تقصده بالتحديد".

صمت للحظة. ثم وضع سيجاره وضم يديه فى شكل هرمى: "الأمر بسيط جداً. إننى لا أستطيع الاستغناء عن أى منهما".

"على حد علمى، ليس لديها نية لترك العمل بالسيرك".

"ولا هو لديه الرغبة فى ذلك. ولك أن تتخيل إن ظل كلاهما فى السيرك دون أن يتوافقا ثانية".

"لا أظنك تقصد أن تعود إليه ثانية".

فابتسم وهز رأسه إيجاباً.

"لقد *ضربها* يا آل. لقد *ضربها*".

حك العم آل ذقنه، وفكر قليلاً ثم قال: "لا يهمنى ذلك. علىّ أن أدعوك للجلوس". وأشار إلى الكرسى الذى أمامه وقال: "اجلس".

اقتربت وجلست على حافة الكرسى.

Amly نهضة العرب

مال العم آل برأسه جانباً متفحصاً إياى وقال: "إن فى الأمر شىء من الحقيقة؟".

"أى أمر؟".

فنقر أصابعه على الطاولة وزم شفتيه ثم قال: "هل أنت ومارلينا ـ هممم. كيف أقول ذلك؟".

"كلا".

فقال وهو يتابع تأمله: "*ممممم*. جيد، لا أظن ذلك. لكنه جيد. ففى هذه الحالة، يمكنك مساعدتى".

فقلت: "ماذا؟".

"سأحاول أنا معه، وتحاول أنت معها".

"ما هذا الهراء؟".

"أنت فى موقف سيئ. نعم؛ فأنت صديق لكليهما".

"إننى لست صديقه".

تنهد مدعياً طول الصبر ثم قال: "عليك أن تفهمنى يا جاكوب. إنه يمر بهذه الحالة على فترات. وليس له يد فيها". ثم مال نحوى متفحصاً وجهى وقال: "يا إلهى. أظن أنه من الأفضل أن أستدعى طبيباً ليفحصك".

"لست بحاجة إلى طبيب، وبالطبع له يد فيما يحدث".

نظر إلىّ، ثم عاد إلى ظهر كرسيه وقال: "إنه مريض يا جاكوب".

فلم أقل شيئاً.

"إنه مصاب بجنون الانقباض".

"مصاب بماذا؟".

فكرر العم آل: "جنون الانقباض".

"تقصد جنون الاضطهاد".

"أياً كان الاسم. الخلاصة أنه مصاب بجنون. بالطبع هو أيضاً عبقرى. ولذا نحاول تسوية الأمر. بالطبع سيكون الوضع أشد قسوة على مارلينا من غيرها. ولذا سنحاول مساندتها قدر الإمكان".

Amly نهضة العرب

هززت رأسى وأنا فى ذهول: "هل تعى ما تقول؟".

"إننى لا أستطيع الاستغناء عن أى منهما. فإذا لم تعد مارلينا، فلن يمكن التعامل مع أوجست".

فكررت قولى: "لقد *ضربها*".

"أعلم ذلك. وأنا غاضب جداً من فعله هذا. لكنه زوجها، أليس كذلك؟".

وضعت قبعتى على رأسى ونهضت.

فقال: "أين تذهب؟".

فقلت: "سأعود لعملى. فلن أجلس هنا لأسمعك تقول إنه لا بأس بأن يضرب أوجست مارلينا لأنها زوجته، ولأنه لا حيلة له فى جنونه. إن كان مجنوناً، فهذا سبب أدعى لانفصالها عنه".

"إذا كنت ترغب فى عمل تعود له، فاجلس".

فقلت له: "هل تعلم؟ إننى لست عابئاً بوظيفتك اللعينة تلك".

وتحركت نحو الباب متابعاً: "إلى اللقاء. وددت لو قلتها فى ظروف أفضل".

"ماذا عن صديقك القزم؟".

تجمدت فى مكانى ويدى على مقبض الباب.

فقال: "ذلك الحثالة صاحب الكلب"، ثم قال وهو يمعن التفكير: "وذلك الآخر أيضاً ـــ أوه، ما اسمه؟". ونقر أصابعه وهو يحاول تذكر الاسم.

استدرت نحوه فى بطء وعلمت من يقصد.

"أنت تعلم من أعنى. ذلك العجوز عديم الفائدة الذى يقتات على طعامى ويشغل حيزاً على قطارى دون أن يقوم بأى عمل. ماذا عنه أيضاً؟".

حدقت فيه، وقد اشتعل وجهى بالكراهية.

"هل كنت تظن أن بإمكانك إيواء هارب دون أن أكتشف الأمر؟ ودون أن يكتشف هو الأمر؟". كان وجهه قاسياً، وعيناه تومضان.

Amly نهضة العرب

ثم لان وجهه فجأة وابتسم فى دفء. وبسط يديه فى وضع ابتهال: "لقد فهمتنى على نحو خاطئ تماماً. فكل من فى هذا السيرك هم أسرتى، وأنا أعطى كل واحد منهم أقصى اهتمام ورعاية. لكن ما أفهمه أنا - ولا يبدو أنك قد فهمته بعد - أنه فى بعض الأحيان يتوجب على شخص ما التضحية من أجل سعادة الباقين. وما تريده هذه الأسرة الكبيرة هو أن يعود الوفاق بين أوجست ومارلينا. هل يفهم كلٍ منا الآخر؟".

حدقت فى عينيه المتوهجتين مقاوماً رغبتى الشديدة فى أن أغرس بينهما فأسا قاتلة.

ثم قلت أخيراً: "بلى يا سيدى. أظننى قد فهمت".

وضعت روزى إحدى قدميها الأماميتين على حوض بينما كنت أهذب أظافر قدمها الأخرى. كان لها فى كل قدم خمس أظافر كالإنسان تماماً. وبينما كنت أعمل على هذه القدم، لاحظت أن النشاط البشرى لرجال المعرض من حولى قد توقف تماماً. وتجمد العمال فى أماكنهم، وحدقوا بأعين واسعة عند المدخل.

فتطلعت، فإذا به أوجست يدخل إلى المعرض ويتوقف أمامى مباشرة. كان شعره منسدلاً على جبهته. فأعاد تنظيمه بيده المتورمة. كانت شفته العليا بلون أرجوانى شديد الزرقة، وكانت مشقوقة كقطعة نقانق مشوية. وكان أنفه محطماً ومائلاً جانباً، وقد تجمدت فيه الدماء. وبيده كان يحمل سيجارة مشتعلة.

قال: "يا إلهى". حاول الابتسامة لكن شفته المشقوقة منعته من ذلك. فسحب دخاناً من سيجارته وتابع قائلاً: "من الصعب تحديد الحالة الأسوأ من بيننا، أليس كذلك يا فتى؟".

فقلت له وأنا أميل لأقلم أحد أظافر روزى الضخمة: "ماذا تريد منى؟".

"مازلت غاضباً منى، أليس كذلك؟".

فلم أرد.

Amly نهضة العرب

فراقبنى للحظة وأنا مستمر فى العمل ثم قال: "اسمع، إننى أدرك أننى قد تجاوزت حدودى. فأحياناً ما أذهب بخيالى بعيداً".

"أوه، هل هذا ما حدث؟".

فقال وهو ينفث دخانه: "اسمعنى، إننى أود أن تصفح وتنسى الماضى. فما رأيك فى هذا يا فتى ـ هل عدنا أصدقاء من جديد؟"، ثم مد يده نحوى.

فاعتدلت، وكلتا ذراعى فى جانبى وقلت له: "لقد *ضربتها* يا أوجست".

كان الرجال يراقبون ما يجرى فى صمت مطبق، بدا أوجست مذهولاً، وتحرك فمه. ثم أعاد يده الممدودة وحول إليها سيجارته. كانت يده مجروحة وأظافره محطمة. قال: "نعم. أعلم هذا".

تراجعت وانحنيت على أظافر روزى قائلاً: "*بوتوزى نوجى. بوتوزى نوجى،* روزى!".

فدفعت قدمها الضخمة عن الحوض وأعادتها إلى الأرض. فركلت الحوض المقلوب ناحية قدمها الأمامية الأخرى. وقلت: "*نوجى! نوجى!*"، فعدلت روزى من وزنها ووضعت قدمها الأخرى وسط الحوض، فقلت: "*تيرازى دو برزودو*"، وجعلت ألكز ظاهر ساقها حتى برزت أظافر قدمها عند حافة الحوض.

فقلت وأنا أربت على كتفها: "فتاة طيبة يا روزى"، فرفعت خرطومها وفتحت فمها فى ابتسامة. فمددت يدى ومسحت على لسانها.

قال أوجست: "هل تعلم أين هى؟".

ملت لأسفل وأخذت أفحص أظافر روزى، وأنا أسير بيدى على باطن قدمها.

فتابع: "إننى أريد أن أراها".

بدأت تقليم أظافرها. فاندفع رذاذ من مسحوق أظافرها إلى الهواء.

Amly نهضة العرب

فقال وقد اكتسى صوته بالحدة: "حسناً، ابق على حالك. لكنها زوجتى. وسوف أجدها. حتى لو اضطررت للبحث فى كل فنادق المدينة، *وسوف* أجدها".

فتطلعت نحوه فى اللحظة التى نقر فيها سيجارته فدارت فى الهواء ثم استقرت فى فم روزى المفتوح، فأزت السيجارة حين ارتطمت بلسان روزى، فجأرت الفيلة وأصابها الفزع، وجالت بخرطومها داخل فمها.

انصرف أوجست؛ فالتفت نحو روزى. فنظرت إلىّ وعلى وجهها نظرة حزن صامتة. ووجدت عينيها البنيتين قد ملأتهما الدموع.

كان يجب أن أفكر فى أنه سيقوم بالبحث عنها من فندق إلى آخر. لكنى لم أفكر فى ذلك، إضافة إلى أنها نزلت فى ثانى فندق وصلنا إليه. لا ينبغى أن يسهل العثور عليها.

كنت أعلم أننى مُراقب الخطى، ولذا فقد جعلت أمضى وقتى بشكل عادى. وفى أول فرصة سنحت لى، تسللت من ساحة العرض واندفعت إلى الفندق. انتظرت دقيقة عند الزاوية، حتى تأكدت من أن أحداً لا يتبعنى. بعد ذلك التقطت أنفاسى ونزعت قبعتى ومسحت جبهتى، ودلفت إلى مبنى الفندق.

تطلع الموظف نحوى، كان رجلاً آخر غير السابق. حدق فىّ بعينيه.

قال كما لو أنه قد رآنى من قبل، وكما لو أن حبة طماطم معطوبة مثلى تمر من بابه كل يوم: "ماذا تريد؟".

"أريد مقابلة الآنسة لارشيه". لقد تذكرت أن مارلينا سجلت فى الفندق باسم عائلتها "مارلينا لارشيه".

فقال: "ليس لدينا هنا أحد بهذا الاسم".

فقلت له: "بل هى لديكم بالقطع. لقد كنت معها حين نزلت بالفندق هذا الصباح".

"آسف، إنك مخطئ فيما تقول".

حدقت فيه للحظة ثم عدوت نحو السلم.

Amly نهضة العرب

"هاى، أنت يا رجل، تعال هنا".

صعدت السلم متجاوزاً درجتين فى كل خطوة.

فصاح: "إذا تجاوزت هذا السلم، سأبلغ الشرطة".

"فلتبلغها إذن".

"إننى أفعل ذلك. أنا أتصل بهم فعلاً الآن".

"حسناً".

طرقت الباب بأقل براجم أصابعى تورماً. وقلت: "مارلينا".

وبعد ثانية، جذبنى الموظف ودار بى قاذفاً إياى نحو الحائط. وأمسك بى من حاشية سترتى وأصبح وجهه أمام وجهى مباشرة؛ فقال: "لقد أخبرتك من قبل أنها ليست هنا".

"لا بأس يا ألبرت، إنه صديق"، كان المتحدث مارلينا وقد خرجت إلى الردهة من خلفنا.

فتجمد فى مكانه زافراً نفساً ساخناً على وجهى. وقد اتسعت عيناه فى حيرة وقال: "ماذا؟".

فقلت أنا أيضاً بنفس الحيرة: "ألبرت؟ ألبرت؟".

ثم تمتم ألبرت قائلاً: "لكن ماذا عن الذى جاء قبل ذلك؟".

"ليس هذا هو ذات الرجل السابق؛ فهذا شخص آخر".

فقلت أخيراً وقد بدأت أفهم ما حدث: "هل جاء أوجست إلى هنا؟ هل أنت بخير؟".

أدار ألبرت بصره بينى وبينها.

فقالت مارلينا شارحة: "هذا صديق. إنه الشخص الذى قاتله".

فتركنى ألبرت وحاول فى ارتباك تعديل وضع سترتى، ثم مد يده قائلاً: "آسف يا رجل. يبدو حالك فى بشاعة ذلك الرجل الآخر".

فقلت وأنا أصافحه: "آه، لا بأس"، ثم قبض على يدى بشدة مصافحاً، فجفلت.

قلت لمارلينا: "لقد أتى فى طلبك. إن علينا مغادرة هذا المكان".

Amly نهضة العرب

فقالت مارلينا: "لا تكن سخيفاً".

فقال ألبرت: "لقد جاء إلى هنا بالفعل. وقد أخبرته أنها ليست هنا ويبدو أنه اقتنع بكلامى. وهذا ما جعلنى أندهش حين رأيتك ـــ رأيته ـــ ثانية".

بالأسفل، دق جرس الباب الأمامى للفندق. تبادلت النظر مع ألبرت. ثم دفعت مارلينا إلى داخل الغرفة، واندفع هو لأسفل ليرى الطارق.

فقال وأنا أغلق الباب دونه: "هل من خدمة؟"، علمت من صوت القادم أنه ليس أوجست.

استندت إلى الباب ألتقط أنفاسى بصعوبة وقد شعرت بالارتياح وقلت: "أرى أنه من الأفضل أن أعثر لك على غرفة تكون أبعد عن الساحة من هذه".

"كلا، أنا أريد البقاء هنا".

"ولماذا؟".

"لأنه مر هنا بالفعل ويعتقد الآن أننى فى مكان آخر. بالإضافة إلى أننى لا أريد تحاشيه للأبد. فعلىّ العودة إلى القطار غداً".

لم أكن قد فكرت فى هذا قط.

عبرت مساحة الغرفة وهى تمرر يدها على سطح الطاولة الصغيرة أثناء سيرها. ثم هبطت على كرسى وأسندت رأسها إلى ظهره.

قلت لها: "لقد حاول الاعتذار إلىّ".

"وهل قبلت اعتذاره؟".

فقلت مستشعراً الإهانة: "بالطبع لا".

هزت كتفيها قائلة: "كان من الأفضل لك أن تقبل، فالأرجح أنك ستطرد من العمل لو لم تصالحه".

"لقد ضربك يا مارلينا".

فأغلقت عينيها.

"يا إلهى ــ هل يفعل ذلك دائماً؟".

Amly نهضة العرب

"نعم. الواقع أنه لم يضربني من قبل أبداً. لكن هذه الحالات التى ،واتيه؟ نعم إننى لم أعرف أبداً على أى حال سأصحو كل صباح".

"العم آل يقول إنه مصاب بجنون الاضطهاد".

فأخفضت رأسها.

"كيف تحملت ذلك؟".

"لم يكن بيدى حيلة، فقد تزوجته قبل أن أدرك ما يعانى منه. لقد علمت كيف سار الأمر. إنه حين يكون سعيداً يصبح أكثر المخلوقات سحراً على وجه الأرض. لكن حين يثيره شئ ما..."، تنهدت وانتظرت أن تتابع حتى شككت فى أنها ستواصل الحديث. وحين تابعت، كان صوتها مرتجفاً: "أول مرة حدث فيها شئ كهذا، كانت بعد زواجنا بثلاثة أسابيع، وقد فزعت منه حتى كدت أن أموت. لقد ضرب أحد عمال معرض الحيوانات بشدة حتى فقد العامل إحدى عينيه. لقد رأيته يفعل ذلك. اتصلت بوالدىَّ وسألتهما إن كان بإمكانى أن أعود للبيت. لكنهما لم يتحدثا معى على الأقل. اعترفت أنه كان خطأ فادحاً منى أن أتزوج من يهودى، لكننى أريد الطلاق منه؛ فأبلغ والدى والدتى بأن تخبرنى بأنه قد اعتبرنى فى عداد الموتى منذ اليوم الذى فررت فيه من المنزل".

عبرت الغرفة وركعت إلى جوارها وجعلت أمسح على شعرها بيدى، لكن بعد ثوان وضعت يدى على ذراع الكرسى.

"بعد ثلاثة أسابيع، فقد عامل آخر من معرض الحيوانات ذراعه وهو يساعد أوجست فى إطعام الوحوش. وقد مات الرجل بسبب ما فقده من دماء حتى قبل أن يتمكن أحد من معرفة تفاصيل ما جرى. فى نهاية الموسم، علمت أن السبب فى تسليم أوجست قيادة خيول العرض لى هو أن المدرب السابق لهذه الخيول، وكانت امرأة أيضاً، ألقت بنفسها من القطار المندفع، بعد أن شاركت أوجست إحدى الأمسيات فى غرفته الخاصة بالقطار. وهناك حوادث أخرى كثيرة إلا أن هذه كانت أول مرة يستهدفنى فيها". مالت للأمام، وبعد لحظة كان كتفاها يرتجان.

Amly نهضة العرب

فقلت فى وهن: "أوه، هاى. توقفى. توقفى عن هذا يا مارلينا ـ انظرى إلىّ من فضلك".

اعتدلت ومسحت وجهها. ونظرت إلى عينىّ مباشرة وقالت: "هلا مكثت معى يا جاكوب؟".

"مارلينا ـــ"

"ششش". تزحزحت إلى حافة كرسيها ولامست بأحد أصابعها شفتى ثم انزلقت إلى الأرض. ركعت هى الأخرى أمامى، على بعد بوصات فقط منى، وأصبعها يرتجف على شفتَىّ.

ثم قالت: "أرجوك، أنا فى حاجة إليك". وبعد وقفة قصيرة منها بدأت تتحسس ملامح وجهى ـ على نحو متردد، وناعم ـــ فكانت أصابعها لا تكاد تلامس جلدى. فحبست أنفاسى وأغلقت عينى.

"مارلينا ـــ"

فقالت بنعومة: "لا تقل شيئاً". وبدأت أصابعها تجول صعوداً وهبوطاً فى طريقها حول أذنى وظاهر عنقى؛ فارتعدت. لقد وقف شعر جسدى كله من حركة أصابعها.

حين تحركت يداها إلى قميصى، فتحت عينى. بدأت تفك أزراره فى بطء وآلية.

شاهدتها مدركاً أن علىّ إيقافها. لكننى لا أستطيع. إنى عاجز عن ذلك ولا حيلة لدىّ. حين فتحت قميصى، نظرت فى عينى مباشرة. مالت نحوى ومررت شفتاها على شفتى.

توقفت، وكنت أتمايل وأترنح وأنا راكع على ركبتى. وبينما كانت لا تزال محدقة فى عينى، أخذت يدى ورفعتهما إلى شفتيها وطبعت قبلة فى راحتى ثم وضعتهما على يديها.

قالت: "المسنى يا جاكوب".

لقد قضى الأمر، لقد استسلمت.

Amly نهضة العرب

بعد فترة، ظللنا مستلقين فى صمت حتى حل الليل، وبعد ذلك، وعلى نحو متلعثم بدأت تتحدث. أدخلت قدميها بين كاحلى وبدأت تلاعب أطراف أصابعى، وسريعاً بدأ حديثها يتدفق. كانت توالى الحديث بلا حاجة أو مساحة للرد عليه، ولذا اكتفيت بضمها والمسح بيدى على شعرها. تحدثت عن ألم وحزن ورعب السنوات الأربع الماضية وتحدثت عن تعايشها مع حقيقة كونها زوجة لرجل عنيف جداً ولا يمكن توقع أفعاله، وأن لمسة يده تسرى بالحذر فى بدنها وكيف كانت تظن، لوقت قريب، أنها قد تمكنت من التكيف معه بالفعل. وأخيراً تحدثت عن ظهورى فى حياتها، وأنه هو الذى أجبرها على أن تدرك بأنها لم تتعايش مع واقعها على الإطلاق.

حين صمتت فى النهاية، لم أتوقف عن لمسها بيدى، ثم بدأت أنا حديثى. أخبرتها عن طفولتى، وعن فطيرة المشمش التى كانت تصنعها أمى. أخبرتها عن تجوالى مع أبى فى سنوات مراهقتى وكيف كان فخرى حين تم قبولى فى جامعة كورنيل، وعن كاترين، وكيف ظننت أن هذا كان حباً. أخبرتها عن العجوز ماكفرسون الذى تسبب فى انحراف سيارة والدى عن الجسر، وكيف استولى البنك على المنزل، وعن انهيارى وانصرافى من قاعة الامتحانات بعد أن غامت ملامح وجوه زملائى.

وفى الصباح مارسنا الحب مرة أخرى.

بعد فترة، استكانت بين يدى.

لقد أردت ذلك بشدة.

استلقيت بلا حراك متلذذاً بشعور التصاقى بها. خشيت حتى من التنفس أن يذهب بما أشعر به من شعور رائع.

Amly نهضة العرب

الفصل الحادى والعشرون

تقلبت مارلينا فجأة ثم دفعت نفسها لأعلى، وجذبت ساعتى من الطاولة التى بجانب السرير.

وقالت وهى ترمى بالساعة وتدير ساقيها إلى حافة السرير: "أوه، يا إلهى".

سألتها: "ماذا؟ ما الأمر؟".

فقالت: "لقد انتصف النهار. كان علىّ العودة".

اندفعت نحو الحمام وأغلقت الباب خلفها. بعد لحظات فار المرحاض واندفع الماء. ثم اندفعت من الباب، تلتقط على عجل ملابسها من أرضية الغرفة.

فقلت لها وأنا أنهض من السرير: "مارلينا، انتظرى".

فقالت وهى تجاهد فى ارتداء ملابسها: "لا أستطيع الانتظار. يجب أن أعود لتقديم عرضى".

اندفعت خلفها وتناولت ذراعيها بين يدى قائلاً: "مارلينا، أرجوك".

توقفت واستدارت نحوى ببطء. نظرت أولاً إلى صدرى ثم هوت ببصرها إلى الأرض.

تبعتها بنظرى، وقد انعقد لسانى فجأة ثم قلت: "ليلة أمس قلت لى إننى أحتاج إليك، ولم تقولى أبداً إنك تحبيننى، وأنا لا أعلم سوى شعورى فقط". ازدردت لعابى بصعوبة وأنا أنظر بعينين طارفتين إلى مفرق شعرها ثم قلت: "أنا أحبك يا مارلينا، أحبك بكل قلبى وروحى، وأريد البقاء إلى جوارك".

Amly نهضة العرب

ظلت تنظر بوجهها في الأرض.

"مارلينا؟".

رفعت رأسها وفي عينيها دموع وهمست قائلة: "وأنا أيضاً أحبك. أظن انني أحببتك من أول لحظة وقعت فيها عيني عليك. لكن ألا ترى ما أنا فيه؟ إنني متزوجة من أوجست".

"يمكننا تدبر ذلك".

"ولكن ــ"

"ولكن لا شيء؛ فأنا أريد أن أبقى معك. فإن كان هذا ما تريدينه أيضاً، سنحاول إيجاد مخرج لهذا الأمر".

أمسكت بوجهها بين يدى وقبلتها.

قلت لها وأنا أمسح دموعها بإبهامي: "علينا أن نترك السيرك".

فأومأت برأسها وهي تشهق.

"لكن لن نغادره قبل أن نصل إلى بروفيدنس".

"ولماذا هناك بالتحديد؟".

"هناك سيقابلنا ابن كامل وسيعود به إلى بيته".

"ألا يمكن لـ وولتر أن يهتم بأمره حتى ذلك الحين؟".

أغلقت عينيّ وملت بجبيني على جبينها وقلت: "الأمر أكثر تعقيداً من ذلك".

"وكيف ذلك؟".

"لقد استدعاني العم آل بالأمس وأرادني أن أقنعك بالعودة لأوجست. وهددني".

"بالطبع سينفذ تهديده؛ إنه العم آل".

"كلا، إنني أقصد أنه قد هدد بإلقاء وولتر وكامل من القطار في أثناء سيره".

"مجرد كلام. لا تلق لذلك بالاً؛ فهو لم يفعل ذلك قط".

"ماذا تقولين؟ أوجست؟ العم آل؟".

Amly نهضة العرب

فتطلعت إلىّ مشدوهة.

فقلت لها: "هل تذكرين حين حضر مسئولو السكك الحديدية إلى دافنبورت؟ لقد فقد فى الليلة السابقة على ذلك ستة رجال من على متن فلاينج سكوادرون".

تجهمت وقالت: "لقد ظننت أن مسئولى السكة الحديدية قد حضروا لأن شخصاً ما يريد إلحاق الضرر بالعم آل".

"كلا، بل أتوا لأن نصف دستة من الرجال قد ألقى بهم من القطار وكان المفترض أن يكون كامل من بينهم".

حدقت فى وجهى لحظة ثم وضعت يدها على وجهى وصاحت: "أوه، يا إلهى. لقد كنت مجرد حمقاء".

فقلت وأنا ألفها بذراعى: "كلا، كلا على الإطلاق. فمن الصعب تصور شر بهذا القدر".

دست وجهها فى صدرى وقالت: "أوه يا جاكوب ـ ماذا ستفعل".

فقلت وأنا ألمس شعرها بيدى: "لا أدرى. فسوف نجد حلاً ما. لكن علينا أن نكون على حذر بالغ".

عدنا إلى الساحة بشكل منفرد. سرت حاملاً حقيبتها حتى وصلت على بعد بناية من الساحة وراقبتها حتى عبرت الساحة إلى خيمة ملابسها واختفت بداخلها. تجولت فى المكان بضع دقائق متحسباً لوجود أوجست داخل الخيمة. وحين لم تبد لى إشارات لوجود مشاكل، عدت إلى عربة الخيول.

قال وولتر وهو يدفع الصناديق التى يختفى بها كامل: "ها قد عاد القط"، كان العجوز مستلقياً وعيناه مغلقتان وفمه مفتوح، ويغط. لابد أن وولتر أسرف فى إعطائه المسكرات.

قلت له: "ما عدت فى حاجة إلى هذا الذى تفعله بعد الآن".

فاعتدل وولتر وقال: "ماذا؟".

"لم تعد فى حاجة لإخفاء كامل بعد الآن".

فحدق فىّ وقال: "ما هذا الذى تهذى به؟".

Amly نهضة العرب

جلست فى الفراش. واقتربت كوينى تهز ذيلها. وحككت لها رأسها. وجعلت هى تشمشمنى.

"جاكوب، ما الذى يجرى؟".

وحين أخبرته بالأمر، تبدل تعبير وجهه من الصدمة إلى الرعب إلى عدم التصديق.

وأخيراً قال: "أنت كاذب".

"وولتر، من فضلك ـــ"

"فأنت إذن ستترك القطار بعد بروفيدنس. إنه معروف كبير منك أن تنتظر كل هذه المسافة".

"إن ذلك بسبب كام ـــ"

فصاح: "أعلم أنه بسبب كامل". ثم ضرب صدره بيده وقال: "وماذا عنى؟".

فتحت فمى، لكنى لم أجد ما أقوله.

فقال وصوته يمتلىء سخرية: "نعم. هذا ما ظننته".

فاندفعت قائلاً بلا تفكير: "تعال معنا".

"أوه، نعم. سيكون ذلك أكثر حميمية. نمضى معاً نحن الثلاثة. إلى أين نذهب برأيك؟".

"سوف نبحث فى *الإعلانات* لنرى عروضاً أخرى يتاح لنا العمل فيها".

"لا شىء متاح. فعروض السيرك تنهار فى طول البلاد وعرضها. ليس هناك سوى أناس يتضورون جوعاً. إنه الجوع فى الولايات المتحدة الأمريكية!".

"سنجد شيئاً ما، مكاناً ما".

فقال وهو يهز رأسه: "اللعنة على ما سنفعله أو نجده. اللعنة يا جاكوب. آمل أن تكون جديرة بكل هذا العناء. هذا كل ما يمكننى قوله".

توجهت إلى معرض الحيوانات باحثاً عن أوجست، لكنه لم يكن هناك، لكن التوتر كان بادياً على عمال المعرض.

Amly نهضة العرب

في منتصف عصر اليوم، استدعيت إلى عربة الامتياز.

قال العم آل وأنا أدخل إلى العربة: "اجلس"، وأشار إلى الكرسي الذى في مواجهته.

فجلست.

استند لظهر كرسيه، وجعل يبرم شاربه عابثاً. ثم ضاقت عيناه وسألني: "هل من جديد تخبرني به؟".

فقلت: "ليس بعد، لكنني أظن أنها ستلين".

اتسعت عيناه وتوقفت أصابعه عن برم شاربه وقال: "حقاً؟".

"ليس في الحال بالطبع، فلا تزال غاضبة".

فقال وهو يميل للأمام: "نعم، نعم، بالطبع. لكن هل تظن...؟"، ترك سؤاله يتلاشى وقد برقت عيناه بالألم.

تنهدت بعمق، وعقدت ساقيَّ وقلت: "حين يكون مَقَدراً اجتماع شخصين معاً، فلابد من اجتماعهما؛ إنه القدر".

حدق في عينيٍ وقد تسللت الابتسامة إلى وجهه. ثم رفع يده وطقطق بأصبعيه وقال آمراً: "كأس شراب من أجل جاكوب، وكأس آخر لي".

بعد دقيقة، كان كل منا يحمل بيده كأساً كبيرة.

ثم قال وهو يحرك الهواء بجوار رأسه: "أخبرني إذن، كم يستغرق الأمر بظنك...؟"

"أظنها تحتاج إلى الرعاية".

فقال وهو يعتدل للأمام وعيناه تلمعان: "نعم، نعم، أنا أتفهم ذلك تماماً".

"من المهم أيضاً أن تشعر بأننا ندعمها هي وليس هو. فأنت تعلم حال النساء. فلو رأت منا تصرفاً لا يشير إلى التعاطف معها على أي نحو، فإنها سترتد على عقبيها ثانية".

فهز رأسه وأماء بها حتى دارت دورة كاملة وهو يقول: "بالطبع، بالطبع. وبماذا تشير علينا بفعله في هذا الشأن؟".

Amly نهضة العرب

"حسناً، بالطبع ينبغي على أوجست أن يبقى بعيداً. فهذا سيزيد من احتمال شعورها بافتقاده. وقد يكون من المفيد له أيضاً أن يتظاهر *بأنه* لم يعد مهتماً لأمرها؛ فالنساء أحوالهن غريبة. علينا أيضاً *ألا* نشعرها بأننا نضغط عليها من أجل الإصلاح بينهما. وهذا أمر حساس للغاية لأنها تظن أن فكرة المصالحة تخصها هى".

قال وهو يومئ بتفكير عميق: "مممممم، نعم. ملاحظة جيدة. لكن كم يظنك...؟"

"لا أظن الأمر سيستغرق أكثر من بضعة أسابيع قليلة".

فتوقف عن إيمائه وقال: "كل هذا الوقت؟".

هززت كتفى وقلت: "سأحاول تسريع عملية المصالحة، لكن سيظل هناك خطر حدوث انتكاسة؛ فأنت تعرف حال النساء. فربما استغرق الأمر أسبوعاً، وربما حدث الصلح غداً. لكنها إن شعرت بأى ضغط عليها، فإنها ستتراجع لمجرد المعارضة".

فقال العم آل وهو يضع أصبعاً على شفتيه: "نعم، تماماً"، وبدأ يتأملنى لمدة طويلة فاحصاً ما وراء قولى ثم قال: "أخبرنى إذن، ما الذى غير رأيك هكذا خلال يوم واحد؟".

فحملت كأسى ورشفت بعضه وأنا أحدق فى نقطة التقاء جذع الكأس مع حاويته. ثم قلت له: "لنقل إن حقيقة الأمور قد اتضحت لى على نحو مفاجئ".

ثم قلت وأنا أرفع الكأس لأعلى، والشراب يترجرج فى جنباته: "نخب أوجست ومارلينا".

فحمل هو كأسه فى بطء.

فارتشفت ما بقى من شراب بكأسى وابتسمت.

أخفض العم آل كأسه دون أن يشرب منه شيئاً. فملت برأسى وأنا لا أزال مبتسماً لأدعه يتفحصنى كما يشاء؛ فأنا اليوم لا أُغلب.

بدأ فى إيماءاته برأسه، وقد بدا عليه الرضا. ثم أخذ جرعة من كأسه وقال: "نعم، هذا جيد. علىّ أن أعترف أننى لم أكن واثقاً بشأنك بعد حوار

Amly نهضة العرب

الأمس. وأنا سعيد بأنك قد بدأت تلين. ولن تندم على فعلك هذا يا جاكوب. فهو فى مصلحة الجميع؛ وأنت على وجه الخصوص".

وأشار نحوى بكأسه، ثم التقمه وازدرد ما فيه وقال وهو يزم شفتيه: "إننى أرعى من يرعانى"، ثم حدق فىّ وأضاف: "وأرعى أيضاً من لا يرعانى".

فى هذا المساء، قامت مارلينا بإخفاء عينيها المصابتين بمسحوق تجميل وأدت عرض الخيول الخاص بها. لكن وجه أوجست لم يكن من السهل إخفاء ما فيه، ولذا تم إيقاف عرض روزى حتى يتعافى بشكل أفضل. وكان أهل المدينة من الجماهير ـــ الذين شاهدوا كثيراً ملصقات روزى وهى تقف على كرة طوال الأسبوعين الماضيين ـــ غير سعداء بالمرة حين انتهى العرض وأدركوا أن هذه الفيلة التى كانت تتلقى بابتهاج شديد حبات الحلوى، والفشار، والفول السودانى فى معرض الحيوانات لن تظهر هذه الليلة على الحلبة. بعض الرجال أرادوا استعادة أموالهم ولكن تم الابتعاد بهم من أجل ترضيتهم قبل أن يفلت زمام الأمور.

بعد أيام قليلة ظهر رداء الرأس المطرز ثانية على روزى ـــ بعد أن تم إصلاحه بإحكام بخيط زهرى اللون ـــ وبدت روزى أيضاً متألقة وهى تجذب إليها الجمهور فى معرض الحيوانات. لكنها ظلت خارج إطار العرض على الحلبة. وفى نهاية كل عرض، كانت تظهر شكاوى من الناس بسبب ذلك.

استمرت الحياة على سيرتها الاعتيادية القابلة للانفجار فى أى لحظة كنت أؤدى واجباتى الاعتيادية فى صباح كل يوم وأبتعد عن العمل عند بدء وصول الجمهور. فالعم آل لا يرى أن وجهاً كحبة طماطم معطوبة من شدة الضرب يمثل واجهة مميزة للعرض، ولا ألومه على ذلك. فقد كانت جروحى تبدو بشعة قبل أن تبدأ فى التحسن، وحين بدأت التورمات فى الانحسار اتضح لى أن أنفى سيظل فى انحراف أبد الدهر.

باستثناء أوقات الوجبات، لم نكن نرى أوجست على الإطلاق. وقد قرر العم آل تعديل طاولة طعامه لتكون طاولة إيرل، ولكن بعد أن بدا واضحاً أن

Amly نهضة العرب

ذل ما سيفعله هو الجلوس والتجهم والنظر باتجاه مارلينا؛ فقد أمر بأخذ وجباته إلى عربة الطعام وتناول طعامه مع العم آل هناك، وهكذا كنت أجلس أنا ومارلينا ثلاث مرات يومياً متقابلين على طاولة الطعام، فى وحدة تبدو غريبة فى أكثر الأماكن ازدحاماً.

حاول العم آل القيام بما عليه فى هذه الصفقة، لكن أوجست كان بعيداً تماماً عن السيطرة. فى أول يوم له بعد استبعاده من غرفة الطعام، التفتت مارلينا لتجده يختبئ خلف فتحة خيمة، وبعد ساعة دنا منها فى منتصف الطريق، ونزل على ركبتيه وأحاط ساقيها بذراعيه. وحين صارعت للتخلص من إحاطته بها، أسقطها على العشب وثبتها فى مكانها محاولاً إجبارها على إعادة خاتم الزواج إلى إصبعها، وهو يهمهم بالتوسلات ويلقى بالتهديدات.

عاد وولتر إلى معرض الحيوانات كى يأتى بى، لكن حين وصلت، كان إيرل قد قام بالفعل بجر أوجست بعيداً. واتجهت إلى غرفة الامتياز وأنا غاضب.

وحين أخبرت العم آل بأن ما فعله أوجست لتوه، قد أعادنا للمربع رقم واحد، صرف إحباطه عبر تحطيم إبريق شراب فى حائط العربة.

اختفى أوجست بشكل نهائى لمدة ثلاثة أيام، وعاد العم آل يضرب المارين على رؤوسهم ثانية.

لم يكن أوجست وحده هو الذى أنهكه التفكير فى مارلينا. فقد كنت أستلقى على فراش الحصان ليلاً راغباً فيها بشدة. وكان فى داخلى نزعة تتمنى أن لو أتت إلىّ هنا. لكن ذلك مستحيل؛ فقدومها إلى هنا أمر غاية فى الخطورة، وأنا أيضاً لا أستطيع الالتحاق بها لأنها تنام فى غرفة نوم الفتيات.

تمكنا خلال ستة أيام من ممارسة العلاقة الحميمة مرتين ــ كنا نختبئ خلف جوانب الخيام ونتشابك، معدلين وضعية ملابسنا؛ فلم يكن هناك وقت لخلعها. وقد كنت أخرج من هذه اللقاءات مستثاراً ومتوهجاً، يائساً

Amly نهضة العرب

وراضياً فى ذات الوقت. وفى أوقات تواصلنا الأخرى بغرفة الطعام كنا نحافظ على تعامل رسمى واضح. حرصنا بشدة على هذا المظهر الخادع حتى لو لم يكن الآخرون بمقدورهم سماع حواراتنا معاً، كنا نتعامل نحو نظرة الآخرين، كما لو كانوا يجلسون جميعاً على طاولة واحدة معنا. ومع هذا كنت أشك فى أن علاقتنا لن تظل خافية. فقد بدا لى أن العلاقة بيننا لابد أنها واضحة للجميع.

وفى الليلة التى تلت ثالث لقاء حميمى خاطف بيننا، رأيت حلماً مثيراً للغاية. فقد توقف القطار فى غابة لسبب لم أستطع تحديده، وقد كان التوقف فى منتصف الليل ولا أحد يتحرك مطلقاً. وكنت أسمع خارج القطار نباحاً مستمراً ومكروباً. فغادرت العربة وتبعت صوت النباح نحو حافة ضفة شاهقة. فوجدت كوينى تصارع فى قاع الوادى، وغرير متعلق بساقها. فناديتها، وأنا أجول بنظرى فى جنون باحثاً عن طريق لنزول تلك الحافة إلى الوادى. فجذبت غصناً حبلياً لأتعلق به محاولاً الهبوط من خلاله، لكن قدمىّ انزلقتا على الوحل. فحملت نفسى متراجعاً لاستعادة اتزانى.

فى الوقت ذاته تحررت كوينى وصعدت التل. التقطتها بين يدىّ وفحصت جروحها. كانت بخير على نحو غير معقول. وضعتها تحت ذراعى واتجهت نحو العربة. فوجدت تمساحاً أمريكياً يبلغ طوله ثمانية أقدام يغلق علينا مدخل العربة. فنظرت نحو العربة التالية، لكن التمساح اتجه نحوها أيضاً وسار فى تثاقل، وقد فتح فمه المتبلد كثيف الأسنان مبتسماً ابتسامة عريضة؛ فالتفت مذعوراً فوجدت تمساحاً ضخماً آخر يقترب من الاتجاه الآخر.

ومن الخلف سمعت أصوات طقطقة أوراق الشجر وتكسر الأغصان. فاستدرت ناحية الصوت فوجدت الغرير قد صعد التل خلفنا ومعه أعداد أخرى غفيرة أصبح خلفنا جدار من حيوانات الغرير وأمامنا دستة من التماسيح.

فى هذه اللحظة استيقظت والعرق البارد ينضح من جسدى.

كان موقفاً يصعب الدفاع فيه، وقد أدركته تماماً.

Amly نهضة العرب

فى بوكيبسى، أغـارت الـشرطة علـى قطارنـا، ولأول مـرة ذابـت الحواجز الطبقية علـى هـذا القطـار: فالعمـال والعارضـون، والرؤسـاء كـانوا جميعاً يندبون وينوحون، وهم يـشاهدون سـكب كـل هـذه الزجاجـات مـن المسكرات علـى أرضـية الـسكة الحديـد بواسـطة رجـال شـاهرى الـسلاح، عابسى الوجوه. كانت الخمور تتسرب أمامنـا بـين الـصخور، مـثيرة زبـدها على أرض لا تستحق كل هذه الثمالة.

وبعد ذلك تم طردنا من المدينة.

فى هارتفورد، قام بعض الزبائن باعتراض خطير على عـدم تقـديم روزى للعـرض المعلـن عنـه، إضـافة إلى اسـتمرار رفـع العـرض الجـانبى للراحلـة لوسيندا رغم غيابها الأليم. لم يكن المصلحون علـى نفـس الـسرعة وقبـل أن ندرك الأمر احتشد الرجال الغاضبون عنـد عربـة التـذاكر مطـالبين اسـترداد أموالهم. ومع ضغط الشرطة من جانب والجمهـور مـن جانـب آخـر، اضـطر العم آل لإعادة أموال الناس عن كل عمليات اليوم.

وتم إخراجنا من المدينة بعد ذلك.

كان صباح اليوم التالى هو موعد صرف الأجـور، وقـد اصـطف موظفـو بنزيني براذرز أمام عربة التذاكر الحمـراء. كـان العمـال فـى حـالـة مزاجيـة سـيئة للغاية ــ فهم يعلمون إلى أى اتجاه تسير الريح. كان أول المتقدمين من العربة أحد العمال، وحين غادرها خـالى الوفـاض، ضـج الطـابور باللعنـات الغاضـبة. وغـادر بقيـة العمـال الطـابور وهـم يبـصقون ويلعنـون، تـاركين العارضين وحدهم فى الصف، وبعد دقائق قليلة سارت ضجة سخط أخرى، لكنها كانت مقرونـة بالدهـشة؛ فهـذه أول مـرة فـى تـاريخ الـسيرك لا يـتم صرف رواتب العارضين. الرؤساء فقط هم من صرفوا رواتبهم.

كان وولتر فى أوج غضبه.

دخل العربة وقذف بقبعته فى الزاوية وارتمى على الفراش وهـو يـصيح: "ما هذا *الهراء*؟".

Amly نهضة العرب

تذمر كامل وهو مستلق على السرير. إنه منذ حدوث الغارة على الحمر وهو إما محدق فى الحائط وإما باك. كان الوقت الوحيد الذى يتحدث فيه هو حين تحاول إطعامه أو تنظيفه، وحتى فى هذه الأثناء كان كل حديثه هو استعطاف لنا بألا نسلمه لولده. وقد تبادلت مع وولتر الأدوار فى ترضيته بالحديث عن قيمة الأسرة والصفح، لكن كلينا كانت لديه شكوك فى صدق هذا الحديث. أياً ما كانت حالته حين ترك أسرته، فهو الآن بلا شك فى حال أسوأ، فقد دُمر بشكل يستعصى على الإصلاح؛ بل قد يستعصى على الإدراك فى الغالب، وإذا لم تكن أسرته فى وضع عقلى يسمح لها بالصفح عنه، فكيف إذن ستكون حالته وهو عاجز بين أيديهم؟

قلت لـ وولتر: "هدئ من روعك". كنت أجلس على فراش الحصان وأهش عنى الذباب الذى عذبنى طيلة هذا الصباح وهو يتنقل من جرح إلى آخر فى جسدى.

فقال صائحاً: "كلا، *لن أهدأ*"، ثم بدأ يضرب صدره ويقول: "إننى عارض! عارض! والعارضون يتقاضون رواتبهم". ونزع فردة من حذائه وألقى بها نحو الحائط. حدق فيها للحظة ثم نزع الأخرى وألقى بها فى ركن العربة فاستقرت على قبعته. وجعل يضرب بقبضته الغطاء الذى تحته فعادت كوينى مذعورة خلف صف الصناديق الذى كنا نخفى به كامل.

قلت له: "لم يعد أمامنا الكثير هنا. سنبقى هنا لبضعة أيام أخرى فقط".

"نعم؟ ولماذا نرحل؟".

"لأننا حين نسلم كامل لولده" ــ وصدر نحيب من السرير ــ "سنغادر هذا المكان".

قال وولتر: "نعم؟ وإلى أين سنتجه بعد المغادرة؟ هل فكرت فى ذلك حتى الآن؟".

قابلت نظرته إلىّ لبضع ثوان ثم أدرت رأسى.

فقال: "نعم. هذا ما كنت أحسب حسابه. وهذا ما كنت أحتاج أجرى من أجله. سينتهى بنا الحال إلى مجرد متشردين فى الطرقات".

Amly نهضة العرب

قلت بغير اقتناع: "كلا لن نصبح كذلك".

"من الجدير بك أن تفكر في حل يا جاكوب. لأنك أنت من تسبب في ورطتنا هذه وليس أنا. أنت وصديقتك قد تتمكنان من سلوك طريقكما، أما أنا فلا أستطيع. فقد يصبح هذا بالنسبة لكما مجرد تسلية ولهو ــ"

"هذا ليس لهواً أو تسلية!".

"ــ لكن حياتي مرتبطة بهذا العمل. وكما قلت سابقاً، فأنا لا أصلح لعمل آخر".

لقد كان محقاً تماماً. فحدقت إلى أطرافه القصيرة المضغوطة.

أومأ في يأس ومرارة وقال: "نعم. هذا صحيح. وكما قلت من قبل، فإنني لا أجيد أي عمل آخر".

كنت مضطرب الذهن وأنا أسير في طابور خيمة الطعام. إن وولتر محق تماماً فيما قال ــ فأنا من تسبب في هذه الورطة. وعليّ إخراج الجميع منها. لكنني للأسف لا أدري كيف ذلك. ليس لأي منا بيت يعود إليه. بخلاف وولتر الذي لا يمكنه مفارقة حياة القطار ــ ومن المحال أن أدع مارلينا تمكث ليلة واحدة في مخيم المتشردين في الغابة. كنت مشغول الذهن تماماً حتى إنني جلست على الطاولة حتى دون أن أتطلع حولي. كانت مارلينا على الطاولة بالفعل.

قلت لها وأنا أتخذ مجلسي: "مرحباً".

فقالت بعد صمت قصير: "مرحباً". وفي الحال أدركت أن شيئاً ما قد حدث.

"ما الأمر؟ ماذا حدث؟".

"لا شيء".

"هل أنت بخير؟ هل تعرض لك؟".

فهممت وهي محدقة في طبقها: "كلا، إنني بخير".

فقلت لها: "كلا، لا تبدين بخير. ما الأمر؟ ماذا فعل لك؟". بدأ الآخرون في الالتفات نحونا.

Amly نهضة العرب

قالت فى همس: "لا شىء. أخفض صوتك".

فاعتدلت فى مجلسى، مظهراً قدراً كبيراً من التحفظ، وفردت منديل الطاولة فى حجرى. وتناولت أدوات الطعام وبدأت أقطع قطعة اللحم التى أمامى فى عناية. وقلت فى هدوء: "مارلينا، أرجوك تحدثى". حاولت التركيز بملامح وجهى لتبدو كأننا نتحدث عن حالة طقس اليوم. فبدأ الناس يعودون بأبصارهم عنا إلى موائدهم.

قالت مارلينا: "لقد تأخرت".

"معذرة؟".

"لقد تأخرت".

"تأخرت عن ماذا؟".

فرفعت رأسها وقد تحول وجهها إلى الاحمرار الشديد: "أظننى أحمل فى أحشائى طفلاً".

حين أتى إيرل طالباً إياى، لم أتعجب. فهذا تتمة طبيعية لمسار هذا اليوم.

كان العم آل جالساً على كرسيه، وكان وجهه ذابلاً ومتجهماً. ولم يطلب الشراب كما كانت العادة، كان قابضاً بفمه على عقب سيجارة بينما كان ينقر فرش الأرضية بعصاه علي نحو متكرر.

"لقد مرت ثلاثة أسابيع تقريباً يا جاكوب".

قلت بصوت مهتز: "أعلم ذلك". كنت لا أزال أحاول استيعاب ما أخبرتنى به مارلينا.

"لقد خاب أملى فيك. كنت أظن أننا علي تفاهم".

"كنا كذلك". ثم غيرت حديثى مضطرباً: "نحن كذلك بالفعل. إننى أقوم بكل ما بوسعى، لكن أوجست لا يساعدنا بتصرفاته. كان من الممكن أن تعود إليه منذ زمن لو أنه تركها لى بعض الوقت".

قال العم آل: "لقد فعلت ما بوسعى لمنعه"، ثم تناول السيجارة من بين شفتيه، ونظر إليها، ثم التقط من على لسانه قطعة تبغ، ونقرها بأصبعيه على الحائط حيث استقرت عليه.

Amly نهضة العرب

قلت له: "حسناً. هذا غير كاف. فهو يتبعها وينادى عليها ويصرخ بجوار نافذتها. إنها تخافه. إن إرسالك إيرل خلفه ليجره حيث ذهب لا يكفى. هل كنت ستعود إليه لو كنت فى مكانها؟".

حدق العم آل فى وجهى. لاحظت فجأة أننى كنت أصرخ.

فقلت: "أنا آسف. سأعمل على إنهاء الأمر. أقسم لك أنك لو استطعت إبعاده لبضعة أيام أخرى ـــ"

فقال بهدوء: "كلا. فسأتدبر الأمر بطريقتى منذ اللحظة".

"ماذا؟".

"قلت سأتدبر الأمر بطريقتى منذ اللحظة. يمكنك الانصراف الآن"، ثم طقطق بأصابعه تجاه الباب قائلاً: "اذهب".

نظرت إليه، وأخذت أطرف بعينى فى بلاهة وسألته: "ماذا تعنى بطريقتك؟".

لكن ما تبع ذلك، أن ذراعى إيرل قد أحاطتنى كسوار صلب. فرفعنى من الكرسى وحملنى باتجاه الباب. صحت من بين كتفى إيرل: "ماذا تقصد يا آل؟ أريد أن أعرف ما تعنيه! ماذا أنت فاعل؟".

بمجرد أن أغلق إيرل الباب، عاملنى بلطف واضح. وحين وضعنى فى النهاية على حصا السكة، قام بنفض سترتى.

قال: "أنا آسف يا رجل. لقد حاولت بالفعل".

"إيرل!".

فتوقف واستدار إلىّ، والعبوس يعلو وجهه.

"ما الذى يدور بذهنه؟".

نظر إلىّ لكنه لم ينطق.

"إيرل، أرجوك. أتوسل إليك. قل لى ما الذى ينويه".

فقال: "أنا آسف يا جاكوب"، ثم صعد عائداً إلى داخل القطار.

كانت الساعة السابعة إلا الربع، وقد تبقى خمس عشرة دقيقة على بدء العرض. كان الجمهور يطوف فى أنحاء معرض الحيوانات، يشاهدون

Amly نهضة العرب

الحيوانات وهم فى طريقهم إلى حلبة العرض الكبرى. كنت أقف بجوار روزى، أراقب تلقيها هدايا الجمهور من الحلوى والعلكة وحتى الليمون. وبطرف عينى لمحت شخصاً طويلاً يسير بخطوات واسعة فى اتجاهى، كان دياموند جو.

قال وهو يتخطى الحبل: "عليك الخروج من هنا".

"لماذا؟ ماذا يجرى؟".

"أوجست فى طريقه إلى هنا. عرض الفيلة سيبدأ الليلة".

"ماذا؟ هل تقصد أنه سيؤديه مع مارلينا؟".

"نعم. وهو لا يريد أن يراك. فهو فى واحدة من هذه النوبات التى تعتريه. هيا، اخرج الآن".

جُلتُ ببصرى فى الخيمة بحثاً عن مارلينا. فوجدتها واقفة مع خيلها تتبادل الحديث مع عائلة من خمسة أفراد. كانت عينها تنتقل نحوى ثم تعود، وحين لمحت تعبير وجهى، بدأت ترمقنى بنظرات متلاحقة.

أعطيت دياموند جو العصا ذات الطرف الفضى التى استبدلت بالخطاف فى الأيام الأخيرة وتجاوزت الحبل. رأيت قبعة أوجست العالية تقترب عن يسارى فتحركت ناحية اليمين، ماراً بصف من الحمر الوحشية، ثم توقفت بجانب مارلينا.

قلت لها: "هل تعلمين أنه من المفترض أن تؤدى عرضاً مع روزى هذه الليلة؟".

فقالت وهى تبتسم للعائلة التى أمامها: "أستميحكم عذراً"، ثم تلفتت حولها ومالت نحوى وقالت: "نعم، أعلم. فقد دعانى العم آل وقال لى إن السيرك على وشك الانهيار".

"لكن هل تستطيعين ذلك؟ أعنى، فى حالتك... أوم..."

"أنا بخير. لن أكون مضطرة للقيام بأى حركات عنيفة".

"ماذا لو سقطتِ؟".

Amly نهضة العرب

"لن يحدث ذلك. فضلاً عن أنه لا خيار لديّ؛ فقد قال العم آل أيضاً ـــ أوه اللعنة، ها قد آتى أوجست، يجدر بك الانصراف الآن".

"لكنى لا أريد الانصراف".

"سأكون بخير. فلن يستطيع فعل شيء معى وسط هذه الحشود. عليك الذهاب إذن، أرجوك".

نظرت من بين كتفي، فكان أوجست يقترب متطلعاً بوجه عابس كالثور الهائج.

فقالت مارلينا بيأس: *"أرجوك"*.

فاتجهت نحو الحلبة الكبرى، متبعاً مضمار الخيل وصولاً إلى المدخل الخلفى. توقفت، ثم انسللت تحت المقاعد.

شاهدت الاستعراض العام من بين حذائى أحد الأشخاص. وفى منتصف الاستعراض تقريباً لاحظت أننى لم أكن وحدى؛ فقد وجدت عاملاً عجوزاً ينظر هو الآخر من بين الحوامل لكنه ينظر فى الاتجاه المعاكس. لقد كان يتطلع إلى أسفل تنورة إحدى السيدات.

فصحت: "هاى! هاى، توقف عن فعلك هذا!".

هاج الجمهور فى سرور حين مرت إلى الحلبة تلك الكتلة الرمادية الضخمة، إنها روزى. فعدت بنظرى للعامل، كان واقفاً على أطراف أصابعه، ممسكاً بألواح أرضية الحلبة بأطراف أصابعه ويتلصص بنظره لأعلى، ويلعق شفتيه.

لا أستطيع تحمل المشهد. إننى مذنب بخطايا غاية فى البشاعة ـــ خطايا سوف تذهب بروحى للهلاك المحتم ـ لكن فكرة هتك ستر امرأة مجهولة بهذه الطريقة، كانت شيئاً فوق احتمالى، وحين دخلت مارلينا وروزى إلى الحلبة الرئيسية، جذبت الرجل من سترته وسحبته من تحت المقاعد.

فصاح الرجل "دعنى أذهب! ماذا بك؟".

ظللت شاداً عليه، لكن انتباهى كان مع روزى ومارلينا على الحلبة.

Amly نهضة العرب

كانت مارلينا تتوازن عابثة على كرتها، لكن روزى وقفت ساكنة دون حراك، وسيقانها الأربعة مزروعة فى الأرض. لوّح أوجست بذراعيه لأعلى ولأسفل، وأشاح بعصاه. وهز قبضته، وكان فمه يفتح ويغلق. أما روزى فكانت أذناها مبسوطتين على رأسها، فملت للأمام، لأشاهد من زاوية أقرب. كان تعبير وجهها عدوانياً بشكل واضح.

أوه، يا إلهى. ليس الآن. لا تفعلى ذلك الآن يا روزى.

صاح ذلك القصير القذر بين يدى قائلاً: "أوه، دعنى يا رجل، هذه ليست مدرسة دينية. كان ذلك مجرد عبث غير مؤذ. هيا! دعنى أذهب!".

نظرت إليه. كان يلهث، وأنفاسه نتنة الرائحة، وفكه السفلى تظهر به على مسافات طويلة أسنان بنية اللون، فدفعته بعيداً وقد تقززت من مظهره.

نظر سريعاً من جانب إلى آخر، وحين أدرك أن أحداً من الجمهور لم يلحظ شيئاً، عدل حاشية سترته فى سخط واضح وسار متبجحاً نحو المدخل الخلفى. وقبل أن يغادر للخارج، رمانى بنظرة حادة. لكن عينيه الضيقتين تجاوزتا النظر إلى، وانجذبتا إلى شىء آخر خلفى. ثم قفز فى الهواء وقد كسا الرعب وجهه.

استدرت فوجدت روزى تهرول نحوى. رافعة خرطومها وفاتحة فمها. فدفعت نفسى نحو قوائم سلم الجمهور وهى تمر، كانت تصيح بشدة وتثير غبار الخشب بقوة حتى علت ذرات الغبار فى الهواء مقدار ثلاث أقدام. وكان أوجست يتبعها ملوحاً بعصاه.

انفجر الجمهور فى الضحك والهتاف ــ ظانين أن ذلك جزء من العرض الذى تؤديه روزى. وقف العم آل وسط مضمار الخيل فى ذهول. كان ينظر نحو المدخل الخلفى للخيمة وهو فاغر فاه للحظات. ثم أشار إلى لوتى بدخول الحلبة.

نهضت على قدمىّ وبحثت عن مارلينا، فمرت بى، كشبح وردى اللون.

فناديت: "مارلينا!".

Amly نهضة العرب

ومن بعيد، كان أوجست قد بدأ يضرب روزى بالفعل. وكانت ترتج وتصرخ، وتلوح برأسها بعيداً، لكنه كان كالآلة فى إصراره. كان يرفع عصاه اللعينة تلك وينزل على جسدها بالطرف الخطافى من العصا فى تتابع. وحين وصلت مارلينا إلى حيث كان يقوم بفعله هذا، أسقط العصا على الأرض. وحدق فى مارلينا فى حدة ملتهبة، وقد تناسى أمر روزى تماماً.

إننى أعرف هذه النظرة لديه.

اندفعت للأمام. وقبل أن أخطو أكثر من عشر خطوات، زلت قدماى من أسفل، فأصبح وجهى على الأرض وركبة أحدهم على وجنتى وذراعاى ملويين خلف ظهرى.

تلويت محاولاً التملص وأنا أصرخ: "اذهب عنى! ما شأنك؟ دعنى أذهب!".

فجاءنى صوت بلاكى من فوقى قائلاً: "اصمت. فلن تذهب إلى أى مكان".

مال أوجست ثم اعتدل حاملاً مارلينا على كتفه. فجعلت تضرب ظهره بقبضتيها، وتركل الهواء بقدميها صارخة. وكادت بالفعل أن تتملص منه، لكنه استعادها ثانية وانصرف.

صرخت، وأنا أعاود التملص: "مارلينا! *مارلينا*!".

تملصت من تحت ركبتى بلاكى وقبل أن أستوى واقفاً ضربنى شىء ما على مؤخرة رأسى، فارتج فمى وعينىّ فى محجريهما. وتحولت الرؤية أمامى إلى بارقات بيضاء وسوداء بل ظننت أن أذنىّ قد صُمّتا أيضاً. وبعد لحظة عاد إلىّ بصرى رويداً. فظهرت الوجوه أمام عينى وتحركت الشفاه بالكلام، لكن كل ما كنت أسمعه كان طنيناً يصم الآذان. ترنحت على ركبتى محاولاً الوقوف واستبيان ملابسات ما أنا فيه لكن الأرض بدأت تميد من حولى. إننى غير قادر على إيقافها، حاولت التماسك، لكن ذلك لم يكن ضرورياً فى نهاية الأمر، لأن ظلمة ما عمتنى تماماً فى تلك اللحظات.

Amly نهضة العرب

Amly نهضة العرب

الفصل الثانى والعشرون

"ششش، لا تتحرك".

لم أكن أتحرك، رغم أن رأسى كان يترجرج ويهتـز مـع تحـرك القطـار. دوت صافرة القطار فى صوت حزين، كان صوتاً بعيداً أتـى ليقطـع الطـنين المستمر فى إلحاح على أذنى. لقد كان جسدى كله كقطعة رصاص.

مس جبهتى شيء بارد ومبتل. فتحت عينىّ فرأيت كرنفالاً مـن الألـوان والأشكال المتغيرة. مرت عبر وجهى أربعة أذرع ضبابية الملامح ثم انـدمجت تلك الأربعة فى طرف واحد قصير. أردت التقيؤ، وقد زممت شفتاى تلقائيـاً لتكونا مثل النفق، وأدرت وجهى جانباً لكن شيئاً لم يخرج من فمي.

قال وولتر: "أبق عينيك مغلقتين. ابق ساكناً في رقادك لا أكثر".

فغمغمت: "هررررمف". وتركت رأسى يميل جانباً فسقطت من عليه قطعـة القماش. وبعد لحظات، تم استبدالها.

"لقد ضربت ضربة شديدة. إننى سعيد بنجاتك".

قال كامل: "هل أفاق؟ مرحباً جاكوب، هل أنت بخير؟".

شعرت كأننى أصعد إلى خارج منجم عميق القعـر، وجـدت صـعوبة فـى تحديد مكانى. يبدو أننى على الفراش. وكان القطار يتحـرك بالفعـل. لكـن كيف وصلت إلى هنا ولماذا كنت نائماً؟

مارليناً!

فتحت عينى بسرعة وحاولت النهوض.

فقال وولتر ساخطاً: "ألم أقل لك ابق ساكناً؟".

Amly نهضة العرب

فلهثت قائلاً: "مارلينا! أين مارلينا؟"، سقطت ثانية على وسادتى، فارتج مخى داخل رأسى. أظن أنه قد اختل عن موضعه. ومع زوال كل المثيرات البصرية، أصبح سواد عينى كأنه أكبر من رأسى، شعرت كما لو أن تجويف جمجمتي قد انقلب إلى خارج رأسى.

كان وولتر جاثياً بجوارى. أزال الخرقة عن جبهتى، وغمرها بالماء، ثم عصرها، فتقاطر الماء ثانية إلى الإناء، فى صوت رائق صاف كصوت نغمة مألوفة ـ بدأ صوت طنين أذنى يتباعد، وحلت محله نبضات قوية تخترق ما بين أذنى عبر مؤخرة جمجمتى.

أعاد وولتر الخرقة إلى وجهى مرة أخرى. ومسح جبهتى ووجنتى وذقنى مما تسبب فى رطوبة جلدى. وقد ساعدنى هذا الشعور على التركيز على ما هو خارج عقلى.

"أين هى؟ هل أوذيت؟".

"لست أدرى".

فتحت عينى ثانية، فمالت الدنيا من حولى بعنف. حاولت النهوض على مرفقى وفى تلك المرة لم يدفعنى وولتر للنوم. لكنه بدلاً من ذلك مال نحوى وحدق فى عينى وقال: "اللعنة. لقد اختل حجم حبتى عينيك. هل تشعر برغبة في شرب شيء ما؟".

لهثت قائلا: "آه ... نعم". كنت أجد الكلمات بصعوبة. أعلم ما أريد قوله، لكن الممر الواصل بين عقلي وفمي يبدو وكأنه قد سد بقطع من القطن.

سار وولتر عبر الغرفة، وسمعت صوت سدادة ترتطم بالأرض، ثم عاد ثانية وحمل الزجاجة إلى شفتى.

لقد كانت زجاجة شراب، وقال فى أسف: "هذا أفضل ما استطعت الحصول عليه. إني آسف".

فغمغم كامل قائلاً: "لعنة الله على الشرطة. هل أنت بخير يا جاكوب؟".

وددت أن أرد عليه، لكن نهوضى لأعلى استهلك كل تركيزى.

فقال كامل فى صوت أكثر قلقاً هذه المرة: "هل هو بخير يا وولتر؟".

Amly نهضة العرب

فقال وولتر: "أظنه كذلك"، ثم وضع الزجاجة عليٍ الأرض وقال: "هل تود أن تعتدل فى جلستك؟ أم تريد الانتظار هكذا قليلاً؟".

"أود أن أحضر مارلينا؟".

"انس ذلك يا جاكوب. ليس بوسعك فعل شيء الآن".

"يتحتم عليّ ذلك. ماذا لو أنه...؟"، وانهار صوتى فلم أستطع إكمال جملتى. ساعدنى وولتر كى أجلس.

"ليس هناك ما يمكنك فعله الآن".

"إننى لا أقبل بهذا".

استدار وولتر فى غضب وقال: "بالله عليك، هلا أنصتَّ لكلامى ولو لمرة واحدة؟".

أسكتنى غضبه. عدلت وضع ركبتى وملت للأمام فأرحت رأسى على ذراعى. شعرت برأسى ثقيلاً وضخماً ـ كأنه قد أصبح فى حجم جسدى كله.

"إنك لا تبالى بأننا على قطار متحرك وبأن لديك ارتجاجاً بالمخ. إننا فى ورطة كبرى. والشيء الوحيد الذى تريد فعله الآن هو أن تزيد الأمر سوءًا. اللعنة، إنك لو لم تضرب على رأسك اليوم ولو لم يكن كامل لا يزال معنا، ما عدت قط إلى هذا القطار اللعين فى هذه الليلة".

نظرت من بين ركبتى نحو الفراش من تحتى محاولاً التركيز على أكبر جزء منه. لقد أصبحت الأشياء أكثر ثباتاً فى عينى الآن، ومع مرور كل دقيقة ينضبط جزء من أجزاء فمى المبعثرة داخل جمجمتى.

تابع وولتر حديثه فى صوت أكثر ليناً: "انظر، بقى لدينا ثلاثة أيام حتى ميعاد التخلص من كامل. وعلينا فى هذه الأثناء التوافق مع الوضع بأحسن صورة. هذا يعنى أن نقوم بحماية ظهورنا ونتوقف عن القيام بأية حماقات".

قال كامل: " التخلص من كامل؟ هل هكذا تنظرون إلىّ؟".

فصاح وولتر: "فى هذه اللحظة، نعم هذا صحيح! وينبغى أن تكون ممتناً لذلك، فماذا برأيك سيقع بك لو أننا تركنا القطار الآن وتركناك خلفنا؟ همممم؟".

Amly نهضة العرب

ولم ترد إجابة من مرقد كامل على السرير.

فتوقف وولتر قليلاً وتنهد ثم قال: "انظر، إن ما حدث لـ مارلينا أمر بشع! لكن بالله عليك، لو أننا غادرنا الآن قبل وصولنا بروفيدنس، فستكون نهاية كامل. عليها أن ترعى نفسها لثلاثة أيام أخرى اللعنة، لقد فعلت ذلك لأربع سنوات. أظنها تستطيع تجاوز ثلاثة أيام أخرى".

"إنها حامل يا وولتر".

"ماذا؟".

سرى بيننا صمت طويل، ثم نظرت نحوه.

تغضنت جبهة وولتر وهو يسأل: "هل أنت على يقين من ذلك؟".

"هذا ما قالته".

حدق فى عيني طويلاً؛ فقابلت نظرته بنظرة منى، لكن عينىّ اختلتا عن وضعهما جانبا.

"هذا أدعى للحذر يا جاكوب، انظر إلىّ!".

فقلت: "إننى أحاول".

"سوف نغادر هذا المكان. ولكن لكى ننجح فى ذلك علينا أن نقوم بالأمر على نحو صحيح. لا يمكننا القيام بشىء ــ أى شىء ــ حتى يرحل كامل. ومن الأفضل أن تتفهم هذه الحقيقة سريعاً".

ارتفع النحيب من ناحية السرير الأخرى فاستدار وولتر وقال: "اصمت يا كامل! فما كانوا ليستقبلوك لولا أنهم قد غفروا لك. أم أنك تود أن يلقى بك من القطار؟".

فصاح قائلاً: "لم أعد أدرى ماذا أريد بالضبط".

عاد وولتر بوجهه إلىّ وقال: "انظر لى يا جاكوب. انظر إلىّ". وحين فعلت، تابع حديثه: "سوف تتمكن من التعامل معه. وأنا أؤكد لك ذلك. إنها الوحيدة التى يمكنها التعامل معه. وهى تعلم عاقبة الأمر برمته. إنها فقط ثلاثة أيام لا أكثر".

"ثم ماذا بعد؟ ليس لدينا مكان نذهب إليه؛ كما كنت تردد دائماً".

Amly نهضة العرب

ابتعد بوجهه في غضب. ثم استدار ثانية وقال: "هل تدرك طبيعة الوضع هنا بالضبط يا جاكوب؟ إنني أحياناً ما أشك في ذلك".

"بالطبع أدرك الوضع! كل ما في الأمر أنني لا أحبذ أياً من الخيارات المتاحة".

"ولا أنا أيضاً. لكن كما قلت لك، علينا أن نتدبر أمرنا لاحقاً. أما الآن فدعنا نركز على الخروج أحياءً من هذا القطار".

ظل كامل، حتى في نومه، ينتحب ويئن رغم طمأنة وولتر المتكررة بأن عائلته سوف تتلقاه ببالغ الترحاب.

وفى النهاية استغرق فى نومه. فتفقده وولتر مرة أخرى، ثم أطفأ المصباح. استلقى هو وكوينى على فراش الحصان فى ركن الغرفة. وبعد دقائق بدأ يغط في نومه.

نهضت في حذر مختبراً اتزاني في كل موضع. وحين اعتدلت واقفاً في نجاح، خطوت في تردد إلى الأمام. كنت أشعر بدوار لكنني كنت أستطيع التوازن. خطوت بضع خطوات في اتجاه مستقيم، وحين سار الأمر على ما يرام عبرت الغرفة باتجاه الصندوق.

بعد ست دقائق، كنت أزحف على سطح عربة الماشية بيدى وركبتي وسكين وولتر بين أسناني.

وما كان يسمع من داخل القطار طقطقة خفيفة كان على سطحه بمثابة فرقعة هائلة. وتحولت العربات وارتجت حين كان القطار يجتاز أحد المنحنيات، فوقفت وتمسكت بالحائل العلوى لسطح القطار حتى اعتدل في سيرى ثانية.

في نهاية العربة توقفت لأدرس خياراتي. نظرياً، يمكنني هبوط سلم العربة والقفز على عتبتها، ومن ثم السير عبر العربات حتى أصل إلى مقصدي. لكن ما كنت لأجازف بأن يراني أحد.

وهكذا مضيت.

Amly نهضة العرب

كنت أقف حاملاً السكين بين أسنانى وساقاى منفرجتان، وركبتاى منثنيتان، وذراعاى تتحركان فى عنف فى جانبى، كنت كمن يمشى على الحبال.

كان الفاصل بين هذه العربة والتى تليها يبدو لى كأنه هائل الحجم، كان يبدو بلانهاية. فاستجمعت نفسى، ووضعت أسنانى بشدة على معدن السكين الحاد، ثم قفزت محفزاً كل ذرة من عضلات جسدى لدفع ثقلى فى الهواء نحو العربة التالية. لوحت بذراعى وساقى فى الهواء بعنف، فى استعداد للتمسك بأى شيء ـ أى شيء ـ لو أخطأت.

اصطدمت بسقف العربة وتشبثت بحائل السقف. كنت ألتقط أنفاسى لاهثاً من حول شفرة السكين. تقاطر شيء دافئ من ركن فمى، فنزعت السكين من فمى وأنا لا أزال على حالى، ولعقت الدم من علىٍ شفتى. ثم أعدت السكين مرة أخرى آخذاً فى حسبانى أن أزم شفتى قليلاً.

وعلى هذا النحو تجاوزت خمس عربات نوم. فى كل مرة أقفز فيها، يتحسن هبوطى، وتزداد ثقتى. وفى العربة السادسة، ذكرت نفسى بأن آخذ حذرى هذه المرة.

حين وصلت عربة الامتياز، جلست على سطح العربة وأسندت ظهرى. كانت كل عضلات جسدى تئن، ورأسى يدور، وأنفاسى تتسارع.

خاض القطار منحنى آخر فتشبثت بحائل السطح، موجهاً نظرى نحو عربة المحرك. كنا نسير بمحاذاة تل شجرى، وأمامنا جسر. وحسبما كنت أستطيع رؤيته فى هذا الظلام، كان ذلك الجسر ينحدر نحو ضفة نهر صخرية يرتفع الجسر عليها بمقدار عشرين ياردة. ارتج القطار ثانية، وقد اتخذت قرارى. فسوف يكون ما تبقى من رحلتى إلى العربة ٤٨ من داخل القطار.

تدليت إلى حافة رصيف العربة، والسكين لا يزال فى فمى. إن السيارات التى تحمل العارضين والرؤساء موصولة بأعتاب معدنية، لذا فإن كل ما كان على فعله هو أن أحرص على النزول على تلك العتبة. كنت

Amly نهضة العرب

معلقاً بالسقف من أطراف أصابعي حين ترنح القطار ثانية، مؤرجحاً ساقي يمنة ويسرة. فتشبثت في يأس، وبدأت أصابعي المتعرقة في الانزلاق على المعدن المتعارض.

حين اعتدل سير القطار ثانية، أسقطت نفسي على العتبة المعدنية بين العربتين وكان للعتبة حاجز حديدى. ملت عليها للحظات لكي أستجمع شتات نفسي. وبأصابع منهكة ومرتعشة، أخرجت الساعة من جيبي؛ كانت تقترب من الثالثة صباحاً. أصبحت فرص التقائي بأى شخص قليلة. لكنها كانت لاتزال قائمة.

وكانت المشكلة في السكين. فهو أطول من أن أضعه في جيبي، وأحد من أن أدسه تحت حزام خاصرتي. في النهاية، غطيتها بسترتي ثم وضعتها تحت ذراعي. ثم مررت أصابعي في شعرى، ومسحت الدم عن شفتي وجذبت باب العربة فاتحاً إياه.

كان الممر خالياً، وكان ضوء القمر المتسلل من النوافذ يضيئه. توقفت قليلاً لأفحص المكان على نحو جيد. وفي هذه اللحظة كان القطار قد اعتلى الجسر. لقد أسأت تقدير امتداده فهو يميل على ضفتي النهر بمسافة تقارب أربعين ياردة. وبينما كان القطار يترنح على الجسر، شعرت بالراحة لأنني قد هبطت عن سطحه.

وسرعان ما صرت أقف محدقاً في مقبض باب الغرفة رقم ٣. أخرجت السكين ثم وضعته أرضاً قبل أن أعيد ارتداء السترة. ثم التقطته ثانية ثم حدقت مرة أخرى في مقبض الباب.

حين أدرت مقبض الباب سمع صوت قرقعة عال للمقبض، فسكنت في مكاني تماماً، محافظاً على وضع المقبض مداراً. وانتظرت لأرى ما يكون من رد فعل للصوت. وبعد ثوان قليلة، تابعت إدارة المقبض ودفع الباب للداخل.

تركت الباب مفتوحاً؛ فقد خشيت أن يوقظه إغلاقي للباب.

Amly نهضة العرب

لو كان نائماً على ظهره، فستقضى عليه ضربة واحدة سريعة تخترق قصبته الهوائية. وإن كان نائماً على بطنه، فسأسدد الضربة مستقيمة، متأكداً من أنها قد اخترقت قصبته الهوائية. وإن كان غير ذلك فسأضربه فى عنقه. لكن لا ينبغى أن أتوانى فى تسديد الضربة، فينبغى أن تكون الضربة عميقة بما يكفى لتفجير النزيف سريعاً دون أن يصرخ.

تلمست الطريق نحو غرفة النوم وأنا أمسك بالسكين. كانت الستارة المخملية مسدلة. فجذبت طرفها نحوى وتلصصت. وحين وجدته وحده، زفرت زفرة ارتياح. إنها بأمان إذن؛ فإنها فى الغالب فى عربة نوم الفتيات. كان علىّ فى واقع الأمر أن أعرج عليها فى طريقى إلى هنا.

تسللت للغرفة ووقفت بجوار السرير. كان نائماً على الجانب القريب منى تاركاً موضعاً فى السرير لمارلينا الغائبة. كانت ستائر النافذة معقودة للخلف، وكان ضوء القمر يشع من بين الأشجار، فيكشف عن وجهه تارة، وتارة يخفيه.

حدقت فيه، كان مرتدياً بيجامة مخططة وبدا مسالماً وهو فى نومه، بل بدا طفولى المظهر. وكان شعره الأسود غير مصفف، وكانت حافة فمه فى وضع أقرب للابتسام. لقد كان يحلم. تحرك فجأة وتمتم بشفتيه ودار على ظهره وانقلب إلى جنبه. مد يده نحو جانب مارلينا من السرير وربت المكان الفارغ عدة مرات. ثم أخذ يربت فى طريقه نحو وسادتها. فأمسكها وضمها إلى صدره وعانقها ودس فيها وجهه.

رفعت السكين ممسكاً إياه بكلتا يدى، وطرفه موجه على بعد قدمين من حلقه. أريد إتمام الأمر على نحو ناجح. عدلت زاوية الشفرة حتى أجهز عليه من الوريد إلى الوريد. كان القطار يمر عبر الأشجار، وقد انعكس ضوء القمر المنفلت من بين الأشجار على نصل السكين. فبرق النصل وأرسل عدة إشارات ضوئية وأنا أعدل زاوية التسديد. فتحرك أوجست ثانية واستدار على ظهره بشكل عنيف. تدلى ذراعه الأيسر عن السرير وتوقف على بعد بوصات من فخذى. ظل السكين يبرق ويرسل ضوءاً منعكساً على نصله.

Amly نهضة العرب

لكن حركته لم تكن نتيجة ذلك الضوء المنعكس على السكين. بدأت يداى في الارتعاد. كان فك أوجست السفلي متدلياً، وكان يزفر أنفاسه بدمدمة هائلة وتمتمة بالشفاه. وكانت يده التى بجانب فخذى ثابتة أما الأخرى فكانت تهتز.

ملت عليه ووضعت السكين على وسادة مارلينا وحدقت ببصرى لدقائق أخرى ثم تركت السكين.

بعد فورة الأدرينالين فى دمى، عاد رأسى للشعور بالتضخم ثانية، وبدأت أترنح عبر الممرات حتى وصلت إلى نهاية عربة الغرف الخاصة.

وكان علىّ أن أقرر؛ فإما أن أصعد إلى سطح القطار مرة أخرى أو أن أواصل سيرى عبر عربة الامتياز ــ حيث يبقى هناك احتمال لوجود بعض الأشخاص المستيقظين يلعبون القمار ــ وسأمر أيضاً خلال جميع عربات النوم، وحينها سيكون علىّ الصعود إلى سطح القطار لأعود إلى عربة الخيول. ولهذا قررت الصعود من الآن طالما أنى صاعد لا محالة.

كانت حالتى قد أصبحت أسوأ مما تصورت. فرأسى كان يخفق بشدة، وتوازنى يكاد يختل على نحو خطير. صعدت على حاجز أحد الألواح المعدنية. ثم تابعت صعودى إلى سطح القطار على نحو ما. وحين صعدت، استلقيت على الحاجز العلوى وأنا أشعر بغثيان وإنهاك شديدين. مكثت حوالى عشر دقائق لاستعادة بعض قوتى ثم بدأت الزحف للأمام. استرحت ثانية فى نهاية العربة وأنا أترنح بين الحواجز العلوية للقطار. لقد كانت قواى خائرة تماماً. ولم أكن أتخيل كيف سأكمل هذا الطريق، لكن لا مفر من إتمامه، لأننى لو نمت هنا، سأسقط من القطار عند أول منحنى يدور عليه القطار.

عاد الطنين لأذنى، وبدأت عيناى فى الزوغان. هويت عبر الفواصل الواسعة بين العربات أربع مرات، وفى كل مرة كدت ألا أتجاوز الفاصل. فى المرة الخامسة كدت أسقط بالفعل. فقد اصطدمت يداى بالحواجز الحديدية لكن جانب العربة صدمنى فى بطنى. فتعلقت على هذه الحال،

Amly نهضة العرب

مذهولاً، متعباً لأقصى حد حتى أنه خطر ببالى أن أسلم نفسى للسقوط. إنه الخاطر الذى غالباً ما يشعر به الغرقى فى اللحظات الأخيرة حين يتوقفون عن مصارعة المياه ويتركون أجسادهم تغرق فى أحضان المياه. لكن ما أنتظره أنا ليس حصناً مائياً. إنه تمزيق عنيف لأوصال جسدى.

دفعت جسدى لأعلى متشبثاً بأرجلى على حائط العربة حتى نجحت فى الوصول إلى حافة العربة. وعند هذه النقطة كان من السهل أن أجر جسدى لأعلى، وبعد ثانية كنت مستلقياً مرة أخرى على الحاجز الحديدى ألتقط أنفاسى.

دوت صافرة القطار، فرفعت رأسى المتضخم ألماً. لقد أصبحت على سطح عربة الخيول. وليس أمامى سوى الوصول لفتحة السقف والهبوط إلى داخل العربة. زحفت نحو الفتحة فى ترنح. كانت مفتوحة، وهو الأمر الغريب لأننى أظن أننى قد أغلقتها حين صعدت. تدليت داخل العربة ثم ارتميت على أرضيتها. صهل أحد الخيول واستمر فى صهيله وضرب الأرض بحافره؛ وقد أثاره شيء ما قد حدث.

التفت، فإذا باب العربة مفتوح.

ملت لأعلى وتطلعت لأواجه باب الغرفة الداخلية فإذا به مفتوح أيضاً.

فصحت: "وولتر! كامل!".

لم يجبنى أحد؛ فقط كان صوت الباب المفتوح وهو يصطدم بالحائط من خلفه برفق، متسقاً فى ضرباته مع صوت قرقعة عقد السكة الحديدية أسفل القطار.

نهضت على قدمى واندفعت نحو الباب. جلت الغرفة ببصرى وأنا أترنح وأستند بإحدى يدى على إطار الباب وبالأخرى على خاصرتى. لوهلة لم أر شيئاً، لقد نفرت الدماء من رأسى، ثم ارتد إلىّ بصرى ثانية لكنه امتلأ بتلك الانفجارات البيضاء والسوداء مرة أخرى.

"وولتر! كامل!".

Amly نهضة العرب

بدأت أجول ببصرى فى محيط المكان محاولاً استبيان ما فيه. وكان الضوء الوحيد القادم من بين شرائح جدران العربة يكشف عن سرير فارغ. وفراشى فارغ، وكذلك كانت فراش الحصان.

اتجهت مترنحاً نحو الصناديق التى وضعت عند الحائط الخلفى للعربة وحمت حولها.

"وولتر؟".

كانت كوينى هى كل ما وجدته، كانت ترتعد وقد تكومت حول نفسها ككرة. نظرت نحوى فى رعب، وقد انتقل رعبها إلىّ بلا شك.

هويت إلى أرضية العربة مثقلاً بالحزن والإحساس بالذنب. ألقيت نظرة حول حائط العربة. ضربت الأرضية. ورفعت يدى نحو السماء؛ نحو الله، وحين انهرت فى النهاية باكياً زحفت كوينى من خلف الصناديق وانزلقت فى حجرى. فحملت جسدها الدافئ حتى استلقى كلانا فى صمت تام.

إننى أريد تصديق ظنى بأن أخذى لسكين وولتر لم يشكل فارقاً فيما حدث له. لكن يبقى أننى تركته بلا سكين، وبلا فرصة للنجاة.

أريد التصديق بأنه قد نجا. حاولت تصور ذلك ــ أتصور أنهما تدحرجا على الأرض الرطبة وهما يطلقان اللعنات. وأن وولتر فى هذه اللحظة يبحث عن المساعدة. لابد أنه وضع كامل فى مكان آمن وبدأ يبحث عن مساعدة.

حسناً. حسناً. لم يتأذيا إذن حسب ظنى. سوف أعود إليهما، وفى الصباح سآخذ مارلينا وسنعود إلى أقرب مدينة خلفناها لنسأل فى المستشفى عنهما. أو ربما لنسأل فى السجن، إذا ما اعتبرتهما سلطات المدينة متشردين. وسيكون من السهل تحديد أقرب مدينة يمكننى تحديدها حسب قربها من ــــ

لا لم يفعلوا ذلك. لا يمكن. لا يمكن لأحد أن يرمى بعجوز متهالك وقزم ضئيل من القطار أثناء عبور *الجسر*. ولا حتى أوجست يستطيع فعل ذلك. ولا حتى العم آل.

Amly نهضة العرب

قضيت بقية ليلتى أخطط لطرق يمكننى بها قتلهما، وجعلت أدير الأفكار فى رأسى وأوازنها كما لو كنت أمسك حجراً أملس بيدى.

انتزعنى صرير مكابح القطار من خيالاتى. وقبل أن يتوقف القطار تماماً، كنت قد قفزت إلى الأرض وسرت بخطوات واسعة باتجاه عربات النوم. وصعدت السلم الحديدى للعربة الأولى والتى كانت بالية بما يتناسب مع إيواء عمال، فتحت الباب بعنف حتى أنه ارتد منغلقاً مرة أخرى. أعدت فتحه ودخلت العربة.

صحت بصوت يمتلأ كراهية وغضباً: "إيرل! إيرل! أين أنت؟ إيرل!".

كنت أسير فى الممر أدور ببصرى تحت الأسرّة، ولم يكن أى من الأوجه المندهشة أمامى وجه إيرل.

ثم انتقلت إلى العربة التالية.

"إيرل! هل أنت هنا؟".

ثم توقفت والتفت نحو رجل مذعور على سريره وسألته: "أين هو؟ هل هو فى هذه العربة؟".

"هل تقصد إيرل الذى يعمل فى الأمن؟".

"نعم، هذا هو من أريده".

فأشار بإبهامه خلف كتفه وقال: "إنه على بعد عربتين فى هذا الاتجاه".

عبرت عربة أخرى متفادياً الأطراف الممتدة من تحت الأسرة، والأذرع المتدلية من جوانبها.

فتحت باب العربة التالية محدثاً صوتاً مدوياً: "إيرل! أين أنت؟ أعرف أنك هنا!".

سرت لحظة اندهاش داخل العربة، واستدار الرجال من جانبى العربة على أسرتهم ليلقوا نظرة على ذلك الدخيل المثير للضجة. وبعد أن تجاوزت ثلاثة أرباع المسافة، رأيت إيرل. فقصدته.

Amly نهضة العرب

قلت له وأنا أمد يدى لأطبق على عنقه: "أيها الوغد النذل! كيف استطعت فعل ذلك؟ كيف استطعت؟".

قفز إيرل عن سريره ممسكاً ذراعى مبتعداً بهما إلى جنبى: "اهدأ يا جاكوب، اهدأ. ماذا جرى؟".

صرخت فيه، وأنا ألوى معصمى متحرراً من قبضتيه: "أنت تعرف *تمام المعرفة* ما أتحدث عنه". ثم اندفعت نحوه، لكن قبل أن أمسه حجزنى مرة أخرى.

سالت الدموع على وجهى وأنا أخاطبه: "كيف استطعت ذلك؟ كيف استطعت؟ المفترض أنك أحد أصدقاء كامل! ثم ما الذى فعله لك وولتر كى تفعل به ذلك؟".

شحب وجه إيرل وتجمدت يداه على معصمى. كانت صدمته صادقة فتوقفت عن مصارعته.

طرفت عينانا باتجاه بعضنا فى رعب. مرت الثوانى وسرى همس مذعور داخل العربة.

أفلت إيرل يدى وقال: "اتبعنى".

نزلنا من العربة وبعد أن سرنا مقدار دستة ياردات بعيداً عن القطار التفت لى وقال: "هل اختفيا؟".

فنظرت فى وجهه باحثاً عن إجابة، ولم أجد لديه شيئاً فقلت له: "نعم اختفيا".

شهق إيرل وأغلق عينيه. وللحظة شعرت أنه على وشك البكاء.

قلت له: "هل أفهم من ذلك أنك لا تدرى أى شيء عن الأمر؟".

"اللعنة، بالقطع لا أدرى! من تظننى؟ إننى لا أفعل شيئاً كهذا قط. أوه، اللعنة. اللعنة. يا للعجوز المسكين". ثم تفحصنى بنظره، وقال: "انتظر، أين كنت أنت؟".

فقلت: "كنت فى مكان آخر".

Amly نهضة العرب

نظر إيرل نحوى للحظة ثم ابتعد ببصره نحو الأرض. وضع يديه على خاصرته وتنهد وجعل يهز رأسه مفكراً. ثم قال: "حسناً، سأذهب الآن كى أستعلم عن عدد المساكين الآخرين الذين قذف بهم من القطار، لكن دعنى أخبرك بشيء ــ ليس من الطبيعى رمى عارضين من القطار، حتى لو كانوا بلا فائدة. فلو أنهم فعلوا ذلك بـ وولتر، فهذا يعنى أنهم يطاردونك. ولو كنت فى موضعك لبدأت الهرب الآن وعدم العودة إلى هنا مطلقاً".

"وإذا لم يكن باستطاعتى الرحيل؟".

نظر إلىّ بحدة وتمايل فكه من جانب لآخر. وتأملنى طويلاً، ثم قال أخيراً: "سوف تكون بأمان فى ساحة السيرك طوال النهار. فإذا ما عدت إلى القطار ليلاً، فلا تقترب من عربة الخيل تلك. أقصد العربات المسطحة. استرح تحت العربات المحملة فوقها".

"سأفعل ذلك، صدقنى. لكن أمامى أمرين علىّ إنجازهما أولاً".

فرمقنى إيرل بنظرة أخيرة طويلة وقال: "سأحاول أن ألتقيك فيما بعد"، ثم انصرف باتجاه خيمة الطعام؛ حيث كان رجال الفلايـنج سكوادرون قد بدأوا يتجمعون فى مجموعات صغيرة بأعين زائغة ووجوه خائفة.

• • •

إضافة إلى وولتر وكامل، فقد ثمانية رجال آخرين، ثلاثة كانوا من القطار الرئيسى والباقون من الفلايـنج سكوادرون؛ مما يعنى أن بلاكى وفرقته قد انقسموا إلى فرق ركبت أجزاء مختلفة من القطار. فمع اقتراب العرض من شفا الانهيار، كان متوقعاً رمى العمال من القطار، لكن ليس من فوق جسر؛ فهذا يعنى لى الكثير.

خطر لى أنه فى اللحظة التى امتنعت فيها عن قتل أوجست، كان أحدهم يحاول تنفيذ أوامره بقتلى.

Amly نهضة العرب

فكرت في شعوره حين استيقظ ووجد السكين إلى جواره. أتمنى أن يفهم أنه تهديد له، وقد تحول التهديد إلى وعد بالقتل، أدين به لكل الرجال الذين قذف بهم من القطار.

قضيت الصباح كله في السير بحثاً عن مارلينا. ولم أجدها في أى مكان. كان العم آل يسير بخطواته الواسعة، مرتدياً سروالاً مربعاً باللونين الأبيض والأسود ومعطفاً قرمزياً، وقد أخذ يصفع رأس كل من لم يستطع الفرار من طريقه. أثناء ذلك لمحنى؛ فتوقف في برود. واجه كلانا الآخر ونحن على بعد ثمانين ياردة. حدقت في وجهه بشدة محاولاً تركيز كل كراهيتى له في عينى. وبعد ثوان، رسم ابتسامة باردة على شفتيه. ثم استدار إلى يمينه بحدة مواصلاً طريقه، وتابعوه يجاهدون للحاق به.

من بعيد، رأيت العلم يرتفع فوق خيمة الطعام. وكانت مارلينا هناك، كانت ترتدى ثياب خروج وقد اصطفت فى طابور الطعام. كانت عيناها تجول بين الناس؛ أدركت أنها كانت تبحث عنى، تمنيت لو علمت أننى بخير. وبمجرد أن جلست إلى طاولتها، ظهر أوجست من مكان ما وجلس في المقعد المقابل. لم يكن معه طعامه. قال شيئاً ما ثم مد يده عبر الطاولة وشدها من معصمها، فشدت يدها بعيداً، فسكبت قهوتها. وبدأ الناس من حولهم ينظرون إلى ما يجرى. فتركها ونهض مسرعاً فانقلبت طاولة الجلوس أرضاً. ثم انصرف غاضباً. وبمجرد انصرافه عدوت إلى داخل خيمة الطعام.

تطلعت مارلينا بنظرها ورأتنى، فشحب وجهها.

قالت لاهثة: "جاكوب!".

أقمت الطاولة ثم جلست على حافتها.

قلت لها: "هل آذاك؟ هل أنت بخير؟".

"أنا بخير. لكن ماذا عنك أنت؟ لقد سمعت ــــ"، حُبست الكلمات في حلقها، وغطت فمها بيدها.

"سوف نترك المكان اليوم. سوف أراقبك. عليك فقط بمغادرة الساحة حين تستطيعين ذلك، وسوف ألحق بك".

Amly نهضة العرب

حدقت فىّ شاحبة وقالت: "وماذا بشأن وولتر وكامل؟".

"سوف نعود لنرى ما يمكننا فعله بشأنهما".

"إننى أحتاج إلى ساعتين لتدبر أمرى".

"ولماذا؟".

فى هذه اللحظة وقف العم آل فى محيط الخيمة وأشار بأصابعه فى الهواء، فاقترب إليه إيرل من قلب الخيمة.

قالت مارلينا: "هناك بعض المال فى غرفتنا. سأذهب لإحضاره حين لا يكون هناك".

فقلت: "كلا، الأمر لا يستحق هذه المخاطرة".

"سأكون على حذر".

"كلا".

قال إيرل وهو يمسك بذراعى من أعلى: "هيا يا جاكوب، الرئيس يطلب منك المغادرة".

فقلت: "أمهلنى لحظة يا إيرل".

فتنهد بعمق، ثم قال: "حسناً، تظاهر بمقاومتى قليلاً. لكن لثانيتين فقط، وبعدها سأضطر لإخراجك من المكان".

فقلت فى يأس: "مارلينا، عدينى بألا تعودى إلى هناك".

"إننى مضطرة للعودة. فنصف المال لى، ولو لم نحضره فلن يكون معنا سنتاً واحداً".

تحررت من قبضة إيرل وتوقفت لمواجهته، أو مواجهة صدره بالأحرى.

قلت متذمراً، وأنا أضع أصبعى فى صدر إيرل: "أخبرينى بمكانه وسآتى أنا به".

فهمست مارلينا على عجل قائلة: "تحت كرسى النافذة". ثم نهضت ودارت حول الطاولة فأصبحت بجوارى وتابعت: "المقعد يمكن فتحه، ستجد المال فى علبة قهوة. لكن من الأسهل لى أن ـــ"

Amly نهضة العرب

فقال إيرل: "حسناً، سأخرجك الآن"، ثم أدارني وثنى ذراعي خلف ظهري. ودفعني للأمام فانثنيت في منتصف جسدي.

استدرت برأسي نحو مارلينا وقلت: "سآتي بالمال. ابقي بعيدة عن هذه العربة. عديني بذلك!".

تملصت قليلاً؛ فتركني إيرل.

فقلت بإلحاح: "قلت عديني بعدم الذهاب".

فقالت مارلينا: "أعدك. كن على حذر".

قلت لإيرل: "دعني أيها الوغد"، كان ذلك تتمة للصورة بلا شك.

تصنعت أنا وإيرل أمر مغادرة الخيمة على نحو رائع. وأشك أن بعض الحاضرين أدرك أنه لم يكن يلوى ذراعي على نحو مؤلم. لكنه أتم هذا الإجراء بدفعي مسافة عشر أقدام على العشب.

قضيت طيلة عصر ذلك اليوم وأنا أتلصص في الأركان، وأندس خلف طيات الخيام، وأختبئ تحت العربات. لكنني لم أستطع قط الاقتراب من العربة رقم ٤٨ دون أن أكون محط الملاحظة ـــ فضلاً عن أنني لم أر أوجست منذ وقت الغداء، مما يرجح أنه يمكث في الغرفة الآن. ولذا بدأت قضاء وقتي.

لم تكن هناك حفلة نهارية. وقرب الثالثة عصراً، وقف العم آل على صندوق وسط الساحة وأعلم الجميع بأن عرض الليلة ينبغي أن يكون الأفضل في حياتهم. ولم يقل ما سيجرى لو لم يكن العرض كذلك، ولم يسأله أحد.

وهكذا جرى عرض مرتجل، ثم تم اقتياد الحيوانات إلى خيمة المعرض وقام بائعو الحلوى وغيرهم من أصحاب امتيازات البيع بترتيب بضائعهم. وقد تجمع متابعو العرض من أهل المدينة في جناح الملاهي، وسريعاً بدأ سيسل عمله بجذب المغفلين إلى خيمة العرض الجانبي.

Amly نهضة العرب

التصقت بجانب خيمة معرض الحيوانات، وجذبت مسام قماشها كى أتمكن من رؤية ما بداخلها.

رأيت أوجست داخل الخيمة، كان يحضر روزى إلى مكانها فى الخيمة. كان يشيح بعصاه تحت بطنها وخلف ساقيها الأماميتين؛ كان يشيح بها مهدداً فى المقام الأول. وكانت روزى تتبعه فى طاعة، لكن عينيها كانت تشع كراهية له. قادها نحو مكانها المعتاد فى المعرض وقيد قدمها إلى وتد. رمقت ظهره المنثنى تحتها وأذناها منبسطتان على رأسها ثم بدا أنها عدلت عن ذلك، وبدأت تدير خرطومها فاحصة الأرض أمامها. فوجدت طعاماً على الأرض، فالتقطته. ثنت خرطومها للداخل، وحركت عليه ما وجدته، متفحصة مادته، ثم ألقته فى فمها.

كانت خيول مارلينا قد اصطفت بالفعل، لكنها لم تكن مع خيلها. وكان معظم الجمهور قد اتجه بالفعل نحو الحلبة الكبرى. يجب أن تكون هنا فوراً. *هيا. هيا. اين انت* ـ

خطر لى أن تكون قد ذهبت إلى غرفة القطار، رغم وعدها لى بعدم الذهاب. *اللعنة، اللعنة، اللعنة*. كان أوجست لا يزال منشغلاً بقيد روزى، لكن يمر وقت طويل قبل أن يكتشف غيابها ويبدأ فى تفقدها.

شعرت بمن يشدنى من طرف ملابسى، فالتفت نحوه قابضاً يدى.

كان جريدى، وقد رفع يديه فى إشارة استسلام، يقول: "على رسلك يا رجل. لا شىء هناك".

أرخيت قبضتى وقلت له: "إننى فى مزاج سيئ قليلاً. هذا كل ما فى الأمر".

فقال وهو يتلفت حوله: "نعم، فلديك سبب لهذا. قل لى، هل أكلت؟ لاحظت أنك قد طردت من خيمة الطعام".

فقلت له: "كلا، لم آكل".

"هيا بنا إذن. لتناول قطعة لحم مشوى".

Amly نهضة العرب

فقلت وأنا يائس من انصرافه: "كلا، لا أستطيع؛ فأنا مفلس"، ثم استدرت نحو الخيمة فاصلاً حوافها. لم تكن مارلينا قد أتت بعد.

قال جريدى: "سأضمن لك الحصول عليها".

"أنا بخير، صدقنى"، كنت لا أزال أعطيه ظهرى، وتمنيت أن يفهم هذه الإشارة وينصرف.

فقال بهدوء: "اسمعنى، إننى أريد الحديث معك. وسيكون الحديث أكثر أمناً فى جناح الملهى".

أدرت رأسى له وتلاقت عينانا.

تبعته عبر الملهى. ومن داخل الحلبة الكبرى بدأت موسيقى العرض العام.

التحقنا بطابور أمام طاولة بيع قطع اللحم المشوى. كان الرجل الواقف خلف الطاولة يقلب ويجمع قطع اللحم فى سرعة مذهلة، ويقوم بتقديمها لطابور الواقفين، الذين بدا عليهم القلق رغم قلتهم.

نجحت مع جريدى فى الوصول إلى مقدمة الصف. فأشار جريدى بأصبعين وقال: "قطعتين من البرجر يا سامى. ولا تتعجل".

وخلال ثوان، وضع الرجل أمامنا طبقين من الصفيح، أخذت أحدهما وأخذ جريدى الآخر. ومد يده بعملة ورقية ملفوفة.

فقال الطاهى ملوحاً بيده: "اغرب عن وجهى؛ فمالك ليس له فائدة هنا".

فقال جريدى وهو يعيد المال لجيبه: "شكراً يا سامى، أقدر لك ذلك".

ثم اتجه إلى طاولة خشبية مهترئة ودار بساقيه حول طاولة الجلوس. واتجهت أنا إلى الجانب الآخر.

قلت له وأنا ألمس قشرة خشبية ناعمة فى الطاولة: "ما الأمر إذن؟".

اختلس جريدى النظر حوله، ثم قال: "بعض الرجال الذين ألقى بهم من القطار ليلة أمس، التحقوا به ثانية".

Amly نهضة العرب

رفع لفافة البرجر فى يده وانتظر حتى سقطت منها ثلاث قطرات من الدهن فى طبقه.

فقلت له وأنا أعتدل وأمسح المكان بنظرى: "ماذا تقول؟ هل هم هنا الآن؟". كان معظم الجمهور قد دخل الحلبة الكبرى، باستثناء حفنة من الرجال أمام خيمة العرض الجانبى ـ ينتظرون غالباً اقتيادهم لعرض باربرا.

قال جريدى: "نعم، عاد خمسة منهم، لكن اكتم هذا الخبر".

سألته ودقات قلبى تتسارع: "هل نجح وولتر فى....؟". وفى اللحظة التى ذكرت اسمه، طرفت عين جريدى، فعرفت إجابة سؤالى.

فقلت وأنا أدير رأسى جانباً: "أوه، يا إلهى". قاومت دموعى وابتلعت ما فى فمى. استغرقت لحظة استجمعت فيها شتات نفسى وسألته: "ماذا جرى بالضبط؟".

وضع جريدى البرجر فى طبقه. ومرت خمس ثوان كاملة قبل أن يبدأ بالإجابة، وحين بدأ الحديث، كان هادئاً، وبلا انفعال على وجهه: "لقد ألقى بهم جميعاً من فوق جسر. كامل اصطدم بالصخور فمات من فوره. أما وولتر فقد تحطمت ساقاه على نحو بليغ واضطر الآخرون لتركه". ابتلع طعامه ثم أضاف: "إنهم لا يرجحون أنه ظل حياً ليلة أمس".

حدقت بنظرى فى الفراغ. حطت ذبابة على يدى. فنقرتها. وسألته: "ماذا عن الآخرين؟".

"لقد نجوا. انطلق اثنان منهم مبتعدين، وعاد الباقون". ودارت عينه يمنة ويسرة ثم قال: "إن بيل واحد منهم".

فسألته: "وماذا سيفعلون بالضبط؟".

فقال جريدى: "لم يقل بيل شيئاً عن نيته، لكنهم سيحاولون القضاء على العم آل بشكل أو بآخر. وأنا أنوى مساعدتهم فى ذلك إن استطعت".

"ولماذا تخبرنى بذلك؟".

Amly نهضة العرب

"كى تكون على بينة. فقد كنت وفياً مع كامل، ولن ننسى لك ذلك"، ثم مال للأمام فانضغط صدره إلى الطاولة وتابع قائلاً فى هدوء: "فضلاً عن أن لديك ما لا تريد خسارته الآن".

نظرت إليه فى حدة. كان يحدق فى عينى مباشرة وأحد حاجبيه مرفوع. أوه، يا إلهى. إنه يدرى ما الأمر، وما دام يدرى، فالكل يدرى. إن علينا المغادرة فوراً، وفى هذه اللحظة.

انطلق التصفيق الحاد آتياً من الحلبة الكبرى، وبدأت الفرقة بلا توان فى عزف موسيقى جونود الراقصة. التفت باتجاه معرض الحيوانات بشكل آلى؛ لأن مارلينا فى هذه اللحظة تستعد لارتقاء روزى أو أنها على رأسها بالفعل.

قلت: "علىّ أن أذهب الآن".

فقال جريدى: "اجلس. تناول طعامك. إذا كنت تفكر فى الرحيل، فقد يمضى الكثير قبل أن ترى الطعام ثانية".

ثبت مرفقه على خشب الطاولة الرمادى الخشن والتقط لفافة البرجر الخاصة به.

نظرت إلى لفافتى متشككاً فى قدرتى على تناولها.

مددت يدى نحوها، لكن قبل أن ألتقطها، لاحظت أن الموسيقى توقفت على نحو مفاجئ ومضطرب.

سرى صوت تصادم بشع للآلات النحاسية انتهى بفرقعة ضخمة. وقد تهادى الصوت من الحلبة الكبرى سائراً فى أنحاء الحلبة حتى انتهى صداها.

تجمد جريدى فى مكانه وانحنى فوق طعامه.

فنظرت يمنة ويسرة. كان الكل جامداً فى مكانه ـــ وقد اتجهت كل العيون نحو الحلبة الكبرى. تصاعدت فى الهواء بعض حفنات من القش عبر الأرض الجافة.

سألت جريدى: "ماذا هناك؟ ماذا يجرى؟".

Amly نهضة العرب

قال جريدى بحدة: "*ششش*".

تابعت الفرقة عزفها. كانت تعزف هذه المرة لحن "ستارز آند ستريبز فور إيفر".

فقفز جريدى للخلف راكلاً الطاولة وقال: "أوه، يا إلهى، اللعنة".

"ماذا؟ ما الأمر؟".

صاح وهو يستدير ويبتعد: "إنها كارثة مارس!".

أسرع كل من له صلة بالعرض بالاتجاه نحو الحلبة الكبرى. نزلت عن الطاولة ووقفت خلفها مذهولاً مما يجرى، وغير مستوعب لأى شىء. استدرت نحو الطاهى الذى كان يجاهد للتخلص من رداء الطهى وصحت فيه قائلاً: "ما هذا الذى يتحدث عنه؟".

فقال وهو يرفع رداء الطهي من فوق رأسه: "كارثة مارس تعنى أن شيئاً خطيراً قد وقع ــ شيئاً خطيراً للغاية".

صدمنى أحدهم فى كتفى وهو يمر.

كان ذلك دياموند جو؛ فصاح من بين كتفيه قائلاً: "إنه معرض الحيوانات يا جاكوب ــ لقد انفلتت الحيوانات. انطلق، انطلق، *انطلق*".

لم يكن فى حاجة للتكرار. وبينما كنت منطلقاً نحو خيمة المعرض، اهتزت الأرض تحت قدمى. فوصل بى الذعر مبلغه. فلم تكن هذه ضوضاء، بل كانت حركة؛ إنها حركة الحوافر المتدافعة والمقاعد المتساقطة على الأرض الصلبة.

دفعت نفسى داخل فتحة الخيمة واندفعت فى الحال نحو جدار الخيمة لحظة مرور ثور هائج، لقد كانت قرونه المعقوفة على بعد بوصات من صدرى. وعلى ظهر الثور تشبث ضبع، وأخذ يدور بعينيه فى رعب.

كان ما أراه فراراً جماعياً للحيوانات. لقد فتحت كل أوكار الحيوانات، وقد أصبح وسط المعرض فوضى بما فيه. نظرت داخله، فرأيت العديد من الشمبانزى، إنسان الغاب، اللاما، الحمر الوحشية، الإبل، الضباع، والخيول ــ بالأحرى رأيت عشرات الخيول بما فيها خيول مارلينا، وكانت

Amly نهضة العرب

جميعها فى رعب شديد. كان هناك مخلوقات من كل نـوع تميـل، وتـدور، وتصرخ، وتتأرجح، وتعدو، وتزمجر، وتئن؛ كانت الحيوانات منتشرة فـى كل مكـان؛ فكانـت متعلقـة بالحبـال، أو متـشبثة بالـدعامات، أو مختبئـة تحت العربات، أو ملتصقة بجدران الخيمة، أو منزلقة عبر وسطها.

مسحت الخيمة ببصرى بحثاً عن مارلينا لكنى بدلاً من أن ألقاهـا لقيـت نمراً ينسل إلى الحلبة الكبرى عبر الممر الذى يصلها بالمعرض. وحين اختفى داخل الممر، حبست أنفاسى. مضت ثـوان قبـل أن تنطلـق الـصرخة الأولى، لكنها انطلقت، ثم انطلقت صرخة أخـرى ثـم صـرخة ثالثـة، وبعـدها ضـج المكان كله بصوت هادر للأجساد المتدافعة والحوامل المتساقطة.

يا إلهى، اجعلهم يخرجون من الفتحة الأخرى. أتوسل إليك يا إلهى ألا يحـاولوا الخروج من هذه الناحية.

خلف البحر الهائج من الحيوانات، رأيت رجلين. كانا يلوحان بالحبال دافعين الحيوانات لهيجان أعظم. وكان بيل أحد هذين الرجلين. وقـد رأى نظرتى له ونظر إلىّ لحظة. ثم انسل مع الرجـل الآخـر إلى الحلبـة الكـبرى. توقفت الفرقة عن العزف مرة أخرى وأخيرة.

مسحت أرجاء الخيمة ببصرى، وقد انتابنى اليأس إلى حـد الهلـع. *اين انت؟ اين انت؟ اين انت؟*

لمحت الرداء الوردى المطرز فدار رأسى باتجاهه. وحـين رأيـت مارلينـا تقف إلى جوار روزى صرخت من شدة ارتياحـى.

كان أوجست هو ذلك الواقف أمامهم ــ بالطبع هو، فمـن غـيره سـيكون هنا؟ كانت مارلينا تغطى فمها بيديها. لم تكن قد رأتنـى بعـد، لكـن روزى قد رأتنى. نظرت إلىّ نظرة طويلة وقاسية، شىء ما فى تعبير وجهها دفعنى للسكون. أما أوجست فكان فى ملكوته ــ محمر الوجـه، مزمجـراً، مـشيحاً بذراعيـه، ملوحـاً بعـصاه. كانـت قبعتـه ملقـاة بجانبـه علـى القـش، وقـد انكمشت كما لو أنه دهس عليها بقدمه.

Amly نهضة العرب

مدت روزى خرطومها لتمسك شيئاً ما. فى تلك اللحظة مرت زرافة فحجبتنا، كانت رقبة الزرافة تتمايل فى خيلاء حتى وسط هذا الرعب. وحين مرت الزرافة، وجدت روزى قد نزعت وتدها من الأرض. أمسكت به فى استرخاء وقد أمالت طرفه على الأرض. كان القيد لا يزال فى قدمها. نظرت إلىّ بأعين مرتبكة. ثم تحولت بنظرها نحو مؤخرة رأس أوجست العارية.

أدركت ما تنويه فجأة؛ فقلت: "أوه، يا إلهى. لا تفعلى ذلك. *لا تفعلى ذلك*".

لكنها حملت الوتد وكأنه لا يزن شيئاً وهوت على رأسه بضربة واحدة متقنة ـ *بونك* ـ كان صوت الضربة كصوت تصدع بيضة أنهكها الغليان. ظلت تحمل الوتد بيدها حتى هوى للأمام، وبعد ذلك أفلتته من خرطومها على الأرض على نحو أقرب إلى التكاسل. ثم تراجعت خطوة إلى الوراء مظهرة مارلينا، التى رأت ـ وربما لم تر ـ ما جرى للتو.

بعد ذلك بثوان، مر أمامهما قطيع من الحمر الوحشية. وجعلت أرجلها البيضاء والسوداء تفرى وتنزع لحم الأوصال البشرية التى تحتها. طالت كل شىء بأعلى الجسد وأسفله، الأيدى والأرجل، الجسد كله كان يتلوى ويترجرج تحت الأرجل بلا مقاومة. وحين مر القطيع، أصبح الشىء الذى كان جسد أوجست يوماً ما كتلة مختلطة من اللحم والأحشاء والقش.

حدقت مارلينا فى جثة أوجست، وقد اتسعت عيناها، ثم هوت إلى الأرض. رفت روزى بأذنيها، وفتحت فمها، وخطت خطوة جانبية فأصبحت فوق مارلينا مباشرة.

ورغم تواصل التدافع على أشده، فإننى أدركت أن مارلينا هكذا لن تطأها الأقدام قبل أن أجتاز طريقى إليها عبر محيط الخيمة.

وقع ما كان يجب أن يقع، وحاول الناس مغادرة الحلبة الكبرى من المخرج الذى دخلوا منه ـ أى من خلال خيمة المعرض. جثوت بجانب مارلينا، أهدهد رأسها بين يدى. وفى هذه الأثناء بدأ اندفاع الناس من الممر. ساروا بضع أقدام داخل الخيمة قبل أن يدركوا ما يجرى داخلها.

Amly نهضة العرب

فتوقف الذين كانوا فى مقدمة الجماهير وقفة مفاجئة فدفعهم الذين خلفهم أرضاً. كانوا على وشك سحق الناس الذين سقطوا أرضاً إلا أنهم أيضاً قد أدركوا انفلات الحيوانات من عقالها.

غيرت جموع الحيوانات اتجاهها بشكل مفاجئ، كان حشداً حيوانياً متعدد الأجناس ـ فكانت الأسود، واللامات، والحمر الوحشية تجرى جنباً إلى جنب مع إنسان الغاب والشمبانزى؛ وحيوان ضبع بحرى وكتفه فى كتف نمر. وكان هناك اثنا عشر حصاناً يجرون إلى جوار زرافة وقرد عنكبوتى معلق فى رقبتها. والدب القطبى يسير متثاقلاً على أربع. كل أولئك يقصدون فى عدوهم جمهرة الناس.

فاستدارت الجماهير صارخة، وحالوا العودة إلى الحلبة الكبرى. فدُفع من كان فى المؤخرة إلى الأرض، فبدأ المتساقطون يتبعون ويضربون فى يأس ظهور وأكتاف من تحتهم. انفتح حاجز الخيمة فاندفعت الناس والحيوانات للخارج فى صراخ رهيب. كان من الصعب تحديد أكثر الجماعتين رعباً ـــ وبالطبع كان الشيء الوحيد الذى دار فى ذهن الحيوانات هو الفرار. دفع نمر بنغالى نفسه بين ساقى امرأة فرفعها عن الأرض. نظرت تحتها وأصيبت بالإغماء فجرها زوجها من تحت إبطيها رافعاً إياها بعيداً، فى الوقت الذى كان النمر يجرها نحو الحلبة الكبرى.

فى غضون ثوان، لم يبق بجوارى من الأحياء داخل المعرض سوى ثلاثة أنفس: روزى، مارلينا، وريكس؛ ذلك الأسد الأجرب العجوز الذى زحف إلى مؤخرة قفصه وتكوم فى ركن القفص مرتعداً.

كانت مارلينا تنتحب ورفعت يدها ثم خفضتها. نظرت سريعاً نحو ما كان فى الماضى جسد أوجست وقررت ألا أدعها تنظر إليه ثانية. رفعتها من الأرض وحملتها وخرجنا من بوابة التذاكر.

كانت الساحة خالية تماماً، وكان محيطها الخارجى محاطاً بالبشر والحيوانات والكل يجرى على قدر سرعته، وجميعهم يتمدد ويتشتت مثل دائرة على سطح بركة ماء.

Amly نهضة العرب

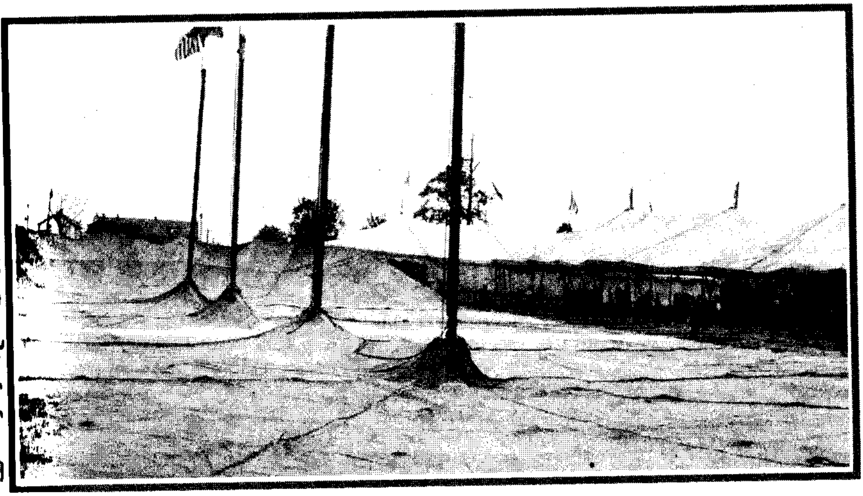

Amly نهضة العرب

الفصل الثالث والعشرون

اليوم الأول بعد هروب الحيوانات.

مازلنا نبحث عن الحيوانات الهاربة ونستعيدها. لقد أمسكنا بالعديد منها، لكن الحيوانات التى سلمت نفسها لنا ليست تلك التى تثير اهتمام الجمهور. فمعظم السباع مازالت مفقودة، وكذلك الدب.

بعد الغداء مباشرة، استدعينا إلى مطعم محلى. وحين وصلنا، وجدنا ليو مختبئاً تحت حوض المطبخ، وكان يرتعد فى رعب. وقد انحشر بجواره غاسل أطباق، وقد أصابه رعب مماثل. رجل وأسد، جنباً إلى جنب.

غاب العم آل عن الأنظار لكن غيابه لم يفاجئ أحداً. كانت الساحة تعج برجال الشرطة. وقد عثر على جثة أوجست ونقلت ليلة أمس، وبدأوا إجراء تحقيق فى أمر مقتله. سيكون التحقيق روتينياً، لوضوح انسحاقه تحت أقدام الحيوانات. أما غياب العم آل فهو للتأكد من أنه لن توجه إليه أى تهمة.

اليوم الثانى بعد هروب الحيوانات.

امتلأ المعرض ثانية بالحيوانات، وعاد مأمور الشرطة إلى الساحة ومعه مسئولو السكة الحديدية وهدد بحديثه عن قوانين التشرد. لقد أرادنا أن نترك السكة الحديدية. وأراد أن يعرف من لديه المسئولية عن إدارة السيرك.

وفى المساء، نفد الطعام فى خيمة الطعام.

Amly نهضة العرب

اليوم الثالث بعد هروب الحيوانات.

فى نهاية صباح اليوم، وصل قطار سيرك نيسى براذرز وتوقف على جانب السكة بجوارنا فعاد الشريف ومسئولو السكة الحديدية لتحية المدير العام للسيرك كما لو كان ملكاً. تجولوا فى أنحاء الساحة وأنهوا لقاءهم بمصافحة حارة وضحك صاخب.

وحين بدأ رجال سيرك نيسى براذرز فى تحريك حيوانات بنزينى براذرز وأدواته إلى خيامهم، لم يستطع أشد الناس تفاؤلاً إنكار حقيقة ما يجرى.

لقد هرب العم آل. وأصبح الجميع بلا عمل.

فكر يا جاكوب، فكر فى حل.

إن لدينا ما يكفى من المال لترك هذا المكان. لكن ما الفائدة من ذلك، وليس لدينا وجهة نتجه إليها؟ فضلاً عن الطفل القادم. إننا فى حجة إلى خطة. وأنا فى حاجة إلى وظيفة.

نزلت المدينة واتجهت إلى مكتب البريد واتصلت بـ "دين ويلكنز" خشيت أنه لن يتذكرنى. لكنه بدا مرتاحاً حين سمع صوتى. وقال إنه كثيراً ما تساءل عن مكانى وعن حالى، وعما فعلته خلال الأشهر الثلاثة ونصف الشهر الماضية؟

التقطت نفساً عميقاً وأنا لا أزال أفكر فى صعوبة ما جرى لى. بدأت العبارات تنساب من فمى. لقد انسابت الكلمات وتدافعت فى تنافس على السبق فى الانطلاق من فمى فى ارتباك شديد كان يرغمنى على التراجع والبدء فى خيط حديث جديد. وحين هدأت أخيراً، كان دين ويلكنز صامتا تماماً. شككت فى أنه لم يعد على خط الهاتف.

قلت: "دين ويلكنز؟ هل أنت معى؟". أخذت السماعة من أذنى ونظرت إليها. فكرت فى ضربها بالحائط لكنى لم أفعل، لأن عاملة المكتب كانت تراقبنى. كانت تنظر إلىّ فى تلهف؛ لأنها فى الحقيقة كانت تستمع إلى كل كلمة ذكرتها. التفت للحائط ثانية وضعت السماعة على أذنى.

Amly نهضة العرب

تنحنح دين ويلكنز وتلعثم لثانية. ثم أجابنى بأننى محل ترحيب حال عودتى لإتمام امتحاناتى.

حين عدت إلى الساحة، كانت روزى تقف على مسافة من المعرض وإلى جانبها المدير العام لسيرك نيسى براذرز، والشريف، ومسئولو السكك الحديدية. فحولت طريقى ناحيتها.

قلت وأنا أقف إلى جوار كتف روزى: "ما الذى يجرى هنا؟".

فالتفت الشريف نحوى وقال: "هل أنت المسئول عن هذا السيرك؟".

فقلت: "كلا".

فقال: "إذن، لا شأن لك بما يجرى".

"هذا الحيوان يخصنى، وهذا يجعل ما يجرى من شأنى".

"هذا الحيوان هو جزء من سيرك بنزينى براذرز الذى نقلت ملكيته، وأنا بصفتى مأمور الشرطة مخول بالنيابة عن ــــ"

"اللعنة، هذه الفيلة تخصنى".

بدأ الناس فى التجمهر حولنا وكان معظمهم من عمال سيرك بنزينى براذرز. فتبادل الشريف ومسئولو السكة الحديدية النظرات على نحو عصبى.

تقدم جريج للأمام. وتلاقت عينانا. ثم خاطب الشريف قائلاً: "ما يقوله صحيح. إنها ملكه. إنه يتسول بهذه الفيلة. صحيح أنه كان يسافر معنا؛ لكنها ملكه".

"أتمنى أن تستطيع إثبات ذلك".

ظهر الغضب فى وجهى، وحدق جريج فى الشريف بعينين تمتلئان عدائية. وبعد ثوان بدأ يصر على أسنانه.

فقال الشريف وقد ابتسم ابتسامة باهتة: "هكذا إذن، دعونا نُنْهِ أعمالنا".

فالتفت نحو مدير سيرك نيسى براذرز وقد اتسعت حدقتا عينيه فى دهشة.

Amly نهضة العرب

قلت له: "لست فى حاجة إليها. فهى عجماء مثل كيس مطا
بإمكانى الاستفادة منها لكنك لن تفيد منها شيئاً".

ارتفع حاجباه وقال: "ماذا؟".

فقلت له: "إننى أعنى ما أقول. ألديك عامل أفيال هنا؟ اجعله يحاو
معها لتفعل أى شيء. إنها عديمة الفائدة. إنها غبية".

استمر فى نظره إلىّ لحظة ثم نادى صارخاً: "ديك، اجعلها تؤدى ش
ما".

تقدم الرجل وبيده خطاف الفيلة.

نظرت فى عينى روزى. أرجوك يا روزى. حاولى أن تفهمى ما يجر
الآن، *ارجوك*.

قال ديك وهو يلتفت نحوى: "ما اسمها؟".

"جيرترود".

فالتفت نحو روزى وقال: "جيرترود، تقدمى نحوى الآن". ارتفع صو
وازداد حدة.

زفرت روزى وبدأ تهز خرطومها.

فكرر أمره: "جيرترود، تقدمى نحوى. الآن وفوراً".

طرفت روزى بعينها وجعلت تمسح الأرض بخرطومها ثم توقفت.
عقفت طرف خرطومها ودفعت فيه الغبار بقدمها. ثم لوحت به ناثرة ما
من غبار على ظهرها وعلى من حولها. فضحك كثير من الواقفين.

قال ديك وهو يتقدم منها ليكون على يمين كتفها: "جيرترود، ارفع
قدمك".

ربت على ظاهر ساقها بخطافه. وقال: "ارفعى!".

لوحت روزى بآذانها وجعلت تشمشم ديك بخرطومها.

فقال وهو يضرب ساقها بشكل أقوى: "ارفعى ساقك!".

ابتسمت روزى وفتشت جيوبه وظلت ثابتة على الأرض بسيقانه
الأربع.

Amly نهضة العرب

دفع الرجل عنه خرطومها والتفت إلى رئيسه قائلاً: "إنه على حق. إنها لا تجيد فعل أى شيء. كيف تم إحضارها إلى هنا أصلاً؟".

قال المدير وهو يشير إلى جريج: "لقد أحضرها ذلك الرجل"، ثم التفت نحوى ثانية وقال: "فماذا كانت تفعل إذن؟".

"كانت تقف فى خيمة المعرض تتلقى الحلوى من الجمهور".

فسأل فى تشكك: "هل هذا كل ما كانت تفعله؟".

فأجبته: "نعم، هذا ما كانت تفعله".

فقال وهو يهز رأسه: "لا عجب فى انهيار هذا السيرك إذن"، ثم التفت ثانية إلى الشريف وقال: "ماذا لديك إذن غير ذلك؟".

ولم أسمع بعد ذلك كلمة واحدة. فقد بدأت آذانى فى الطنين.

ما هذا الذى فعلته لتوى؟

كنت أحدق فى يأس نحو نوافذ العربة رقم ٤٨، أفكر كيف أخبر مارلينا بأننا أصبحنا نمتلك فيلاً، حين أتت مندفعة خارج باب غرفتها، وقفزت عبر رصيف العربة كالغزالة. ضربت الأرض وأخذت تعدو مندفعة بذراعيها وساقيها.

التفت لأتبع مسار عدوها وفى الحال أدركت سببه. لقد كان الشريف والمدير العام لسيرك نيسى براذرز يقفان بجوار خيمة المعرض. كانا يتصافحان فى ابتسام متبادل.وكانت خيول مارلينا مصفوفة خلفهم، يمسك بها رجال سيرك نيسى براذرز.

انفعل الرجلان حين اقتربت منهما. كنت أنا بعيداً عن مكان الحديث فلم أتمكن من التقاط شيء منه، عدا بعضاً من خطابها العنيف نحوهم ــ الذى احتوى أعنف ما لديها من عبارات ــ عبارات من قبيل "كيف تجرؤون"، "وقاحة بشعة" و"وقاحة لا يمكن وصفها." كانت تتحدث بعنف، وتشيح بذراعيها. وتتابع أقوالها "سرقة كبرى"، "مقاضاة." وماذا أيضاً؛ "سجن"؟

حدق الرجلان فى ذهول.

Amly نهضة العرب

توقفت أخيراً وعقدت ذراعيها، وتجهمت، وأخذت تضرب الأرض بقدمها. تبادل الرجلان النظرات بعيون متسعة. فالتفت الشريف وفتح فمه. لكن قبل أن تتاح له فرصة الحديث، انفجرت مارلينا ثانية، وأخذت تصرخ بشدة، وهى تدس أصبعها فى وجهه. فتراجع الرجل خطوة لكنها تحركت معه. فتوقف وثبت بمكانه، وعيناه مغلقتان وصدره يعلو ويهبط. وحين توقفت عن تحريك أصبعها، عادت ثانية لعقد ذراعيها، وضرب الأرض بقدمها، ومالت برأسها.

فتح الشريف عينه، والتفت إلى المدير العام. وبعد لحظة ساد صمت ثقيل، هز كتفيه فى وهن. فتجهم المدير العام والتفت نحو مارلينا.

استمر على ذلك قرابة خمس ثوان قبل أن يتراجع رافعاً يديه استسلاما كانت ملامح وجهه تنطق بكلمة "العم". وضعت مارلينا يديها على خصرها وانتظرت، محدقة فيه. فاستدار فى النهاية وهو محمر الوجه. وصرخ قائلا شيئاً ما للرجال المسيطرين على الخيل.

ظلت مارلينا تراقب الوضع حتى عاد الأحد عشر فرساً إلى معرض الحيوانات. ثم سارت عائدة إلى العربة رقم ٤٨.

يا إلهى، إننى لست عاطلاً ومتشرداً فحسب، ففوق ذلك علىّ الاهتمام بامرأة حبلى، وكلبة يتيمة، وفيلة، وأحد عشر حصاناً.

عدت إلى مكتب البريد واتصلت ثانية بـ "دين ويلكنز". وحين حدثته صمت لمدة أطول من السابقة. ثم تمتم فى النهاية باعتذار. إنه آسف للغاية ــ وكان يتمنى لو استطاع المساعدة وأننى مازلت محل ترحيب لأداء امتحانات سنتى النهائية بالطبع، لكنه لا يملك أدنى فكرة عما يجب على فعله بالفيل.

عدت إلى الساحة وأنا فى حالة ذعر شديد. فأنا لا أستطيع ترك مارلينا والحيوانات كى أذهب لأؤدى امتحاناتى فى إتاكا. ماذا لو باع الشريف حيوانات المعرض فى هذه الأثناء؟ إن بالإمكان إيواء الخيول وتوفير إقامة فندقية لـ مارلينا وكوينى، ولكن ماذا عن روزى؟

Amly نهضة العرب

جلست بالساحة دائراً حول أكوام قماش الخيام المبعثر فى المكان. كان عمال سيرك نيسى براذرز يبسطون الأجزاء المختلفة من قماش خيمة الحلبة الكبرى أمام عين رئيس عمال الخيام. يبدو أنهم كانوا يتأكدون من عدم وجود تمزقات بها قبل أن يعرضوا شراءها.

حين كنت أصعد درج العربة رقم ٤٨، كان قلبى يخفق بشدة وأنفاسى تتلاحق فى سرعة. كنت بحاجة للصلاة ـ كان عقلي يدور فى دوائر سغيرة إلى دوائر أصغر. لم يكن ذلك حسناً. لم يكن حسناً على الإطلاق.

دفعت الباب، فأتت كوينى مسرعة تحت قدمى وتطلعت نحوى فى مزيج مثير للشفقة من الذهول والعرفان بالجميل. هزت ذيلها المجذوذ فى ارتياب. فملت إليها وخضت بأصابعى فى رأسها.

قلت وأنا أعتدل: "مارلينا؟".

فخرجت من خلف الستارة الخضراء. بدت مترقبة وقد ثنت أصابعها وتحاشت النظر نحوى وقالت: "جاكوب ـ أوه، جاكوب لقد ارتبكت خطأ فى غاية الحمق".

فسألتها: "ماذا؟ هل تقصدين أمر الخيول؟ لا بأس. إننى على علم به بالفعل".

فنظرت نحوى بسرعة وقالت: "أحقاً تعلم؟".

"لقد كنت أراقب ما يجرى. كان واضحاً تماماً من مكانى هنا".

احمر وجهها وقالت: "أنا آسفة. كان مجرد... رد فعل. إننى لم أفكر حينها بما سنفعله بالخيول بعد ذلك. حبى الكبير لهذه الخيول منعنى من الوقوف وتركها تذهب إليهم هكذا. إنهم ليسوا أقل سوءاً من العم آل".

"لا بأس. إننى أتفهم ذلك". توقفت برهة ثم قلت: "مارلينا، لدىّ أنا أيضاً ما أريد قوله لك".

"حقاً؟".

فتحت فمى ثم أغلقته دون أن أنطق بكلمة.

Amly نهضة العرب

فبدأت تنزعج وقالت: "ماذا هناك؟ ماذا يجرى؟ هل هناك من خطب؟".

"لقد اتصلت بـ "دين" فى جامعة كورنيل، وهو مستعد لمنحى فرصة لإتمام امتحاناتى".

فابتهج وجهها وهتفت: "هذا رائع".

"لقد حصلنا على روزى".

"حصلنا على ماذا؟".

قلت بسرعة محاولاً شرح موقفى: "إنه ذات الأمر الذى حدث لك مع الخيول. لم تطب لى نظرة سائس الأفيال ولم أستطع أن أتركه يأخذها. ولذا ادعيت ملكيتى لها. وقد أصبحت كذلك الآن بالفعل".

نظرت مارلينا نحوى طويلاً. ثم — ولعظيم ارتياحى — هزت رأسها قائلة: "لقد فعلت الصواب. أنا أيضاً أحبها. إنها تستحق خيراً مما لاقت لكن هذا يعنى أننا فى ورطة"، ثم نظرت عبر النافذة، وضاقت عينها وهى تفكر ثم قالت: "علينا الالتحاق بسيرك آخر". ثم قالت أخيراً: "هذا كل ما يمكننا فعله".

"كيف؟ ليس هناك من هو مستعد للتوظيف".

"سيرك رينجلنج يوظف الناس باستمرار؛ هذا إن كانوا أكفاء بالقدر الكافى".

"هل ترين أن لدينا فرصة مناسبة؟".

"بالقطع، لدينا فرصة. فلدينا عرض رائع للأفيال، وبيطرى من جامعة كورنيل. إن لدينا فرصة كاملة. كل ما نحتاجه هو الزواج. فهم متزمتون للغاية فى هذا السيرك".

"حبيبتى، أنا أخطط للزواج منك بمجرد إصدار شهادة الوفاة تلك".

احمر وجهها بشدة.

فقلت: "أوه، مارلينا. أنا آسف غاية الآسف. لقد أخطأت التعبير. أنا فقط أقصد أننى أنوى الزواج منك وليس فى هذا مثقال ذرة من شك".

Amly نهضة العرب

بعد لحظة من الصمت، مدت يدها ووضعتها على وجنتى، ثم تناولت كيس النقود والقبعة.

فقلت: "إلى أين تذهبين؟".

تقدمت نحوى على أطراف أصابعها وقبلتنى وقالت: "لأقوم بهذا الاتصال الهاتفى فتمَنَّ لى التوفيق".

فقلت لها: "أتمنى لك حظاً سعيداً".

تبعتها للخارج وجلست علي عتبة العربة المعدنية أراقب سيرها مبتعدة. كانت تسير فى ثقة واضعة قدماً أمام أخرى فى ثبات وقد بسطت كتفيها أثناء مرورها. التفت كل الرجال ينظرون إليها. ظللت أراقبها حتى اختفت خلف أحد المبانى.

حين نهضت من مكانى، لاحظت صيحة اندهاش من الرجال الذين يبسطون الخيام. أحد هؤلاء الرجال تراجع خطوة كبيرة للخلف وأمسك معدته. ثم انثنى، وبدأ يتقيأ على العشب. وظل بقية الرجال يحدقون فى الشيء الذى كشفوه بين الخيام. قام رئيس عمال الخيام بنزع قبعته وضمها إلى صدره ثم فعل الجميع الشيء ذاته واحداً وراء آخر.

سرت نحوهم محدقاً فى صرة سوداء أمامهم. كانت كبيرة الحجم، وحين اقتربت منها لمحت قطعاً من قماش بألوان قرمزية وذهبية، وأخرى مربعة باللونين الأبيض والأسود.

إنه العم آل. وحول عنقه التف طوق حديدى خنق به.

فى وقت لاحق من تلك الليلة، تسللت أنا ومارلينا إلى داخل معرض الحيوانات وأحضرنا بوبو معنا إلى غرفة القطار.

هكذا دون أى مقابل.

نهضة العرب Amly

الفصل الرابع والعشرون

هل هذا إذن هو ما انتهى بى الحال إليه؟ جالس وحدى فى بهو أنتظر عائلة لن تأتى؟

أنا لا أصدق أن سايمون قد نسى الميعاد؛ ميعاد اليوم بالخصوص، وسايمون بالخصوص ـ ذلك الولد الذى قضى سبع سنوات من حياته فى سيرك رينجلنج.

وحتى أكون منصفاً، علىّ القول بإن الغلام قد بلغ الحادية والسبعين من عمره، أو ربما التاسعة والستين؟ اللعنة، لقد سئمت من عدم معرفتى بالأمور. حين تعود روزمارى سوف أسألها عن العام الحالى وأعيد ترتيب التواريخ مرة أخيرة ونهائية. إن روزمارى هذه غاية فى اللطف معى. إنها لا تشعرنى بحماقتى حتى لو كنت كذلك. فمن الحماقة ألا يعرف المرء عمره.

إننى أتذكر أشياء كثيرة على نحو جلى تماماً. مثل يوم مولد سايمون. يا إلهى. يا إلهى. كم كانت الفرحة. كم كان الارتياح! وذلك الدوار الذى أصابنى وأنا أقترب من السرير، وتلك الرعدة فى السرير، كانت ترقد ملاكى، مارلينا حبيبة القلب، كانت تبتسم نحوى، متعبة، مشرقة، وفى محيط ذراعها دست لفافة صغيرة مغطاة بالبطاطين. كان وجهه مسوداً ومعصوراً تماماً حتى إنه لا يكاد يشبه البشر. لكن حين رفعت مارلينا الغطاء عن رأسه ووجدت أن شعره أحمر، كاد أن يغشى على من الفرح. إننى لا أشك فيه قط ـ ليس تماماً، وقد أحببته وربيته على أية حال ـ لكنى مع ذلك كدت أسقط مغشياً حين رأيت شعره الأحمر.

Amly
نهضة العرب

نظرت إلى الساعة في قلق وإحباط. لابد أن العرض العام قد انقضى الآن. أوه، هذا ليس عدلاً! كل هؤلاء العجائز الحمقى لا يدركون حتى ماهية ما يشاهدونه، وأنا الوحيد هنا! عالق فى هذه الردهة!

أم أن هذا ما أظنه؟

عقدت حاجبى وطرفت بعينى. ما الذى يدفعنى للظن بأننى عالق هنا؟

نظرت يمنة ويسرة. لم يكن هناك من أحد. ثم التفت ونظرت نحو الردهة. مرت إحدى الممرضات على عجل حاملة بيدها أحد الجداول وكانت تسير ناظرة بين قدميها.

تزحزحت إلى حافة الكرسى وأمسكت بمساعد المشى. حسب تقديرى، فإننى لا أبعد عن الحرية سوى بثمانية عشر قدماً. صحيح أن هناك مبنى مدنياً كاملاً علىّ المرور به بعد ذلك، لكنى إن تمكنت من المشى عبر هذه المسافة، فقد ألحق بعدة عروض، إضافة إلى الختام ـ صحيح أنه لن يعوض فقدان العرض العام، لكنه أفضل من لا شىء. سرت داخلى موجة حماسية فضحكت ضحكة خفيفة. إننى فى التسعينات لاشك، لكن من قال إننى عاجز؟

حين اقتربت، انزلقت الأبواب منفتحة أمامى. أحمد الله على ذلك ـ فما كنت لأستطيع فتح باب عادى ومعى هذا المساعد. كلا، لقد بدأت أترنح، لا بأس. يمكننى السير مترنحاً.

وصلت إلى المشى الجانبى وتوقفت؛ فقد أذهلنى ضوء الشمس.

إننى بعيد عن الحياة الحقيقية منذ زمن بعيد حتى إن امتزاج أصوات المحركات ونباح الكلاب، وضجيج آلات التنبيه أصابنى بارتباك. كان الناس على المشى الجانبى يمرون بى وكأنى حجر فى نبع ماء. لم يبد أن أحدهم قد رأى غرابة فى أن يمشى رجل عجوز على المشى بخفية وبجوار نزل لكبار السن. لكن خطر ببالى أيضاً أننى مازلت فى مرمى بصر أى ممرضة تمر فى ردهة المبنى.

Amly نهضة العرب

حملت ساعدى، وأدرته مقدار بوصتين يساراً، ثم أعدته ثانية إلى الأرض. احتكت عجلاته بالأرض الخرسانية، فأصابنى الصوت بالدوار. إنه يسبب ضوضاء حقيقية، ضوضاء قوية، وليس ذلك الصرير، أو التمتمة التى يصدرها المطاط. دلفت خلف المشى، متحسساً خطوًا خفيا على الأرض بعد نقلتين إضافتين سأواجه الطريق. وبعد ذلك دورة تامة بثلاثة محاور. ثم بدأت أسحب جسدى ممسكاً بالمساعد ومرتكزاً على قدمى.

لا ينبغى أن أسير بسرعة. فالسقوط سيكون مأساوياً من عدة أوجه. ليست هناك بلاطات أرضية كما فى النزل، ولذا فعلىّ قياس تقدمى فى السير بالأقدام ـ أقدامى أنا بالطبع. ففى كل خطوة أخطوها، أضع كعب إحدى قدمى بموازاة أصابع القدم الأخرى. وهكذا سار الأمر، عشر بوصات فى كل خطوة.

كنت أتوقف كل حين لأقيس مقدار تقدمى. كان بطيئاً، لكنه كان ثابتاً. لاحظت أن الخيمة الملونة باللونين الأحمر والأبيض أضخم قليلاً عما كنت أراها من النافذة.

استغرق منى الطريق نصف ساعة واضطررت للتوقف خلالها مرتين، لكننى عملياً كنت قد وصلت إلى أرض العرض وبدأت أشعر بنشوة الانتصار. رأيت تلك المرأة التى ظننت أنها قد تتعلق بى. لكننى تمكنت من التخلص منها. ولست فخوراً بذلك ـ فليست هذه عادتى فى معاملة الناس، والنساء على وجه الخصوص ـ لكن ليس بإمكانى السماح لمخبولة أن تفسد على نزهتى. إننى لن أخرج من هذا المبنى قبل أن أشاهد ما تبقى من العرض. وسأكون ممتناً للشخص الذى يساعدنى على ذلك. وحتى لو حضرت الممرضات لأخذى الآن، فسوف أثور، سوف أثير الضجيج وسأتسبب فى إحراجهم على الملأ حتى يحضروا لى روزمارى. وحين ترى أننى مصر على الحضور فستذهب بى هى، حتى لو أفقدها ذلك وردية عملها المقررة. فسوف تذهب بى ـ فهى الوردية الأخيرة لها على أية حال.

Amly نهضة العرب

أوه، يا إلهى. كم سأستطيع البقاء فى هذا المكان بعد رحيلها. إن قلبى الهرم قد امتلأ بالحزن عند ذكر رحيلها، لكنه سريعاً ما استبدل بالسعادة ـ فأنا الآن قريب. لقد جعلنى أسمع الموسيقى الصادرة من الحلبة الكبرى. أوه، إنه صوت موسيقى السيرك المحببة إلى قلبى. ألصقت لسانى فى ركن فمى. وبدأت أسرع. إننى قد وصلت تقريباً. إننى على بعد ياردات فقط ــــ

"أنت، أيها الجد. أين تظن نفسك ذاهبا؟".

توقفت وأنا أشعر بالذهول، ثم تطلعت. إنه فتى يجلس خلف شباك التذاكر، وجهه المطل عبر الشباك محاط بأكياس غزل البنات ذات اللون الوردى والأزرق، واللعب ذات الأضواء تومض من خلف الطاولة الزجاجية التى يتكئ عليها بذراعيه. كان فى حاجبه حلقة معدنية، وكذلك فى شفته السفلى، وكان هناك وشم ضخم على كتفيه. وكانت يده تنتهى بأظافر سوداء اللون.

قلت له فى تبرم: "وأين ترانى ذاهباً؟". لم يكن لدىّ وقت لهذا الجدل، فقد فاتنى من العرض ما يكفى.

"ثمن التذكرة هو أحد عشر دولاراً".

"لكنى لا أملك أى مال".

"لن يمكنك الدخول إذن".

أصبت بالذهول، وبينما كنت أجاهد لأجد ما أرد به، أتى رجل وقف إلى جوارى. فكان أكبر سناً من ذلك الفتى، وكان حليق الذقن حسن الثياب. إنه المدير،وأنا متأكد من ذلك.

"ما الأمر يا روس".

فأدار الفتى إبهامه نحوى وقال: "لقد ضبطت هذا العجوز وهو يحاول التلصص".

فأعدت كلمته فى استهجان واضح: "تلصص!".

ألقى الرجل نظرة نحوى ثم عاد إلى الفتى قائلاً: "ما هذا الهراء الذى تهذى به يا فتى؟".

Amly نهضة العرب

عبس وجه روس ونظر إلى الأرض.

وقف المدير أمامى وهو يبتسم فى لطف. وقال: "سيدى، يسعدنى أ
أدلك على طريق الدخول. سيكون ذلك أهون عليك فى كرسى متحرك
أليس كذلك؟ وبذلك لن نقلق بشأن إيجاد كرسى مميز لك".

فقلت له وأنا أكاد أبكى ارتياحاً: "سيكون هذا لطيفاً. شكراً لك". كا
انفعالى مع روس قد جعلنى أرتجف ـ ففكرة قدومى كل هذه المسافة ث
العودة حال وصولى بسبب مراهق ذى شفة مشقوقة قد أفزعتنى. لكن لا
بأس، فإننى لم أنجح فى الدخول فحسب، بل إننى سأحصل على مكا
مجاور للحلبة أيضاً.

اتجه المدير إلى جانب الحلبة الكبرى وعاد ومعه كرسى متحرك م
النوع القياسى المستخدم فى المستشفيات. تركته يساعدنى على الجلوس، ثم
إراحة عضلاتى المنهكة، بينما بدأ هو فى دفعى نحو مدخل الحلبة.

قال لى: "لا تغضب من روس، إنه ولد طيب رغم كل هذه الثقوب التى
تملأ وجهه. العجيب أنه لا يرشح منها حين يشرب".

"فى أيامنا كانوا يضعون العجائز من العمال فى نوافذ التذاكر. فى
مقدمة لإنهاء خدماتهم".

فسألنى الرجل: "هل كنت تعمل فى سيرك؟ وأى سيرك كنت تعمل
فيه؟".

"لقد عملت فى اثنين؛ الأول كان سيرك بنزينى براذرز ذا موسد
سبكتاكيولار شو أون إيرث". كنت أتحدث بفخر وأضغط على كل حرف.
"أما الثانى فكان سيرك رينجلنج".

توقف الكرسى. وفجأة ظهر وجه الرجل أمامى قائلاً: "أكنت تعمل فى
سيرك بنزينى براذرز؟ فى أى فترة كنت تعمل معهم؟".

"عملت معهم فى صيف عام ١٩٣١".

"هل كنت معهم حين وقع حادث فرار الحيوانات؟".

Amly نهضة العرب

قلت مستغرباً: "بالطبع كنت معهم. لقد كنت فى قلب الحدث؛ فى معرض الحيوانات. لقد كنت الطبيب البيطرى للسيرك".

حدق فىّ غير مصدق وقال: "لا أصدق! فبعد حريق هارتفورد، وتحطم هاجنبيك ــ والاس، تبدو تلك أشهر كارثة سيرك وقعت".

"نعم، هى كذلك ــ إننى أذكرها كأنها كانت بالأمس، اللعنة، إننى أذكرها أفضل من تذكرى لما حدث بالأمس".

طرف الرجل بعينيه ثم مد يده قائلاً: "تشارلى أوبراين الثالث".

فقلت له وأنا أمد يدى: "جاكوب جانكوسكى...الأول".

حدق فىّ تشارلى أوبراين طويلاً ثم بسط يده على صدره وكأنه سيقسم بشىء ثم قال: "سيد جانكوسكى، سأذهب بك الآن إلى العرض قبل أن يفوتك ما تبقى منه. لكننى أريد نيل شرف وامتياز رفقتك على شراب فى مقصورتى بعد انتهاء العرض. إنك تمثل تاريخاً يمشى على قدمين، وسيسعدنى كثيراً أن أستمع منك إلى هذه الكارثة. سيسعدنى أيضاً أن أستضيفك فى بيتى فيما بعد".

فقلت له: "يسرنى ذلك".

اعتدل وقال: "حسناً إذن، أتمنى أن تسعد بالعرض".

فمعرفتك شرف ليس بعده شرف.

كنت مبتسماً فى هدوء وهو يدير بى الكرسى نحو حاجز الحلبة.

Amly نهضة العرب

الفصل الخامس والعشرون

انتهى العرض. وقد كان عرضاً جيداً؛ رغم أنه لم يَرْقَ لسحر بنزهنى برازرز أو رينجلنج، وكيف له أن يبلغ مبلغهما؟ فالسر فى القطار.

كنت أجلس على طاولة من الفورمايكا فى مؤخرة عربة متنقلة مرتبة على نحو رائع، وأرشف شراب شعير بنفس درجة الروعة ـــ إنه من نوع لابروياج، إن لم أكن مخطئاً ـ وأغنى كطائر الكناريا. أخبرت تشارلى بكل شىء عن والدى، وعلاقتى بمارلينا، وموت وولتر وكامل. أخبرته بزحفى على سطح القطار ليلاً والسكين بين أسنانى ونية القتل تملأ عقلى. أخبرته بأمر الرجال الذين ألقى بهم من القطار، وفرار الحيوانات، وعن شنق العم آل. وأخبرته فى النهاية بما فعلته روزى. لم أتردد فى الأمر؛ بل فتحت فمى فانسابت منه الكلمات.

كان ارتياحى عميقاً وواضحاً. إنه سر ظل مكتوماً داخلى طوال هذه السنوات. كنت أعتقد أننى سأشعر بالذنب، كما لو أننى قد خنتها، لكن ما أحسست به ـ خصوصاً مع إيحاءات تشارلى المتعاطفة ـ كان أكبر من الغفران. بل كان تكفيراً وارتياحاً.

لم أدر مطلقاً إن كانت مارلينا كانت على علم بالأمر أم لا ـــ فقد كان هناك الكثير من الشواغل بالمعرض فى تلك اللحظة، فلا أعلم ما قد رأته بالضبط ساعتها، ولم أبح لها بالأمر قط. لم أستطع ذلك خشية أن يتغير شعورها تجاه روزى ـ أو تجاهى أنا أيضاً. ربما كانت روزى هى قاتلة أوجست لكننى أيضاً أردت موته.

Amly نهضة العرب

فى بداية الأمر، التزمت الصمت من أجل حماية روزى ــ ولاشك أنها كانت فى حاجة إلى الحماية؛ ففى هذه الأيام لم يكن إعدام الأفيال أمراً غريبا ــ لكن لم يكن هناك أى عذر فى كتمان الأمر عن مارلينا. فحتى لو تغيرت سلباً نحو روزى، فما كانت لتؤذيها أبداً. كان هذا هو السر الوحيد الذى أخفيته عنها طيلة مدة زواجنا، وقد أصبح من المستحيل فى نهاية المطاف إصلاح الأمر. فسر كهذا، يصبح فى مرحلة ما غير ذى أهمية. وحقيقة كتمانك له غير ذات أهمية.

مع استماعه للقصة، بدا تشارلى بين المذهول والقاضى، وكانت راحتى بالغة حين أنهيت حكايتى بأمر الفرار الجماعى، ثم تابعت السرد. أخبرته بسنواتنا السبع فى سيرك رينجلنج وكيف أننا تركناه بعد مولد طفلنا الثالث. فمارلينا بدأت تسأم حياة الترحال ــ أظنها كانت ترغب فى شىء من الاستقرار ــ فضلاً عن تقدم روزى فى السن. ولحسن الحظ، مات فى نفس الربيع الطبيب البيطرى فى حديقة حيوان بروكفيلد بولاية شيكاغو، فكنت أنا البديل الأقوى؛ ليس لأننى أملك خبرة تمتد سبع سنوات مع غرائب الحيوانات، بالإضافة لدرجة جامعية ممتازة، بل لأننى أيضاً قَدِمْت إليهم ومعى فيل.

اشترينا منزلاً ريفياً بعيداً، إلى حد ما، عن الحديقة حيث أمكننا فيه الاحتفاظ بالخيول، لكن الوصول إليه بالسيارة - وهو ما كان أمراً متاحاً - جعله قريباً منا.

أحيلت الخيول للتقاعد بشكل أو بآخر، رغم أن مارلينا والأطفال ظلوا يركبونها على فترات. لقد ترهلت أجسادها مع الوقت، وترهلت سعادتها أيضاً ــ أقصد الخيول، لا الأطفال، أو مارلينا بطبيعة الحال. كان بوبو معنا بطبيعة الحال. وقد تسبب فى متاعب لنا تساوى قدر متاعب الأولاد مجتمعين، لكننا أحببناه مثلهم تماماً.

تلك كانت أيام الشباب، سنوات السعادة! ليالى السهر دون نوم، ليالى الصغار الباكين من حولنا؛ الأيام التى بدا فيها جوف منزلنا كما لو أن

Amly نهضة العرب

إعصاراً قد ضربه، أوقات كان لدىّ فيها خمسة أبناء وشمبانزى، وزوجـ
ترقد فى السرير محمومة. حتى حين كان كوب اللبن الرابع يسكب فـ
ليلة واحدة، حتى حين كان الصراخ الشديد من حول يكاد يفتك بى، أ
حتى حين كنت أذهب لإخراج أحد الأولاد ــ أو بوب، فى حادثة لا
تنسى ــ من مأزق صغير فى قسم الشرطة، كانت سنوات رائعة، كانـ
أجمل سنوات العمر.

لكن السنوات مرت، وفى لحظة بلغنا الهرم. أصبح الأولاد يستعيرو
السيارة للذهاب بها إلى جامعاتهم. والآن، ها أنا ذا، قد بلغت التسعين مـ
عمرى وقد أصبحت وحيداً.

تشارلى، الذى كان مشدوها، كان مستمتعاً تماماً بقصتي. تناول الزجاجه
ومال بها للأمام. وحين ملت نحوه بكأس، طرق الباب. فسحبت يدى
بسرعة كما لو أنها قد لسعت بنار.

انسل تشارلى عن طاولة الجلوس، ومال ناحية النافذة، جاذباً ستارتها
العمودية بإصبعين.

ثم قال: "اللعنة، إنها الشرطة. ماذا جرى يا ترى؟".

"إنهم هنا من أجلى".

فرمقنى بنظرة سريعاً فى صرامة وحسم قائلاً: "ماذا تقول؟".

فقلت له: "إنهم هنا من أجلى". حاولت أن أحافظ على مستوى نظر
باتجاهه. وكان ذلك صعباً ــ فقد أصبت بزوغان العين جراء ارتجاج بالمـ
أصابنى منذ زمن بعيد. فكلما حاولت تثبيت نظرى تجاه شخص ما، زاد
حركة عينى فى كل الاتجاهات.

أسقط تشارلى الستارة واتجه إلى الباب.

ومن جهة الباب، جاء صوت عميق يقول: "مساء الخير. إننى أبحث
عن شخص يدعى تشارلى أوبراين؛ قال لى أحدهم إن بإمكانى أن أجده
هنا".

"لقد وجدته بالفعل. ماذا يمكننى فعله من أجلك أيها الضابط؟".

Amly نهضة العرب

"كنت آمل فى مساعدتك. لقد فقد شخص مسن من داخل إحدى دور الرعاية فى نفس هذا الشارع. ويظن طاقم الدار أنه ربما قد أتى إلى هنا"

"هذا ليس مستغرباً. فالناس من كل الأعمار يحبون مشاهدة السيرك"

"بالطبع، هذا صحيح. المشكلة هى أن هذا الرجل فى الثالثة والتسعين من عمره وضعيف البدن إلى حد بعيد. وقد كانوا يأملون عودته بعد انتهاء العرض، لكن ساعتين قد مرتا بعد انتهاء العرض ولم يظهر بعد. إنهم فى غاية القلق بشأنه".

طرف تشارلى بعينه فى لطف للشرطى ثم قال: "وحتى لو أنه قد أتى إلى العرض، فأشك أنه لا يزال فى محيط المكان. لقد بدأنا ترتيبات المغادرة على الفور".

"هل تتذكر أنك قد رأيت شخصاً بهذه المواصفات هذه الليلة؟".

"بالطبع. رأيت الكثير، فكل العائلات اصطحبوا عجائزهم إلى السيرك".

"ماذا عن عجوز أتى وحيداً؟".

"لم ألحظ حالة كهذه، لكنى أعيد وأكرر أن الكثيرين مروا بنا الليلة. ولم أكن فى صفاء ذهنى كامل فى هذه الأثناء".

أطل الشرطى برأسه داخل العربة. واتجهت عينه نحوى باهتمام واضح فقال: "من هذا؟".

فقال تشارلى وهو يلوح بيده نحوى: "من تقصد ـ هذا؟".

"نعم".

"إنه والدى".

"هل تسمح لى بالدخول قليلاً".

وبعد وقفة طفيفة، تنحى تشارلى جانباً وقال: "بالطبع، دعنى أتشرف باستضافتك".

صعد الشرطى إلى داخل العربة. كان طويلاً جداً؛ حتى إنه اضطر للانحناء. كان ذا ذقن ناتئ وأنف معقوف بشدة. وكانت عيناه قريبتين جداً

Amly نهضة العرب

من بعضهما، كعينى إنسان الغاب. سألنى وهو عن قرب: "كيف حالك يا سيدى؟".

فرمقنى تشارلى بنظرة سريعة وقال: "إن الوالد لا يستطيع التحدث، لقد أصيب بسكتة دماغية منذ سنوات".

فقال الضابط: "أليس من الأفضل له البقاء بالمنزل؟".

هويت بفكى وتركته يرتجف. ومددت يدى المرتعشة نحو كأسى قبل أن يسقط. كان من العار حقاً سقوط الكأس وإهدار الشراب.

فقال تشارلى وهو يندفع نحوى: "عنك يا أبى، دعنى أساعدك." لم اندس إلى طاولة الجلوس بجوارى وتناول الكأس ورفعه إلى شفتى.

مددت لسانى كالببغاء ملامساً به قطع الثلج التى انجرفت نحو فمى.

كان الشرطى يشاهد ما يجرى. لم أكن أنظر إليه على نحو مباشر، لكننى كنت أستطيع رؤيته من زاوية عينى.

وضع تشارلى الكأس ونظر نحوه فى هدوء.

فنظر إلينا الشرطى للحظات، ثم دار ببصره فى الغرفة بعينين ضيقتين. كان وجه تشارلى مجرداً من أى تعبير، وحاولت أنا إظهار الهذيان قدر الاستطاعة.

فى النهاية أمال قبعته وقال: "شكراً لكم أيها السادة. إذا رأيتم أو سمعتم أى شىء، فأبلغونا فوراً من فضلكم. فهذا الشخص لا يمكنه الخروج وحده مطلقاً".

فقال تشارلى: "بالطبع سأفعل. لك أن تتجول بحرية فى أنحاء الساحة، وسأكلف أنا رجالى بأن يكونوا فى ترقب لظهوره فى أى مكان. سيكون أمراً مخزياً للغاية إن أصابه مكروه".

قال الشرطى وهو يعطى تشارلى بطاقة: "هاك رقم هاتفى. اتصل بى إذا سمعت شيئاً".

"بالقطع سأفعل".

Amly نهضة العرب

ألقي الشرطى نظرة أخيرة على المكان ثم سار ناحية الباب وقال "حسناً، تصبحون على خير إذن".

فقال تشارلى وهو يتبعه إلى الباب: "وأنت بخير". وبعد أن أغلق الباب عاد إلى الطاولة. ثم جلس وصب كأسين آخرين لكل منا. أخذ كل منا رشفة من كأسه ثم جلسنا فى صمت.

سألنى أخيراً: "هل أنت مرتاح لما فعلت؟".

"بالتأكيد".

"ماذا عن صحتك؟ ألا تحتاج إلى أدوية معينة؟".

"مطلقاً. ليس بى من سوء سوى شيخوختى. وأظن أنها تداوى نفسها فى نهاية الأمر".

"ماذا عن أسرتك؟".

أخذت رشفة شراب أخرى. وقلّبت ما تبقى فى قعر الكأس، ثم اجترعته. ثم قلت له: "سأرسل إليهم بطاقات معايدة".

نظرت فى وجهه فأدركت أننى أخطأت التعبير.

"أنا لا أقصد ذلك بالضبط. إننى أحبهم وأعلم أنه يحبوننى، لكننى لم أعد جزءاً من حياتهم. لم أعد سوى واجب يقومون به. وهذا سبب مجيئى بمفردى هذه الليلة. لقد نسوا زيارتهم لى".

انعقد حاجبا تشارلى وبدا مرتاباً.

تابعت فى يأس: "إننى فى الثالثة والتسعين. ماذا لدىّ الآن لأخسره؟ ولا أزال حتى الآن أستطيع العناية بنفسى. سوف أحتاج للمساعدة فى بعض الأمور، لكنها ليست تلك التى تظن". شعرت بعينى قد رطبها الدمع فحاولت إعادة هيئة وجهى إلى وضع الصلابة. إننى وحق الله لست ضعيفاً.

"دعنى آت معك. يمكننى بيع التذاكر. يمكن لروس القيام بشىء آخر — فهو لا يزال شاباً. وفر لى وظيفة. مازلت أستطيع العد، ولن آخذ أكثر من السعر المحدد. أعلم أنك لا تدير سيركاً للاحتيال على الناس".

دمعت عينا تشارلى. أقسم بالله إنها قد دمعت.

Amly نهضة العرب

تابعت باستمرار: "إذا قاموا باستضافتي معهم، فبها ونعمت. وإذا لم يحدث ذلك، فإننى فى نهاية الموسم سأتصل بهم وأعود. وإذا حدث خطب ما فى هذه الفترة، ليس عليك سوى الاتصال بهم وسيأتون لأخذى. فما المشكلة فى هذا الترتيب؟".

ظل تشارلى محدقاً فى وجهى. لم أر قط رجلاً بهذه الجدية.

واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة ـ لن يجيب ـ سبعة، ثمانية، تسعة ـ سوف يعيدنى إلى هناك ثانية، ولم لا يعيدنى؛ فليس بيننا سوى أن كلينا من بنى آدم ـ *عشرة، إحدى عشر، اثنى عشر ـ*

قال: "اتفقنا".

"اتفقنا؟".

"اتفقنا. دعنى أعطك شيئاً تخبر به أحفادك أو أحفاد أحفادك أو أحفاد أحفادهم".

نخرت فى فرح وأنا أكاد أهذى من الانفعال. غمز تشارلى بعينه وصب كأسى شراب آخرين. وفى ثانية، كان يميل الزجاجة نحو كأس ثالثة.

مددت يدى وجذبت عنقها: "يحسن ألا أزيد منه؛ فلا أريد أن أثمل فأسقط محطماً فخذى".

ثم ضحكت، فالأمر هزلى ورائع، وما أستطيعه هو أن أمنع نفسى من الانخراط فى الضحك. ماذا بى لو أنى فى التسعين؟ وماذا يضير لو أنى عجوز معتوه ذو جسد متهالك؟ لو كانوا يقبلوننى ويقبلون عقلى الضعيف، فما كنت لأهرب إلى سيرك.

فالأمر كما قال تشارلى للشرطى. هذا هو البيت بالنسبة لهذا الرجل العجوز.

Amly نهضة العرب

ملاحظة للمؤلفة

لقد جاءت فكرة هذا الكتاب بشكل غير متوقع: فى مطلع عام ٢٠٠٣، حيث كنت أستعد لتأليف رواية مختلفة تماماً، حين نشرت صحيفة "شيكاغو تريبيون" مقالاً عن "إدوارد جيه. كيلتى"، وهو مصور كان يتبع عروض السيرك الجوالة فى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين. وقد سحرتنى تلك الصورة التى أرفقت بالمقال؛ حتى أننى اشتريت كتابين عن صور عروض السيرك القديمة هما: *Step Right This Way: The Photographs of Edward J. Kelty* وكتاب *Wonderful: The American Circus as Seen by F. W. Glasier*. وبمجرد أن تصفحت هذين الكتابين، تعلقت بموضوعهما. فتجاهلت الرواية التى كنت قد رتبت لكتابتها، وأبحرت، بدلاً من ذلك، فى عالم السيرك المتنقل.

بدأت بالحصول على قائمة بقراءات مقترحة من أمين الأرشيف فى عالم السيرك، فى مدينة بارابو بولاية ويسكونسين؛ حيث الموطن الأصلى لسيرك رينجلنج. وكانت العديد من هذه الكتب غير متوفرة، لكننى استطعت الحصول عليها من باعة الكتب النادرة. وخلال أسابيع، توجهت إلى ساراسوتا بولاية فلوريدا، كى أزور متحف سيرك رينجلنج، الذى تصادف أنه كان يبيع نسخاً مطابقة لكتبه النادرة للغاية. فعدت لمنزلى مفتقرة إلى عدة مئات من الدولارات وأكثر ثراء بمجموعة كتب لا يمكننى حملها.

وقضيت الشهور الأربعة ونصف الشهر التى تلت ذلك فى اكتساب المعرفة اللازمة لأعطى هذا الموضوع حقه، بما فى ذلك القيام بثلاث رحلات بحثية إضافية (العودة إلى ساراسوتا، وزيارة إلى عالم السيرك فى بارابو،

Amly نهضة العرب

وقضاء عطلة أسبوعية فى حديقة حيوان كانساس سيتى مع أحد ساسة الفيلة السابقين كى أتعلم اللغة والسلوك الجسدى للفيلة).

إن تاريخ السيرك الأمريكى تاريخ حافل وثرى حتى إن التفاصيل الأشد تطرفاً فى خيالى قد استعرتها من حقائق أو حكايات فى تاريخ السيرك (لا يوجد فرق واضح بين المفهومين). من بين هذه التفاصيل عرض فرس نهر ميت بعد حفظه فى الفورمالدهايد، والمرأة الميتة ذات الأربعمائة رطل التى استعرض موكبها خلال المدينة وقد وضعت فى قفص فيل، وأيضا الفيل الذى يفك وثاقه ويسرق شراب الليمون، وفيل آخر هرب ثم تمت إعادته من مزرعة خضراوات بأحد المنازل، والأسد وغاسل الأطباق اللذين حشرا معاً تحت حوض، ومدير السيرك الذى قتل ولف جسده فى قماش الخيمة الكبرى، وغير ذلك من الروايات. وقد أدرجت فى الرواية أيضاً المأساة الفادحة للشلل الذى تسبب فيه الخمر، الذى أودى بحياة ما لا يقل عن مائة ألف أمريكى بين عامى ١٩٣٠، ١٩٣١.

وأخيراً أريد أن ألفت الانتباه إلى فيلتين عجوزتين كانتا تعملان بالسيرك؛ ليس لأنهما أوحيتا إلىّ بحبكة الرواية فحسب، بل لأنهما تستحقان الذكر.

فى عام ١٩٠٣ قتلت فيلة تدعى توبسى مدربها بعد أن أطعمها سيجاراً مشتعلة. فى ذلك الوقت كانوا يغفرون لفيل السيرك قتله شخصاً أو اثنين ـ إلا إذا كان القتيل من الجمهور ـ إلا أن المدرب كان قتيل توبسى الثالث فقرر أصحاب توبسى فى لونا بارك بجزيرة كونى أن يعدموا توبسى على الملأ، لكن إعلان نيتهم شنقها قوبل باعتراض ـ على أية حال؛ ألم يكن إعدامها عموماً عقاباً بالغ القسوة؟ وللتحايل على الاعتراض، اتصل أصحاب توبسى بتوماس أديسون؛ فعلى مدار سنوات، كان إديسون يحاول "إثبات" مخاطر التيار المتردد الذى ابتكره منافسه جورج ويستنجهاوس، لإعدام الكلاب والقطط الضالة علانية بالتناوب مع بقرة أو حصان إذا اقتضت الحاجة ـ لكن ذلك كله لا يماثل مسألة إعدام فيل. وقبل أديسون

Amly نهضة العرب

التحدى. فأصبح الكرسى الكهربى هو البديل للمشنقة؛ حيث إنه وس راه مسئولى نيويورك فى تنفيذ أحكام الإعدام، وهكذا توقفت الاحتجاجات على عملية الإعدام.

وقد اختلفت الروايات فيما إذا كانت توبسى قد تناولت جزراً مضافاً إليه مادة السيانيد وذلك فى محاولة أولى فاشلة لإعدامها أم أنها قد تناولته قبل إعدامها بالكرسى الكهربى مباشرة، ولكن الشىء الذى لا يقبل الشك هو أن أديسون أحضر كاميرا فيديو، وطوق توبسى بأغلال نحاسية وأطلق فى جسدها ستة آلاف وستمائة فولت أمام نحو ألف وخمسمائة مشاهد؛ فقتلها ذلك فى غضون عشر ثوان. وبعد اقتناع أديسون بأن عمله البطولى هذا يدحض فكرة التيار المتردد، دار يعرض الفيلم على الجماهير فى أنحاء البلاد.

والآن إلى ذكرى أقل مأساوية. ففى عام ١٩٠٣ أيضاً، امتلكت إحدى الفرق فى دالاس فيلة تدعى أولد موم وهى من كارل هاجنبيك، الذى ادعى أنها أذكى فيلة امتلكها. وبعد ازدياد آمالهم على هذا الأساس، فزع مدربو أولد موم الجدد حين وجدوا أنهم لا يستطيعون إقناعها بعمل شىء سوى بالسير البطىء فى أنحاء المكان. بالطبع كانت عديمة الفائدة "فكان عليهم دفعها وجذبها من ساحة سيرك إلى أخرى". وبعد مدة، قام هاجنبيك بزيارة أولد موم عند مالكها الجديد، وقد غضب وحزن كثيراً حين سمع من ينعتها بالغباء ــ وكان كلامه بالألمانية. وفجأة خطر للجميع أن أولد موم لا تفهم سوى الألمانية. وبعد هذا الموقف الحاسم، أعيد تدريب أولد موم بالإنجليزية وانطلقت إلى آفاق مذهلة فى أدائها. وقد ماتت عام ١٩٣٣ بعد تجاوزها سن الثمانين محاطة بأصدقائها وأعضاء فرقتها.

وهذا العمل مهدى لروح توبسى وأولد موم ــــ

Amly نهضة العرب

مياه الفيل

حوار مع المؤلفة ٤٢٩
الأسئلة النقاشية للقراء ٤٤٩

Amly نهضة العرب

حوار مع المؤلفة

ديف ويتش هو مدير التسويق والتنمية فى مؤسسة بويلز بوكس. وأول ظهور لهذا الحوار، وبشكل مختلف، كان على شبكة المعلومات الدولية فى موقع Powells.com.©٢٠٠٦Powells.com وقد أعيد نشره بتصريح من الموقع.

ديف ويتش: هل صحيح أنك لم تذهبى قط إلى السيرك قبل بداية بحثك *لكتابة تلك الرواية؟*

سارة جروين: هذا صحيح بالفعل. فلم يكن لدىّ أية ذكريات أو اهتمام، أو علاقة مع أى شخص له صلة بالسيرك. لقد نشأت فى شمال أونتاريو. ولا أدرى إن كانت قطارات السيرك قد وصلت إلى هذا المكان البعيد، وأننى فقط لم أذهب لحضور عروضها. وحتى لو كنت ذهبت، فلا أظننى أذكر ذلك.

ديف ويتش: ما أفضل مشهد رأيته فى هذه العروض؟

سارة جروين: أكثر ما أحببته فى نهاية الأمر هو عرض الخيول.

ديف ويتش: اشرحى لنا بالضبط ما يحدث فيها.

سارة جروين: يظهر شخص، عادة ما يكون امرأة جميلة، مع مجموعة من اثنى عشر حصاناً متطابقين فى أشكالهم، أحياناً يكونون بيضاً، وأحياناً ينقسمون بين الأبيض والأسود. وتقف المرأة مصدرة إشاراتها وضاربة الهواء بسوطها، وتتحدث إليهم بأشياء ويطيعونها.

Amly نهضة العرب

إن لدىّ حصاناً وأظن أنه فاتر جداً مقارنة بما تستطيع تلك الخيول القيام به دون قيود أو سروج.

ديف ويتش: وكانت مارلينا تمثل تلك المرأة *فى الرواية*.

سارة جروين: نعم، الحقيقة أننى بدأت بناء شخصيتها بمجرد أن شاهدت عرضاً كهذا.

ديف ويتش: ذكرت فى ملاحظة بعد الفصل الأخير أن كثيراً من تفاصيل الرواية مستمدة من الواقع، أو من الروايات المثيرة المنسوبة للواقع، ومن ذلك، تلك القصة الغريبة لأسد مذعور اختبأ تحت حوض مطبخ.

سارة جروين: هذا صحيح.

ديف ويتش: وهل اعتمدت فى قصة روزى على قصة حقيقية لفيل؟

سارة جروين: بل عدة أفيال فى الحقيقة. فهناك قصة حقيقية لفيلة كانت تشد وتدها وتتسلل لسرقة شراب الليمون ثم تعود وتغرس الوتد ثانية. وتبدو فى مظهر البريئة، بينما يلوم الرؤساء عمالهم.

ديف ويتش: لايمكن أن يتصور المرء أنك قد بدأت بحثك متوقعة إيجاد كم كاف من القصص الحقيقة لإنهاء الرواية. أم أن هذا ما حدث؟

سارة جروين: كلا، لم يكن الأمر كذلك. كان ظنى أننى سأنجز الأمر كله بنفسى، وبالطبع فإن المضمون الرئيسي للرواية هو من نسج خيالى، لكن كان هناك الكثير من الحكايات الخرافية التى ينبغى تهذيبها وإدراجها فى الرواية. وبعد ذلك يمكن للمرء بعد قراءتها أن يقول: "بلى، هذا يحدث بالفعل".

Amly نهضة العرب

ديف ويتش: هل تحدثت إلى جماهير سيرك أثناء قيامك بالبحث؟

سارة جروين: نعم، فعلت. وقد قادونى إلى عالم أرباب السيرك، وأولئك كان الوصول إليهم أكثر صعوبة؛ فمجتمعهم أكثر انعزالاً؛ لأن هناك الكثيرين ممن يقومون بمطاردتهم. لقد استغرق منى التواصل معهم شهوراً عديدة، لكنى تمكنت من بدء التواصل معهم، وبدأت القصص الواقعية فى الورود إلىّ منهم.

ديف ويتش: ماذا تقصدين بقولك "يقومون بمطاردتهم؟".

سارة جروين: أقصد مؤسسة بيتا (التجمع من أجل معاملة أخلاقية للحيوانات) وذلك لاستخدامهم الحيوانات فى عروض السيرك. ولا أعلم إن كانت هناك جماعة منظمة أخرى تسعى وراءهم لاستخدامهم العجائب البشرية فى عروض السيرك الثانوية أم لا، لكنهم على اتصال بهذا النوع من الجماعات رغم أنهم لا يدلون ببيانات الاتصال بهم بسهولة.

ديف ويتش: كيف تواصلت معهم فى البداية؟

سارة جروين: كنت أبحث عن حقوق نشر الصور فى الكتاب، ولذا كنت أجد الأشخاص الذين لديهم أراشيف للسيرك. وبالطبع لدى أولئك الأشخاص اتصالاتهم. لكن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يقتنعوا بأننى لست مدسوسة من قبل شخص ما لمطاردتهم.

لقد حصلت بالفعل على رقم هاتف أحد الأشخاص كان يؤدى عرضاً ثانوياً. وكان يحتفظ برؤوس بشرية فى منزله. لقد استغرقت أربعة أشهر حتى استطعت الاتصال به، لكن حين حدث التواصل معه، وجدته شخصاً لطيفاً ومتعاوناً بالفعل. كانت تلك الرؤوس منكمشة ومتقلصة. إنه لم يكن فقط يفصل الرؤوس لكنه كان يمتلك مجموعة رؤوس منكمشة.

Amly نهضة العرب

ديف ويتش: إحدى أفضل تفاصيل الرواية عندى لم يكن لها علاقة بالسيرك وهى تلك التى تصفين فيها الفتيان فى معسكرات التشرد: حين ينامون ويخلعون أحذيتهم لكنهم يربطونها إلى أرجلهم. كيف ثقفت نفسك بما يخص فترة الكساد فى أمريكا؟

سارة جروين: لم أكن متأكدة فى البداية من أن هذه الحقبة ستكون زمن الرواية. إن صور السيرك هى التى وضعتنى على طريق الخط الرئيسى للرواية، لكننى بعد ذلك وجدت خطاً جانبياً آخر موازيا عن المتشردين وأدركت أن ثمانين بالمائة منهم كانوا من شباب تحت سن الحادية والعشرين. قد تظن أن المتشردين رجال فى منتصف العمر ذوو هيئة قذرة وملقون على جوانب الطرق، لكن كلا، فقد كانوا غلماناً صغار السن.

ديف ويتش: كثير من الأحداث دار على القطار أو بجواره بالضبط. إنه موقع الحدث الرئيسى بالرواية.

سارة جروين: إن الحياة الاجتماعية لعمال السيرك كانت تحدث بكاملها على قطار متحرك. وحين كانوا يتوقفون بقطارهم، فهم بين بان لهيكل حلبة السيرك، أو عارض على خشبته، أو مفكك له مرة أخرى، ولذا فإن كل أحداث حياتهم كانت تدور مع دوران القطار.

فبمجرد حصولهم على مالك، فإنهم يبدأون عرضهم، ثم ينصرفون. فبينما تهم أنت بالمغادرة من الفتحة الأمامية، يبدأون هم فى تفكيك طاولات الجلوس فى مؤخرة الحلبة ـ وحين ينتهون من ذلك، يصعدون مرة أخرى إلى قطارهم.

ديف ويتش: تحدثت عن الصورة التى ألهمتك فكرة وضع رواية عن السيرك، لكن كيف قررت إدراج قصة من أحد الكتب الدينية؟

Amly نهضة العرب

سارة جروين: لا أذكر بالتحديد لحظة نشوء الفكرة، لكن هذا من أكثر ما يثير إعجابى فى العمل الأدبى، وهى خاصية الطبقات؛ فرواية "ذا ستون أنجل" لمارجريت لورانس مثلاً تحمل فى عرضها طبقة أخرى كاملة. وهذا يعد تقليداً قديماً فى الأدب الإنجليزى. ولن تنقص هذه الطبقة من خط الرواية الفعلى إذا كنت تجهل وجودها أصلاً، لكنى رأيت من الممتع وضعها لأولئك الذين يستطيعون إدراكها.

ديف ويتش: لم يتم تأليف الرواية دون تحديات. فلكى تنهيها، حبست نفسك فى دورة مياه.

سارة جروين: لقد انقطعت مرتين ولمدد طويلة أثناء كتابة هذه الرواية. الانقطاع الأول دام ثمانية عشر أسبوعاً. وحين انقضى كنت قد أنهيت نصف الرواية. بعد ذلك اتصل بى أحد المسئولين فى الكتابة التقنية التى أقوم بها وقال: "لدينا عقد قصير للكتابة مدته من ثلاثة إلى أربعة أسابيع، فهل ترغبين؟". بالطبع، أرغب فهو مصدر سهل لجنى المال.

لكن المدة القصيرة هذه تحولت إلى أربعة أشهر بمتوسط عمل يومى بين عشر ساعات وإحدى عشرة ساعة فى اليوم، وذلك للكتابة عن قواعد البيانات بصيغة SQL وملفات بيانات بصيغة MXL، وكان ذلك أمراً شاقاً بالفعل. وقد استنزفنى ذلك تماماً، وواجهت صعوبة كبيرة فى استعادة عقلى لشخصيات الرواية. كنت قد انقطعت عن الكتابة وفى ذهنى ما يقارب من ستة عشر خطاً دراميًا ضاعت هباءً. وحين كنت أتسوق فى موقع إى باى وأفحص بريدى الإلكترونى، كنت أجد مليون سبب يمنعنى من إتمام الكتابة. وهذا ما دفعنى لأمر الحبس فى دورة المياه. لقد تطلب الأمر منى ساعة ونصف داخلها لكى أتحول بعقلى من عالم الواقع إلى عالم الخيال.

Amly نهضة العرب

ديف ويتش: بالعودة لموضوع الكتابة التقنية، هل فكرت فى الكتابة الأدبية قبل رواية "رايدنج ليسونز"؟

سارة جروين: تماماً، لقد درست الأدب الإنجليزى لأصبح كاتبة. لقد كنت أكتب منذ كنت فى سن السابعة. وقد ملأت روايتى الأولى ثلاث كراسات تدريبات مدرسية؛ وكانت تحكى عن حصان خيالى ظهر فى الحديقة الخلفية للمنزل، وجدته فتاة، فركبته وقفزت به حواجز الحديقة. إن الكتابة كانت دائماً رغبتى.

وقد تخرجت وحصلت على درجة جامعية فى اللغة الإنجيلزية. فماذا بظنك قد أعمل بدرجة فى اللغة الإنجليزية؟ فاتجهت للكتابة التقنية. أحببت العمل ـ كان ممتعاً فى الواقع ـ لكننى وزوجى كنا نتحدث دوماً عن تقاعدى مبكراً من هذا العمل ومحاولة الخوض فى كتابة الأدب، فلربما نجحت فى ذلك.

فى ذلك الوقت كنت أعمل فى الكتابة التقنية لدى شركة برمجيات إحصائية، فأنهيت عملى بها. وبينما كنت أجمع أوراق سيرتى الذاتية، قال لى زوجى: "هل حاولت القيام بذلك الآن؟". فقلت له: "هل أستطيع؟"، فقال: "لنجرب ذلك مدة سنتين أو خلال كتابين، فإذا لم ينجح الأمر، عدت ثانية للكتابة التقنية".

ديف ويتش: وهل استغرقت التجربة سنتين؟

سارة جروين: بل استغرقت كتابين. فقبل أن أكتب رواية "رايدنج ليسونز"، كتبت شيئاً أسميته "ماى درور بوك".

ديف ويتش: وهو الكتاب الذى لن يراه أحد.

Amly نهضة العرب

سارة جروين: لقد هددنى زوجى بأن يبيعه إذا مت. وإن لم أمت فلن يراه أحد بالفعل.

ديف ويتش: وهذا سبب وجيه لكى تحيَىْ من أجله.

سارة جروين: نعم. بالإضافة إلى أنه مفكك تماماً لدرجة لا أراه معها يصلح للنشر.

ديف ويتش: مؤخراً كنت أوجه للناس السؤال التالى: إذا كنت واضعاً فى صالة مشاهير الكتاب الخاصة بك مجموعة كتاب يمثلون كل عقد، فمن تضع، ومن أهمهم؟

سارة: فى الغالب سأكون مختلفة فى اختياراتى، فقد كنت أهوى روايات الحقبة الفيكتورية حتى فى سنوات مراهقتى.

ديف ويتش: حسناً، فهذه إذن صالة مشاهير سارة جروين.

سارة: نعم إنها كذلك، كتاب الحقبة الفيكتورية. يأتى من كتاب القرن العشرين "دى. إتش لورانس" وبعض الكتاب الكنديين. و"درويس ليسنج" مؤلفة رواية "ذا بلاك مادونا"؛ إننى أحبها بشدة. و"مارجريت أتوود" موجودة بالطبع فى صالة مشاهيرى وكذلك "يان مارتل".

ومنذ مدة وأنا أعاود قراءة "ذا أدفنشرز أوف هاكلبيرى فين"، محاولة إعادة اكتشاف هيمنجواى. إنه اختيار دورى فى الحقيقة؛ ففى كل عقد غالباً ما تختار نفس الأسماء لكن مع إضافة أسماء جديدة.

ديف ويتش: وضعت جاكوب فى إطار رجل عجوز تجاوز التسعين من عمره يستعيد ذكريات مجنونة فى ماضيه. إن كل المقالات النقدية التى تناولت كتبك، أثنت على طريقة معالجتك للشخصيات المتقدمة فى السن.

Amly نهضة العرب

سارة جروين: إننى أحب رسم شخصيات ذات عيوب. إننى أستخدم طريقة كل الخطايا مع جميع الشخصيات. والناس، لسبب ما، يكونون أكثر غفراناً لخطايا الشخصيات كبيرة السن، لكن أخطاء شخصيات الثلاثينات، والأربعينات من العمر تلمسها إن اقتربت من هذه الشخصيات. وشخصية "آنيمارى" فى سلسلة "رايدنج ليسونز" هى كذلك بلا شك ـــ لقد كانت نيتى أن يشعر الناس برغبتهم فى خنقها أحياناً.

ديف ويتش: كيف تعاملت مع حبكة الرواية؟ هل حددت وأنجزت شكل القصة بتفاصيلها أولاً أم تركت ذلك لحين المراجعة؟

سارة جروين: بالنسبة لتلك الرواية ـ وقد كانت أول عمل تاريخى أقدمه ـ فقد قمت بكل بحثى أولاً. فقد كنت فى حاجة لأشعر بأننى على علم تام بمادة الكتابة.

إننى أكره التحديد، وأكره المحددات. أكرههما للغاية.

إننى دائماً ما أكون على دراية بما ستئول إليه ذروة الرواية، لكن لا أكون على دراية بآلية ذلك. وأزيد الأمر سوءاً بعدم معرفتى بكيفية الخرج من الذروة. وحين أصل لمرحلة الخروج، يصبح الخروج أمراً حتمياً. إننى فقط أدفع نفسى نحو الكتابة، وأكتب كل يوم وأنتظر لأرى ما سيجرى.

ديف ويتش: هل ساعدتك خلفيتك السابقة فى الكتابة التقنية، أم كانت عائقاً؟

سارة جروين: لقد كانت تدريباً رائعاً لى؛ لسبب واحد، وهو أنها علمتنى كيف أجلس وأواصل الكتابة لمدة ثمانى ساعات فى اليوم. الأمر الآخر، أنها علمتنى ألا آخذ تعليقات التحرير الصحفى على محمل شخصى. فأول مشروع تعليمى لى سلمته للنشر منذ عشر سنوات عاد إلى وقد غطى تماماً

Amly نهضة العرب

باللون الأحمر. فوصل بى الأمر إلى حد البكاء. ولو كانت كتابة أدبية لكان التعليق أسوأ من ذلك بألف مرة، لكننى لم أعد آخذ الأمر على محمل شخصى بعد هذه الواقعة.

وقد أثبت لى هذا النوع من الكتابة أننى كنت قادرة على إنتاج عمل بهذا الحجم. ولأننى عملت فى هذا المجال طويلاً، رغم أننى لا أقوم بالتجديد، فإنه أكسبنى فهماً عميقاً للبناء الدرامى، أين ينبغى الصعود ومتى يجب الهبوط، وغير ذلك. لقد كان تدريباً جيداً لى بالفعل.

هناك شيء آخر: لقد تحررت الآن فى قدرتى على استخدام الصفات ثانية. ففى الكتابة الفنية يريدون دائماً إزالة كل كلمة لا لزوم لها. وفى كل يوم، يذكرونك بأن كل كلمة تكلف فى ترجمتها للغة الواحدة أربعين سنتاً. وقد مكثت أسبوعين حتى تخلصت من هذا القيد.

ديفويتش: هل اقتربت وتعاملت بشكل شخصى مع الأفيال أثناء بحثك؟

سارة جروين: حدث ذلك فى حديقة حيوان كانساس سيتى، لقد راقبت تعامل الأفيال مع سائسيها السابقين لمدة يومين، وكتبت ملاحظات عن اللغة والسلوك الجيدين لها. وقد تعودت لفترة أن أتوجه نحو سائسى أفيال فى السيرك وأقول: "مرحباً، إننى أؤلف كتاباً. هل لى أن أقابل فيلك؟"، وقد حالفنى الحظ بالموافقة مرتين.

كانت المرة الأولى مع ذلك السائس فى حديقة كانساس سيتى والذى أصابه ناب الفيل فى السابق. فقط طعنه فيل بنابه طعنة فى الفخذ، وأخرى فى القفص الصدرى وكادت أن تكون طعنة قاتلة، وأخرى فى أعلى ذراعه. وكان ذلك فى ذهنى حين اقتربت. كنت واقفة بجوار ذلك الكائن الضخم وعيناه الكهرمانيتان تحدقان لأسفل باتجاهى، فقال السائس: "تقدمى، يمكنك أن تلمسيها". كنت أرتعد، لكنى لامستها. ثم قلت: "حسناً، ها أنا قد فعلت ذلك".

Amly نهضة العرب

وبعد شهور عديدة، قابلت آخر. كان ذلك فى أحد عروض السيرك الصغيرة التى ترفع لافتة تقول "تذاكر مجانية" وتدخل لتجد كيس الفشار بعشرين دولاراً. تسللت خارجة من خيمة الحلبة الكبرى؛ لأنها كانت صغيرة وسيئة، لكن خلال العرض طلبت أن أرى فيلاً؛ فأعطانى السائس كيساً من الفول السودانى وأدخلنى فى مكان ذلك الكائن وأغلق البوابة. كنت وحدى مع هذا الفيل الأفريقى. كنت أنظر نحوها، وهى تنظر نحوى، لكن ليس هذا جزءاً من تدريبها المعتاد. لذا بدأت فى إطعامها حبات الفول السودانى. وقبل نهايته، أصبحت كائناً فى غاية اللطف فتمكنت من عناقها وتقبيلها، والتقاط الصور معها. وقامت هى بتقبيلى؛ كانت قبلة ضخمة، عابثة، رقيقة بطرف خرطومها.

ديف ويتش: هل تتعاملين مع الحيوانات بكثرة فى حياتك اليومية؟

سارة جروين: إن لدىّ كلبين وثلاث قطط وعنزتين وحصاناً — هذا فضلاً عن ثلاثة أبناء وزوج. حيثما أذهب فالحيوانات حولى، لكن لدىّ، ولسبب ما عش طائر على الشرفة الأمامية، لكنه غالباً ما يتهدم إذا تجاهل ساعى البريد أو غيره من القادمين تحذيراتى بالدخول من الباب الخلفى. وإذا ما فقد أحد الحيوانات، أو ذعرت إحدى القطط فى الجوار، يأتى إلىّ أصحابها على الفور، لعلمهم أننى مجنونة بالقطط.

ديف ويتش: ما شعور الرجال فى بيتك حيال هذا؟

سارة جروين: زوجى يحتفظ بثلاث حيوانات من ابن مقرض، ولذا فهو يملك نفس المزاج الذى لدىّ. إنه يحب الحيوانات، وكذلك الأطفال يحبون الحيوانات. فهم يرون هذه حياة جميلة. وقد تسببت فى وقوع الفوضى بالمنزل كله لكنها فوضى ممتعة.

Amly نهضة العرب

الأسئلة النقاشية للقراء

١. إلى أى مدى استطاعت فصول الرواية التى تتناول هرم جاكوب فى تطوير الفصول التى كانت تستعيد تجارب شبابه فى سيرك بنزينى برازرز؟ وإلى أى مدى ساعدت فصول شباب جاكوب على تقديم فهم أعمق لحال شيخوخته؟

٢. كيف اتسق الاقتباس فى الرواية والمأخوذ من رواية دكتور *سويس* "*هورتن هاتشيز ذا إيج*" مع الأحداث؟ وما هو دور وأهمية معانى الإخلاص والوفاء فى الرواية؟ *وبأى طريقة استطاعت* "جروين" عرض مفارقة بين أشرار وقساة حياة السيرك وبين نماذج الوفاء والرعاية التى تجذب المرء بالقدر ذاته.

٣. بعد قراءة المقدمة، من كان، بظنك، قاتل أوجست؟ وما هو تأثير الفوضى وجريمة القتل التى شهدها أول المشاهد على استقبالك لبقية الرواية؟

٤. بخصوص ذلك العشاء الرسمى الذى جمع جاكوب بأوجست ومارلينا فى غرفتهما بالقطار، ذكر جاكوب فى ملاحظته لأوجست قائلاً: "أوجست شخص عطوف، فاتن، ولعوب"، إلى أى مدى كانت دقة هذا التوصيف لأوجست؟ وهل من إضافة يمكنك إضافتها لملاحظة

قام بإعداد الأسئلة النقاشية للقراء "هال هاجر" من مؤسسة هال هاجر آند أسوشيتس، سومرفيل، نيوجيرسى.

Amly نهضة العرب

جاكوب؟ كيف تصفين شخصية أوجست؟ وأى مشاهد الرواية يعرض شخصيته الحقيقة؟

٥. قال أوجست لمارلينا: "لا يمكن لكل شخص أن يتعامل مع خيول استعراضات السيرك؛ فتلك موهبة ربانية أو حاسة سادسة، إن أردت القول ". لقد أقر كل من أوجست وجاكوب بمهاراتها أو حاستها السادسة فى التعامل مع الخيول. فبأى وسيلة جذبت تلك الحاسة السادسة كلا الرجلين إليها؟ وما هو الفارق بين أوجست وجاكوب على ضوء مقدار الأهمية التى وضعه كل منهما لقدرات مارلينا؟

٦. بعد أن قام جاكوب بإعدام سيلفر ستار، تحدث معه أوجست عن حقيقة واقع السيرك، فقال: "الأمر كله وهم يا جاكوب، ولا ضير من هذا الوهم. فهذا ما يريده الناس منا وهذا ما يتوقعونه". كيف استطاعت جروين عقد مقارنة بين عالم الحقيقة وعالم الأوهام فى روايتها؟ وهل هناك من خطأ فى استغلال حاجة الناس للأوهام؟ ولماذا ترغب فى تلك الأوهام التى يعرضها لنا السيرك؟

٧. فى حديثه عن ملاحظاته وقصصه التى لا تلفت انتباه أولاده، قال جاكوب الهرم: "إن قصص الحقيقة قد انتهت صلاحيتها الزمنية. فماذا فى حديثه عن الأنفلونزا الأسبانية، أو ظهور السيارات، أو الحرب العالمية، أو الحروب الباردة، أو حرب العصابات، وسبوتنيك ــ لقد أصبح هذا كله جزءاً من التاريخ. لكن ماذا لدىّ غير ذلك لأقوله؟". كيف لنا أن نتعلم تقدير قصص وعبر حياة أسلافنا، ونشجع من هم أصغر منا على تقدير قصصهم ودروس حياتهم هم أيضاً؟

٨. حين نظر لنفسه فى المرآة، قال جاكوب الهرم: "لأرى ذاتى الحقيقية خلف هذا اللحم المترهل"، لكنه زعم ثانية قائلاً: "لا فائدة من النظر ... فلم أعد أنا كما كنت، يا ترى متى توقفت عن أن أكون ذاتى؟".

Amly نهضة العرب

ما هى إجابتك على هذا السؤال بالنسبة لجاكوب أو أى شخص آخر، أو حتى نفسك؟

٩. بأى شكل وإلى أى حد عكست وتعكس ممارسات العم آل المراوغة ـ حيال انهيار سيرك فوكس براذرز ـ ممارسات تجارية معروفة فى أمريكا؟ وكيف لك المقارنة بين ممارساته وممارسات رجال المال والأعمال الكبار الآن؟ وما هى الممارسات البديلة التى تفضلينها؟

١٠. حين استلقى على فراشه، بعد ليلته مع باربرا ونيل، لم يستطع جاكوب انتزاع عقله مما يدور به من رؤى مزعجة وقال: "كلما حاصرت ذاكرتك، ألحت عليك بما فيها". فكيف كانت ذكريات جاكوب الهرم تساند أو تناقض هذه الملاحظة التى ذكرها؟ وماذا لديك من تجارب وملاحظات بهذا الشأن؟

١١. كتب "أوجدين ناش" فى كتابه carnival of animals يقول: "إن الحيوانات أصدقاء مفيدون". على أى نحو كانت روزى صديقاً "مفيداً"؟ وما هو دور روزى فى الأحداث التى تلت حيازة العم آل لها؟

١٢. بعد أن قام جاكوب، بنجاح، بتدريب أوجست على إصدار أوامره لروزى باللغة البولندية، قال: "حين كنت ألاحظ خرير روزى مع حركات أوجست وأرى أن رأيى فيه قد بدأ ينهار، كنت لا أجد مكان رأيى هذا سوى شعور بشع". ما ذلك الرأى البشع الذى كاد يحل محل رأى جاكوب فى أوجست، وكيف يناسب ذلك شخصية أوجست، وعلاقة جاكوب بأوجست، وما الذى يجعل ذلك الشعور "بشعاً"؟

Amly نهضة العرب

١٣. كيف كان شعورك تجاه إلقاء وولتر وكامل من القطار أثناء عبور جسر؟ وكيف ترى سلوك العم آل القاتل "كرجل عاش حياته يظهر غير ما يبطن لتحصيل المال" (عبارة أحد النقاد)؟

١٤. بعد انهيار سيرك بنزيني براذرز "وهروب" العم آل، قال جاكوب: "إنني لم أعد عاطلاً ومتشرداً فحسب، بل عليّ أيضاً رعاية امرأة حبلى، وكلبة يتيمة، وفيلة، وأحد عشر حصاناً" ماذا توقعت لمستقبل جاكوب ومارلينا ــ مع معرض حيواناتهم هذا ــ بعد تركهم السيرك؟ وإلى أى مدى وافقت أو خالفت ذكريات جاكوب التالية مع مارلينا هذه التوقعات؟

١٥. فى نهاية الرواية، قال جاكوب مستغرباً: "وماذا يضير إن كنت فى الثالثة والتسعين؟ ... كان سيدفعنى لأهرب مع سيرك؟". ما الذى تتصورينه حيال تجارب جاكوب الهرم بعد هروبه مع السيرك للمرة الثانية فى حياته؟ وما الذى يعكسه قراره هذا على ما تعلمناه عنه فى سنواته الأولى؟

١٦. قالت سارة جروين إن العمود الفقرى لروايتها هو إحدى القصص الدينية. ففى ليلته الأولى بعد ترك كورنيل، قام جاكوب مثلاً، بما قام به نظير اسمه فى القصة حين قال: "استلقيت على الضفة وأرحت رأسى على صخرة منبسطة". على أى نحو آخر توازى هذه الرواية تلك القصة الدينية؟ وكيف تعكس أسماء كثير من الشخصيات بالرواية أسماء شخصيات ذات دلالة دينية؟

١٧. حسب تعبير أحد النقاد، فإن تلك الرواية "تكشف... الفخامة المثيرة للشفقة التى كان عليها السيرك فترة الكساد الكبير". فعلى أى نحو وإلى أى مدى تصف عبارة "الضخامة المثيرة للشفقة" ذلك العالم الذى صنعته المؤلفة فى روايتها؟

Amly نهضة العرب

تيرنس دبليو. بيلي

سارة جروين هى مؤلفة الروايتين الأفضل مبيعاً: *Riding Lessons* and *Flying Changes*. وهى تعيش فى شيكاغو مع زوجها وأطفالها الثلاثة وأربع قطط وعنزتين وكلبين وحصان.

Amly نهضة العرب

Amly نهضة العرب

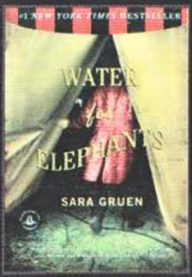

- أفضل المبيعات طبقاً لصحيفة لوس أنجلوس تايمز
- أفضل المبيعات طبقاً لصحيفة وول ستريت جورنال
- أفضل رواية لعام ٢٠٠٦
- أفضل المبيعات طبقاً لصحيفة يو. إس. إيه. توداى

«جذابة... ومفعمة بالحيوية.»

ـ تشيكاغو تريبيون

«مبهجة.»

ـ ذا دنفربوست

«متعة تبعث على البهجة.»

ـ ريتشموند تايمز

«خصبة... وعاطفية.»

ـ بيبول

«قادرة على الإدهاش لأبعد الحدود.»

ـ ذا كنساس سيتى ستار

«فاتنة.»

ـ مينابولس ستار تريبيون

«آســرة.»

ـ ذا تورنتو جلوب أندميل.

«تملك القدرة الكاملة على إسعاد القراء.»

ـ إنترتانمنت ويكلى

«سوف تضل الطريق وسط هذه المفاتن القديمة لعالم «جروين» الذى بحثت كل تفاصيله الدقيقة، بداية من عروض الفروسية المزركشة وخيام العروض الجانبية الرخيصة وحتى ليلة مشئومة بإحدى حانات شيكاغو».

ـ صحيفة واشنطن بوست

«إنها رواية جديدة أخاذة... رسمت بين مدير عرض خبير بالتوقيت، (جروين)، التى احتفظت بالكشف المذهل للغز حتى الصفحات الأخيرة من الرواية، محولة لمحة صغيرة من التاريخ الأمريكى إلى قصة رائعة».

ـ ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو

داخل الكتاب يوجد دليل للأسئلة النقاشية للقراء ومميزات أخرى خاصة

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
... not just a Bookstore ... ليست مجرد مكتبة

6 281072 058616
282204323